سرديات

فوضى الهويّات

بورتريه واحد لوجوه متعدّدة

حوراء النداوي

دار الرافدين

فوضى الهويّات

بورتريه واحد لوجوه متعدّدة

فوضى الهويّات

بورتريه واحد لوجوه متعدّدة

حَوراء النَداوي

Chaos of Identities

One Portrait for Multiple Faces

By Hawra Al-Nadawi

الطبعة الأولى: مارس ـ آذار، 2025 (1000 نسخة)

Copyright@Dar Al-Rafidain2025

(C) جميع حقوق الطبع محفوظة/ All Rights Reserved

حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافةً نابضةً بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخةً أصليةً من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أيٍّ من أجزائه بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتّاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القراء بالكتب.

بغداد ـ العراق/ شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 9647811005860/+9647714440520+

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين

daralrafidain
dar.alrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 749 - 04 - 4

فوضى الهويّات

بورتريه واحد لوجوه متعدّدة

حَوراء النَداوي

www.daralrafidain.com

الفهرس

المسافات..11
البدايات..21
التجلّيات..29
بين هذا، وذاك..39
الدنمارك51
قانون «يانته»..53
السردية الأولى61
مصطفى المعلم.. ضابط الجيش ذو البصر الحديد61
السردية الثانية95
عائشة ــ زينب الجيزاني.. ذاتٌ مشطورة تحت حجابٍ واحد95
السردية الثالثة121
سرور الصرّاف.. هشاشةٌ غير قابلة للكسر121
السردية الرابعة159
سورِن ڤيلَموس.. الآخَر بعيون المواطَنة159
السردية الخامسة177
سارة جمال الدين.. رقصة الروح المعانِدة177
السردية السادسة211
شيرين (آن كرستين) خانكان.. المعمَّدة بالماء مرتين211
العودة إلى كوبنهاغن سائحة..242
العراق245
عن بغداد، المعشوقة التي لم أعرف...245
جدار في الرأس..249
السردية السابعة263
علاء قحطان.. مسرح الوجوه ذات الألف قناع263
السردية الثامنة275
أحمد ساجت شريف.. ابن لحضارةٍ أطفَأت مصابيحَها275
السردية التاسعة293
نورا القيسي.. دم صابئي في العروق 293
السردية العاشرة305
أسامة النعيمي.. ظهير أيسر في لعبة موت305
السردية الحادية عشر327
نور علي زيدان.. طفولة الأمَل المؤجَّل327
السردية الثانية عشر351
سام حيدو.. المصلّي للعشق، بين كنيسة ومِئذنة351

الاستدلالات..367

حَوراء النَداوي

سردياتٌ متنوّعة بشأن معاني وتشكّلات الذات والهوية

بين الشرق والغرب

إلى نشأت ووولديَّ،

شَمم ودُنى

«ليس بلد بأحقِّ بك من بلد، خير البلاد ما حملك»

الإمام عليّ ابن أبي طالب (ع)

«I begyndelsen var isen - derpå kom indvandrerne»

«في البِدء كان الثلج.. من بَعدهِ، جاء المهاجرون»

Benny Andersen

(شاعر دنماركي)

المسافات..

منذ الطفولة وأنا مولعة بالـ «ماذا لو؟!»، لو أن حدثاً ما لم يقع، ما الذي كان سيحل بدلاً عنه؟ لو أن أبي لم يتزوج من أمي واختار امرأة أخرى، ترى هل كنتُ سأكون؟ لو أنني كنتُ أطول بخمسة سنتيمترات فقط، هل تُراني كنتُ سأعيش بحلم أن أصبح عارضة أزياء، أو لاعبة كرة سلة؟ لو أنني سكنتُ في الشارع المحاذي لشارعنا، هل كنتُ سأحظى بأصدقاء أفضل؟ هل كان بإمكاني تجنب الجار البغيض، ذلك الرجل الذي لاحقني بتعليقاته المتنمرة، كلما سنحت له الفرصة؟

أم أن الحياة/القدر/الكون، كانوا سيتفننون بجعلي أعيش الخبرات ذاتها، وألتقي الأشخاص ذاتهم بطريقة ما؟

لو أنني ولدتُ خمس سنوات قبل، أو بعد ولادتي الفعلية، ما الذي كان سيفرق في نشأتي، وحياتي، وشخصيتي؟

لو أن مدرّسة اللغة الدنماركية التي كانت شديدة معي، درّست الصف الآخر، هل كانت طبيعتي ونظرتي لذاتي لتتغير؟

لو أنني جُنِّبت ملاحظاتها اللاذعة التي عاشت معي عمراً طويلاً، وأتذكرها كلما مر بي موقف أو صادفني ظرفٌ، هل كنتُ لأصبح أقل نقداً لذاتي وللآخرين؟

ماذا لو أن قرارات كانت لتبدو عادية، مثل العيش في مدينة معينة، أو اختيار كلية ما، قد غيّر مسار حياتي ودائرتي الاجتماعية؟ ماذا لو أن فرصة ضائعة في الماضي، مثل عدم قبول عرض عمل معين، أو عدم الانضمام إلى ناد معين، قادتني إلى مسار حياة مختلف كلياً؟

أسئلة قد تبدو ساذجة، تعقبها أخرى تكاد تكون مخيفة، مصيرية ومقلقة! فلو أن أسرتي لم تغادر العراق بعد حرب الخليج الثانية مباشرة، ونشأتُ في التسعينيات من القرن المنصرم تحت رحمة حصار اقتصادي خانق، وحروب تركت بصماتها الدامية على طفولتي، ودكتاتورية تغذي في داخلي «أسابيع كراهية» متتالية ومستمرة، تماماً كما في رواية أورويل «1984»، هل كنتُ سأعيش ذات الطفولة والمراهقة؟! طفلة تعيش في ضاحية من ضواحي كوبنهاغن الهادئة، أقصى أمانيّها المهدورة، أن تسمح لها والدتها بالذهاب وحيدة إلى مركز المدينة بغية زيارة مكتبة معينة، كانت تزخر بكتب عربية أكثر بكثير من تلك التي اعتادت زيارتها في حي Brøndby Strand.

لو أن الانتقالات والانعطافات المصيرية، لم تحدث، كيف كانت الحياة لتتشكل؟ ومن كنتُ تراني سأكون؟!

أتخيل طرقاً مختلفة كانت ستصادفني، وبدل أن أجُدّ في السير عبر الطريق المباشرة، أتخذ قراراً مفاجئاً بالانعطاف يميناً مثلاً، فيتغير كل شيء. يتغير الطريق، والمسافة، والمناظر على الجانبين، والبشر الذين أقابلهم؛ وتتغير حالتي وطبيعتي، ونظرتي لكل ما حولي، فلا أعود تلك التي كانت ستستمر في طريقها الأول.

ثم أتخيل لو أنني التقيت بنفسي السابقة، تلك التي لم تكن لتكون أنا، نفسي التي بقيت في مكانها العمر كله. نفسي التي فضلت أماكن الراحة مثلاً عوض المجازفة، فأجد بأني بالكاد سأتعرف إليها، شكلاً وموضوعاً! لا شيء يجمعنا سوى بضع تفاصيل صغيرة لمن يرغب بالتركيز. أما الوجه العام، فهو يشير إلى امرأة غريبة كلياً. شخصيّتين لا علاقة لإحداهما بالأخرى، ونمط حياة مختلف، ولعله على النقيض من الآخر.

من هذا المنطلق، وبسبب مثل هذه التساؤلات، قررتُ العمل على هذا الكتاب، ونقل سرديات كان بوسعها ربما، أن تكون سرديتي، لولا أن القدر اختار لتسلسل الأحداث أن يتدرج على نحو متفاوت معي، وبنحو مختلف مع الآخرين الذين كان بالإمكان أن يعيشوا ظروفي، لولا حركة ما، قرار ما، سبب ما، مزاج ما، غيّر من مصائرهم، تماماً مثلما غير مصيري، ودفعني لأكون هذه التي أنا عليها اليوم.

* * *

في منتصف العشرينيات من عمري، بدا لي أنني قد انتهيت من التأقلم مع هويتي المهجنة؛ وصور لي غرور الشباب، أني قد اكتشفتُ التبعات الأساسية لهوياتي الفرعية المتداخلة. كان ذلك يحدث تدريجاً بعد تطورات تراكمية عديدة جلبَتها السنوات؛ وبعد خيبات أمل وتخبطات وضياع تام، بين هذه الملامح وتلك. وحين عرفتُ بأني أتلمس الطريق لاكتشاف مكاني الفعلي، وخريطتي الهويّاتية الخاصة جداً، اكتشفتُ بأني أقف في منتصف دوائر متداخلة، تتباين في المسافات والأبعاد، كلها مختلفة عن بعضها تماماً، وما يجمعها أو يقربها، ويجعلها تتداخل، هو أنا! أنا وحدي القاسم المشترك بين هذه العناصر المتفاوتة جميعاً. فما الذي سيجمع جغرافيا الصحراء بجبال كردستان، وملوحة الأرض العراقية بسهول اسكندنافيا الثلجية، ليضعها في خلّاط إدراك استثنائي، فينتج عنها عصارة لا تشبه غيرها؟!

ما الذي سيجعل هذه العناصر المتباعدة، تتداخل وتتماهى غيري أنا مثلاً، ككائن متحقق ومميَّز، بفعل هذه الملامح والخلفيات المتنافرة؟! ولولا وجودي الهجين، هل كان للثقافات هذه ان تمتزج ببعضها على هذا النحو؟

أن تقضي طفولة تقرأ لأندرسن[1] ولندغرين[2]، بلغاتهما الأصلية أو اللغة الأقرب، بينما تقرأ لنجيب محفوظ ورفاقه من كلاسيكيات الأدب العربي، في ذات الوقت، بلغتهم الأصلية أيضاً؛ وان تجتمع مثل هذه العوالم المتباعدة تحت سقف غرفتك الصغيرة جداً، المطلة على فسحة شبه خضراء تحيط بها الأحراش الكثيفة، من دون أن تتطفل هذه العوالم المختلفة على بعضها البعض. وذلك حتى وإن باغتك الخيال بقدراته الضعيفة التي لم تُمرَّن بعد، واستقبلتْ صوره المبتذلة بسعادة استثنائية؛ فتهيأت لك شوارع «القاهرة»، في رواية زقاق المدق، وكأنها دروب صغيرة، رُصَّت أرضيتها بطابوق مقرنص ناتئ، بينما تبدو للبيوت إطلالات خشبية، ويعلو سقوفها قرميدٌ أحمر. تلك هي قاهرة اسكندنافية الملامح قطعاً، لكن كيف لك أن تتخيل ما هو أقرب للواقع، وواقعك معبأ

بالتفاصيل والصور ذات الملامح الشمالية العتيقة؟! ثم كيف كانت لتختلط ملامح القاهرة بإسكندنافيا من الأساس، لولا أن الصور تتخذ أشكال سريالية في ذلك الرأس الصغير؟! رأس مراهقة مهجنة الهوية والثقافة واللسان؟

كيف يمكن أن تضغط أصوات مروان خوري، فريد الأطرش، هايدة ومهستي، عبد المجيد عبد اللّه، كاظم الساهر، مع كيم لارسن ومايكل جاكسون، وفرق مثل الباك ستريت بويز، وان سينك، وسبايس غيرلز؟ كيف يمكن أن تجمع هذه المتضادات الغنائية والفنية في قرص مدمج واحد؟ كان ذلك يحدث في قرص مدمج أصنعه بنفسي، لأنني ملولة، وأكره النمطية وكل ما هو متشابه. ولذا فإن قرصي لا يباع في الأسواق، لأنه ليس محض ذوق مختلف ومتنوع، أنه خارطتي الهوياتية والقدرية والمعرفية والثقافية بل وحتى الذوقية، وبعضه خارطتي الجينية أيضاً.

البطاقات الفرعية، تتشكل بِبُعد المسافة أو قربها، بين هذه الصفات وتلك، ببعد المسافة عن الأشخاص والأحداث؛ ببعد الماضي عن الحاضر، ببعد أو قرب الاضداد والمترادفات. هكذا، كلما اقتربتُ أو ابتعدتُ عن أمر ما أو تفصيلة معينة، كانت خارطتي تتبدل وتتشكل على نحو فريد، لاكتشف مع الوقت، أنني مصنوعة من مجموعة من المسافات، طويلة كانت أم قصيرة، متباعدة أم قريبة؛ فحتى جوهري، والنواة التي في داخلي، تتغير وتتموضع على نحو فريد، بفعل هذه المسافات.

* * *

بعد أن كتبتُ روايتي الأولى، (تحت سماء كوبنهاغن)، بثيمة أساسية هي الاغتراب واضطراب الهوية، من وجهة نظر الجيل الأول والثاني من المغتربين، ظننت بأني قد انتهيت من التفكير في الهوية المزدوجة ومتاعبها، وأن تلك الصفحة من حياتي قد طويت، بعد أن واجهت مخاوفي وتحدياتي تجاه ما يكونني. إذ وضعتُ معرفتي واستقبالي للأشياء في تلك المرحلة، في رواية طويلة كتبتها في مطلع العشرينيات من العمر، كمحاولة ربما لمواجهة الواقع، غير أنها لم تكن سوى محاولة لمواجهة ذلك المستوى من الإدراك فحسب! إذ أن العديد من المفاهيم الجديدة، بالإضافة إلى أنواع ومستويات أخرى من الوعي، كانت في الانتظار، بعد أن ظننتُ أن متاعب الهوية قد ألقيت خلف ظهري.

كنتُ في الرابعة والعشرين، ومزهوة بالمعرفة، وبالرشد الذي بالكاد قد بدأت تعتاده البصيرة ويألفه الوجدان، ولا سيما بعد مرحلة المراهقة المشوشة، التي غادرتُها منذ سنوات قليلة فقط. لم أكن أعلم حينها، أن الوعي، في هذه الفترة من الشباب يكون خادعاً في بادئ الأمر، مثل ضوءٍ ساطع يخطف الأبصار للوهلة الأولى، فصوّر لي الغرور أني قد تغلبتُ على الماضي بالطرق المتاحة، ولا سيما بالكتابة؛ حتى جاءت مرحلة الثلاثينيات، حاملة معها نضجاً مختلفاً، ووعياً جديداً وتحديات متباينة، بالإضافة لقلق وجودي وحشيّ التصادم مع كل ما نشأتُ عليه.

نبهتني تلك المرحلة، بأن حتى الحلول والطرق السابقة في معالجة الأمور، لم تعد نافعة كلياً، فما كان أمامي إلا محاولة ابتكار طرق جديدة. سرعان ما أدركت أن فهمي لذاتي، اليوم، بات منوطاً بفهمي للآخرين قدر الإمكان، ولم يعد ما يبعث على الانشغال أو يثير التساؤلات نابعاً مني فقط؛ ولا هي مسألة أعالجها بيني وبين ذاتي، فأدركتُ أن العديد من الأسئلة التي تراودني، لن أجد أشباح إجاباتها لوحدي. ومتى ما عثرتُ على بعضها، فلن أترك صداها يتردد في الصدر والوجدان، مثل أنين مكتوم. وكما يقول الإسكندنافيون، كان عليّ إزاحة النظر عن أرنبة الأنف، لأطالع الآفاق المتنوعة بألوانها وأطيافها المتعددة أمام عيني، وذلك بعد أن قضيت سنوات عديدةً أرى العالم بظِلال محدودة من الألوان. فكان القرار بأن أتناول الأمور من زوايا مختلفة ومتنوعة أيضاً.

كان لا بد من استكشاف كل تجربة حياتية، للأشخاص الذين أشترك وأياهم ببُعدٍ ما، بلغة جامعة، بأواصر عرقية أو ثقافية، بذكريات طفولية صاقلة للشخصية؛ والأهم هو هؤلاء الذين أشترك وإياهم الأوطان، مهماً كان مفهوم هذه الأوطان، أو شكلها، أو حتى المذاق الذي تتركه في النفس، كبصمة على الروح لا يمكن محوها. لهذه الأسباب وغيرها الكثير، كان هذا الكتاب، وكانت هذه الوجوه المتنوعة التي وجدَت طريقها إليه. كل تلك الوجوه التي كان بوسعها أن تكون وجهي، وتلك العصارات التي كان بوسعها أن تقطر خلاصاتها داخل الروح، بكل تلك التجارب والقناعات الثابتة والمتحولة معاً؛ والتفاصيل التي عمِلتُ على تغييرها المسافات، مهما كانت المسافة هيّنة، ومهما كان الحدث هاماً أو تافهاً. بعض هذه الوجوه كان بإمكانها أن تحل محل بعضها بعضاً، وفق تغييرات طفيفة لربما. هذه الشخصيات المصقولة بالصقل المكاني، الحضاري أو الثقافي، كان متيسراً لها أن تكوِّن وتَخلُق شخصيات أخرى تماماً، وكان بإمكان أجزاء منها أن تكوِّن جزءاً راسخاً من شخصيتي على سبيل المثال، أو شخصية أي فرد آخر ممن ذكروا في الكتاب، لولا تلك الانعطافات القدرية التي غيّرت من المصير، والأسلوب، وحتى المظهر الخارجي. لولا أن الأمر الفلاني لم يحدث، أو القرار ذاك لم يُتخذ!

لولا أن القدر، أو الحظ، أو التوفيق، سمّه ما شئت، لم يلعب ألاعيبه التي يصعُب تفسيرها!

اخترتُ شخصيات الكتاب على نحو شبه عشوائي، ليقدموا سردياتهم الخاصة. بعض الشخصيات في هذا الكتاب من أصدقاء الطفولة، وبعضهم الآخر أعرفه معرفة تتنوع بين جيدة إلى سطحية؛ وآخرين أعرفهم بالاسم لكنني اتبعتُ حدسي، إذ شعرتُ ان باستطاعتهم ان يضيفوا ولو كلمة، ستكون مُعينَة على تفسير بعض الجُمل الحياتية المبهمة. لم أتعمد سوى قيمة واحدة تجمعهم، وهي معرفتي بأنهم إنسانيون، وانهم من جيل شبه واحد، وأعمارهم متقاربة. عدا ذلك لم أهتم بأيديولوجياتهم، أو خلفياتهم، أياً كانت، وحاولتُ ألا أعيد استجواب شخصيات متشابهة. وإذ سيلاحظ القارئ أن ليس ثمة نسقاً ثابتاً لاختيار الشخصيات. لم أقصد أن يكونوا من طائفة معينة أو توجه معين، لكنني لم أتعمد مسألة اختلاطهم أيضاً، فتنوع واختلاف بعضهم، سواء عرقياً أو طائفياً، اكتشفتُه غالباً على سبيل المصادفة، وفي أثناء الحوار.

بالإضافة لذلك، لم أهتم بتقسيم الأدوار جندرياً، إذ سيرى القارئ أن الشخصيات من الدنمارك، أغلبها نسائية، وقد يبدو هذا الأمر خاضعاً لما تحمله هذه التفصيلة من إشارة، بكون المرأة في الدنمارك لها قدرة أكبر على التعبير عن نفسها دون خجل أو وجل؛ فلم يحدث أن رفضت أي من الفتيات الدنماركيات، اللواتي فاتحتهن بموضوع الكتاب، الانضمام إليه. في مقابل المرأة العراقية التي كانت تتخوف وتتردد من الموضوع برمته، ومن فكرة البوح الصريح، وتطلب حذف بعض الكلمات أو الفقرات. ترددت بضع فتيات، ووافقت أخريات، على ألّا أذكر أسمائهن، وهو ما لم أقبل به، بطبيعة ما يقترحه الكتاب من الأساس؛ وهو أن تكون السردية الشخصية واضحة وصريحة، لا مجرد قصص مجهولة، لشخصيات مستترة. ثم حدث أن استبعدتُ بعضهن، لأنهن كن يخفين أكثر مما

يعلنّ، ولازمهن الخوف والقلق، فأتت سردياتهن مرتبكة وغير مترابطة، أو حذرة جداً ولم تضِف عمقاً للكتاب. وذلك على الرغم من قناعتي الشخصية، بأن لكل إنسان سرديته التي تستحق أن تُكتب وتُروى، مهما كانت بسيطة أو خفيفة. غير أن كتاباً كهذا، لن يحتمل عدداً غير مألوف من الشخصيات، ففضلتُ الأهمَّ على الـمُهِم. وعلى هذا النحو انتهى تقسيم الشخصيات العراقية، عدد أكبر من الذكور، وأقل من الإناث، والعكس بالنسبة للجانب الدنماركي، وذلك من دون سابق ترتيب. لكنه ربما يعد دليلاً واضحاً على أن المجتمع الذي تنشأ فيه النساء في ثقافة تدربهن جيداً على حرية التفكير، والتعبير، سيفرز القابلية على البوح والصدح؛ في مقابل المجتمع الذي يعد الأنفاس، ويراقب الكلمات التي يتفوه بها المرء، وإذا ما كانت صحيحة ومناسبة وفق النسق الاجتماعي والقيمي والثقافي، بل والسياسي أيضاً.

من خلال الكتاب سيبدو جلياً أن بعض السرديات متداخلة مع سرديّتي الخاصة، وذلك بحكم أن بعض هذه الشخصيات من أصدقاء الطفولة، ومعارف مقربين، بيننا حكايات وتفاصيل قد تحمل إضاءات مثيرة. وحين أبدأ النص باسمي من داخل السردية، فهذا يعني بأني قد غادرتُ صوت الشخصية وسرديتها، لأنتقل إلى التعليق بأفكار أو أحداث تخصني.

وقد يكون من اللافت للانتباه هنا، أن سرديات الشخصيات العراقية، على وجه الخصوص، تبدو مختلفة من حيث التدخل الشخصي. هذا الأمر لم يكن قراراً اعتباطياً، بل جاء نتيجة فهمي لطبيعة هذه السرديات، حيث تأخذ طابعاً أكثر استقلالية وعمقاً، بعيداً عن تعليقي المباشر، وكأنني أفسِح لها المجال لتتحدث بأصواتها الخاصة دون تأثير، سيما وأنني وإياهم لا نتشارك ثنائية الغرب والشرق/ العراق والدنمارك.

من هنا، قد يشعر القارئ بأن رحلته بين السرديات هي أشبه بالتنقل بين عوالم متعددة؛ بعضها يحمل ملامح حميمية وقريبة، حيث يظهر صوتي وتدخلي بوضوح، وبعضها الآخر يميل لأن يكون أكثر استقلالية وتركيزاً على الشخصيات بحد ذاتها. هذا التباين هو جزء من تجربة الكتاب، ووسيلة لخلق توازن بين الحميمي والموضوعي، وبين التأمل الشخصي والنقل الحيّ لأصوات الآخرين.

ساعات طوال من الحوار والحديث المسترسل وأحياناً الاستجواب، كانت الأساس لاستخراج هذه السرديات، ولذلك فإن طولها أو قصرها، عمقها أو بساطتها، نابعٌ من الرؤية التي تخصني ككاتبة. فالكاتِب في هذه الحالة، يكون تماماً مثله مثل المخرِج، له عين راصدة وزاوية رؤية تخصّه وحده، مهما حاول أن يكون أميناً في النقل وموضوعياً. فدور الكاتب لا يقتصر هنا على كونه مجرد وسيط، بل يمتد لكونه صانع رؤية، وهو يقدمها من خلال وجهة نظره الخاصة، ولهذا فهو قادر على إعادة تشكيل الواقع لتحويله إلى سرد ماتع، يثير المشاعر ويحفز الأفكار. وتماماً كما يقوم المخرج بتوجيه عدسته لالتقاط زوايا معينة، كذلك يفعل الكاتب، فيختار بعناية ما يَنقله وما يُهمِله، وكيف يقدِّم الشخصيات ويرسمها، وذلك بما يضيء عليه أو ما يبقيه غامضاً ومجهولاً.

البدايات..

أهكذا نتكوَّن؟

في البدء كانت الرحلة.

منذ النبضة الأولى، وقبل أن يغمرنا نور العالم الذي سوف نفضي إليه.

منذ الدَقّة الأولى لذلك الناقوس الذي سيقرع مع كل صورة ستُأطّر وتسكن في الذاكرة إلى الأبد.

من هنا مر فلان، هنا عاش وهنالك قَضى.

في البدء، وقبل ان تُعلَّق علينا الملصقات الاجتماعية والدينية والقيمية والطائفية والعرقية والوطنية والمذهبية، وغيرها الكثير مما نعرف أو لا نعرف.

في البدء، كانت الرحلة التي لم نكن لندري إلى أي جحيم أو نعيم سوف تلفظنا.

في البدء كنا جميعاً لا ندري. تائهين، غافلين. لا نعرف أي فقاعة ستستقبلنا لنعيش فيها العمر كله!

أي قوالب هي تلك التي ستشكل عقولنا؟ تراها ستكون مدورة، مربعة أم مثلثة؟ هل ستكون حادة ومتطرفة في زواياها أم لينة وطيعة، منحنية ومتقبلة ومتداخلة؟

بهذا التأزيم يبدأ طريق الحياة، ويستمر في سفرٍ وترحال لن ينتهيا إلا بمغادرتها. وكانت الرحلة الحتمية والأولى لي قد انتهت، حينما وضعتني والدتي في مستشفى النعمان في الأعظمية ببغداد، لتبدأ بعدها رحلة تليها أخرى، كلها اتخذت أبعاداً وأشكالاً متنافرة. من رحلة السجون البعثية التي قضت أسرتي فيها العام ونصف العام تقريباً حيث تشكّل مراحل الوعي الأولى، والخطوات الأولى، والكلمات الأولى، في سجن يعج بالنساء ذوات الأحكام الخاصة والسياسية. ثم الرحلة العراقية القصيرة، حيث خرجتُ من سجن الرشاد إلى السجن الأكبر.

العراق بلد الحروب منتهية الصلاحية التي سرعان ما سيستبدلها بأخرى. سجون داخلها سجون، تتفرع منها سجون. حروب تفرِّخ حروباً، طوائف تكره أخرى. وقدري أن ولدت في طائفتين مغضوب عليهما من النظام الحاكم في ذلك الحين، فوالدي عربي شيعي، ووالدتي كردية شيعية أيضاً ما يعني ان الغضب عليهما ومنهما كان مضاعفاً. كيف تجرأ كلاهما على أن يأتيا بي إلى هذا العالم؟ كيف تضعني أمي في هذا البلد الذي يكرهني قبل أن أولد؟ حتى اليوم أتساءل عن سر هذه الجرأة، وانعدام المسؤولية، والثقة غير المبررة بالحياة؟ هكذا ولدتُ في العراق البعثي، مثل يهودية ولدت في ألمانيا النازية مطلع الأربعينيات. مجرد كائن طفيلي، لا يستحق الحياة والعيش، سرعان ما سيتم التخلص منه، ان لم يكن بالطُرق المعهودة والمعروفة فبأخرى. ان لم أمت في حرب، فلا بد أنني كنت سأعيش ميتةً بالعزلة، أو بالإقصاء والتجهيل، مواطنة من درجة غير معرَّفة، لكنها قطعاً من الدرجات الأقل حظاً.

غادرت أسرتي العراق بعد ان اقتنعت أخيراً ان لا حياة لنا فيه، بعد سلسلة من الملاحقات والاعتقالات التي طالت والدي والأسرة، فوصلتُ إلى الدنمارك بعد رحلة استغرقت عامين أو أقل بقليل، تنقلنا خلالها من دولة لأخرى.

كنتُ في السابعة تقريباً، وكان يوماً مشمساً على غير العادة، هو ذاك الذي استقبلتني به كوبنهاغن، وأنا أطأ بقدمي أرضها للمرة الأولى. ولا بد ان تلك الرحلة القصيرة قد علّمت في داخلي، رغم أنني لا أذكر تفاصيلها كلياً. لا أذكر الطائرة التي أقلتني من موسكو إلى كوبنهاغن، والسويعات التي قضيتها على متنها؛ الوجبة التي تناولتها، والنظرات التي أطلقتها من شباكها الصغير وأنا أحلق عالياً فوق الأرض. لا أذكر شيئاً من هذا كله، ربما لأنها مثل رحلتي الأولى، وولادتي الأولى، لم تترك ذكرى، لكنها في نهايتها تركتني أنا، معلقةً بين الأرض والسماء. نوعاً هجيناً، صنفاً بشرياً لا تميَّز أصوله وقيمته، أو حتى نمط الكرامة أو التقدير اللذان سيعامَل بهما، من مجرد نظرة خاطفة، كما قد يحدث مع غيري. فشكلي لا يوحي بجنسية محددة أو عرق واضح، وغالباً ما أثار حيرة الناس ممن يقابلونني للمرة الأولى، فلا أترك انطباعاً واضحاً عن المكان الذي انبثقت منه جذوري. بشرتي بيضاء باهتة، وقد ولدتُ بشعر بني فاتح سرعان ما تحول إلى الأسود الفاحم ما أن تخطيتُ السبعة أعوام، مع عينين داكنتين وملامح مذ بدأت تستقر، حتى افتُضحت بكونها لا تشير إلى عروق صافية، تلك الطاهرة من «دنس» الجينات المختلطة. فكان دائماً عصياً أن تميَّز أصولي من شكلي فحسب، سيما وانني اتحرك في معظم سنوات حياتي بين دول وثقافات لا علاقة لها بجذوري.

بعد سنوات طويلة وبدافع الفضول والمعرفة، سأكتشف أن هذه الملامح هي صنيعة خلطة شيطانية استغرقت عصوراً طويلة من طلاسم ترعرعت في أرحام جدات سابقات، وأصلاب رجال تنوعت خلفياتهم وأصولهم، ما بين الجزيرة العربية والقوقاز وفارس وغيرها. فها أنا ذا أكتشف بفضل العلم، أنني أتمتع بخمس وعشرين بالمائة فقط من جينات عرب الجزيرة، التي ظننتُ بأنها ينبغي أن تكون أكثر من ذلك، بسبب والدي الذي لم أكن لأتوقع بأن له أصولاً مختلطة بغير العربية، ولذا لشد ما تفاجأتُ من هذه النسبة التي عددتُها ضئيلة. ثم أثارت خيالي جملة ذُكِرت مع جين معين، إذ تقول بأن هذا الجين قد حمله رجال ظهروا من الجزيرة العربية لينشروا لسانهم السامي في العالم. أنا من نسل هؤلاء الرجال حقاً؟! أتخيلهم كما في الأفلام ينهبون الصحراء على ظهور أحصنتهم، ليحطوا رحالهم في بلادٍ غريبة وبعيدة، ثم ينشروا هذه اللغة الباهرة المترفة، هذه اللغة التي أسرتني منذ المراحل الأولى لطفولتي، رغم بعدي عن منابعها. هل تراني عشقتُها بأثر ما نالني من تلك الجينات البعيدة؟ وهل ثمة جينات خاصة للحب والكراهية؟ هل أحبَّت جدة لي اللغة العربية فورثتُ عنها حبها لها؟ ربما كانت هذه الجينات لجدٍ عاش في القرن التاسع الميلادي مثلاً، في نجد أو الحجاز. أو لعله قد عاش في البصرة أو الكوفة، أو حتى اليمن أو ساحل عُمان؟! لعل جدي هذا كان شاعراً عاشقاً مثل مجنون ليلى، وقد تزوج امرأة لا يحبها بعد أن باعدوا بينه وبين حبيبته، فجئتُ أنا بعد مئات السنين، لكن من نسل تلك المرأة التي لم تكن حبيبة.

أو لعله كان قاطع طريق محترف يمارس نشاطه على طريق الحرير، يُغيْر على القوافل لسرقتها ويسبي ويغتصب النساء، لكنه يخفي جانباً ليناً فيه، يودعه صبره وقلة حيلته، وقلقه الوجودي العجيب الذي تتآكل له روحه، أمام هذه الدنيا التي لا قدرة له على استيعابها؛ فيجد نفسه لهذه الأسباب ربما، يَركنُ إلى لغته الجذلى، والى الأشعار والحكايات، كلما تسنّى له ذلك. وربما كان هو نفسه يقول شعراً بين الحين والآخر، دون أن يسمَّى شاعراً، فقط يجد أن ذاته متخمة بكلمات تأتي منغمة ومموسقة بإيقاع ينقر في وجدانه، ولا يجد في نفسه القدرة على كبحها، فتفلت من لسانه، كما لو كانت شعراً!

قد يكون ترك نطفةً في رحم امرأة أغارَ على قومها ذات ليلة مقمرة، تلك النطفة صارت جنيناً ثم جاءت طفلاً نُسِب لرجل آخر، لكنها نطفته هو، وسوف تكبُر ومن ثم تتناسل لآتي أنا بعد سنوات طويلة، طويلة، أحمل أثراً منها. من جينات قاطع الطريق ذاك، المحب للشعر!

ثم لما لا تكون تلك الجينات متحدرة من امرأة، فليست الأصلاب وحدها ما شكل خلطتي؛ فلربما ورثتُ جينات حب اللغة العربية هذه من جدة متمردة وثائرة، فصيحة تعبر عن نفسها نثراً وشعراً. ولأني لست مطالبَة حتى في خيالاتي، بأن أظهِرَ تواضعاً تعلمته بحرفنة، وأمارسه بحكم العادة بتحكم نادر في المشاعر والأعصاب، فأنني بغرور غيرِ جليّ أتخيلها امرأة استثنائية، حرة وقوية الشكيمة، وذات بصيرة نافذة. لكنها قد تكون في الواقع أي نموذج آخر، إذ من المرجح أن تكون مجرد امرأة عادية، عاشت وماتت دون ترك أثر، أو حتى مجرد ذكرى تُستذكر بها عند نسلها القريب. ثم لم تُراني لا أتخيلها خادمة أو سبيّة أو حتى أمَة، عند سيد يتمتع بجسدها متى ما شاء، أو عنّ له ذكرها بين عشرات من الجواري والإماء؟

يبدو أن غروري وبشريتي، وتلك الأنا المتضخمة، يأبون إلا أن يجعلوا من أسلافي عظاماً وذوي بأس ورِفعة؟ تماماً كما نفضل أن نشعر على نحو جماعي أيضاً، فلا يَذكر الناس إلا الممالك والحضارات العظيمة، وتجدهم يتبجحون بكونهم أبناء الأكاسرة والأباطرة والفراعنة والملوك والأسياد، وغيرهم ممن حفظهم التأريخ لسطوتهم وقوتهم؛ لكن ماذا عن البسطاء من الناس في تلك العصور؟ أليس لهم أنساب وأنسال نتحدر منها جميعاً؟ أليس بيننا من كان من بين أجداده الأقدمين عبداً تشوي السياط ظهره؟ من ذا الذي جاء من نسل فلاح سومري، قضى عمره كله يعلف الأبقار ويروي الأرض على ضفتي الفرات؟ من ذا تراه من نسل عاملِ بناءٍ مصري، قضى تحت صخرة ضخمة وهو يبني هرماً؟ سيفخر أحفاده بعد آلاف السنين بالفرعون الذي دُفن تحته، معتبرينه جدهم، لا به هو العامل المنسيّ! ومن ذا من نسل عاهرة باعت جسدها لكل من اشترى، وقذفت بطفل إلى الطريق على حين غرّة، لتعاود عملها بمثابرة واجتهاد؟

تقول خريطة الجينات أنني عشرون بالمائة هذا وثلاثون بالمائة ذلك، لكن الخلطة العجيبة هذه لشد ما أدهشتني وهي تشير إلى مناطق شعرتُ مسبقاً بأن رابطاً روحياً يسحبني باتجاهها من أعماقي، حتى قبل أن أعلم بأني أنحدر منها قبل عشرات بل وربما مئات من السنين. يؤكدُ تحليل الجينات مثلاً، أن أجداداً لي يتحدرون ــ من ضمن مناطق أخرى ــ من قونيا وشيراز، وذلك قبل أقل من مائتي عام. ابتسمتُ وأنا اتذكر حافظ وسعدي، اللذان سبق أن زرتُ قبريهما في شيراز قبل بضع سنوات. تذكرتُ الجبال الجميلة ذات القمم البيضاء المحيطة بالمدينة؛ سحر شيراز الشهير ودلال نسائها الذي يبدو بأنه لم ينلني منه أثَر، عبر ممر السنوات الطويل؛ ربما ضاع ضمن خلطة الجينات المتخثرة في دمائي. أهو أمرٌ سريالي أن أكون قد دستُ على موطئ قدمٍ جدٍ لي في السوق القديم؟ هكذا حدثتُ نفسي وأنا أتعجب من هذا الاكتشاف!

أما تلك الإشارة إلى قونيا التي تضم مولانا وآثاره، وشمس التبريزي وقصصهما، فقد ثبتت في داخلي رغبة قديمة في زيارة هذه المدينة والتعرف إلى الجوانب الروحية فيها. هل تُراني لهذا سبق وأن إهتممتُ بالمدينتين، فزرتُ إحداهما وتمنيت زيارة الأخرى، أم أن هذه مجرد صدفة عرجاء ليس إلا؟ فالتحليل يؤكد أيضا أن لي أجداداً ينحدرون قبل قرابة المائتي عام أيضاً، من مدينة تركية تدعى «مالاتيا» لم أكن قد سمعت عنها من قبل، بالإضافة إلى مدن أخرى في القوقاز وحتى بلاد الشام التي أتمتع بنسبة ضئيلة من جينات أبنائها الأصليين، خمسة بالمائة فقط، يؤكدّ التحليل! ثم هل تراني أعشق مصر وثقافتها وتأريخها العريق منذ طفولتي، بسبب النسبة الطفيفة من الجينات المصرية التي وُجِدت في دمائي؟

يذكّرني التحليل بأن لدي نسبة ضئيلة أخرى لما أسماه «أصول ميسوبوتامية»، هذا يعني أن لي جذراً بعيداً في هذه الأرض المسماة بالعراق، أقل من خمسة في المائة بقليل. حتى وان كان مسماراً صغيراً، دَقت أسفينه جدة رافدينية بعيدة الأثر، وهو أمر لم أكن لأتوقعه بصراحة، على الرغم من إمكانية وقوعه. فقد ظننتُ بأن الموضوع أقل تعقيداً، أسرة والدي عربية قحة كما تدّعي مثل كل العشائر القادمة من الجزيرة العربية إلى العراق، واسرة والدتي تظن أيضاً بانها كردية أصيلة دون شوائب دخيلة. ورغم التأكيد الضئيل على «رافدينيتي»، إلا أنني لم أنسَ أن النسبة الأكبر لجيناتي آتية من جبال القوقاز، وتمتد ما بين تركيا وإيران، ومختلطة بخمسة وعشرين بالمائة من جينات الجزيرة العربية، ما يتركني في النهاية هذا الكائن الهجين أصلاً، فصلاً، ثم ثقافةً ولغةً بحكم النشأة.. وبحكم القدر.

* * *

كانت ولادتي الجديدة في كوبنهاغن. وكما في نهاية الرحلة الأولى، استقبلتني تلك النهاية المعتمة مجدداً، تلاها ذلك النور الساطع الذي غمر عينيّ، وبالكاد استطعت فتحهما والتأقلم. ثم صرت أسمعُ كلمات مبهمة بلغة غريبة سأتعلمها. وأرى وجوهاً غير مألوفة سأعتادها. يلفّني هواء خفيف، ونسمات نَدية، كأنّ جلدي لم ينمو من قبل في بيئة مختلفة. وشعرت لوهلة بأنني دخيلة ثم ما لبثت ان عرفتُ ــ وبغريزة البقاء النادرة ــ بأنني سأنجو؛ فذلك هو ديدني مع كل الحيوات المتجددة التي خبرتها حتى ذلك الحين. وإذاً، فإنني حتماً سوف أبقى.

على الرغم من ذلك، فان البقاء يعد مسألة جزافية؛ فقبل ان يستقيم ظهري، ويخشوشن جلدي، وتعتد عيناي الرؤية، مجدداً، لا بل وسريعاً، عُلِّقت عليّ الملصقات الجاهزة. «أجنبية، مسلمة، مختلفة، ناطقة بلغتين، لاجئة، عمالة مستوردة»، إلى آخر تلك الأحكام الجاهزة والصور النمطية، من دون أن يُسمح للطفولة ان تكون مجرَّدة؛ إذ لا حياد في التربية والنشأة، في بلد سيلتهم قيمك الثقافية التي تحاول جاهداً أن تستر بها عوراتك القيَميّة، ليتركك عارياً من ماضيك وتأريخك وأصولك. عارياً من كبريائك وتعاليك، اللذانِ لن يعينانك على أية حال! وهكذا، رافقتني هذه المحنِ المتخفية في شكل فرص جديدة منذ الصغر، والتي كانت تتكرر وتأخذ

أبعاداً وتشكّلات مختلفة كلما غيّر نضجي جلدي. فمن أكون أنا اليوم؟ وكم أختلِف عن تلك الطفلة ذات السبع سنوات، التي وصلت إلى الدنمارك بعد رحلة معاناة في المنافي لعامين مقلقين؟!

* * *

التجلّيات..

لم تكن هويتي واضحة أثناء نشأتي، ولا أدعي بالطبع أن الهويات بحاجة لأن تكون ثابتة أو حتى جليّة، لا سيما في سن مبكرة، غير أني وبسبب تعدد الانتماءات لم أقنع يوماً بأن لي هوية واحدة تشكلني، وهذا الإيمان لم ينشأ في داخلي لأن الوعي كان قد سبق العمر، بل العكس تماماً. فقلة وعيي وادراكي للانتماءات العديدة التي تتشكل منها هويتي، هو ما جعلني مضطربة وقلقة في المراهقة ومطلع الشباب. كان من الصعب أن أفهم من أكون، وكنت حائرة على الدوام ومتخبطة بين هذا وذاك. فأنا مولودة لأب عراقي عربي القومية، من أسرة ذات أصول تعود إلى الجزيرة العربية كما سبق وذكرت، وأم من أسرة من الكرد الفيلية، وهم أقلية ضمن أقلية، فهم من الكرد الشيعة، وغالباً ما يأتي ذكرهم كمعلومة إضافية غريبة؛ فالكرد في العالم غالبيتهم العظمى على مذهب أهل السنة والجماعة، فما خطب حظي الذي أوقعني بين كل هذه التفرعات والانتماءات المتنوعة، والتي تبدو لي وكأنها قد وجِدت فقط لتصعِّب من الأمور ليس إلا؟

أجالس عرباً لا يعرفون تفصيلة كون والدتي كردية مثلاً، فأسمعهم في معرض حديثهم يحقرون من الكرد وينتقصون منهم، والعجيب أنهم لو عرفوا بنصفي الكردي فسوف يحجمون عن التعبير عن تحاملهم. ولا أظن أن في الأمر لياقة أو حتى صوابية سياسية من أي نوع، بل يبدو مجرد إحجام عن المواجهة الصريحة بما يعتمل في النفوس، ولا أستبعد أن يكون بدافع الجبن أو الضعف، فما في النفوس هو ذاته لن يتغير سواء أكنتُ شاهدة على إهاناتهم تلك أم لا، وسواء كنتُ محسوبة على الطرف الآخر أو لم أكن. مع الكرد أسمع ذات النبرة من التعالي والتحامل ضد العرب، بل أن فيها نوعاً من الاستعلاء المتعجرف، الذي يوحي بالأنفة غير المبررة. إلّا أنهم وعلى العكس من الطرف الآخر، لا يخفونها أمامي على الأغلب. ربما لأنهم وفقاً لمكانة المرأة الاجتماعية عندهم ــ وذلك على الرغم من ذكورية مجتمعاتهم ــ يعطفونني على الأم أكثر من الأب، ولهذا يعدونني فرداً أصيلاً منهم، وقد يظنون ببساطة أني أشاطرهم هذه الأفكار العنصرية ضد أهلي من العرب، لأنها بحسب رأيهم واقعية لا تحتمل الجدال أو التساؤل.

في صغري كنتُ أتضايق وأغضب من عدائية الطرفين، ثم حين كبرتُ صرت أسمع الإهانات العنصرية من هذا الطرف أو ذاك دون أن تهتز شعرة في رأسي، ودون أن أتعِب نفسي في الدخول في نقاشات عرقية وقومية لا طائل منها. مع هذا أذكر الآن نقاشاً حاداً مع شخصية عراقية معروفة، رجل عرف بكونه سياسياً إسلامياً أصر بأن من الخطأ أن أعرَّف بأمي، واني عربية خالصة لأني أنسبُ إلى الأب فقط. وزاد على ذلك بأنه لا يوجد شيء اسمه نصف عربي ونصف كردي، في الوقت الذي كان فيه الرجل يتفاخر بنسبه الهاشمي بل ويُعرَّف «بالسيد». قلتُ له: «في هذه الحالة فان نسبك الذي يعود إلى فاطمة الزهراء ابنة النبي محمد(ص)، لا يعتدّ به أيضاً». فرد بسرعة «الأمر مختلف»، لأن نسبه الهاشمي فيه فخر سماوي، وإنكاره أو تجاهله مخالف للسنة والدين. واستمر يعدد الفضائل لنسبه المقدس، والرذائل التي فيها «إشكالات شرعية» بانتسابي لوالدتي، إذ كما هي العادة عند هؤلاء، فان كل نقاش ينتهي بأن تنكب على وجهك في النار ما دمتَ قد تجرأت على المخالفة، حتى في أبسط النقاشات وأقلها أهمية.

بعد سنوات وحين صرت أختلط أكثر بالعراقيين في الداخل، اكتشفت أنهم يُسقِطون أسماء أسرِهم وعشائرهم كي لا تشير إلى انتماءاتهم الفرعية، ويكتفون بأسماء آبائهم كألقاب، لأن اسم الأسرة/العشيرة في العراق، قد يشير إلى المنطقة أو المذهب والطائفة. وبعفوية تامة اخترتُ أن أُعرَّف باسم عائلتي «النداوي»، بدل اسم والدي الحيادي جداً «إياد»، فهو اسم ينتشر بين أغلب الطوائف الدينية في العراق ولا يدل على تحيز صريح، مع أن استخدامه قد يقل نسبياً بين فئات مثل الكرد والتركمان لدلالاته العروبية. كان يمكن لاسمي الكامل ألا يشي بانتماء واضح، لو أنني لم اختر اسم العائلة بدل اسم الأب، لكن هنا يدخل عامل الثقافة المحلية للمكان والبلد وحتى الشارع، والتي كانت تنقصني كلياً. فحتى وان كنتُ عراقية، إلا أني وبسبب نشأتي الأوربية لم أكن أعرف أن للألقاب مثل هذا الوقع، وان الانتماء العشائري يكون محبباً عند فئات تتفاخر بالأصل والنسب، تلك الفئات الشعبوية التي تولي الأهمية للجماعة على حساب الفرد، بينما يكون هذا الانتماء منبوذاً عند الفئات الأكثر عصرية، والتي تعدُّ نفسها أكثر تحضراً وثقافة.

فوجئت مرة بأحدهم يسألني عن مقصدي من استخدام اسم العشيرة بدل اسم الأب. يومها استغربتُ السؤال، وظننته مجرد اهتمام تافه بالسفاسف من الأمور. ثم بدأت أستوعب الموضوع، كلما أشار أحدهم إلى اسمي ببعض الريبة وأحياناً الحيرة، حتى تجلى لي الأمر كلياً، حين أشار ناقد عراقي يوصف بأنه كبير، لرواية كنتُ أصدرتها، على أنها من «سرديات السنّة ما بعد 2003»، فاسم عائلتي «النداوي»، هو لقب لعشيرة معروفة بانتمائها للمذهب السني في العراق. ويبدو ان الأسماء التي تحمل افتراضات طائفية، قد أودت بأمثال هذا الناقد وغيره من الذين لا يقرأون ما ينقدون، ليقعوا في شر افتراضاتهم وتشيئيهم للنصوص والكُتّاب معاً. استند الناقد المذكور على اسمي فقط، دون أن يقرأ الرواية كما هو واضح، وذهب بعيداً في تلميع كلام أطلقه على عواهنه، رغم أنه قد يبدو لمتلق غير ملمّ بأنه نقدي وعميق، بشأن سرديات الطائفة السنية في العراق وتأويلات هذه الكتابات التي انبثقت فجأة بعد 2003، وان هذه الأسماء تُفرَض فرضاً لانتماءاتها البعثية المتأصلة، والمرتبطة طردياً بالانتماء للمذهب السني. الخ.

كان قد فات الناقد أنني شخصياً ابنة لجزء صغير «مستشيع» من عشيرة النداوي، وبأني أحمل في الواقع «صفة» فرعية، مختلفة عن تلك التي عُرفت بها العشيرة وما يفترضه اللقب. وربما عليّ أن أشير هنا، إلى أن روايتي الثانية كانت تتحدث عن أسرة من الكرد الشيعة وهم أقلية، وعن معاناتهم فترة حكم النظام السابق، لكن يبدو أن هذه التفاصيل لم تكن مهمة، فالأسماء والألقاب والفرضيات الجاهزة المعلَّبة لا تحتمل معها قراءة 300 صفحة أو يزيد، من رواية كتبتها امرأة في مطلع الثلاثينيات من عمرها. أي أنها وفق الفرضيات الجاهزة عن النساء في الشرق الأوسط، من الكائنات الأدنى إدراكاً ومعرفة، ويُنظر لها نظرة دونية واستباقية، حتى قبل أن تتقلد منهجاً، أو رؤية، أو تحاول البرهنة عنهما، وعن ذاتها، بأي شكل من الأشكال.

* * *

في أحد الأيام، وبينما كنا في مدينة أربيل (كردستان العراق)، أبلغني زوجي، أننا سنلتقي بعد الظهر بصديقين من الولايات المتحدة الأمريكية، أحدهما كنتُ قد عملت معه لفترة كمحرر، وبيني وبينه رسائل عدة وصداقة امتدت لفترة من الزمن دون أن تهيأ فرصة سابقة للقاء وجهاً لوجه. أما الثاني، فلم أكن قد عرفته قبل ذلك، ويعمل كمخرج.

كان زوجي برفقتهما وأصدقاء آخرين، في مكان عام حين انضممتُ إليهم، ولاحظتُ مذ القيتُ السلام على الرجل الآخر واسمه لوسيان، أن ملامحه تبدو اسكندنافية إلى حد كبير. ثمة شيء في داخلي يتحرك تجاه هذه القسمات لتي كنتُ محاطة بها لفترة طويلة من حياتي، سيما وأنها كانت الفترة الأكثر حساسية وتبصّراً، فترة الطفولة التي تتلمس التفاصيل، وتضع لها الأسماء والأشكال، المشاعر والروائح، لتختزنها في الذاكرة كي تحقق الهدف الأساسي من الحياة، وهو أن تكون ما أنت عليه فالهدف الأساسي من الحياة هو أن تبقى مخلصاً لذاتك، تلك الذات التي شكّلتها ذكرياتك الحاضرة، والتي لا يمكنك الهروب منها أبدًا. لأنك إذا تخلّيت عنها، ستجد نفسك على حافة فقدان هويتك بالكامل. على هذا النحو، تحافظ الذاكرة لك على التفاصيل التي صنعتك، فتظهر لك في الوقت المناسب، مثل إمدادٍ سريع لإعانتك على فهم التفاصيل الحياتية المبهمة، وكي لا تكون تائهاً كلياً لما تبقى من حياتك.

كانت تلك، مجرد إشارة سريعة برقت في ذهني ما أن استقررت في مقعدي، وتجاهلتها دون تردد لانخرط في حوار متشعب، حتى أشار زوجي بشكل عابر، أن زوجة لوسيان، دنماركية! وقبل أن يحار عقلي في المعلومة وارتباطها بملامح لوسيان، صححها هو قائلاً:

«بل أمي من أصول دنماركية».

فقلتُ بسرعة:

«ما يعني أنك دنماركي، وهذا ما يفسر ملامحك!». هز رأسه موافقاً وابتسم.

سألته إن كان يعرف أي تفاصيل عن أصوله تلك؟ فذكر أنه اشترك لفترة في نادي اجتماعي خاص بالأمريكيين ذوي الأصول الدنماركية، وإنه اهتم جداً بالتواصل والتعرف إلى أصوله، عبر هذا النادي. بل حرص أن يرافقه ولده الصغير كذلك. وبعد ان استفضنا قليلاً بالحديث، ذكر لي انه سافر إلى الدنمارك برفقة والدته وأخته، بحثاً عن جذورهم التي تعود إلى قرية في شبه جزيرة «يوتلاند»[3] تدعى «هوي سليف». في بادئ الأمر لم أفهم أي قرية يعني، بسبب لفظه ربما الذي لم يكن واضحاً، سألته «كيف تكتبها»؟ فردد بشيء من الخجل أنه ربما يكون قد نسي الطريقة المثلى لتهجي اسم المنطقة. وعبر الاستعانة بمحرك گوگل توصلنا سريعاً للاسم، فتبين أنها قرية صغيرة تابعة لمدينة «فيبورغ». ذكر بأن رحلته تلك كانت قبل أكثر من عشرين عاماً، وأنه أحس بمشاعر مختلطة آنذاك، لأنها كانت رحلة عاطفية جداً بالنسبة له ولأسرته الصغيرة التي رافقته. إذ لم يعد لهم جذر في المكان بالمرة!

كان المبشرون «بالمورمونية»[4] يحوّلون قرى ومناطق كاملة في اسكندنافيا إلى الديانة الجديدة، ليسفروهم من بعدها إلى الولايات المتحدة. وحدث أن أسرة والدته، قد تحولت بالكامل وهاجرت، فلم يعد ثمة أثر بالإمكان تتبعه؛ حتى أنه ووالدته وأخته، ذهبوا إلى كنيسة المنطقة على أمل التعرف إلى أحد الأجداد من شواهد القبور بغية اقتفاء أثر ما. لكن القبور القديمة كانت بلا أسماء، وما من أحد باق ليتذكر بواقي القبور المهجورة، ولمن تعود؟!

هكذا! وبهذه البساطة، انمحى تأريخ كامل لفئة من الناس، اقتلعوا من جذورهم، لينصهروا كلياً في بلاد قصية. هكذا، تضيع كل العلامات والإشارات الدالة إلى الأسلاف، ولتلك الأصول التي لا تعدّ بعيدة، فذلك الترحيل، وتلك الانتقالة القدرية، حدثت نهاية القرن التاسع عشر، أي قبل أقل من مائة وعشرين عاماً تقريباً، أي ما يعدّ مجرد رمشة عين في عمر الزمن.

في نهاية حديثنا، مازحتُ لوسيان قائلة بأني أكثر دنماركية منه، فضحك وهز كتفيه بتواضع قائلاً: «نعم بالطبع!».

تلاشت الضحكات، وتغير الموضوع، لكنني تمنيتُ لو أنه دافع عن أصوله، ولو أنه حاججني قائلاً: «لست كذلك، أنا الدنماركي!». لماذا استسلم بسرعة وعلى هذا النحو المسالم، وبهذا الخجل، ليتركني للتساؤل والحيرة؟!

أجلس أمام رجل يعلم يقيناً أن له أسلافاً تعود أصولهم لتلك البقعة من العالم، ويحمل جينات واضحة على ملامحه، تؤكد موطنه الأصلي، لكنه يستسلم بسهولة للواقع، تاركاً لي شرف الادعاء. أنا دنماركية الثقافة واللغة والنشأة، وهو دنماركي تنقصه الثقافة واللغة والنشأة، وينتمي بالروح والجسد لأرض أخرى وكيان مختلف! هو يحمل جنسية بلد هجين، استقدم كل أعراق العالم وصنع وطناً كبيراً للمهاجرين الباحثين عن الحياة المثلى، ليعيشوا حلماً أمريكياً عزز من فردانيتهم، لكنه بالمحصلة كان قادراً على صهرهم جميعاً في هذا القِدر الكوني الكبير، وطبَخهم على مهل لكي ينضجوا أخيراً ككائنات منفصلة عن ماضيها، ومتصلة بهذا الحاضر اللعين الذي لا يعرفون سواه حقيقة لهم.

أما أنا، فأحمل الجنسية الدنماركية، كتحصيل حاصل. جواز أحمر اللون. «أحمر كالشوندر»، كما يفضل الدنماركيون وصفه. كنتُ أحياناً ألمح الضيق على وجوه من يقدمونه لي، فاسمي في داخله غريب، وشكلي غريب. ورغم جيناتي ذات المنشأ البعيد، إلا أنني ألوك اللغة في فمي، وثقافة الدنمارك بكل تعقُّدها وثقلها مطبوعة على جلدي؛ وعقلي يفكر ويحلل ويهضم الأمور، تماماً كما علموني في المدارس التي أسس ومهد لها العظيم «غروندفيغ»[5]، فأيُنا في هذه الحالة يعد الدنماركي صدقاً؟ أنا الدنماركية بالثقافة والنشأة؟ أم لوسيان حامل الجينات؟

غير أن الصديق الأمريكي لم يبدو وكأنه يعاني كثيراً من عقدة الأصل أياً كانت، في بلد غالبيته الساحقة من المهاجرين. بينما قد يكون الأمر مختلفاً، بالنسبة للمهاجر الذي يصل إلى أرض جديدة، تستقر فيها شعوب لديها الإحساس الوطني الذي يشدد على كونها صاحبة الأرض والتأريخ والثقافة؛ وهي بذلك ترى أن لها الحق المطلق في رفض من يعتبرونهم دخلاء. ربما لهذا السبب، ستجد تحقيراً وتقليلاً من ذوي الأصول المختلفة، حيث يشعر المواطن الأصلي بالترفع والتعالي على ذوي الأصول المهاجرة، لأنه مقتنع بكونه صاحب المكان، والأقدم فيه، وبالتالي يملك الاستحقاق المطلق لادعاء الأصالة؛ وذلك حتى وإن كان المكان المشار إليه يُعتبر محلاً جاذباً للهجرات الفردية والجماعية معاً، بحكم طبيعته الثقافية أو الاقتصادية أو وموقعه الجغرافي أو مكانته الدينية مثلاً. ومهما تنوعت أسباب الاغتراب والترحل، وتباينت بحسب الجغرافيا والزمن، إلا أنه يبقى ديدن البشرية وأساس تواجدها منذ القدم. ثمة من تضطرهم الحياة أو وتحملهم التجارب والقناعات على الرحيل، بل والاستقرار في المكان الجديد بغية إنشاء أسرة وحياة

كاملة، ستستمر فيما بعد وتورث لأطفال وأحفاد، سيأتون غير عالمين بأصولهم الغريبة عن المكان ربما؛ لكنهم سيستشعرون آثارها، ما أن يشار إليها أو يعيّروا بها، حتى تتناساها الأجيال الجديدة، ويتلاشى «عار» اغترابهم وأصولهم الدخيلة مع تقادم الزمن.

سينشأ طفل في مكان ما من هذا العالم الكبير، مستشعراً بوادر مأزق عظيم استقبلته به الحياة دون أن يعي أنه غارق فيه. سيظن أن العالم كله يتآمر على وجوده، حين تتم الإشارة إلى لون بشرته، أو اختلاف ملامحه، تلك التي تفضحه بين القوم الذين يحاول أن يندس بينهم، على أمل أن يتجاهلوا اختلافه الصارخ. وهو مسكين، لن يفهم، قبل أن يَسأل الأسئلة التي لا تحتمل ردوداً قاطعة. مثل، «أين هويتي؟»، «حسناً، ما معنى هوية؟» تلك التي ما أن تتعقد ستوصَف بأنها أزمة!

حينها فقط سوف يعلم بأنه يعيش في هذا العالم مستعيناً بالأسئلة، حتى وان كانت بلا إجابات، لكنها وحدها سوف تنقذه من الفراغ الكبير الذي سيبتلعه إذا لم ينتبه؛ وكي لا يهيم على وجهه في الحياة دون برهان. دون نبراس أو دليل يصوِّب خطواته التالية.

* * *

بين هذا، وذاك..

في منطقة من الشرق الأوسط، في بلد حار وجاف، ثمة وطن يدعى العراق، يمتد تأريخه لأكثر من خمسة آلاف عام، وهو موطن لعدد من الحضارات التي نشأت عند نهريه العظيمين دجلة والفرات. حضارات مثل سومر وبابل وأكد وآشور، والتي قدمت إسهامات كبرى للبشرية، باختراع الكتابة وتطوير أنظمة معقدة من الحكم والدين. في القرن السابع الميلادي بات العراق جزءاً من الخلافة الإسلامية، فحكمته سلالات إسلامية مختلفة، بما في ذلك العباسيون الذين أسسوا مدينة بغداد، لتصبح عاصمة خلافتهم ومركزاً للعالم أجمع، خلال العصر الذهبي للإسلام. صارت بغداد مركزاً للفلسفة وللعلوم والثقافة واللغة، وقبلة لطلبة العلم من كل بقاع الدنيا، حتى تعرضت لضربة مدمّرة، عندما تم غزوها واستباحتها من قبل المغول الذين دمروا جزءً كبيراً منها، مما أدى لانخفاض عدد سكانها، وتراجع تأثيرها الثقافي في العالم. ثم غزت الإمبراطورية العثمانية العراق وضمته إلى حكمها، وخلال تلك الفترة استعادت مدينة بغداد مكانتها كمركز تجاري مهم يربط الإمبراطورية العثمانية بالخليج؛ وذلك حتى غدا العراق تحت الانتداب البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى وسقوط حكم العثمانيين.

أعلِنَ العراق كمملكة في العام 1921، ونُصّب الملك فيصل الأول ملكاً عليه؛ ثم مر بعد ذلك بفترات عنيفة من عدم الاستقرار السياسي، حتى عام 1979، حين استلم صدام حسين الحكم ليصبح رئيساً للجمهورية العراقية التي حكمها بقبضة من حديد. فأدخل البلاد في ثلاثة حروب، وتسبب بحصار اقتصادي منهك، إلى أن أطاحت به وبحكمه الولايات المتحدة الأمريكية في العام 2003. دخل العراق بعد الاحتلال الأمريكي في دوامة من الصراعات والعنف الطائفي والإرهاب، ولا يزال حتى كتابة هذه الأسطر، يعاني من التداعيات.

في الجانب الآخر من العالم، مملكة صغيرة تقع في شمال أوربا، تحت النرويج والسويد، ومباشرة فوق ألمانيا، مكونة من عدد من الجزر الصغيرة، تدعى الدنمارك. يعود تأريخها إلى عصر الفايكنغ، حوالي القرن الثامن وحتى القرن الحادي عشر. اشتهر الفايكنغ بالملاحة البحرية، والإغارة على الأراضي المحيطة، بما في ذلك إنكلترا ونورماندي، بغية الاستكشاف والاستيطان. وبعد دخول الديانة المسيحية إلى البلاد في القرن العاشر على يد الملك «هارالد بلوتاند»، استمرت الدنمارك بالتطور كمجتمع إقطاعي، في القرون التي تلت. وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر، أصبحت الدنمارك قوة رئيسية في شمال أوربا بإمبراطورية ضمت النرويج وأيسلندا وغرينلاند وأجزاء من السويد، ومستعمرات في بحر الكاريبي والهند. ثم بدأت ثروات البلاد بالتراجع، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فكافحت الدنمارك عدم استقرار سياسي واقتصادي، فقدت بسببه العديد من أراضيها. خلال الحرب العالمية الثانية، احتلت ألمانيا الدنمارك، لكنها شهدت بعد هذه النكسة المفجعة فترة من الإعمار والتحديث. أما اليوم فتعد المملكة الصغيرة، بلداً ديموقراطياً مزدهراً، يُعرف بمستوى المعيشة المرتفع، ونظام الرعاية الاجتماعية، والالتزام بطرق الاستدامة والطاقة الخضراء. وتعتمد ثقافة ومجتمع الدنمارك على تأريخ طويل من الفن والأدب والموسيقى والتصميم، فضلاً عن تقاليد ثابتة وقوية للنشاط السياسي، أهمها المساواة والعدالة الاجتماعية.

بين هذين العالمين، نشأتُ. محمّلة بإرث جيني، عقدي، تاريخي، وثقافي، آت من هذين البلدين المتباعدين. فكان ميراثي الخاص جداً مختلطاً بشدة، وعلى نحو لا يمكن شرحه أو تفسيره لأحد.

ثمة من يؤكد دوماً على المفاضلة بين الثقافتين. بعض من درسوني من أساتذتي الدنماركيين، كانوا ينظرون لي بعين الشفقة، لأن أصولي وثقافتي تفترض فيّ مرتبة ثقافية أدنى، ولذا فإنني بحاجة ليدٍ راعية ومعينة تنتشلني من واقعي المؤسف. أما الأشخاص في مجتمعنا العراقي الموازي، مجتمع الجالية، فكانوا يشددون على التمسك بكل التفاصيل الثقافية القابلة للنسيان. إذ مهما كانت التفاصيل صغيرة وتافهة، فبالتأكيد عليها والتثبيت منها، سوف تحفر عميقاً لتثبَّت داخل الهوية المختلطة. وكلما عودتَّ نفسك على التذكر، كلما ثبتَّ أكثر. وبين شدٍّ من هذا وجذبٍ من ذاك، ضاعت مراهقتي بالتذبذب والحيرة، لكن ذاكرتي لم تعطب كما خوفوني، بل باتت قابلة للاتساع واستقبال تجارب مختلفة وعديدة.

درّبني الوقت على خاصية التحوّل، فتعلمتُ استبدال القناعات، التي كانت في وقت ما راسخة، بسهولة خلع حذاءٍ قديم وإبداله بآخر. كان ذلك بتنشيط التساؤلات الدائمة، التي من شأنها خلق ذهنية نقدية تتعاطى مع المسببات والمعطيات، وتنهج بالتالي مسالك موضوعية. بالفضول والتساؤل شققتُ طرقاً جديدةً في هذه الحياة. بالاستفهام عن أكبر الأمور الخارجية التي تشمل العالم بكل اتساعه. وبأدق التفاصيل الداخلية، تلك التي تخصني وحدي، والتي أرتاب أحياناً من مناقشتها حتى مع ذاتي. بعض تلك الأسئلة أتت متأخرة ربما، لكنها كلما تأخرت أكثر، أحدثت دوياً هائلاً وعصفت بكل ما سبقها من تردد أو ارتياب أو حتى انحياز. ولولا ذلك السؤال المحدد، لكنت حتى هذه اللحظة مدجَّجة بالصواب، وبالحظ، وبكل الامتيازات التي ظننتُ أنني أمتلكها، أو هكذا صوِّر لي.

كان يوماً كئيباً، من خريف كئيب، في مدينة كئيبة مثل لندن. كنتُ قد قضيت بضعة أعوام منقطعة ومنعزلة عن العالم، بعد انتقالي من كوبنهاغن إلى العاصمة البريطانية مع أسرتي، مرغمة. لم أحب لندن على الأطلاق، وما زلت. وعانيتُ كثيراً من رفض هذه المدينة التي كانت علاقتي بها تزداد سوءاً مع الأيام.

أثناء تنقلاتي كنت أقود سيارة صغيرة، لكني يومها بالذات، اخترتُ على غير العادة، الذهاب بالقطار بغية قضاء بضع مهام في وسط المدينة. وكنتُ قد تعبتُ من محاولات إيجاد مواقف مناسبة للسيارات في تلك الأماكن المزدحمة ففضلت المواصلات، لقرب محطة القطار التي تبعد عن بيتنا دقيقتين فقط. كما أنها لم تكن تحت الأرض مثل العديد من المحطات، وفي الغالب لم تكن مزدحمة أيضاً، بل تكاد تُعتبر هادئة، سيما وأن الوقت حينها كان قرابة الضحى. استقللت القطار الذي لم يكن مكتظاً، ولم يغادرني ترددي بعدُ من فكرة الخروج من منطقة الراحة، إذ لم أعتد التواجد بين أعداد كبيرة من الناس، بالأخص لأني أتنقل ما بين البيت والسيارة، كما أن الأماكن التي أرتادها بالعادة مألوفة. حين هبطتُ من القطار في محطة مزدحمة بغية التبديل بين قطارين، بدأت دقات قلبي تتسارع قليلاً ما أن وجدتُ نفسي محاطة بأعداد من الناس، يمرون بجانبي دون حذر أو تريث. بعضهم يمضي سريعاً جداً كأنه شبح يمر من خلالي. يبدون في الغالب على عجلة من أمرهم، وغير معنيين ببعضهم، وكأن الكائنات التي تتشارك معهم المساحة ذاتها، هي مجرد جمادات أو أطياف، فيصطدمون بها دونما مراجعة التصرف أو حتى الرغبة الصادقة بالاعتذار. لم أدرك سر تسارع ضربات قلبي. ربما ظننت في حينها، أنني ألهث من وتيرة السير المتسارعة، التي يرغمك عليها كل من حولك، فاستقللت القطار التالي متحاملة على مشاعر الضيق التي انتابتني، وأخفيتُ في داخلي ندماً على عدم تحركي بالسيارة من الأساس. إذ مهما كانت

السيارة مزعجة في مدينة مزدحمة كلندن، إلا أنها تحميني من هذا التصادم الحتمي مع البشر. هذا التواصل البصري الخاطف، وهذه الابتسامة اللطيفة التي توقعك في حيرة من كيفية ردها، وهذا الثقل النفسي الهائل الذي يطبق على الصدر لمجرد الاضطرار للتعاطي مع الآخرين. مهمة ثقيلة بالفعل، وتعصمني منها السيارة التي أكون فيها داخل فقاعتي المريحة. وها أنا ذا منخرطة في عالم كامل يزحف تحت الأرض في حركة مجدة، كأنهم مجاميع من النمل الدؤوب.

من منطقتنا الهادئة نسبياً، إلى هذه الفوضى التي تجد نفسك فيها مجرداً من كل ما يميزك. للحظات، أحسستُ بأنني شُيئتُ تماماً، وسُلب مني كل ما أعرفه عن نفسي. أنا مجرد وَحدة في منظومة، مجرد كِسرة بين مئات الآلاف من القِطع، ووجودي أو غيابي كلاهما غير مؤثر. حين هبطتُ من القطار في محطة «Bond Street»، وارتفعتُ مع البقية من الركاب فوق الأرض، أصابتني أول نوبة هلع أتعرض لها في حياتي. كان ذلك مع تسارع الأفكار في رأسي، فشعرتُ لوهلة بأنني بلا كيان، بلا جوهر، أو أساس صلب. وحين مشيتُ قليلاً بين جموع الناس، وتعاظم إدراكي بانعدام الجدوى، انبثق السؤال على حين غرة: «ما الذي يميزني عن كل هؤلاء؟، لماذا أنا وحدي التي أفصّل عنهم بكوني مولودة في الدين الصحيح، في المذهب الصحيح، وفق الايدولوجيا الصحيحة، وفي العائلة ذات القيم الأصح؟!» إلى آخر ذلك من صواب وجودي!

صدمني تكاثر الناس من حولي، وإحساسي المتزايد بالعبث، بانعدام أهمية كل شيء، عدا ذلك السؤال الذي ظل يطرق صدري عن الامتياز الانتقائي، هذا الامتياز العضوي الذي يثير سؤالاً متربصاً بالذات: «لماذا، أنا؟!» انتابتني رعشة وضاق نَفَسي حتى لم أعد أقوى على أخذه، وشعرت بالأرض تدور، ولوهلة ظننتُ أنني على وشك الموت، من شدة ضربات قلبي، وتعرّقي.

لا أعرف كم مضى من الوقت، دقائق أم ثوان معدودة ربما، لكنها مرت عليّ ثقيلة وطويلة، وما ان هدأت نوبة الهلع، واستجمعتُ نفسي، حتى عدتُ أدراجي قاصدة البيت مباشرة.

لم تتغير حياتي فوراً بعد هذا الموقف، لكنني لم أنسه أبداً. لم أنس أنني لمجرد الجرأة على التفكير والتساؤل ظننتُ بأني سوف أموت، بينما لبث السؤال شاخصاً! كنتُ في حينها أضعف من البحث عن الأجوبة، وحياتي مزدحمة بالمتعلقات التافهة التي تدعوني للتخلص منها أولاً، قبل إثارة الأسئلة الوجودية ومحاولة النبش فيها. غير أني تجرأتُ على حمله معي مثل تذكار أو تعويذة، أشهرها في وجه كل ما يبدو مربكاً ومقلقاً، أو كل ما هو رخوٌ ويبعث على الاطمئنان. فالأوضاع لا تعني أنك بخير ما دمت في منطقة الراحة، وأنت لستَ بكائن مُنتَخب، تحابيه الطبيعة، والحياة، والظروف، والآلهة. فقم بطرح الأسئلة!

* * *

هل امتلك البشر على مر العصور رفاهية اختيار الموطن دون تحديات جمة؟

وإن كان الاختيار ممكناً، فهل كنتُ سأختار العراق؟ ولو أنني أعطيتُ امتياز اختيار البلد الذي سوف أنشأ فيه بعد مغادرتي مسقط رأسي، في عمر السبع سنوات، هل كنتُ سأنتقي الدنمارك بالذات لكي أعيش فيها؟

بعض الناس يحجمون عن طرح مثل هذه الأسئلة على أنفسهم، لما فيها من تشكيك ربما، ولاعتبارات وطنية أو حتى أخلاقية. إنه لأمر هيّنٌ أن تنشأ ضمن الجماعة، وأن يطالك بعض غرور الذات الجمعية المتضخمة كصفة حتمية تأتي مع مشاعر التفاخر والعُجب القومي والعرقي، غير أنك متى ما نظرتَ إلى الأمور من وجهة نظر فردية وحاولتَ أن تتمتع ببعض الحيادية، فسوف تباغتك كل العيوب المسكوت عنها.

حين غادرتُ منطقة الراحة، وتجردتُ من مشاعر الحنين والارتياح، تجرأتُ على السؤال: «هل كنتُ سأختار الوضع الذي أوجدتُ فيه بمحض إرادتي»؟ كانت إجابتي هي الأخرى مجردة من كل المتعلقات العاطفية، وحاولت أن تأتي صادقة وموضوعية قدر الإمكان، إذ وجدتُ بأنني قطعاً لم أكن لأشطر نفسي بين بلدين وعالمين، وعدد من اللغات والثقافات؛ بل كنتُ على الأغلب سأختار بلداً واحداً، ليكون مسقط رأسي، والمكان الذي سوف أعيش فيه عمري كله، وذلك كي أضمن لنفسي استقراراً نفسياً ومعنوياً. ولكي أيسِّر من الأمر أكثر، كنتُ سأنتقي مجتمعاً متجانساً بنسبة كبيرة، بعيداً عن ضوضاء فوضى الهويات المتنافرة والمعقّدة. ولو افترضنا حتمية انتقاء بلدين بدلاً من واحد، فإنني قطعاً لم أكن لأختار العراق والدنمارك! بل كنتُ سأسهِّل الأمور باختيار ثقافتين متقاربتين قدر الإمكان، كي لا أواجِه الصدامات الشرسة.

لو صنّفنا افتراضاً البلدان النقيضة للعراق، على كافة الأصعدة والمستويات، وذلك بغرض الملاحظة والرصد، فإن الدنمارك ستكون حتماً في أعلى القائمة. فالثقافتان والبيئتان ليستا مختلفتين فحسب، بل هما متنافرتان.

البرد الشديد، مقابل الحر الشديد، عالم صباحي دؤوب ينتهي عصراً، مقابل عالم ليلي صارخ ونهار مهما بدأ متأخراً، إلا أن العراقيين لن يفرطوا فيه بقيلولتهم النهارية المعروفة، التي لم أجد لها مثيلاً حتى عند الشعوب الأكثر شبهاً بهم. الديمقراطية مقابل الدكتاتورية، الفردانية مقابل الجماعة، المينيمالية والبساطة مقابل التعظيم والتفخيم، والى آخره من ثنائيات متنافرة.

الفخامة على سبيل المثال، فضيلة في العراق، وهي تسري على كل شيء لكي يكون مقبولاً أو محترماً؛ من أول أشكال الدور، وحتى أبسط الأمور التي قد تكون تافهة ودون معنى. وتنسحب هذه الميزات على الشخصية العراقية التي تميل إلى التفاخر وتمجيد الذات، بعكس الدنماركية التي تتجه دوماً نحو التواضع والبساطة وإنكار الذات.

غير أن الأهم من ذلك كله هو ديناميكية المجتمع من الداخل، وطبيعته التي تُلقي بظلالِها على التصرف والتفكير والإدراك الفردي. فالوجدان العراقي يعظِّم الجماعة/الطائفة/العشيرة؛ المواطن العراقي يكاد لا يقوى على الحضور الاجتماعي من دون «ظهر» يسنده، إذ يتحرك غالباً كفرد ضمن جماعة، يكون فيها بحاجة إلى عزوة من أعمام أو أخوال، واسم رنان لعشيرة ذات مال أو سلطة أو حتى نسب. بينما تعزز الثقافة الدنماركية من فردانية الإنسان وتؤكد عليها، وتحافظ على الخصوصية الشديدة للأفراد، حتى فيما بينهم وبين أنفسهم. فالفكرة على سبيل المثال، جيدة ومقبولة ما دامت ضمن الحدود الفردانية، لكن لا يحبذ أن يُدعى

لها أو أن تُطبّق على مستوى جماعي. بالنسبة للدنماركيين، فـ «الجَمعُ باطل»، كما قال فيلسوفهم الوجودي «كيركغور»[6]. الجمع قادر على إبطال أي فكرة مهما انطوت على نيات حسنة، ومهما كانت معقولة أو مطلوبة.

ومن هذه الميزة بالذات، يظهر لنا الاختلاف الشاسع بين الكرم العراقي، الذي يكاد يبلغ حد الابتذال بعطاء سخيّ غير معقول، وبين شح الفرد الدنماركي، حيث يمكن أن يدعوك أحدهم إلى منزله، ويسألك أن تحضر طعامك معك. في هذا السياق فإن البخل والكرم ليسا سوى امتداد طبيعي لانتماء الفرد إلى الجماعة أو انكفائه على ذاته. الكرم العراقي المفرط ينبع من الشعور العميق بالانتماء والتماهي مع الجماعة؛ فهو سلوك يعزز الروابط الاجتماعية، ويكرّس مكانة الفرد داخل جماعته، إذ يعكس العطاء السخي فكرة «الظَهر الاجتماعي» الذي لا يستطيع العراقي الاستغناء عنه. هكذا يصبح الكرم وسيلة لتأكيد المكانة وديمومة العلاقة مع الآخرين، حتى وإن بدا مفرطاً أو غير منطقي.

أما الشح الدنماركي، فهو نتاج ثقافة تؤكد على الاستقلالية والفردانية. في هذا السياق، يُنظر إلى الموارد بوصفها ملكاً شخصياً، ويكون توزيعها اختياراً فردياً محضاً لا تقيّده التزامات اجتماعية ولا تفرضه أعراف. الفرد في هذه البيئة يضع حدوده الخاصة، ويُقدّر الترتيبات التي تحمي استقلاله، بما في ذلك الاقتصاد في العطاء، إذ لا حاجة إلى إثبات شيء للآخرين أو تعزيز مكانة ضمن جماعة. ومن هذا المنطلق، يظهر أن الكرم والبخل ليسا مجرد صفات أخلاقية مجرّدة، بل هما تعبير عن ديناميكيات اجتماعية وثقافية عميقة، تتجذّر في رؤية الإنسان لموقعه بين الجماعة والفرد، وفي تفسيره لمعنى المسؤولية تجاه الآخرين.

هنا ينبغي الإشارة والتأكيد على أن الفردانية، وبالرغم من كونها تضمن الاستقلالية والحرية الشخصية، إلا أنها قد تؤدي إلى عزلة اجتماعية، وفتور في العلاقات الإنسانية، بل وحتى الشعور بالوحدة والاغتراب. في المقابل، ورغم ما قد تفرضه الجماعة من قيود والتزامات، إلا أنها توفر دعماً اجتماعياً متيناً، وتعزّز الإحساس بالانتماء. وهكذا، فإن الفارق بين الثقافتين لا يعني تفوق إحداهما على الأخرى، بقدر ما يعكس على نحو جليّ، اختلاف الأولويات والقِيَم التي تشكّل المجتمعات وفقاً لظروفها التاريخية والاجتماعية.

على الجانب الآخر، فإن الدين جزءٌ لا يتجزأ من الهوية العراقية، ويلعب دوراً أساسياً في تشكيل القيم والتوجهات السياسية والاجتماعية، بينما يُعتبر الدين عنصراً ثانوياً في الهوية الدنماركية، حتى وإن كان للبلاد كنيسة رسمية، هي الكنيسة الإنجيلية اللوثرية[7]، إلا أن العلمانية والحرية الدينية تهيمنان بشكل أساسي على المجتمع الدنماركي، الذي يلتزم غالبيته العظمى بالمظاهر الخارجية للدين، أي ذلك الشكل اللطيف والممتع للمسيحية، من احتفالات وممارسات تجمع الأسر وتقرّبها من بعضها أيام الأعياد، عدا ذلك فان نسبة كبيرة من المجتمع الدنماركي لا أدرية أو حتى ملحدة.

القيم الأساسية التي تشكل الهوية الدنماركية هي المساواة، الحرية، الديمقراطية، العدالة الاجتماعية، دعم الفئات الضعيفة وحقوق الإنسان، في بلد يمكن أن يدّعي أنه متجانس إلى حد كبير، حيث لا يوجد تنوع هائل أو ملموس في طبيعة شعبه. وذلك على العكس تماماً من العراق، ذي الهوية المعقدة متعددة الطبقات والتي تشكلت عبر تاريخ متنوع، مليء بالصراعات والتحديات، ليس أقلها تنوّعه العرقي والطائفي، وحتى الثقافي والاجتماعي.

* * *

الدنمارك

إنها كوبنهاغن الجميلة، كوبنهاغن الساحرة. وهل لمدينة غيرها أن تترك ذلك المذاق الحادّ في فمك، وأشهر أكلة فيها هي مجرد قطعة من خبز «الجودار» المرّ، عليها أي إضافة من اختيارك؟ إنه برغم حدّته طعم البساطة، طعم الأمنية والأمل ذو الألوان الهادئة الذي يتراءى لك من بعيد؛ كأنه فتاة طويلة شقراء، تلف نصف وجهها بوشاح من الصوف خشية البرد، وتتخطاك دون أن تلفت انتباهها. إنها المدينة التي تعبق بالروائح الدافئة؛ قرفة، قهوة، لوز محمّص، عرق السوس، عطور أعياد الميلاد المكثفة، شجر الصنوبر، وتلك الرائحة التي تذكرك أن الكون كله ما هو إلّا ِدفة ثلج. إنه عيد الميلاد قادم في كوبنهاغن البهيّة، وستتكفل الأمطار بغسل الشوارع، لتزينها البهجة كما ينبغي. سيقولون: « آه، تلك المدينة الباردة، تلك الجامدة، خالية الروح». هيييي يا هذا! وما تعلم أنت عن روح مدينة لم تطبع فيها خطوات طفولتك؟!».

إنها الذكرى حتماً تلك التي تشخص أمامك لتذكرك بهراء المدن العتيقة وأشباحها الملعونة. إنها كوبنهاغن حتماً، حيث لا مكان لوجهك الغريب فيها حتى وإن سكنتها روحك قبل جسدك. إنه السؤال الذي سيقابلانك به منكر ونكير: « هل كنتَ ستختارها لو أنك أحييت ثم متّ، ثم عدتَ لتحيا من جديد؟ أتراك ستأتي بجواب يحفظ لك ماء وجه حيواتك المتعددة؟».

إنها الشوارع التي تحتفظ بذكرياتك، وتستبقي ابتسامتك الحييّة على جدرانها. هل تذكُرها يا أنت، أم تُراك نسيتها؟! صدّق، أن كل محطات القطار التي مررتَ منها في مساءات الخيبة الأولى، ها قد أحصت لك عثراتك، وضحكت من أخطائك التي لم تنوِ شطبها. بل أن كل جماد في هذه المدينة ما فتئ يذكُر سنتيمتراتك، وهي تزداد الواحد تلو الآخر؛ ووجهك الطفولي، وهو يدخل مراحل تحوله الكافكوية، غير أنك ــ وحمداً للّه ــ حدث أن أمسكتَ بزمام الأمور قبل أن تصير حشرةً كبيرة.

سيقولون لك أنت ابن النخلة في الهور، أنت ابن الجبل الذي من تحته سفح، أنت ابن مدينة فيها نهر طويل وتعج بغبار كثيف، اذكُر أهلك بشيء وحللّ كِسرة من خبز وطنيتك. غير أنك لستَ سوى أنت، ذلك الصغير الذي لفظته العواصم الدافئة، وستمضي في شوارع كوبنهاغن دون أن تحير جواباً، ليغسل مطرها عنك ما علق من الماضي بكل عشوائيته، بينما صوت «كيم لارسن»[8] يأتيك مترنماً من بعيد: «الساعة تدق تدق، الوقت يمضي يمضي، كنا نحيى بالأمس.. تِك تِك.. تِك تِك».

* * *

قانون «يانته»..

لكي تفهم المجتمع الدنماركي، عليك أن تفهم «قانون يانته» أولاً. وذلك لأن أهم ما يميز التعرف إلى طبيعة الحياة في اسكندنافيا، هو القيم الاسكندنافية التي شكّلت المجتمعات الشمالية. إذا ما سألتَ عن القيم الدنماركية فسيُذكر مباشرة، الحرية، حرية التعبير وحرية المعتقد؛ بالإضافة لقيمة التكافل الاجتماعي، والمساواة بشكل عام، وذلك على مستوى الأفراد، والجنسين بشكل خاص. وقد لا نبالغ إذا ما ادعينا بأن أهم ما عبَّد الطريق للقيم السائدة اليوم، حتى بات يعد قيمة أساسية في المجتمعات الشمالية، هو «قانون يانته». ويانته، هو قانون أخلاقي، تغلغل عميقاً وشكَّل طبيعة الحياة الاجتماعية في الدنمارك وجيرانها منذ أكثر من ثمانين عاماً، على خلفية رواية كتبها كاتبٌ ساخط على المجتمع يدعى أكسل نيلسن، والذي غير اسم عائلته فيما بعد فعُرف بـ «أكسل ساندموسه»[(9)].

سنة 1933 صدرت رواية «لاجئ يجتاز خطواته» للدنماركي ــ النرويجي ساندموسه، حيث صوّر فيها مدينة خيالية أطلق عليها اسم «يانته لاند»، والتي يقال بأن ساندموسه كان قد أعاد إنتاجها أدبياً على غرار مدينته «نوي كوبينغ مورس»، التي عاش فيها لسنوات ثم غادرها، إثر عدم تقبله للأعراف والتقاليد السائدة فيها، حيث طبيعة حياة سكان المدن الصغيرة الذين يعرفون بعضهم بعضاً، وتجمعهم طباع وسلوكيات متشابهة لا تتطور أو تتمايز بسهولة. في مدينته الخيالية وضع ساندموسه عشر قواعد سلوكية وأخلاقية، ستغير طبيعة الحياة الاجتماعية في اسكندنافيا حتى يومنا هذا. وتنص هذه القواعد التي عُرفت فيما بعد «بقانون يانته» على الآتي:

1. إياك أن تعتقد بأنك شخص مميز
2. إياك أن تعتقد أنك بمثل مستوانا
3. إياك أن تعتقد بأنك أذكى منّا
4. إياك أن تتخيل أنك أفضل منّا
5. إياك أن تظن بأنك تعرف أكثر منّا
6. إياك أن تظن بأنك أكثر أهمية منّا
7. إياك أن تعتقد بأنك تصلح لشيء
8. إياك أن تضحك علينا
9. إياك أن تعتقد بأن أحداً يكترث لك
10. إياك أن تعتقد بأننا سوف نتعلم منك شيئاً

تبنّى الدنماركيون قانون يانته بحذافيره، واعتُمد لديهم كأساس لأخلاقيات اجتماعية وجمعية، لقيمهم التي تقربهم من بعضهم البعض، لا سيما في بلد صغير الحجم، قليل بعدد سكانه ومعروف بنظامه التكافلي. والمثير للاهتمام هو تبني البقية من الإسكندنافيين لهذا القانون أيضاً، دون أن يُستمد أو يَتفرع منه تعاليم أخرى؛ عدا تلك الوصايا العشر التي ذُكرت فيما قد يُعد «مجرد» رواية، كُتبت في الثلث الأول من القرن العشرين وكانت لربما ستُنسى بعد حين. حُفر القانون في وجدان شعوب الشمال عميقاً دون تلقين، بل أن نسبة كبيرة منهم وبعد سنوات طويلة، باتت لا تعرف ما تنص عليه هذه التعاليم السلوكية بالضبط، لكنهم يطبقونها باتفاق شبه ضمني، ويتصرفون وفقها أخلاقياً واجتماعياً بشكلٍ تلقائي.

كتبت صحافية دنماركية، كانت قد سكنت واشنطن لفترة، حيث القيم الرأسمالية في أوجها والتي يبدو انها قد علّمت عليها بعض الشيء، كتبت بأنها حين عادت لزيارة العاصمة كوبنهاغن، وفي إحدى جمعات الأسرة المحتفية بها، ذكرت عرضاً حين سُئلت عن ابنها، بأنه «يبلي جيداً في دراسته، «في الواقع هو الأول على صفه»! تقول إنها عَرفت للتو بأنها قد خرقت الدستور الأخلاقي بهذه الكلمات، حين ساد صمتٌ حرج طاولة الطعام حيث اجتمعت الأسرة. «لو كنتُ ذكرت بأنه يرسم جيداً لما كانت هنالك مشكلة، لكن التبجح بذكري تفوقه على أقرانه كان خطأً كبيراً».

نعم، في الدنمارك يركب بعض أعضاء البرلمان، وأحياناً الوزراء ورئيسهم، المواصلات العامة والدراجات الهوائية صباح كل يوم في الطريق إلى العمل، بما أنها وسيلة النقل الأكثر شيوعاً في البلاد. ستمُر في شوارع العاصمة دون ان يلاحظك أحد، كأنك شبح غير مرئي، لا أحد ينظر في عينيك ليشعرك بالتميّز، والانطباع الذي ستتركه، مهما كان، لن يلبث طويلاً وسيُنسى لأنك غير مهم، مهما كنتَ أو كانت مكانتك في مجتمع تكافلي وتكاملي يدخل قانون يانته في كافة تفاصيله الدقيقة، حتى تلك التي قد تبدو للوهلة الأولى بعيدةً عنه. فالصفة الأساسية للموضة الإسكندنافية مثلاً هي البساطة، والألوان المحايدة غير اللافتة للنظر أو المميزة. إظهار الثراء عبر ارتداء الثياب الغالية، يعد عيباً ومثاراً للسخرية في بعض الأحيان، وقد يُنصح بأن تترك المتأنقات الحقائب الغالية في البيت، إذا ما نوين زيارة العواصم الاسكندنافية. ليس غريباً أن تنبع «المينيمالزم» كأسلوب حياة من عندهم، وترتبط بهم وبعاداتهم، بل وحتى بفنونهم وآدابهم، وها هي تتجلى في ديكورات منازلهم، وثيابهم وطعامهم. من الأكلة الدنماركية الأشهر «سمور برود»، والتي لا تعدُ أن تكون قطعة من خبز الجاودار المرّ عليها إضافات متنوعة، وحتى الأثاث السويدي الملتقط من متاجر «إيكيا»، التي تعطيك

الأثاث مفككاً وعليك إعمال عقلك وعضلاتك معاً لجمعه وترتيبه. فهل كنتَ تظن بأنك مميزاً أو مفضلاً إلى الحد الذي سيضيّع فيه أشخاص ما، دقائق ثمينة من حيواتهم لدق المسامير في كرسيك الهزاز؟!

بسبب قانون يانته، فان الألقاب شبه مختفية. وقد تنازل الدنماركيون منذ زمن عن ضمائر المخاطبة التعظيمية والتفخيمية، «حضرتك، أنتم، جنابك» وغيرها، لم تعد تستخدم إلا في أماكن محدودة ورسمية جداً. الطالب ينادي أساتذته بأسمائهم الأولى، منذ الحضانة وحتى المراحل الجامعية. الجميع في هذا المجتمع المتكافل ينادون بعضهم بالاسم الأول فقط، الصغير والكبير، الوزير والغفير، فالكل سواسية مهما كانوا وكانت مكانتهم الاجتماعية، ومهما كانت خلفياتهم الثقافية والمادية والعائلية. بل أن بعض الدنماركيين من المغالين في تمردهم ربما، طالبوا بسحب حتى الألقاب الفخرية من العائلة المالكة، بل ويذهب البعض إلى المطالبة بإلغاء الحكم الملكي، ويعتبر الأسرة الحاكمة في البلاد عالة على المجتمع التكافلي، وتعتاش على ضرائب الشعب لتصرف مبالغ ضخمة تذهب لأسباب يعتبرونها «تافهة»، كالحِفاظ على أسلوب الحياة الملكي مثلاً. ولذا فثمة من يرى عدم ضرورة وجود هذه الأسرة في الحكم أصلاً، وأن هذا النظام القادم من القرون الوسطى لا ينفع في القرن الواحد والعشرين. يسود هذا الرأي بالذات عند بعض الاشتراكيين المتزمتين، وذلك على الرغم من أن الملكة «مارغريتا الثانية» تشتهر بتواضعها بين الملوك، كما ويظهر اعتدال لافت في مظاهر البهرجة والأبهة الملكية الاسكندنافية، بالمقارنة مع الممالك الأوربية والعالمية الأخرى. إلا ان القانون الشهير يبدو سارياً على الجميع دون مفرّ، وما من مسالك يسيرة لاجتنابه أو التغافل عنه.

مع كل ما ذُكر، وعلى الرغم من قناعة العديد من الدنماركيين بان قانون يانته هو أحد الأسباب الرئيسية في تَصدّرهم قائمة الشعوب الأكثر سعادة في العالم، إلا ان بعضهم بدأ بالتذمر منه مؤخراً. فهذا العالم الجديد لم يعد واسعاً كما كان، لتصنع لنفسك فيه عوالمك الصغيرة التي تنعزل فيها عن الآخرين، فهو اليوم عالمٌ مختلف كلياً عن ذاك الذي انعزل فيه الدنماركيون في جزيرتهم الصغيرة لسنوات طويلة، ليقرّوا فيها قوانينهم الأخلاقية التي تناسبهم، وليرفعوا في أثنائها مؤشر السعادة الخاص بهم. فهذا عالمٌ جديد ومعولم كلياً، صارت خطوط الموضة فيه، تصنعها فتاة مراهقة في «سيؤول»، تُطل على الدنيا من نافذة التواصل الاجتماعي، وبات صعباً اليوم أن تواجهه المراهقة الاسكندنافية التي تعودت على واقعها البسيط متساوي الأضلاع.

«نعم للتميز لا لقانون يانته» هكذا يصرخ شاب دنماركي من على إحدى منصات التواصل، وهو يرفع قبضته عالياً كأنه يقود ثورة ضد المساواة التي أرهقت تميّزه. عدم الارتياح هذا من قيمٍ تغلغلت عميقاً في تلك المجتمعات وغيّرت طبيعة الحياة فيها كلياً في القرن العشرين، يبدو وكأنه بدايةٍ متململة لمرحلة جديدة. وربما لن يصمد طويلاً هذا القانون أمام غزو القيم الرأسمالية في عالمنا الذي بات معولمَاً جداً، وصغيراً جداً، ولن يسمح لك بإنشاء ممالك صغيرةً، لتُقِرّ فيها قوانينك الخاصة. هذه الأسواق التي تمطرنا بالبضائع التي دائماً ما تشعرنا ان شيئاً ما ينقصنا وبحاجة إلى اقتنائه؛ هذا العالم الذي لم يعد يقبل بصفاتك كما هي ولا يكتفي بأقل من صيغ التفضيل، فيريدك مغالياً رفيع المستوى ويرفضك بسيطاً. لا يقبل أن تكون جميلاً فحسب! بل أجمل، أفضل، أحسن، أغنى، أعلى، أحلى.. الخ؛ وبالتالي سيستغني عنك حالما يخفت بريق صورتك المبهرَجة ولو قليلاً، ليتخلى عنك ببساطة متناهية، ثم يلفظك دون أن يلقي عليك حتى نظرة أخيرة؛ فلن تكون بائساً فحسب، بل الأكثر بؤساً، الأكثر شقاءً، الأقل حيلة!

وإذا كان قانون يانته الذي يبدو راسخاً وقوياً، في دول تتمتع بحصانة ثقافية وتأريخية غير واهية، مهدد بالانقراض، فكيف إذن سيقابل مجتمع كالعراق مثل هذا الاجتياح الفكري والثقافي والقيمي؟ وهو مجتمع متزعزع، خلخلت أساساته الحروب والنزاعات والطائفية. لا يسعني الكف عن التفكير في السؤال السريالي شديد الإلحاح، والذي سيبقى لربما من دون إجابة: «هل بالإمكان إسقاط مفاهيم وقيم، كمفاهيم يانته (ربما مع بعض التعديلات) عمودياً على رأس الكائن العراقي؟ الإنسان العراقي البسيط والعادي جداً؟ وكيف سيتجاوز محنته الشديدة التي سيقع فيها ما بين التعالي والتفاخر بالمعرفة، والإحساس الملازم له بالقصور وانعدام التقدير؟! في بلد التجاذبات الشديدة، والقيم غير المعنونة، والمشاعر المتنافرة؟ أسئلة تراودني دون إجابة، فكلما توغلتُ عُمقاً في العراق شعرتُ بأنني (وعن إذن المتنبي) «أكري كما أرميت».

هكذا، نشأتُ في المجتمع الذي يسود فيه «يانته». والى مجتمع مثل ذاك المرهَقِ بالحروب يفترض بأني أنتمي؛ على الأقل، بالاسم والنسب والديانة. وبين هذا وذاك، كان لا بد لي أن أتعرف إلى نفسي. ومع قليل من النضج، وبعد عدة تصادمات، كان حرياً بي التساؤل عن الأسباب التي تدفع المجتمع الدنماركي لتصيّد ذنوبي الصغيرة، بالرغم من «يانته»، بالرغم من تعزيز فكرة الحرية الفردانية، وحرية الخيار والانتقاء. مع الوقت، اكتشفتُ ان يانته، ينطبق ويسري بشكل كبير على الأفراد، لكنه يقل وينسب ملحوظة على الجماعات. فالعقل الجمعي للمجتمع الدنماركي يعاني في حقيقة الأمر من جنون العظمة، ومن الإحساس بذات جمعية متضخمة ومزهوّة، على عكس ما يقترحه القانون. وجودي بحد ذاته كامرأة من أصول غريبة، لا يجعل مني فرداً مجرداً، لأنني أمام هذه الماكنة الجماعية أشكّل نموذجاً حياً للجماعة «المضادة» ليس إلا، وسوف أحمِل لعنة «جماعتي» مهما حاولتُ إثبات فردانيتي، مهما خالفتها، أو زعمتُ بعكس ما تدعيه.

أما إذا ما توغلنا في مفهوم «يانته» وبنحو مجرد، فسوف يتبين أنه في عمقه، أو على الجانب الآخر منه، لربما يطرح عكس ما يروِّج له. ففكرة تذكير الأفراد على الدوام بأنهم غير مميزين، سوف تنتهي بهم إلى الاعتقاد بأنهم لربما يكونون مميزين بالفعل، ولذلك يُمنعون من إظهار هذا التميّز! كأن «يانته»، هذا الكيان الهائل الذي يصعب صرعه، بتركيزه الشديد على الصوابية الاجتماعية التي يقترحها، يُبيّن لنا عكس ما يرغب تأكيده وتثبيته والتحذير منه. إذ قد ندرك لهذا السبب، أن الذات الجمعية متجاوزة لتعاليمه، ما دام الأفراد يُنبهون بعضهم، ويشيرون بعلامات الفضيلة، وبضرورة توجيه مشاعرهم ناحية الصواب الذي يفتَرِضه «يانته» فقط! هذا الإحساس المتعاظِم والملحّ على إبداء التواضع وسحق مشاعر التفاخر، هو تأكيد دائم، بأن هذه الذات الأكثر تواضعاً، هي الذات الأكثر صوابية، وبالتالي فهي الأفضل والأسمى، أي أنها في الوقت الذي تدّعي فيه التواضع تتجمل أمام نفسها والآخرين، بالخُلق الحسن النابع من تفوقها الأخلاقي والاعتباري بالأساس، ومن صوابيتها ومعصوميتها غير القابلة للانحراف.

* * *

السردية الأولى

مصطفى المعلم.. ضابط الجيش ذو البصر الحديد

حوراء

أعرف مصطفى منذ الطفولة. بل أدعي أني أذكر أول مرة رأيته فيها، واقفاً خلف سور مدرستنا قبل أن يلتحق بها بعد ذلك بعام. مدرسة خاصة فيها صفوف للغة العربية والدين الإسلامي، كانت تقع في شارع Gammel Kongevej، مباشرة قبالة إحدى البحيرات الشهيرة في قلب كوبنهاغن. جاء برفقة أخوين أكبر سناً منه، ولم يدخل إلى فناء المدرسة، بل وقف خلف السور الحديدي ينتظر متململاً، بينما دخل أخواه يحييان بعض الصبية ممن يعرفونهم؛ ثم ألقى أحدهما بحقيبته على الأرض، وشارك بحماس بعض الذين كانوا منهمكين في لعب كرة القدم. كنتُ أراقب المشهد من علٍ، وأنا جالسة فوق زحليقة خشبية ضخمة في الملعب. بدا الأخَوَان كبيرين جداً في عيني، ربما كانا في الرابعة عشرة أو أقل بقليل. لفت نظري الطفل الواقف خلف السور، حين صار ينادي على أخويه بقلة صبر. شعره أسود ينساب على جبينه، عيناه مدورتان، بشرته بيضاء وملامحه دقيقة. وهو قصير القامة مقارنة بي، ما يعني أنه في الغالب أصغر سناً مني، ربما كان بعدُ في الثامنة أو السابعة من عمره، هكذا خمنتُ. حقيبته المدرسية على ظهره، ويعقص سترة رياضية حول خصره، إذ لعل ذلك الحدث كان في بداية العام الدراسي، ما يعني أن البرد الاسكندنافي لم يقرص قرصته بعد.

ـ «عمااااار.. يلّاااا!!».

حتى الآن، وبعد سنوات طويلة من تلك الذكرى، لا زلت أتساءل عن سر قلة الصبر تلك؟ ولماذا لم يدخل إلى فناء المدرسة ليشارك أخوية اللعب؟ هل تراهما وعداه بشيء فكان يستعجلهما للحصول عليه؟ هل لدى طفل في الثامنة موعد عليه الإسراع لأجل اللحاق به؟ أقول لا زلت أتساءل، لأنني بعد أعوام، حين حكيتُ لمصطفى عن ذلك اليوم وسألته ممازحة عن سر استعجاله، لم يتذكر الواقعة وتعجب من قوة ذاكرتي. وقد أكون رأيته قبل هذه المرة في احتفاليات الجالية مثلاً، إلا أنها قطعاً المرة الأولى التي أنتبه إليه فيها، فبعد هذه الحادثة بعام رافقني في المدرسة ذاتها وفي الصف ذاته، واكتشفت أنه بالفعل يصغرنا بأشهر قليلة. كائن صغير سريع الحركة، مشاغب وواثق. يلعب كرة القدم كلما سنحت له الفرصة، ويبدو أنه كان موهوباً فيها، إذ غالباً ما كان يوضع في الفرق القوية. لم أستمر في تلك المدرسة طويلاً، وانتقلت بعد عام واحد إلى أخرى، دنماركية محضة، قريبة من منزلي. بينما واصل مصطفى فيها حتى تخرج منها إلى الثانوية، حيث عدتُ لألتقي به. مرة أخرى صرنا معاً، في الصف ذاته ولمدة ثلاثة أعوام.

ثانوية Vestreborgerdyd، والتي تغير اسمها العتيق فيما بعد، لأنها بداية الألفية، استقبلت عدداً مهولاً من الطلاب من ذوي الأصول المهاجرة، فابتعد عنها الدنماركيون الأصلاء، بسبب هذا الاستقطاب سيء الصيت؛ فعدا عن كون نسبة المهاجرين فيها كانت تتغلب على الدنماركيين، كانت نوعية الطلاب المسلمين لها خصوصية من نوع ما، فكان من بينهم متطرفون من حزب إسلامي يدعى «حزب التحرير»[10]، بدأ يتغلغل وينتشر بشكل كبير بين المراهقين والشباب من ذوي الأصول العربية والمسلمة؛ سيما وأن تلك الفترة، تزامنت مع ضرب البرجين في «نيويورك»، وعلو نجم الحركات الإسلامية المغالية، ورغبة حثيثة من قبل الشباب ذوي الأصول المسلمة في التعرف إلى دينهم عن كثب، حتى أولئك الذين نشؤا في أسر لا تعير الدين أهمية قصوى.

في ظني، أننا لم نحتشد كمسلمين في تلك الثانوية دون نية مدروسة أو تدبير مسبق، فمثل هذا التوزيع لا يبدو عشوائياً. بالأخص إذا ما أخذنا بعين الاعتبار، أن الطالب في تلك الفترة، كان يقدم لثلاث ثانويات مختلفة، وحيث يفترض أن يتم التوزيع وفق معطيات معينة، من ضمنها درجات تخرجه من المتوسطة/الابتدائية، وقرب المسافة بين المسكن والمدرسة؛ ما يعني ان كثافة الطلاب المسلمين في مدرستنا، في غالب الظن لم تكن اعتباطية، وذلك بغية خلق بيئة شبابية وطلابية موازية. فجمع الطلبة المسلمين وذوي الأصول الشرق أوسطية في مكان واحد كالدجاج، سيسهِّل من رفع السبابة في وجوههم والإشارة إليهم عند أبسط إشكالية. هكذا يتم وضعهم في خانات معرّفة وجاهزة، وكلهم سيصبغون بالألوان المعدة سلفاً، وبهذا سيتحملون جميعاً وزر الأخطاء العفوية والمقصودة على حد سواء. بهذه الطريقة يهيَّئون بسهولة للإقصاء والنبذ، وسوف يشيَّئون ليصبحوا أهدافاً هيّنة لمجايليهم وأقرانهم من المتطرفين. وبذلك سيغدون لقماً سائغة لحزب التحرير وغيره من الأيديولوجيات الأصولية، فيُصنع منهم قنابل موقوتة، لتصهر هوياتهم المتنوعة والمتباينة إلى هوية واحدة؛ تلك الهوية التي يعبر عنها أمين معلوف، بـ«الهوية القاتلة»! الهوية التي تنشأ متأزمة بسبب الحاجة الملحة للانتماء، أياً كان نوعه، وبما أنها تواجَه بالإقصاء من المحيط الذي نمت فيه، «فستَنزع للتمسك بأكثر انتماءاتها تعرضاً للتجريح» كما يعبّر معلوف[11]. وفي هذه الحالة، فان الدين بالأخص، هو ذلك الانتماء الذي بات عرضة للطعن والتجريح، لا سيما في ذلك التوقيت بالذات، بعد حادثة الحادي عشر من سبتمبر مباشرة.

ليس صعباً استشراف ما ينتجه مثل هذا الوضع المتأزم، ومثل هذا التحشيد، بالأخص في بلد يثرثر كثيراً عن الاندماج ويناقش طرقه وغاياته وسبله، عبر كافة المنصات الهامة، في التعليم، والاعلام، وفي سوح العمل ايضاً. ولذا ينبثق هنا سؤال هام، هل ثمة غاية مسبّقة لغض الطرف عن كون ذلك سيجعل هؤلاء الشباب أهدافاً سهلة للتطرف الديني، وهم منفيون ومبعدون عن المجتمع، الذي يُفترض بهم ان ينخرطوا فيه لا سيما في هذه السن الحرجة؟ كأنَّ ثمة غاية لجعل عزلتهم النفسية والاجتماعية تتضاعف مع هذا الإجراء المثير للاستغراب، ليُطالَبوا فيما بعد بالاندماج وتقبل الآخر؟ هل يبدو الأمر مجيراً بالفعل؟ أم إنها العنصرية المؤسساتية التي كانت حتى ذلك الحين، خفية ولم تسفر عن وجهها القبيح بعد؟! وهل من حقي أن استغرب من تعجّب الدنماركيين من المشاعر العدائية التي نشأت عند بعض هؤلاء الشباب، ووقوعهم في حبائل الإسلام السياسي بكل بساطة ويسر؟ فهؤلاء مجرد طلاب مرحلة ثانوية، ومهما كانت خلفياتهم، فانهم شباب يسعى للدراسة والمعرفة، ولا بد بأنهم يختلفون، وإن بنسب متفاوتة، عن أولئك الذين تتلقفهم الكانتونات الشعبية، ومسالك الإجرام وغيرها من الأوضاع المتعثرة. فاذا كان لا يقدَّم لهم البديل، وتُفرض عليهم عزلة وإقصاء عن المجتمع الأكبر الذي يفترض أن يكون وعاءً لاحتوائهم، فمن الطبيعي في هذه الحالة ان تتلقفهم الايديولوجيات المتطرفة، كبديل للگيتوهات الملغمة بالعنف والجريمة وغسيل الأموال والمخدرات.

ماذا يُتّوقع من حشرهم في غيتوهات سكنية حيث يعيشون في عالم موازي، ثم جمعهم في مدارس ثانوية بهذه النسبة المهولة التي وصلت إلى أكثر من سبعين بالمائة، كأنهم في معسكرات شمولية، لا يخالطون الا بعضهم بعضاً، ومبعدون عن الفرص الحقيقية للاندماج والتفاعل مع المجتمع الدنماركي الأكبر؟ هذه البيئة الدراسية عززت من واقع مجتمعاتهم الموازية، بل جعلت حتى من كان منهم مندمجاً في محيطه الدنماركي سابقاً، ينخرط في المجتمع الموازي رغماً عنه، لأنه بات يتعرض لرقابة لم يكن قد صادفها قبلاً. ما يفسر مثلاً التغير الهائل في مظهر الفتيات في مرحلتنا الدراسية، فقد بدأت بعضهن العام الدراسي وهن يرتدين بلوزات مشدودة، وبنطالونات جينز ضيقة عند الأرداف والفخذين، تبدأ بالاتساع من عند ربلة الساق وحتى الكاحل وفق الموضة التي كانت سائدة في بداية الألفية. فتيات يلفتن الأنظار بجمالهن الشرقي الباهر، لتميزه وندرته، غير أن عدداً كبيراً منهن انهين ذلك العام الدراسي وقد وضعن الحجاب، وارتدين الجلابيب الطويلة، بوجوه باتت خالية تماماً من المساحيق، حتى أنني لو لم أكن حاضرة هذا التغيير الذي جاء مفاجئاً ودون تدرج، لظننت أني أقابل فتيات جديدات مختلفات كلياً عن أولئك اللواتي تعرفتُ اليهن مطلع العام الدراسي. وفي الحقيقة، لم يكنَّ في بادئ الأمر، جميعاً مقتنعات أو مؤيدات لأيديولوجيا وفكر حزب التحرير المتطرف، الذي صار يلتهمهن الواحدة تلو الأخرى، كأنهن قرابين اجتماعية تقدَّم له على طبق من فضة؛ فالرقابة الاجتماعية وضغط الجماعة والصداقة والشللية، كانت قد تكفلت بالبقية منهن، إذ لم يكن ثمة مفر!

هكذا، وفي وقت قصير، تحول الدنماركيين الأصليين، إلى قلّة في مدرستنا. صدورهم ممتلئة بالحنق من احساسهم العميق بالغربة في موطنهم ومقامهم الذي يشعرون بأنه مكانهم المستَحق؛ ولهذا فقد انكمشوا على ذواتهم وأصبحوا أكثر ترابطاً فيما بينهم، فتشكلوا شيئاً فشيئاً في جماعات صغيرة تحويهم وتخصهم وحدهم، فباتوا كأنهم بنيان صلد يستحيل اختراقه. أما ذوو الأصول الأجنبية، فلم يجدوا أمامهم سوى المكابرة بالتمسك بأصولهم وهوياتهم المختلطة التي ظنوها أساسية، نابذين أو متجاوزين التفاصيل الفرعية لتلك الهويات إلى أجل غير مسمى. فكان من الطبيعي أن ترى صلاة جماعة تقام في سراديب المدرسة يقودها شيعي من لبنان مثلاً، بينما يقف خلفه شبان وشابات من أهل السنة والجماعة، دون أن يثير حفيظتهم أن يأمَّهم هذا الشيعي، الذي كان بعضهم ليكفره في ظرف غير هذا. (جدير بالذكر أن أعضاء حزب التحرير لم يكونوا متقبلين للمدارس والمذاهب الإسلامية الأخرى، وهذا الوصف لا يشملهم).

كنا قد بدأنا السنة الأولى من المرحلة الثانوية بصف نصفه دنماركيون ونصفه الآخر من الأجانب، وتخرجنا بعد ثلاث سنوات بثلاثة دنماركيين فقط. فأغلبهم كانوا قد هربوا من هذا الفصل الدراسي بفرعه الأدبي، حيث عدد الذكور بالعادة أقل من الإناث. فكان صفنا يعج بطالبات من المغرب العربي وباكستان وتركيا وثلاثة عراقيين، كنا أنا ومصطفى اثنين من بين هؤلاء الثلاثة؛ وكان هو ثاني شابين فقط، أبديا صموداً نادراً بين هذا العدد الكبير من الفتيات!

كانت علاقتنا، أنا ومصطفى، عبارة عن «مناقر» طوال الوقت؛ نختلف ثم نتصالح ثم نعاود صداقتنا بتلقائية استثنائية. والغريب أنه كان دائماً ما يقع في طريقي، فحتى بعد تخرجنا من الثانوية، وجدتُ نفسي معه في صف واحد لدراسة «الهندسة التصديرية» في الجامعة. وبما أن كلانا تخرج من الفرع الأدبي، فقد كنا بعيدَين جداً عن دراسة الهندسة المعقدة والمليئة بالأرقام التي نكرهها، فغادرناها معاً إلى غير رجعة. انتقل هو لدراسة العلوم السياسية في جامعة كوبنهاغن، وانتقلت أنا إلى لندن، لأفترق عن الدنمارك بأسرها وكل أصدقائي وذكرياتي. لكن حدث ذلك لحسن الحظ، مع بداية انتشار الفيس بوك الذي جمعنا بعد سنوات قليلة من الفراق، فالتقينا مجدداً في العالم الافتراضي أنا وهو وأصدقاء وزملاء آخرين. وبين فترة وأخرى كنا نتحدث عبر الهاتف، ونسمع عن المستجدات والقفزات التي تقفزها بنا الأعوام التي صارت تتسرب من بين أصابعنا على نحو مدهش؛ حتى التقينا في كوبنهاغن صيف العام 2019 بعد سنوات طويلة من الفراق. فوجدت أمامي رجلاً في مطلع الثلاثينيات، يحمل شهادة الماجستير وعلى وشك التحضير للدكتوراه، له زوجة وثلاث بنات جميلات. بشخصيته مصقولة بشكل مثير للإعجاب، وأفكاره تطورت كثيراً عن ذلك المراهق العنيد الذي أعرفه. لكنني كلما نظرتُ إلى وجهه ذكّرني أنه ليس سوى ذلك الطفل الذي وقف ينادي على أخويه من خلف سور المدرسة، عاقصاً السترة الخريفية حول خصره. الملامح الطفولية ذاتها مع بعض الاكسسوارات التي تتطلبها حياة الراشدين، شارب ولحية ربما، والكثير من المسؤوليات. أما القامة القصيرة فقد امتدت طولاً وعرضاً، الصوت الرفيع صار أعمق، إلا أن اللدغة الخفيفة في حرف الراء هي ذاتها. إذن هو نفسه، صديق طفولتي ورفيقي مصطفى المعلم. وكان اللقاء الذي حدثني فيه عن كلَّ ما فاتني في السنوات السابقة. حين أخبرني عن زيارته للعراق مع الجيش الدنماركي كمترجم بين صفوفه، أثار اهتمامي لأقصاه. سألته:

ـ «أكانت تلك زيارتك الأولى للعراق؟».

فرد وهو يطالعني بنظرة ذات مغزى، كأنما ليستجلب بها انتباهي:

ـ «نعم!».

* * *

مصطفى

لا أستطيع تذكّر اليوم الذي وصلتُ فيه إلى الدنمارك، لأني ببساطة فتحتُ عيني على الدنيا فوجدتني هنا، في كوبنهاغن، في منطقة «آما» تحديداً التي ترعرعتُ فيها أو «عليها» كما نقول بالدنماركية، في حال كان المكان جزيرة صغيرة مرتبطة بمركز العاصمة عبر الجسور، مثل» آما». كنتُ في الرابعة أو الخامسة حين قرر أهلي الهجرة من سوريا حيث ولدتُ قبل أكثر من ثلاثين عاماً. أحياناً تتراءى لي صور لأماكن وشوارع غير دنماركية، لكن يستحيل عليّ الجزم إن كانت هذه الأماكن حقيقية لصور أسترجعها، أم أنها محض خيال رسمه عقلي لتفاصيل وذكريات أسمعها من أهلي، وتسقط في عقلي الباطن على غفلة مني.

حياتي مرت بسيطة وهادئة، مجرد شاب يعدو خلف أحلامه ويحاول الظفر بها ما استطاع. لدي بكلوريوس في السياسة والاقتصاد وماجستير في علوم الشرق الأوسط، وحالياً أحضر الدكتوراه في العلاقات الدولية بناء على مادة العلوم السياسية. عملت في وزارة الدفاع كمدرس في الكلية العسكرية. درّستُ مواضيع مختلفة من ضمنها اتفاقية جنيف لقوانين السلوك أثناء القتال، بالإضافة

لتدريسي المصطلحات العسكرية للطلاب الذين سيتخرجون ضباطاً لغويين. وحالياً أعمل مع وزارتي العدل والداخلية كمسؤولٍ في قسم الترجمة النصية. بالإضافة لذلك، فأنا مسؤول عن تصفية ومن ثم تجنيد المقدّمين على عمل الترجمة، وذلك بعد مرورهم باختبارات متعددة. أما بالنسبة لعملي في وزارة الدفاع فما يزال قائماً في تهيئة الجنود المغادرين إلى العراق.

كانت الدنمارك قد أرسلت دفعات عدة قبل ان أنضم للعمل. في تلك الفترة اعتمدوا مترجمين عراقيين محليين للغة الانجليزية لأجل التواصل مع العراقيين، غير أن القيادة العسكرية الدنماركية لم تكن لتقتنع بالترجمة لمجرد التواصل والمخاطبة، بل كانت حاجتها ملحّة لمستشارين واعين وقادرين على التواصل ثقافياً مع الجانب العراقي. في تلك الأثناء كنت على أبواب الانتهاء من البكالوريوس، وصادفتُ إعلاناً من وزارة الدفاع يطلب فيه مترجمين دنماركيين من أصول عربية. ففكرتُ لمَ لا!

كان الأمر بالنسبة لي آنذاك مجرد فرصة عمل ستضيف الشيء الكثير لسيرتي الذاتية، سيما وأنني بعد في بداية حياتي العملية، وبحاجة لتنمية خبرات مختلفة بغية التعزيز من السيرة. وكنتُ على علم بأن عمل وزارة الدفاع لا ينحصر في الدفاع فحسب، بل سيضيف لي كفاءات وخبرات متنوعة ستفتح لي آفاقاً واسعة، بالإضافة للفهم العسكري بطبيعة الحال. كان ذلك كل ما فكرت به لحظة قررتُ التقديم للوظيفة، حتى وان كان مذكوراً في الإعلان أن المترجم على الأغلب سيرسَل إلى العراق، لم تكن لتلك الاضافة الأثر في نفسي، ولم تُعجِّل أو تهوِّن من إقدامي؛ فاسم العراق مرتبطاً بالوظيفة كان ليبدو سريالياً بالنسبة لي، حد أن لم أفكر به كخطوة حتمية ستأتي في حال قُبلت.

في أثناء عملية التقديم وبينما كنتُ مشغولاً ومنغمساً في الاختبارات البدنية والنفسية واللغوية التي أخضعوني لها، أدركت فجأة أنني سأذهب إلى العراق بالفعل، وأنني قريباً سأقترب من أصولي كما لم يحدث من قبل! جاءت إفاقتي الوقتية تلك أثناء مروري بأصعب مرحلة من الاختبارات، وهي مثولي أمام خمسة من الأطباء النفسانيين أمطروني بالأسئلة عن العراق وعن أصولي وأقاربي الذين ما زالوا هناك. يسمونهم أقارب، وهم بالنسبة لي أغراب كلياً، ولم أكن قد التقيتهم في حياتي. لم أستغرب الأسئلة ودقتها، لكنني لم أكن مستعداً لها نفسياً، فعلى حد علمي، كانت تفاصيلي وبياناتي كلها موجودة لدى الاستخبارات في وزارة الدفاع والداخلية معاً، ومذكور فيها أصولي وغيرها من التفاصيل التي قد تكون مهمة؛ ولذا لم أنتظر مثل هذه الأسئلة التي قد تأجج عاطفتي على نحو لم أحبذه في هذه المرحلة. مثل هذه الاسئلة المربكة لا تحتمل ان تكون إجاباتها صحيحة أو خاطئة، بل تعتمد كلياً على تحليل هؤلاء ليروا مدى جهوزيتي النفسية لمهمة كالتي سأخوضها.

بادرني أحدهم فجأة:

ــ «أصلك عراقي. ما هو شعورك لكونك ستدخل العراق للمرة الأولى وببذلة عسكرية؟».

سؤالٌ ملغَّم لم أكن قد طرحته بعد على نفسي! وانتبهت فجأة بأني لا أستطيع إزاحة هذا الستار الثقيل عن مشاعري، والذي صنَعتْه سنوات طويلة من العيش خارج حدود أصولي، إذ يصعُب التعرف إلى مشاعري الصادقة والحقّة، ويتعسر تجريدها من الواقع لأقف قبالتها وجهاً لوجه كيما أرد بإجابة نموذجية.

لم أكن لأميّز إن كنتُ سعيداً أم حزيناً، متفائلاً أم متشائماً. ثم أنني لم ألتقِ عراقياً خالصاً من قبل، أعني عراقيّاً من داخل العراق، ولا أعرف كيف سيتم استقبالي. فكل تواصلي وعلاقاتي بالعراقيين هي بأمثالي من المهجّنين، المشطورين بين الشرق والغرب، بين بلد النشأة وبلد الأصل. ثم تعقّد الأمر أكثر في نظري حين تذكرت أن من سألتقيهم ليسوا عسكريين فقط، بل قد ألتقي المدنيين أيضاً، ولا أعرف نوع الانطباع الذي سيتركه لديهم، هذا الدنماركي ذو الملامح والأصول العراقية والثقافة الهجينة. كلما فكّرتُ أكثر، أدركت أن الغموض الذي يكتنف الطرف الآخر وكيفية استقباله إياي، بات يقلقني، وأنّ التحدي لن يكون سهلاً بالمرة. ثم أصبح هذا التحدي أمراً واقعاً حالما عرفت بأني قد قُبِلت، وأنّني خلال أشهر قليلة سوف أغادر إلى العراق بالفعل.

لربما سيرى البعض ثمة حرج في كوني عراقيّ الأصل، يدخل إلى العراق للمرة الأولى في حياته ببذلةٍ عسكرية وعلى ظهر دبّابة! في الواقع فإن الأمر مجرّد من هذه الاعتبارات بالنسبة لي. إذ لدى مملكة الدنمارك اتفاقية مع الحكومة العراقية، تنص على تدريب الجيش العراقي وملحقاته. في الأيام الأخيرة قبل المغادرة، بتّ أطمئن نفسي بأني ذاهب ليس فقط لأجل أداء وظيفة، بل أيضاً لأداء واجب خدمي وانساني، سأقدمه لأهل بلدي الأصل. فكان من ضمن من علينا تدريبهم، الشرطة الاتحادية، الفرقة السابعة، شرطة الحدود وفوج المغاوير، وذلك بالإضافة إلى الجيش بطبيعة الحال. وبدأ شعوري بالقلق يتبخر شيئاً فشيئاً، ليحل محله شعور بالاعتزاز لكوني ذاهباً للمساندة، في وقت كان فيه العراق بأمسّ الحاجة لها، بعد احتلال داعش نسبة كبيرة من أراضيه.

كانت مشاعري تجاه الأرض التي تستقبلني للمرة الأولى مشاعر حيادية حتى تلك اللحظة، فقد تم استقبالنا من قبل جنود أمريكان، وانا محاط بالدنماركيين كما كنت دوماً، ولم يدُر بعد في خلدي ان هذه الأرض هي أرضي وأرض جدودي! في الواقع، لم يكن ليتغير شيء لو أنهم أوهموني بانها المكسيك مثلاً، إذ لم أجد حتى ذلك الحين، أي مشاعر تتحرك في داخلي وأنا مغلفٌ وصلدٌ تماماً. مغلفٌ بالحياد التام، وصلدٌ أمام العواطف؛ ومشاعري قد تبدو للوهلة الأولى باردة ومتصلبة وغير قابلة لأن تلين أو تنحرف.

مع ساعات الفجر الأولى لليوم التالي، استقللنا عربة عسكرية صارت تتوغّل بنا عميقاً في بادية الأنبار لنقل قواتنا إلى قاعدة «عين الأسد» حيث سنستقر. هنا فقط بدأتُ استشعر تلك الوخزة في قلبي. إحساس شبيه بالألم، يشبه القلق المضني، يشبه عناء حبس الأنفاس الذي تسببه عصفة هائلة من النوستالجيا. بدأت تلك الوخزة صغيرة جداً، ثم صارت تكبر وتنتشر في داخلي. توقَّف كل شيء من حولي، لم أعد أسمع صوت المحركات، او أشعر بالهواء البارد يلامس وجهي برفق. فجأة خمدت حواسي جميعها كأنما تخدرت، ونشط في داخلي شعور وحيد، يشبه في يُتمه وفردانيته وحشتي الدائمة. أدركت على نحو مباغت، أن هذه الأرض هي التربة الأصلية لجذوري التي تبرعمت ونمت وأزهرت على بُعد المئات من الكيلومترات؛ وها أنا ذا اليوم فقط، بل في هذه اللحظة بالذات، أتطابق وإياها للمرة الأولى. هذا الهواء كان من المفترض أن يلفح وجهي يوم مولدي، وهذه الرمال كان مقدراً لها ان تعرفني مذ وجدتُ، غير أن طريق قدري عرج بي بعيداً عنها. وها أنا ذا الآن، هذه النبتة من هذا الجذر! وها هي ذي علاماتي الدالّة؛ أصلي ومنشأي وكل مواصفاتي معلقة علي، وختم الجودة هو سنوات عمري التي قضيتها أكاسر هذه الميزة بتلك. الأصل يبدو مطبوعاً على ملامحي. والمنشأ يبرهن على مميزاتي وخواصي، تاركاً آثاره في كل تصرفاتي وفي كل خطوة خطوتها في حياتي. ها

هو يثبّت علامة أخيرة في حال نسيت من أكون، فعلى بذلة ضابط الجيش التي أرتديها يتربع علم الدنمارك على ذراعي. علم البلد الذي لم أعرف غيره وطناً، ملجأً وملاذاً حقيقياً، خلال حياتي بأسرها.

* * *

صار استقرارُنا في معسكر قريب جداً من الأماكن التي تغلغل اليها تنظيم داعش الإرهابي، يُدعى قاعدة «عين الأسد»، وكانت تفصلنا عنهم قرابة الخمسة كيلومترات فقط؛ وحدث ان شهدتُ قصفهم لمواقعنا أكثر من مرة فيما بعد، لقربهم منا. ثم سرعان ما أخبرونا بأن مهمتنا الأولى هي تدريب أفراد من الشرطة الاتحادية التابعة لوزارة الداخلية العراقية. 334 شرطياً، كان علينا تدريبهم وتجهيزهم في مدة لا تزيد عن الأربعة أسابيع. هنا شعرتُ بالحماس الممزوج بالخوف والقلق والأمل. شعرتُ بأني سألتقي بالعراق حقاً، وأدركتُ أن الأرض لا تعني شيئاً على الإطلاق من دون الإنسان. فالعراق ليس حفنة تراب أدوسها ببسطالي العسكري، وليس هواءً ونخلة ونهراً؛ ليس مطر الصيف ورائحة التراب، رغم أنه قد يكون كل ذلك بالنسبة لمن نشأوا فيه، وعايشوا هذه الخبرات العاطفية التي تستثير شجنهم والتي ستُعدّ ربما قياسيةً في عُرفي. لأنَّ العراق بالنسبة لشاب ولد وعاش عمره خارج حدوده، لا يعني هذه التفاصيل، ولن تهمَّه مثل هذه المظاهر، إذ لن تقع موقعاً مميزاً من نفسه ما دامت هذه الصغائر، على أهميتها، لم تمتزج بطفولته ونشأته! ما دام حبوي، وخطواتي الأولى، وكلماتي المتعثرة، لم تكن تحت سمائه، وما دامت أيامي لم تتسارع تحت ظله. العراق بالنسبة لشاب مثلي، كان الإنسان العراقي!

إنه تلك السحنة المثخنة بآثار الحروب، وتلك اللكنة الأصيلة التي لا تشوبها أخرى دخيلة، وذلك العناق الحار والمطَمئن.

كيف بالإمكان أن تعرف العراق من خلال ما يكلمك عنه أهلك فقط؟! من خلال ذكرياتهم الضاربة في قدمها مثلاً؟ مثل هذه الذكريات لا يمكن المساومة عليها أو نقاشها، إذ ليس بوسعي أن أصححها أو أخطِّئها، فأنا محض جهاز استقبال لما يضعونه في داخلي من قناعات ورؤى عن هذه البلاد البعيدة. ذكرياتهم مجرد صور يطبعونها في وجداني لكنها لا تشمل الزوايا الخفية، ولا تحتمل المظاهر الخادعة. صور ثابتة وغير ديناميكية، وسرعان ما اكتشفت بنفسي أنها غير حقيقية أيضاً. فهي بالية وقديمة ولا تعكس الواقع الحالي. غير أني مستنداً على هذه الخبرة، صرتُ أفهم تماماً بأني في مقابل ذلك، لو كنت سأحدث أحداً عن الدنمارك من دون أن يقدّر له أن يراها ويعرفها، فأنه لن يطوِّر تجاهها أي مشاعر كتلك التي توجد في داخلي نحوها مثلاً. في النهاية فان هذه المشاعر هي ما يصنف الإنسان في لحظات كهذه، فلو كنت من أصول غير عراقية مثلاً، ما الذي كان سيجعلني أضطرب وأقلق من لقائي بالعراقيين؟ ما شأني والعراق! إن جئتَ للحقيقة، فأنا لا أمت لهذا العراق بأي صلة غير تلك الأصول، وكان من الممكن لمشاعري هذه أن تُبقي على حيادها، لو أنني كنتُ أكثر مهارة في إدارتها، وأقل إدراكاً لها.

فكرتُ في والدي الذي غادر العراق بداية الثمانينات متنقلاً بين الدول ليجنب نفسه وأسرته الصغيرة ويلات الحروب وبشاعة العواقب التي تأتي بها الآراء المختلفة والمعارضة. هل تراه كان ليتخيل وهو يلقي نظراته الأخيرة على بلده، أن ابناً جديداً له سوف يولد في سوريا، سيدخل إلى العراق للمرة الأولى بعد أكثر من ثلاثين عاماً، على ظهر دبابة لدولة أوربية، يحمل ابنه هذا علمها على زنده، وبين ثنايا روحه وقلبه؟! هل كان أبي سيشك في ولائي أو سلامة نيتي، لو أن أحدهم أخبره بهذا السيناريو قبل أكثر من ربع قرن، في ظل ظروف سياسية واجتماعية بل وحتى دينية مختلفة؟ هل كان سينعت تصرفي بالخيانة مثلاً؟ ثم الخيانة لمن؟ للبلد الذي احتضنني ورعاني ونشأتُ في كنفه معززاً ومكرماً؟ أم للبلد الأصل الذي لم أقضِ فيه دقيقة واحدة من عمري، لكي تعينني على تطبيق القيم الوطنية المفترضة فيّ؟ وهل من الصعب أن أعدَّ موالياً للبلدين محباً لكليهما؟ ولماذا تراها تصمني هذه الدبابة كأنني أدخل غازياً مقاتلاً؟ رغم كوني لا أراها سوى وسيلة نقل، ولا أرى في عملي سوى وظيفة أؤديها، فلا أحمِّل فعلي الكثير من النيات الطيبة حتى ان وجدت، فأنا لست سوى ابن هذا الظرف، وابن هذه اللحظة فحسب.

ولعل هذه التساؤلات لم تكن لتدور في خلدي أو تؤرق ضميري، لولا الكلام الذي أثير وثار من قبل المناهضين للحروب الذين كانوا يرون في الجيش الدنماركي مطبعاً مع المحتلين الأمريكان. حتى أن بعضهم كان يرى أن جيشنا مجرد فرقة تابعة للجيش الأمريكي، فنحن لسنا دولة ذات شأن سياسي في الخارطة العظمى للدول، ولسنا مؤثرين بما يكفي، وقراراتنا الإقليمية والدولية لا تصدر منا بالعادة، بل نحن مجرد حليف ضعيف، وأداة بيد أمريكا لا توليها حتى الكثير من الأهمية. هكذا يروننا! أما في رأيي، فمادام الأمر قد وقع، إذن لا سبيل الا لإصلاحه. وما كنتُ أعلمه وأدركه في حينها، ان العراق بحاجة إلى التحرير من قوى داعش الغاشمة، ونحن وقواتنا ذاهبون للمساعدة. وكنت قد تعبتُ من حمل حبي الحتميّ للبلدين مثل ذنبٍ أخفيه عن أعين الناس، ممنياً النفس بأن يغفره اللّه لي متى ما تبتُ عنه.

* * *

يبدو أنَّ الفرحة والحماسة كانتا ظاهرتين على وجهي حين كنا على وشك اللقاء بالعراقيين، إذ سألني أحد زملائي عن سر ابتسامة بليدة لم أقدر على كتمانها. أجبته بأني سعيد لكوني أخيراً سأقابلهم. أقصد العراقيين. لم يسعني الانفصال عن حقيقة أني وهؤلاء نتشارك البلد الأصلي والجذور. قلتُ له بأنهم أبناء بلدي مثلما أنكم أيضاً أبناء بلدي. فردَّ عليّ مثيراً السؤال الأزلي الذي يستخدمونه دوماً لامتحان مشاعر أمثالنا، أو ربما ليعبثوا بنا وبحيرتنا بخبث يبدو ذا خصائص حمقاء. «ماذا لو أن العراق لاعب الدنمارك في مباراة مهمة في كرة القدم، من ستشجع؟». وكنت أرد بسرعة وبساطة «أتمنى أن يتعادلا، وإذا ما فاز أحدهما فسأفرح للرابح وأحزن لأجل الخاسر». كانوا يتضايقون أو يسخرون من الإجابة!

من المعروف أن من اللياقة عدم تقبيل الأغراب في اللقاءات الأولى، لكنني حين التقيتُ بضابط برتبة مقدَم في الشرطة العراقية لأول مرة، ألقيتُ بنفسي عليه أحتضنه وأقبله. وشممت رائحة بدلته المخمرة. شيء ما في هذه الرائحة بدا لي مألوفاً دون أن أعرف مصدر هذه الألفة بالضبط. لعله هذا الجسد المعجون بالأرض المتربة يضخ هذه الروائح المعتقة، رائحة يمكنني الجزم بأنها لن تلتصق بي أبداً حتى وان تمرغت على ذات التراب، ولطخت جسدي بذات الطين.

سألني المقدم ملاطفاً:

ـ «أنت ويا هذولة الدنماركيين؟ شعندك؟»

أخبرته أنني عراقي الأصل سكنت الدنمارك لأكثر من ثلاثين عاماً. فصافحني مجدداً وهز يدي بقوة هذه المرة، ثم وضع كفه على كتفي وقال بنبرة حاسمة وهو يركز في عينيّ:

ـ «أنت عراقي!».

لم أحر جواباً! أي رد يسعه أن يكون مناسباً في مثل هذه المواقف؟ والتي كانت لتصادفني أحياناً مع الدنماركيين أيضاً، من أولئك اللطفاء الذين يعجبون بحسن سيري وسلوكي فينعمون عليّ بالألقاب الوطنية، «دانسك» دنماركي، ابن آما، كوبنهاغني، ابن العاصمة. الخ. لكن لا أحد فيهم أبداً تعطف عليّ أثناء لعب المنتخب الدنماركي، بقبعة لها قرنين مثلاً في إشارة إلى ال «فايكينغ». لما يا ترى؟! هل كان ليبدو المنظر سريالياً، مع ملامحي هذه؟

حين يؤكد أحدهم على وطنيتك، أو يمنحك شرف جنسية أو هوية يظنّ بأنك تطمح إليها، فسيمنح لذاته الأفضلية والفوقية عليك ضمناً. وذلك على الرغم من كونه إنساناً عادياً شأنه شأنك، لكنه يشعر بامتلاك صلاحية خلع الألقاب الوطنية عليك، أو انتزاعها منك! لعله ظنَّ نفسَهُ أكثر صفاءً ونقاءً منك، أنت الملوَّث بالثقافات والأصول الأخرى. أنت فرس جامحة قوية وجميلة لكنها مهجَّنة وغير أصيلة، ما سيحيلك لأن تفكر بصوت عالٍ «لكنني لست حصاناً!». في النهاية، بدت تلك الجملة المتعاطفة تعاطفاً مصطنعاً، أشبه بشهادة خدمة قد نفد موعدها، فلم يعد لها من أثر أو مقبولية. فتمتمتُ بعد أن ترددتُ لثوانٍ: «شكراً».

* * *

كانت مهمتي إلى جانب الترجمة هي في كوني مستشاراً للجنرال الدنماركي. فأنا الوحيد الذي يتقن اللغة العربية، ومن المفترض أنني الوحيد أيضاً العارف بثقافة العراقيين وعقلياتهم وكيفية التعاطي معهم. أعرف التفاصيل جيداً حتى وان لم أكن متعمقاً فيها، وبعض العادات، وما يحبون وما يكرهون. رغم ذلك، لستُ ملماً بما فيه الكفاية باستعاراتهم الشعبية، ولغة الشارع والشتائم، سيما وأنها تتطور جيلاً بعد جيل بشكل طردي ومتسارع. فوالدي الذي غادر العراق قبل أكثر من خمس وثلاثين عاماً، لن يفهم الكثير من الألفاظ العامية والسوقية المتداولة اليوم. لكني على سبيل المثال لا الحصر، أعرف الكثير عن العادات والمجاملات، وأعرف ان الدنماركيين لا يتمتعون بالتعارفات الاجتماعية التي تشبه تلك التي يوليها العراقيون أهمية قصوى؛ فهم بالمقارنة مع العراقيين قد يعدّون باردين جداً إلى درجة قد تفسر بأنها قلة ذوق، سيما لو أن المقابل لم يكن ليفطن لاختلاف طباعهم وثقافتهم. في مثل هذه الحالات، وحين كان الجنرال يصدر أمراً أو يعبر عن خبر ما، كنت أعيد صياغة ما يقول بالطريقة التي تكون أكثر مقبولية عند العراقيين، أو قد أضيف إلى كلامه بعض الجمل التي قد ترّغِب وتطمئن الطرف الآخر، فيكون كلامي مخففاً من الانطباع الذي يتركه الجمود والصرامة الظاهرة على وجه الجنرال. صرامة دنماركية بحتة لا تقتضيها بالضرورة رتبته ومسلكه العسكري.

وسرعان ما اتخذ الأمر برمته شكل محاولة مستميتة لإثبات الذات، إذ كنتُ أرغب بشدة إظهار كفاءتي، لكني في الوقت ذاته كنت مشغولاً ومترقباً لكيفية تقبل العراقيين لي. قدّرتُ أن الفئة الأكثر تفاعلاً والأسهل للكسب والتعاطف هي فئة ذوي الرتب الصغيرة من أفراد الشرطة، لا ذوي الرتب العالية. فهم الأكثر عفوية والأكثر أصالة وبساطة، فحاولت التقرب منهم قدر استطاعتي، بحذر في بادئ الأمر، فوجدتهم يستقبلونني بفضول ودهشة. كنت بالنسبة لهم كائناً غريباً وهجيناً ربما ظنوه مقلقاً بعض الشيء. لكن سرعان ما اكتشفت أن نظرتهم نحوي ايجابية إلى حد مقبول، وصرتُ استمتع بفضولهم واسئلتهم التي تقتحم خصوصيتي وتفاصيل حياتي، ربما لأني كنتُ أفتقد مثل هذه الحميمية في الدنمارك. فهناك ما من أحد يهتم لأمرك على هذا النحو المفرط. سألوني عن كل شيء تقريباً، وكلما وجدوني متقبلاً، زادوا في اقتحام الخصوصيات أكثر، ليسألوني عن أسرتي وزوجتي وعملي، بل وحتى راتبي الذي أتقاضاه. استفهموا عن كل الأمور التي تعد تابوهات في الغرب، لا سيما إذا ما كانت العلاقة سطحية ومهنية بحتة. لكني لم أتضايق، بل تعمدتُ التواجد بالقرب منهم والتعاطي معهم.

كانوا أثناء الاستراحات يقتربون مني ليقذفوا بأسئلة عجيبة. مثلاً:

ـ «انت من يا عمام؟»

فلا أحير جواباً، فأنا لا أعرف من أي «عمام» أكون بالضبط، وما المقصود بهذا السؤال. كنتُ أجيب ببساطة بأني لا أعرف، فألمح ابتسامات تمتزج فيها الدهشة بالشفقة على هذا العراقي المسكين الذي لا يعرف «عمامه». لينبري أحدهم موبخاً السائل:

ـ «يا معود، عوفه صارله تلاثين سنة بالدنمارك. أنت هم بطران تسأله هيچ سؤال!».

رغم ذلك، كنتُ أستمتع كثيراً بمخالطتهم. فبعد سنوات طويلة في الدنمارك لم يعد زملائي من الدنماركيين يشكّلون لي عامل جذب. بل صار هذا التفاعل الثقافي، والذي يشبه «صدمة حضارية» مصغرة، هو كل ما يثير فضولي. فكنتُ استمتع وأنا أستمع لغنائهم يأتيني من بعيد، وأتعمد الاقتراب منهم أحياناً، علهم يدعوني إليهم فأشاركهم حفلاتهم الصغيرة. وأضحك ضحكات صافية وأنا أتلقف نكاتهم العفوية البريئة، وتلك البذيئة الفاحشة. وأفرح كلما وجدت في نفسي تأقلماً واعتياداً على لهجاتهم ولكناتهم، ولا سيما تلك الجنوبية، فالغالبية الساحقة منهم كانوا من الجنوب. أدهشوني بكرمهم رغم قلة ذات اليد، فهم على استعداد أن يعطوك قطعة الخبز الوحيدة التي في أيديهم، حتى وان كانوا على وشك الموت جوعاً. كانت مثل هذه الالتفاتات بالنسبة للبقية من زملائي الدنماركيين محط إعجاب سريع، وتستدرج ابتسامات ضئيلة لا تدوم طويلاً. بالنسبة لهم فان هؤلاء مجرد أناس لطفاء وكرماء؛ كرماً بدائياً يتمتع به الإنسان الذي لم يختطفه العالم المتحضر بعد. أنا الوحيد ربما الذي كان يعلم بأن هذه الأخلاقيات متجذرة وأعمق مما تبدو عليه.

كنتُ أسمع مثلاً عن الغيرة العراقية، وكانت في ظني محض توصيف فيه مبالغة وجرعة عالية من العواطف الوطنية المبتذلة. لكني شاهدتها بأم عيني. شاهدتهم وهم ينقضون على عناصر تنظيم الدولة وكلهم إيمان بحتمية أن يستعيد العراق سيادته وعافيته، باذلين

أغلى ما يملكون لأجل هذا المقصد. كانوا جميعاً، ورغم ما مر به العراق، ما يزالون يحلمون بيوم يشهدون فيه وطناً حراً، آمناً وسعيداً. وكنتُ أعجب لهذا الإصرار، إذا ما تذكرتُ أن هؤلاء جميعاً قد ولدوا في لبّ الفوضى، وعاشوا عمرهم كله دون أن يعرفوا معنى الأمان الحقيقي. منذ أيام النظام الدكتاتوري وحروبه العبثية وإجرامه وطغيانه، وحتى ما بعد 2003، حيث شهدوا هذه الدستوبيا الواقعية التي أعقبت الاحتلال الأميركي للعراق، والفوضى التي أفرزت مليشيات وأحزاب طائفية، تقتل الناس لمجرد الهوية المغايرة، والاسم الدال على الطائفة الأخرى.

في خضم أيام قليلة اكتسبتُ احترامهم. اكتشفتُ سريعاً، أن العراقيين بشكل عام يسهل خداعهم بالمظاهر الكاذبة. كانوا يروني ملاصقاً للجنرال وظنوا بأني صاحب قرار أو ذو شأن، وباتوا يهابونني لذلك. ثم بدأوا ينفذون أوامري حتى تلك التافهة منها. فكنتُ أدخل عليهم قائلاً بصوت حازم:

ـ «منو أحسن واحد بيكم يغني؟»

فيشيرون إلى اثنين أو ثلاثة من بينهم. فأقول:

ـ «أريدك تسمعني موال، بحيث أطلع متّا أبچي».

فيرد بإذعان:

ـ «حاضر سيدي، تأمر سيدي».

كنتُ قد سمعتهم قبلها بأيام يغنون ويدندنون مواويل جنوبية أثارت إعجابي وشجني معاً، فأردتُ استعادة التجربة.

أحيانا أخرى كانوا يرددون أشعاراً عامية جميلة، وتعرفت من خلالهم إلى أنواع من الشعر كالأبوذية والموال، والتي كانوا يختمونها أحيانا «بهوسات شعبية [(12)]»، فيرقصون وهم يرفعون أسلحتهم في الهواء. وحين أخذ مني الحماس مأخذه في إحدى المرات، وجدتني «أهوس» معهم، رافعاً بندقيتي عالياً مثلهم تماماً، بينما سعادة مجنونة ترقص في قلبي. ولمحني الجنرال الدنماركي وأنا أشارك في الهوسة فأثنى بعدها قائلاً: ـ«هذا السلاح وجد لأجل مهمة واحدة، وهي قطعاً ليست الرقص».

فأجبته مشاكساً:

ـ «ذاك في الدنمارك. أما الآن فنحن في العراق».

بالرغم من تحذيره، بدا الجنرال متفهماً ومقدراً اندفاعي ومشاعري التي باتت مُستَثارة وجياشة، كلما تقدم بنا الوقت وكلما استقررت أكثر في مكاني الجديد، وهذه المرحلة العجيبة من حياتي.

* * *

لم يستغرب أحد من العراقيين الذين ألتقيتهم لغتي العربية الجيدة، لعلهم ظنوها مثبتة في وجداني بشكل افتراضي. إذ نادراً ما كنتُ أقابل نظرات استفهام أو حتى أواجَه بسؤال مباشر عن لفظي للفصحى، والإسقاطات ذات البيان التي أختارها في معرض حديثي. في المرات القليلة التي حدث فيها ذلك، كان غالباً ما يأتي السؤال من أشخاص قضوا فترة من الزمن خارج العراق، فعرفوا صعوبة المحافظة على اللغة العربية في مثل هذه الأجواء والظروف؛ أحياناً أخرى كان يأتي الاستفهام من بعض المترجمين العراقيين الذين كنا نتعاون معهم، فخبرتهم اللغوية تفترض مثل هذه الأسئلة حالما يعرفون أني قد نشأتُ في أوربا منذ الصغر.

في الواقع فأن لغتي العربية هي نتاج تربية قرآنية بحتة. فقد ربانا والدي، أنا وأخوتي، على أحكام التلاوة والتجويد مع الحفظ المستمر لعدد كبير من الآيات والسور. فكان طبيعياً أن تتحسّن لغتي الفصحى، وأن أستعين بها على العامية العراقية بعد ذلك إذا ما شعرتُ بالإحراج، لأنني كنتُ أنهل اللغة العربية من أحد منابعها الأساسية، وهو القرآن الكريم. ثمة من يفترض طريقاً واحداً، خطّياً، لكل الخبرات والفرص والتعلم والتثقيف، فيظن أن الطريق إلى اللغة مثلاً هو مقاعد الدراسة فحسب. والحقيقة هي أن الناس ليسوا سواسية في اتخاذ مسالكهم في هذه الحياة، وقد أذهلني اكتشاف أني في الواقع متمكن من الفصحى أكثر من عرب كثيرين لا يزالون يعيشون في المنطقة العربية، وذلك على الرغم من نشأتي الغربية، وأصل أسرتي الكردية القادمة من مدينة خانقين. القشرة الخارجية من شكل ومظهر وظروف وملابسات دونما تعمق، قد لا تشي بالقصة الحقيقية، ولا تستوجب بطبيعة الحال التعمق وتحليل ما بين الفوارز والسطور. إذ ربما لن يصدق أحد أنني حافظ للقرآن الكريم ومجاز فيه من الأزهر الشريف، وأنني كنتُ على وشك المشاركة في مسابقة عالمية للقرآن لولا ظرف ألم بي وكان خارجاً عن إرادتي.

كانت فترة اختباري في الأزهر قد امتدت لبضع شهور قضيتها في القاهرة، حيث استأجرتُ شقة تبعد مسافة معقولة عن مدينة نصر حيث مجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر. كنتُ أواجَه أحياناً بسؤال ترى لماذا لم تفكر في أي مكان آخر غير مصر؟ كأن يكون إيران على سبيل المثال، ربما لكوني شيعي المذهب. وكان ردي دائماً أن فن تلاوة القرآن الحقيقي، هو عند المصريين فقط. فكانت مصر تمثل بالنسبة لي المنبع الأصلي والحلم الذي راودني طفلاً، حيث كنتُ أنوي تغذية هذا الشغف الذي لازمني منذ نعومة أظفاري.

في اليوم الأول اتجهتُ إلى مجمع البحوث الإسلامية وأخبرتهم ببساطة عن نيتي نيل الشهادة في قراءة القرآن. قابلتني عيون متسائلة في حيرة، فأعدتُ الكلام الذي كنتُ قد حضّرته مسبقاً بأني قد أتيت طلباً لنيل الشهادة من الدكتور أحمد عيسى المعصراوي[(13)]. وسألتهم ببراءة:

ـ «أين هو الدكتور أحمد المعصراوي؟».

رغم ابتساماتهم الساخرة بعض الشيء من اقتحامي المكان على هذا النحو، إلا أنهم ردوا عليّ بلطف وطلبوا مني الجلوس لانتظاره. وتفاجأتُ لمّا علمت أنهم قد أجلسوني لانتظاره في مكتبه. فكّرتُ في سري وأنا أتفحص المكتب المتواضع، بأن قامة كهذه يستحق أن يكون في غرفة أفضل، لمكانته العلمية، ولما عرفته من عطائه السخي في هذا المجال، لا أن يكون مكتبه في مثل هذه الغرفة، حيث جهاز التكييف المتهالك، الذي ينفث هواءً ساخناً بدلاً عن أن يلطّف من حرارة الجو الخانقة.

وجاء المعصراوي محاطاً بمجموعة من الرجال، إذ صادف لحظي العجيب أن يكون هذا يوم اجتماع لجنة المصحف، فكان المحيطين بالشيخ عبارة عن مجموعة من فطاحل القراءة في مصر وربما في العالم الإسلامي بأسره. رجال من حفظة القرآن العتاة لا تزل ألسنتهم عن حركة واحدة فيه، بل يجيدونه عن ظهر قلب بالروايات العشرة كلها. وكان ارتباكي في تلك الدقائق ملحوظاً وأنا أقف أمامهم حيث قيل للشيخ بأني أنتظره لأمر هام فسألني عن مطلبي، فرددتُ محاولاً تجاوز ارتباكي قدر المستطاع:

ــ «اسمي مصطفى المعلم، أنا قادم من الدنمارك. وأطمح لنيل إجازة في أصول التلاوة».

بدأت نظرات الاستغراب تلتهمني، فيها نوع من السخرية المبطنة، ثم تبادلوا ابتسامات ونظرات ذات مغزى فيما بينهم، ولعلهم كانوا يتساءلون في سرهم: «من هذا المجنون؟!»

ولا أدري حقاً أكانوا قد استقبلوا شاباً مثلي من قبل أم لم يفعلوا؟ فقد كنت في منتصف العشرينيات في حينها مأخوذاً بالرياضة ومهووساً بصنع جسد معضل. ولم يخطر في ذهني أن أغير ولو قليلاً من طريقة ملبسي وتسريحة شعري. فكنتُ أرتدي «تي شيرت» يلتصق بجسدي، وأضع قلادة حول الرقبة كانت في حينها موضة بين الشباب في كوبنهاغن. أما شعري فمقدمته كانت تقف عالياً في الهواء، معاندة للجاذبية بفعل كميات الجل المستخدمة لتصفيفه.

سألني الشيخ مباشرة:

ــ «انت حافظ؟».

ــ «مو كل القرآن».

ــ «ما ينفعش».

ــ «ليش؟».

هنا سمعتُ أحدهم يقول بتهكم:

ــ «في إيه يا عم. أنت جاي على الكبير عايزه يجيزك وانت مش حافظ؟».

سألوني بضع أسئلة سريعة عن أصولي ومن أكون، وقد يبدو غريباً بعض الشيء أن يتجاوز الأخوة المصريون هويتي الفرعية الشيعية لينتقلوا إلى السؤال الأكثر أهمية، إذ بادرني أحدهم:

ــ «أنت دنماركي فعلاً؟».

ثم التفت إلى رفاقه مكملاً سؤاله وهو يشير إلي:

ــ «مش هم دول اللي سبّونا وسبّوا الرسول؟».

وانبرى أحدهم قائلاً بجفاء:

ــ «إحنا ما بنتعاملش مع الأشكال دي!».

ــ «جرى إيه يا شيخ عبد الله؟ ما تخليك خفيف شوية».

قال آخر.

أما أنا فهمّي كله كان منصباً على الرجل الجالس أمامي، والذي بقيَ صامتاً يتابع الحوار دون إبداء ردة فعل. لكنه قام فجأة وابتسم ابتسامة فيها شبه اعتذار ثم غادر الغرفة. وقررتُ ألا أستسلم فلحقته. أخيراً، قال كأنه يريد أن ينتهي مني ليس إلا:

ــ «اتكلم مع الراجل ده».

كان شيخاً فاضلاً يدعى «حمد الله»، أسرني بلطفه وحسن خلقه. باغتني سائلاً:

ــ «لو فتحت المصحف الآن، تقدر تقرا؟».

أجبته بإصرار: ــ «طبعاً!».

من سؤاله بدا أنه مشكك في كوني أجيد القراءة بالعربية من الأساس. أحضر مصحفاً وفتحه:

ــ «اقرأ من هنا».

قرأتُ قرابة الصفحتين بارتباك. لكني حالما انتهيت نظرت اليه فوجدتُ وجهه يبعث على الأمل. ثم قام قائلاً:

ـ «تعال معايه».

أخذني إلى القاعة حيث اجتمعوا، ثم اتجه الشيخ حمد اللّه إلى المعصراوي ليقول بلطف:

ـ «أنا سمعت الراجل. بيقرا حلو».

رد الشيخ مستنكراً:

ـ «انت مقتنع بالواد ده؟!».

فقلتُ محاولاً ملاطفته علّه يلين:

ـ «ماله الواد ده يا سيدنا الشيخ؟».

ـ «واللّه ما أعرفش يا بني، شكلك مش ولا بد».

ثم استطرد مغلوباً على أمره كأنه يود الانتهاء من هذه الورطة:

ـ «طيب، اقرأ».

وهنا أسقط في يدي. ولا أعرف كيف استجمعتُ شجاعتي لأقرأ، ومن شدة ارتباكي أضفت حرف واو في غير محله، فسمعتُ اثنان يقولان باسترخاء وفي وقت واحد:

ـ «مفيش (وَ) هنا».

ابتعلتُ ريقي ثم أكملتُ. ولا أدري حقاً كيف كانت قراءتي تلك وكيف اجتزتُ الاختبار، إذ يبدو بأني كنتُ مقبولاً رغم الانطباع السيء الذي تركته لديه. رشح الدكتور المعصراوي ثلاثة من الحاضرين، وطلب منهم أن يستلموا مهمة سماعي وتحفيظي. بعدها صرتُ ألتقي بهؤلاء كل يوم ولمدة ثلاثة أشهر تقريباً، حفظتُ خلالها ما كان ينقصني وتم الاستماع لي وأنا أقرأ القرآن كاملاً. ثم في النهاية خضعتُ لاختبارٍ أخير واستلمتُ الشهادة التي سلمني إياها شيخ عموم المقارئ المصرية بنفسه، وقد كتبها بخط يده.

لا تزال هذه الشهادة قيمة جداً بالنسبة لي، وكانت مصدر فخر كبير لوالدي الذي بكى لمرآها، ولعلها المرة الأولى التي أشهد فيها دموعه، فقد فرح بها فرحاً هائلاً؛ أكبر من سعادته لنيلي الماجستير فيما بعد. رغم ذلك بدا اهتمامي وسعيي للشهادة مستغرباً، حتى من قبل الشيوخ الذين درسوني القرآن. سألني أحدهم بعد أن بات بيننا نوع من الميانة والألفة عن سر إصراري، سيما وأنني أسكن في أوربا وأسلوب حياتي، ودراستي وعمري، لا يفترضون مثل هذا الاهتمام، كما أنني ــ وهذا هو الأهم ــ لن أعمل فعلياً بهذه الشهادة، ولن أحقق منها هدفاً مادياً. وكان ردي ببساطة أن السر في الشغف! فتلاوة القرآن وتعلمه شغفي الذي رافقني مذ كنتُ صغيراً. وظننتُ بأني قد أشبعت فضوله بهذا الرد، لكن بدا واضحاً أن الرد لم يكن كافياً، ولبث ينظر لي بتعجب واستغراب؛ ربما لأن مسألة الشغف تبدو عبثية في هذه المنطقة من العالم، حيث يرتبط كل سعي بالمأكل والملبس وتوابعهما الاستهلاكية. وربما تحركَت في هذا السياق، عقليتي الأوربية، التي تأمل في أن يؤطَّر الشغف والمعرفة أو المهنة، أياً كانوا، ومهما كانت بساطتهم أو فرادتهم أو حتى أهميتهم، في إطار الشهادة التي تثبت الخبرة والإمكانية. لكن بالنسبة لهؤلاء الناس القادمين من الشرق، فإن الوضع برمته مبهم وغير مألوف. ولعلهم احتسبوه نوع من البَطَر، ومجرد مضيعة للوقت والجهد والمال.

* * *

هكذا، ترددتُ بين الدنمارك والعراق لعدة مرات، كنتُ خلال هذا الوقت قد أصبحت رئيساً لقسم المترجمين برتبة رائد. وقبل أن نرحل في بعثة الناتو إلى العراق، بات جزءاً من مهتمي الأساسية هي تعريف وتدريب الجنرال، الذي عُرف باسمه المختصَر، «پي پي». ولم تكن تلك مهمة صعبة مع رجل متفان مثله، حتى أنه حفظ كلمة ترحيبية باللغة العربية امتدت لدقيقتين، في أول يوم لنا، ألقاها من دون ورقة. وكان قد افتتح الكلمة بآية قرآنية: «إن أريد الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلتُ وإليه أنيب». أثار ذلك حماس العراقيين الذين وقفوا وصفقوا له، إذ هو يخاطبهم بلغتهم وبأدبياتهم التي تحرك في نفوسهم الألفة، كما أن الإحساس المتضخم بالاستعلاء والهيمنة الثقافية، حتى وان كان لدقيقتين فقط، على هذا الرجل الغريب ذي الملامح الأوربية، يؤتي بثماره مباشرة.

تعوَّد الجنرال «پير پوغهولم أولسن»[14]، أن يلقي كلمة نهايةَ كل اليوم، كنتُ أحرص على أن أصيغها له، فأبتدئها بآية قرآنية، لمعرفتي أن التعاطي مع العاطفة الدينية لدى العراقيين أمر هام جداً، حتى وان لم يكونوا ملتزمين دينياً أو مؤمنين، فإنَّ الاقتراب من هذه المناطق الحساسة من ثقافتهم، تعد عاملاً قيّماً لكسب احترامهم. وكانت ثقافتي القرآنية حاضرة بشدة، والآيات واسقاطاتها تسري على لساني دون جهد. ومثل كائن زئبقي قابل للتكيّف، ويتشكّل بقدرة خارقة عبر الإيحاء، تعلمتُ التكيّف مع هؤلاء الرجال العراقيين. شعرتُ بأن مارداً خفياً سكنني لسنوات عمري كلها، وها قد استفاق بعد أن ربتت عليه قلوب هؤلاء الغرباء، الأقربين. مع الوقت، اكتشفتُ أني بتُّ أستطيع فهم أمثالهم دون عناء الشرح، ويمكنني الضحك على نكاتهم مباشرة وقبل أن أحاول تقليبها في رأسي، وسرعان ما بدأتُ أستخدم مفرداتهم الجديدة كلياً عليّ.

كان «پي پي»، قد تلقى تدريبات صارمة قبل السفر، وحرص على معرفة أدق التفاصيل عن العراق وثقافته وتأريخه، حتى أنني وإياه ذهبنا إلى مطعم عراقي في كوبنهاغن، وتناولنا طعاماً عراقياً، وعرّفته بالأكلات وبمناسباتها وبطريقة أكلها.

حين دعانا فريق ركن عراقي على الطعام في أحد الأيام، أشار «بي بي» بثقة إلى السمك «المسگوف» قائلاً بأنه سيأكله بيده كما يفعل العراقيون. ابتسم الفريق ركن ثم قال: ــ «الذي علّمك ذلك، ليس خبيراً بما يكفي. إذ نسي أن يخبرك بأن من تقاليدنا البدء برأس السمكة أولاً»؟

رد پي پي: «الذي علمني هو واحدٌ منكم. مصطفى»!

فضحك الفريق ركن قائلاً بتعجب: «مصطفى؟! مصطفى ليس منا، بل منكم».

هكذا تقاذفني الاثنان لبعضهما. اللغتان، الثقافتان، البلدان، اللذان يفترض بي الانتماء لكليهما.

أيهما سيربح الرهان يا ترى؟ الأصل؟ أم المنشأ؟ ابتسمتُ ولم أرد.

تركت رحلاتي إلى العراق، بكل تفاصيلها الحساسة، أثراً غائراً في نفسي، رغم كل محاولاتي في بادئ الأمر تحييد مشاعري والابتعاد عن تصنيفها. أسائلُ نفسي أحياناً، هل تُراني أستطيع إغفال المحبة الكامنة في صدري تجاه العراق؟ كيف اكتشفتُ أصلاً بأنني أحب هذا البلد؟! وما شكل هذا الحب غير المعرَّف؟ كيف أحب بلداً ليس لي فيه ذكرى؟ كيف أتمسك بتفاصيل وخيالات أناس آخرين، وبحيوات وظروف لم أعشها؟ كيف لي أن أفهم الفجر في يوم صيفي قائظ؟ أو الشتاء الهادئ النديّ، الذي لا يرغي ولا يزبد؟ أو أن أحبَ منازلهم المبنية من الطابوق، والحدائق البغدادية المتسقة التي يتوزع في أركانها النخيل وشجيرات النارنج؟ أنا راشد بما يكفي لأعي جمالها وأناقتها! لكنها لا تثير فيّ أي شغف، تماماً كما لن تثير التفاصيل الدنماركية شغف أي عراقي سأحدثه عنها. فهو لن يتعرف إلى طعم القهوة بالحليب التي تشربها على عجل أثناء انتظارك القطار، أو رائحة فطائر القرفة عند انحناءة الجادّة حيث المخبز العتيق، أو تلك الدهشة التي تغمر الروح، وانت تراقب الشوارع التي حفظتها، فتكتشف بأنها تعرفك هي الأخرى على نحو أفضل!

كنتُ كلما سافرتُ جنوباً في رحلة صيفية، أستغرب أيام الصيف التي تنتهي في دول الشرق مبكراً؛ حينما يهبط الظلام على نحو يبدو مفاجئاً ودون سابق تمهيد! فأبقى حائراً، متمسكاً بضوء النهار، ومستبقياً أشعة الشمس كي تظل مشرقة، تماماً كما هو الحال في الشمال، في ليلة بيضاء، مضيئةٍ وطويلة كأنها يوم أبدي بلا نهاية. حتى جلدي الشرقي السميك، يُهيَّأ لي بأنه قد تأقلم وتكيف مع الأجواء الباردة.

لا شيء يشي بأصولي سوى إقراري بها، مع بعض المحسّنات، مثل مظهري الخارجي مثلاً. لا شيء يشير إلى أصولي العراقية مباشرة، سوى الحب الذي أكنه لهؤلاء الناس، لكوني أشعر برابط خفي ممتد عبر الزمن، يشدني إليهم. كما أن لا شيء يشي بانتمائي للدنمارك سوى الحب أيضاً. فأصلي دخيل وقصيّ، لكن قلبي وكياني منتميان. ولا يسعني مطلقاً إغفال ماضيّ وتأريخي، فمن سأكون أنا وما الذي ستتشكل منه هويتي لولا ذلك الجانبُ الدنماركي الثابت فيها.

في إحدى مرات عودتي من مهامي الخارجية، وبعد ان قضيت شهوراً طويلة خارج البلاد، وصلنا إلى مطار «كاستروپ» بكامل قيافتنا العسكرية، استقبلني شاب دنماركي عند حاجز الجوازات. ختم جوازي ثم ابتسم قائلاً:

ــ Velkommen hjem!(مرحباً بك في الوطن!).

أي وطن يعني؟ هل يعني ذكرياتي وطفولتي ونشأتي؟ أهلي وأطفالي وشريكة حياتي، وأصدقائي؟

ربما يكون الوطن، هذه الأرض التي لا أعرف غيرها، والأجواء التي يرتاح لها جسدي وتسكُن لها روحي، بالرغم من كل حفلات التذمر التي نثيرها حالما نكتشف أن الشتاء قاس، وكئيب، ويبدو وكأنه بلا نهاية، وباق إلى الأبد!

إنه الوطن الذي لم يعرف الضمير محلاً غيره، ولم تترعرع الروحُ إلا فيه، ولم تشتد القوى إلا فوق أرضه. وها هو ذا، قد بنى وصقل الكيان والوجدان، القيم والمبادئ، وكل تلك التفاصيل التي قد تبدو صغائر لكنها شكلتني وصنعتني.

فالذات هي تلك الذكريات وتلك السفاسف الصغيرة! وها أنا ذا، متقبلٌ لها كلها، ومحتفٍ بها كلِّها. وليس بوسعي محو أي تفصيلة، وإلا غدوتُ آخر!

أنظرُ إلى الأفق المفتوح، فأرى ذاتي بوضوح تام. أعرفها اليوم أكثر بعد أن جمعتُ الصور الصغيرة المقطعة في لعبة البازل هذه. لا شيء في الأفق غير حقلٍ ممتد، وبحرٍ هادئ، في ليلةٍ صيفية بيضاء، تستعدُ لتتحلى فيها السماءُ بألوان ليلكية.

تتردد آية قرآنية في سرّي، تنبض في داخلي كأنها دقات قلبٍ آخر. قلب جديد، نشط وشاب وأكثر حيويةً، من قلبي الذي أتعبته الأسئلة: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ [(15)]».

* * *

السردية الثانية

عائشة ــ زينب الجيزاني.. ذاتٌ مشطورة تحت حجابٍ واحد

ثمة أشياء تتراءى بسيطة وهيّنة إذا ما راقبتَها من الخارج. السطح يبدو هادئاً، ووديعاً، وكل التفاصيل تبدو بريئة. لكنك متى ما ألقيتَ نظرة أعمق، سيتضح أن الأمر متأزم بل وفي غاية التعقيد. هكذا هي طفولتي التي كان يفترض أن تكون وادعة، إلا أن القدر لم يشأ لها أن تبقى كذلك. فثمة عواصف هائجة كانت تدوي في داخلي، في حين كنتُ لأبدو من الخارج، ساكنة، ورائقة. وتبدو حياتي بسيطة، بل وربما بدت متوازنة، وتقترب من المثالية.

لعل طفولتي كانت لتسير بشكل أقل إرباكاً، لو أن والديَّ لم يتحمسا لقرار الانتقال إلى كوبنهاغن، وبذلك الانتقال من مدينة «إسبيرغ»[16] إلى العاصمة. اتُّخِذ القرار، دون مشاورة. كان علينا ترك المدرسة التي درسنا فيها سنواتنا الدراسية الأولى، لأن أبي كان قد سمع أن مدرسة عراقية، سوف تفتح أبوابها في الفصل الدراسي القادم، وذلك للطلاب العرب والعراقيين تحديداً. تتخصص المدرسة بدروس دنماركية معتادة، لكنها تضيف لذلك درسي اللغة العربية والدين.

كانت مجرد مسألة عدم إشراكنا في القرار، أنا وأختي التي تكبرني بعام، وعدم قدرتنا على القبول أو الرفض، قد جعلت المرحلة المدرسية تلك ثقيلة على كلينا. إذ أن والدي كان متحمساً للغاية، ولن يفاصل في مسألة العودة للانخراط في مجتمعه الذي يحن اليه، هو الهارب من صخب العراق في الثمانينات، وبدل أن يقضي أيامه في مدينة إسبيرغ البعيدة والمنعزلة، ها أنه قد توفرت له فرصة التواصل من جديد، في مجتمع مصغّر، كان سيترك آثاره المتلفة علينا جميعاً.

كانت أختي قد أعادت السنة التمهيدية في مدرستنا الشعبية في إسبيرغ، وذلك لأن مهاراتها في اللغة الدنماركية لم تكن قد صقلت بعد في تلك السن المبكرة، ولهذا السبب فقد درسنا معاً في المرحلة ذاتها؛ إلا أنهم حرصوا في المدرسة الدنماركية على فصلنا في صفين مختلفين، كي لا نعتمد على بعضنا كثيراً، وكيما نطور مهارات اجتماعية صحية.

لكن حين استُقبلنا في الصف الثالث الابتدائي في المدرسة العربية الجديدة، لم تكن ثمة فصول أخرى، فالمدرسة كانت صغيرة جداً وناشئة، فوضعونا نحن الاثنتين معاً في فصل واحد. أعاننا ذلك على جعلنا أكثر تمسكاً وتعلقاً ببعضنا، فقد كانت صورة إحدانا تنعكس في الأخرى، ولم نشعر بالوحدة التامة ونحن نندفع باتجاه الانتقالة العظيمة تلك، لأننا خضنا كل الصعوبات معاً، ما خفف على كلينا بعض تلك الصدمات التي ستستقبلها طفلتان لم تتجاوزا التاسعة بعد.

أقل ما يمكنني قوله هو أن تجربة المدرسة العربية تلك، لم تكن جيدة بالنسبة لي؛ ولأنها لم تكن محمودة بالمرة، لم يخيل لي أبداً أنني سوف أكبر لأصبح معلمة. كان عالم الراشدين الذي صنعته خبرة التواصل مع المجتمع العراقي، ذلك المجتمع الموازي داخل المجتمع الدنماركي الكبير، قد خلقت في ذهنيتي الطفولية، في ذلك الحين، نوعاً من الرفض أو معارضة التماهي مع ذلك المجتمع، أو حتى التشبه به. ولذا فان آخر ما كنت أتوقعه هو أنني سأكبر لأحاكي المهنة التي كنتُ أنفر من ممتهنيها من الراشدين، وذلك النموذج الذي لم أحبذه كثيراً.

* * *

بحسب علمي، لم ينجح أحد في الوقوف بوجه المجتمع الموازي للجالية العراقية، وما كان يفرضه من أدبيات أو قيم، ولا سيما تابوهاته المتعددة والمنوّعة؛ ولا سيما في ذلك الوقت المبكر من تجربة الاغتراب بالنسبة لنا كجماعة. ثمة دوامة هائلة كانت تبتلع الجميع، ولم ينجُ منها أحد. حتى أبي! أبي الذي لم يكن تقليدياً بالمقارنة مع باقي الآباء، وكان متقدماً في أفكاره، ورغم كل المخاوف التي لا بدها اعتملت في داخله، إلا أنه ومنذ ذلك الحين، كان متقبلاً لفكرة أن أولاده سينشؤون عراقيين بالاسم فقط، وسمعته يتحدث عن الانسان الكوني في وقتٍ مبكر جداً، حتى قبل أن يصبح الانسان الكوني موضة ما بعد الحداثة التقدمية، التي ينادي بها الطليعيون، بوصفِهِ اكسسواراً جديداً من الاكسسوارات الثقافية/المجتمعية الجديدة.

علّمنا أبي، أن البلد الذي يحميكم ويحتضنكم هو وطنكم الحقيقي، حتى وأن كان ذلك مع المحافظة على الدين وتقاليد البلد الأم. وقد يكون السبب في تعرفه إلى أن طبيعة الهجرة سوف تنقله وأسرته إلى موقع مختلف كلياً عن ذاك الذي خبره، هو أن والدي يعود إلى أصول كردية لكنه نشأ وتربى بين العرب، حتى أنه لم يتعلم لغته وثقافته الأصلية أبداً. ومع ذلك لم يحاول قطُّ حمايتنا من المجتمع الموازي، ذلك الصغير في حجمه، شديد القسوة وعظيم الأثر. ولعله كان أفتّر من التصدي أو التمرد المباشِرَين، إذ لم يفضل أبداً المواجهات الصلفة، بحكم طبيعته المسالمة ربما.

بوصفي دنماركيةً من أصول شرقية، تؤلمني الصورة النمطية، عن الأب الشرق أوسطي أو المسلم تحديداً؛ تلك التي تحكي سردية نمطية عن أب قاس ومتجهم، مستبد، يعنّف أولاده، ولا سيما الإناث منهم، ويحول حياتهم لجحيم ما أن تطأ قدمه عتبة البيت. فوالدي هو على النقيض من هذه الصورة تماماً. إعادة النظر بأبوة الرجال الشرق أوسطيين بالمجمل، عُدّت لديّ كنوع من التمرد، أو كواحدة من تلك الثورات الداخلية الأولى، على الصور النمطية بالمجمل. وبالرغم من كل الصعوبات النفسية والاجتماعية التي نشأتُ أجترّها بسبب تنازع الهوية، والتقبل ومن ثم الرفض، ومحاولات التكيف مع المجتمع الموازي أو ذاك الكبير، كان والدي الملاذ الوحيد لي. كنتُ أعلم أن بإمكاني طرح الأسئلة التي تعشش في كياني القلق، مهما كانت محرجة أو مزعزعة، وبأنه سيرد بنبرته الهادئة الواثقة، وابتسامته الصبورة التي لا تفارقه. كان سبباً مباشراً في تطوير تفكيرنا النقدي والجدلي، مهما احتدم النقاش، ومهما كانت الأسئلة ثائرة ومهتاجة على الواقع، حتى وان كانت تنحو باتجاه ما هو ديني وروحي، أو ثقافي وعقَدي، كان هو يُظهِر التقبل ويشجع على الجدال، فبه وحده تنمو العقول وتتكون الشخصيات.

وبعد دخولي المدرسة الثانوية وتعرفي إلى الفلاسفة الغربيين، اتخذَت نقاشاتنا مناح واتجاهات أخرى، سيما بعد أن تعرضتُ لأزمة شخصية أقعدتني عن التعاطي مع العالم الخارجي لفترة، وقذفَت بي إلى تساؤلات وجودية غيرت من مصير حياتي فيما بعد، وعلى

نحو لم أكن لأتوقعه. كنتُ أخبره في كل مرة اطّلع فيها على اسم جديد، وفكر يكون بالنسبة لي غريباً. نيتشه، كانط، فرويد، فولتير، أو حتى فلاسفة العصور القديمة، سقراط وأفلاطون، كنتُ أفاجأ بأنه يعرفهم، ويناقشني في أفكارهم. ربما بدا الأمر مفاجئاً بالنسبة لي، بسبب أن بعض ما يطرحونه من فكر، كان ليبدو متعارضاً مع ما يؤمن به هو. أو ربما لأنه لم يكن من النوع الاستعراضي في أفكاره وقراءاته وطروحاته، فلا يثرثر ولا يهتم كثيراً لجذب المحيطين به لقناعاته. كنتُ أذكر الأسماء ببعض الحذر. وكان يشجعني على الاستزادة، وعلى قراءتها حتى خارج النسق المدرسي.

آسَفُ أحياناً للجدار الوحيد الذي يفصلني عن أبي، وهو اللغة. إذ عانى كثيراً مع اللغة الدنماركية الصعبة، ويبدو أنه لم يمتلك من الموهبة ما يكفي لتتحقق لديه ملكة لغوية جيدة إلى جانب عربيته، والتي كانت بخلاف الدنماركية، فصيحة وممتازة. وأظن أنه لو حدث وتوفرت له موهبة معقولة باكتساب اللغات الأجنبية، لكانت حياته قد اختلفت بقدر ما. لعله كان سيقدم للمجتمع الدنماركي إسهامات أكثر بكثير، لو أنه امتلك لغة أفضل. لكنني لا ألومه اليوم، وأرى بأنه قد أدى واجبه الاجتماعي تجاه البلد الذي يحتضنه، من خلال كونه انساناً لائقاً، ربى أولاداً صالحين، ساهموا بشكل جيد في المجتمع الدنماركي وحازوا على قيم دنماركية مهمة وأصيلة، ويدفعون الضرائب بانتظام. بهذا، فان إسهامه في المجتمع كان بطرق قد لا تعد مباشرة، لكنها مستقيمة وفعّالة. وأرى أنه من المهم الحديث عن ذلك، فالمساهمة والمشاركة لأجل المجتمع الذي يضمنا جميعاً، تعد من الركائز الأساسية في القيم الدنماركية، غير أن بوسعها أن تأتي بطرق عديدة ومختلفة. وهنا ينبغي أن نؤكد، أن على الأفراد أن ينظروا إلى بعضهم البعض على أنهم موارد متنوعة، بدلاً من رصد الفائدة والمكاسب فقط. من الأمور التي تؤسفني في النقاش القائم في الدنمارك، بشأن الآباء من ذوي الأصول الشرقية أو الآباء من الجيل الأول من المهاجرين، هو مثل هذه النقطة على سبيل المثال، إذ من المهم أن يشعر هؤلاء بالتقبل والترحاب بغية تفعيل إنتاجية أعلى لتصب في صالح الإنتاجية الاجتماعية. فهم مرجع أساس لفئة من الأطفال ستنخرط مستقبلاً في المجتمع، وتسيّر عجلته كما هو متوقع ومطلوب.

من ناحية أخرى، عليّ أن أعترف، بوجود العديد من الأشخاص من ثقافتنا الأبوية الذكورية، ممن يستخدمون الدين والتقاليد لتكميم الأفواه، أو لأجل إشاعة أسلوب حياة واحد فقط، وازدراء كل ما هو مختلف. أظن أننا في المجتمعات ذات الخلفية الشرقية/ المسلمة، بحاجة إلى تعلم مفهوم التسامح والتعايش، وتقبل الاختلافات والأنماط الحياتية المتنوعة للبشر. وبذكر ذلك، فإنني أرى أن من واجبنا حتماً التحسين والتطوير من هذه البراعة الاجتماعية.

* * *

بالرغم من الفكرة السائدة عن الشرق أوسطيين، بأن شعوبهم تمتلك فيضاً في المشاعر والعواطف، والدفء الأسريّ الاستثنائيّ بالمقارنة مع غيرهم من الشعوب، إلا أنني أرى ان الكثير من هذه المظاهر هي في حقيقتها زائفة، واستعراضية. فهذا الفائض هو في أصالته انعكاس للشُح العاطفي لا العكس، لأنه في جوهره غير متوازن.

كنتُ دائماً ما أرى أن ثمة ما ينقصنا لكي نمرّن مهارات عاطفية صحية، وأهم ما ينقص هذا الكائن الدنماركي ذو الأصول الشرقية، هو الاحتضان والحب الحقيقيّان، والتعبير عنهما بطرق صحية ومتزنة. إذ كثيراً ما لاحظت أن نسبة غالبة من الأسر العراقية في مجتمعنا، وفي تلك المرحلة بالذات، كانت تفتقر للدفء والاهتمام، وإظهار المشاعر الإنسانية والأسرية بشكل صادق. كانت الحميمية شبه منعدمة ما بين الأفراد بالعموم، وكنتُ أراقب هذه التفاصيل عن كثب، ربما لطبعي شديد الحساسية. وبالرغم من أسفي، إلا أنني كثيراً ما التمستُ الأعذار للجيل الأول بالذات، جيل الآباء، فهو لم يترعرع في ظروف طبيعية لكي ينمّي مشاعر صحية، ما سبَّب رضوضاً نفسية تشابكت مع صدمات الحروب والأوضاع المؤلمة؛ ومن ثم جاءت الهجرة بحد ذاتها، كنقلة هائلة تقلب حياة الإنسان كلياً، أي باختصار، كل ما سبق مرحلة الاستقرار في الدنمارك.

لقد كانوا في وضعية «التشبث بالنجاة»، ولذا لم يعلقوا على مثل هذه الشؤون العاطفية أهمية قصوى، ولعلهم ظنوها من السفاسف. أظن بأن الكثير من تصرفاتهم تم التعبير عنها من واقع أزمات غير مُعالجَة، تُترجمها أنماط سلوك غير لائقة، أو أساليب تربية بالية، أو حتى بأثر إحباطات وصراعات لم تُـحَل. بالإضافة لذلك، فهنالك منظور «العيب»، حيث أن الحديث عن المشاعر والعواطف في مجتمعات تنحو جهة التشدد، أو حتى في أفضل الحالات تُحسب محافِظة، يعتبر تابوهاً آخر مضاف إلى حزم التابوهات العديدة؛ ولا سيما ذلك التابو المسكوت عنه، وهو الاحتياج للعاطفة، وليس مجردَ إظهارها فحسب. في رأيي أن غياب العاطفة، الحديث عنها، والتعبير بها، قد لعب دوراً كبيراً في كيفية تفاعل هذه المجتمعات الموازية فيما بينها، وأيضاً في طريقة تعاطيها مع العالم والمجتمع الخارجيين. سواء كان ذلك على مستوى العقل الجمعي أو الفردي.

* * *

كانت المرحلة الثانوية صعبة للغاية عليّ. إلا أن الدراسة بحد ذاتها لم تكن المشكلة. كنتُ قد انهيتُ الصف التاسع في المدرسة العراقية التي لم أحبَها، ثم انتقلت إلى ثانوية Vestreborgerdyd، وبخلاف غالبية الطلاب الشرقيين الذين انتقلوا اليها، كنتُ من القلة الذين اختاروها كخيار أول، وفرحتُ بقبولي فيها. لم أعلم أن تلك السنة بالذات ستغير من مصير هذه المدرسة العتيقة، فيما بعد، بسبب العدد المهول للطلاب من ذوي الأصول الشرق أوسطية، وذلك دون أن تكون في واقع الأمر، خيارهم الأول. فانتهيتُ إلى صف من الفرع العلمي، فيه ثمانية طلاب عراقيون من أصل بضعة وعشرين طالباً؛ حتى أنني شعرتُ وكأني ما زلتُ في المدرسة العربية تلك لم أغيّرها، فمعظم الطلاب، كانوا معي في المدرسة العراقية ايضاً.

وهكذا، تكرر النمط الذي كنتُ أمني نفسي بالفرار منه. الرقابة الاجتماعية، والمتابعة لكل التفاصيل، من الملبس وطريقة الكلام، وحتى نوعية الأصدقاء الجدد الذين يحاول الفرد منا التعرف إليهم، بغية تجديد المياه الراكدة، فنوعية الصداقات هي ذاتها، وقد استمرت لسنوات، رتيبة ومتشابهة وغير متنوعة.

لم تكن الأزمة التي أصابتني بسبب نوعية الدراسة، أو حتى بسبب أجواء الثانوية التي كان يفترض بها أن تكون جديدة وشبابية، اندفاعية وغير مثالية، ومليئة بالعيوب! بل كان السبب مختلفاً كلياً. فمع منتصف السنة الثانية تقريباً، نال مني الاكتئاب، حتى أقعدني

عن متابعة الدراسة لفترة، إذ لم أكن أقوى على النهوض باكراً والخروج من البيت.

كانت أزمة أشبه بها وجودية، لأني كنتُ أعاني من الإحساس بالضياع، وانعدام الأهمية. كنت تواقة للعطف والاهتمام، وشعرتُ أن حب الدنيا كله قد اسئُلّ من قلبي، وأنني لم أحظ بالانتباه أو بالاحتضان والحب الذَين استحقهما، ربما بسبب المشاعر المتخشبة التي كانت معتادة في مجتمعنا الصغير، وحتى بيوتنا. كنتُ أشعر بالتوق والاشتياق لفضاء شفاف لا وجود له، ولأمور لم تُبتَدع بعد. وكانت ترافقني نوستالجيا عاصفة، وحالة دائمة لملنخوليا، تجتاحني دونما مسببات واضحة أو وجيهة.

ولا يسعني هنا تحديد بواعث الإحساس بانعدام الأهمية مثلاً، لأنني كنتُ نشيطة وواعية لأهمية ما نطلق عليه في الدنمارك «روح المجتمع». فكنت أتواصل مع أقراني تماماً كما يفترض بفتاة في السابعة عشرة من عمرها، أن تفعل. بالإضافة لكل هذا، فقد كنتُ محاطة بعدد من الأصدقاء والأشخاص الطيبين والمحبين، غير أن ذلك كله لم يعصمني من الوقوع في براثن الاكتئاب. ربما كانت بعض المسببات متعلقة بالتابوهات الاجتماعية التي تنشط في مجتمعنا المصغّر، والتي تزامن الوعي بها مع الانتقالة العمرية المهمة تلك، والتطور الفسيولوجي. مفهوم الجسد بحد ذاته، كان متنافراً ومتناقضاً مع ذلك الذي تطرحه الذهنية الدنماركية على سبيل المثال؛ تلك التي تتعاطى مع الجسد بأريحية مطلقة، بينما تحوله الثقافة الشرقية إلى مسألة محرمة ووعرة الولوج. كنتُ أشعر بأن العديد من التوجهات والأفكار التي تزدحم بها روحي، لم تُناقَش من الخارج بشكل وافٍ وصريح. وذلك العار! كان يجعلني أتآكل! العار من الفِكر المختَلف، والعقل المتّقد الذي يرفض المسلّمات، والعار من الجسد، حيث ينبغي أن يُستَر حتى أمام مجاميع النساء. أن تخجل وتنفر من جسدك الذي يحتويك! يا للغرابة؟! حتى أنني بعد تجاوز تلك الأزمة بأعوام طويلة، وأثناء إحدى الزيارات لموطن زوجي في المغرب العربي، صفعتني المفاجأة حين ذهبت إلى الحمام المغاربي العمومي، ورأيتُ فتيات مراهقات يتعاطين مع أجسادهن شبه العارية دون خجل أو حرج. حسدتهن على هذه الثقة، وهذا الاستئمان المطلق! حيث كنّ يودِعن أبدانهن في أعين المتفرجات، دونما قلق من أحكام أو حيف، وبعلاقة تبدو مستريحة وطبيعية مع أجسادهن. لا أدري إن كانت فعّالية ارتياد الحمام العام قد خَلقت لديهن هذا الاسترخاء المطلق، أو أنتجت نوعاً خاصاً من التعاطي مع ممارسة أنوثتهن الطبيعية، أم أنها مجرد ثقافة عامة يتمتعن بها؟ إذ كن يحتفين بالجسد الأنثوي بكل أشكاله وانحناءاته والعناية التقليدية به، بالكريمات والزيوت والصوابين المعدة منزلياً، ضاربات بعرض الحائط ما تقترحه هوليود وأغلفة المجلات من مقومات وقوالب تدّعي أنها نموذجية. تلك المثالية جداً، لكونها قد عُدِّلت بالفوتوشوب! كل ذلك كان يثير في داخلي نوعاً من غبطة وأنا أتذكر ذلك التابو الهائل والضخم، الذي عشش داخل روحي وعقلي لسنوات، وتجاوزته بكثير من العمل، والحفر داخل الذات.

* * *

لكي أتجاوز الاكتئاب كان عليّ تغيير المدرسة. فأعدتُ المرحلة الثانية من جديد، في ثانوية Metropolitan، في قلب العاصمة كوبنهاغن. فكرة أن أدرس في الثانوية ذاتها التي تخرّج منها «هانس شيرفيغ»[17]، كانت تثير في داخلي مشاعر جميلة وحماسية. إذ أن روايته «الربيع المنسي»، تُعد روايتي المفضلة أيام المراهقة، ومن الروايات التي أثرت فيّ كثيراً؛ بالإضافة لرواية سوزان هينتون[18]، «الغرباء»، والتي كانت أول رواية أقرؤها في حياتي، وهي السبب في جعلي أتعلق بعالم القراءة والكتب فيما بعد. وأظن الباعث في أنّ هاتين الروايتين قد تركتا بصمتهما عليّ في ذلك الحين، هو أنهما من أدب الفتيان تحديداً، وتعالجان مشاكل شبابية من منطلق اجتماعي، وبالأخص فكرة أن المجتمع لديه اقتراحات وقناعات ثابتة عن الأشخاص الذين يعتبرهم «جيدين أو صالحين». حيث يوضع الأفراد في علب جاهزة ومعدة مسبقاً، وإذا لم تكن العلبة حسب مقاسك فتلك مشكلتك الخاصة اذن! ما عرضته رواية هينتون، هو أن «الغرباء»، هؤلاء اللا منتمون، وعلى الرغم من انعدام اللياقات المتطلَبة، بوسعهم أن يكونوا نافعين، ولديهم المقدرة على النجاح ولكن بطرقهم الخاصة التي قد تتعارض لربما مع الرؤية الاجتماعية المعدّة سلفاً؛ وهو الأمر الذي يقترح نوعاً من العدالة الاجتماعية، برأيي، بإعطاء الفرد قيمة وكرامة، مهما كانت أفعالهم وخياراتهم في الحياة. أذكر أنني بسبب إعجابي الشديد بالرواية، قرأت كل كتب هينتون المترجمة الي الدنماركية، ثم تعرفتُ إلى أدب الكُتّاب الأمريكيين من ذوي الأصول الأفريقية، مثل «أليس والكر»[19] و«ريتشارد رايت»[20]. ومجدداً كان ذلك الهاجس الساحر بالنسبة لي، عن قصص المقموعين والمضطهدين، هو ما يوجهني لاستقبال مثل هذه الاختيارات في القراءة؛ ربما لأنني كنتُ استشعر ظلماً اجتماعياً من نوع ما، بسبب فوضى الثقافات والهويات التي نشأتُ في وسطها. كانت رواية «اللون الأرجواني» لأليس والكر» التي تتحدث عن الظلم من داخل المنظومة العِرقية والاجتماعية نفسها، هو الأمر الأكثر تأثيراً بالنسبة لي، فتلك حالة هي بخلاف الصورة السائدة عن الظلم الذي يُحدِثه عدو أو قِوى تأتي من الخارج. أمر كنتُ أشعر به بشدة، لكن لا أجد القدرة أو الفصاحة للتعبير عنه، أو حتى الجرأة على التفكير به بصوت عال. فهؤلاء الذين يفترض بأني أنتمي لهم، هم أشد الناس قسوة عليّ وعلى وجودي. بينما الآخر، هذا المختلف الذي يحاولون رسم صورة مخيفة عنه في ذهني ــ وفي هذه الحالة أعني الدنماركي ــ كان أكثر رفقاً بي منهم، ولا سيما في حال ما تَخلصتُ من الاكسسوارات التي تبيّن اختلافي ونشوزي عنه، وتواجهت معه على نحو مجرد.

هكذا، كنت أُسقِط كل قراءاتي على واقعي، وكان شعوري بالغبن متفاقماً، وعزَّزت فترة الاكتئاب التي عشتُها في تلك المرحلة، من إحساسي بالاغتراب الداخلي، واحساسي بالانفصال، ورغبتي القوية بالانسحاب. انعدمت الرغبة لدي حتى بالقراءة أو بممارسة الرسم الذي كنتُ أحبه وأزاوله منذ الطفولة. ولأنني كنتُ معتادة على تعليق اللوحات الصغيرة التي أرسمها في غرفتي، انتبه والدي لكوني لم أعد أرسم، إذ لم أعلق لوحات جديدة منذ فترة. دخل غرفتي في أحد الأيام ليجلس بجانبي، ولبث يحدثني بلطف عن الانتكاسات العاطفية، وكيف أنها تكون مؤلمة سيما حين نكون مراهقين ولم نعتد بعد على الدنيا وشؤونها، لكنها سوف تمضي حتماً وسنتذكرها ونضحك منها. واضطررتُ في تلك اللحظة للتبسُّم بعد فترة طويلة لم أقوى فيها على رسم بسمة. كان يظن أنني أعاني من قصة حب فاشلة، يا لطيبته!

ليت أن الأمر كان بهذه البساطة. لم يكن يعلم أن قصة حبي الفاشلة هذه لم تكن مع شاب، بل مع الحياة بأسرها!

وربما أكون قد تشافيتُ بالفعل شيئاً ما، مع تغيير المدرسة، وبعض الأصدقاء. غير ان الوقت قادر على أن يشفي أيضاً، فالحياة تمضي، وأسوأ ما نمر به من لحظات سوف يمضي أيضاً، لا محالة.

* * *

مع ولوجي العشرينيات من عمري، تغيّرت قناعاتي الدينية بخصوص مذهبي الذي ولدتُ عليه. فكنتُ قد ولدتُ لأسرة شيعية ملتزمة، لكنني قررتُ دون كثير شرح، الانتقال إلى مذهب أهل السنة والجماعة. تفهَّم والدي الأمر بهدوء، ولم يعلق، معتبراً ذلك حرية شخصية وليدة قناعات مختلفة، لكن والدتي كانت ترى في الأمر عاراً كبيراً، لأن نساء المجتمع العراقي كن يتساءلن بفضول، «هل صحيح ان زينب قد أصبحت سلفية؟»، «هل هي متطرفة؟» كانت والدتي تشعر بالحرج والخجل، وبحاجة ملحَّة لأن تؤكد لهن، بأنني ما زلت أحب أهل البيت ولن أنبذهم، حتى وان غيّرت مذهبي. لفترة لم تكن بالقصيرة، لبثتُ أستمع لتلميحات دائمة من الآخرين، بأن الموضوع برمته هو مجرد رغبة بلفت الأنظار، أو لعله تمرد من نوع ما على المجتمع العراقي في كوبنهاغن، والذي كان شيعياً بنسبة ساحقة. بعد الكثير من التشكيك، وبعد ان اصبحتُ موضوعاً دائماً على مائدة نميمة الجلسات النسائية، قررتُ أن أغيّر من اسمي في الأوراق الرسمية، وبدل زينب، اخترتُ اسم عائشة، ما يعني ألا رجعة في الأمر بالنسبة لي على الأطلاق، وأنني جادّة في قراراتي التي لا تُخلق لدي من مجرد نزوة فكرية. وربما نشأت في داخلي رغبة لا شعورية ببدء حياة جديدة كلياً، بعيداً عن الماضي المشبع بالخيبات، فكان تغيير اسمي له بالفعل ذلك الأثر البالغ على حياتي فيما بعد، لأن تلك الفترة اتخذت منعطفاً مهماً بلا شك.

بعد سنوات طويلة مرت، ما تزال أسرتي تناديني بزينب، وفكرتُ أن أعود لوضع الاسم كاسم أوسط في الأوراق الرسمية رغم عناء مثل هذه الاجراءات. وأظن بأني لم أعد في نفس المقام الذي كنتُ فيه قبل سنوات، إذ لم تعد لدي الرغبة لإثبات أي شيء، حتى وإن كان ذلك بالضد من قناعات أسرتي، بل ربما تطلب الأمر تبيان العكس لأهلي مثلاً. أي أن أبين احترامي لهم ولاختياراتهم وقيمهم وعاداتهم. من المحتمل أن أحد الأسباب التي جعلتني أعيد التفكير في هذه الأمور، هو أن أولادي الثلاثة، وكلهم ذكور، يقتربون من العمر الذي سيوقعهم في حيرة الخيارات والقرارات المصيرية، ولا أود أن أكون المثال المتمرد فقط في أعينهم، بل أيضاً ذلك المثال الذي يوقِّر ويحترم الماضي مهما كانت آثاره وتَركته. سيما وأننا لا نتحدث هنا عن ماض مؤلم أو معاناة من النوع الذي يتطلب قطع الجذور كلياً، والبدء من جديد؛ فمعاركي الشخصية، كانت في الغالب معارك داخلية، ولم تكن في نيتي خوضها مع العالم، لولا الضرورة أحياناً.

أعلم تماماً أن بعض الثقافات لها أسس راسخة أكثر من غيرها، ولها عمق حضاري وتأريخي متأصل لقرون طويلة وبعيدة، لكن بالنسبة لي شخصياً، فكل الجنسيات، الثقافات، الحضارات، والقوميات، جميلة وثرية مهما كانت، ومهما ثَقُل أو خفّ وزنها في ميزان التاريخ البشري والحضاري بشكل عام.

المسألة التي أعدها مهمة جداً، هي أن يتمتع الأفراد في المجتمعات المختلفة، بإحساس صحي بالاحترام الذاتي، والتقبل الذاتي، والمحبة الذاتية التي لا تنشأ من منطلق غرور أو تعالٍ قومي، بل من واقع معرفة حقيقة وصحية بالذات؛ كما أنها في نفس الوقت، معرفة متأصلة بأهمية الذات الفردية التي لا يمكن أنَ تهددها أي عوامل خارجية أخرى، والتي إن نشأت وترعرعت داخل هذا القالب المتصالح مع نفسه، ستصب بطرق فعالة في صالح الجماعة. هنا يجب أن نفرِّق جيداً بين المشاعر الصحية والمشاعر الخبيثة التي فيها نوع من الاستعلاء والنظرة الفوقية؛ كما سيلعب «قانون يانته» دوره المطلوب في تهذيب الاندفاع العشوائي لأحاسيس غير صحية كالغرور والخيلاء والنرجسية. فلا ينبغي أن تظن بأنك ذو أهمية، وذلك مهما كنت، أو فعلت، فإنك لن تكون أفضل أو أحسن من غيرك! أظن أنه أمر مهم جداً أن يُظهر الجميع الاحترام للآخرين، لكن الاحترام الذاتي أمر لا يقل أهمية. ولأجل أن يعم السلام والألفة، ينبغي أن يكون البشر مرتاحين ومتصالحين ومحترمين لذواتهم أولاً. فأنا لستُ بحاجة لأتغير كي تحترمني أو تحبَني، ما دمتُ أظهر لك الاحترام المطلوب بدوري.

* * *

نشأتُ في الصغر أنظر لذاتي كدنماركية، لكن الاضداد والاختلافات تُظهر بعضها. عندما تزوجتُ من شاب مغربي الأصل، بدأت أتنبه للملامح العراقية التي كانت لتبدو خفية من شخصيتي. وشيئاً فشيئاً مع تقدمي في السن والنضج، بدأت أتفهم حقيقة أن الجانب العراقي فيّ والذي أهملته طويلاً، موجود، ومثبّت حتى دون أن أركز فيه. وتعلمتُ تقبله براحة مع الوقت. ما يربكني أحياناً ويجعلني في حيرة من أمري، هو تعريف الهوية الدنماركية الذي قد يعبر عنه البعض هنا، بطريقة لا تكون متناغمة مع شخصيتي أو تعريفي الذاتي للهوية. هؤلاء الذين يضعون أي «آخر» مختلف، لا يتمتع بلون بشرة لامع، في خانة الشك والريبة. أولئك الذين لا يمكن أن يُقروا على سبيل المثال، أن ثمة دنماركيين أصلاء، يدينون بأديان أخرى، أو لديهم توجهات مغايرة ومختلفة عن السائد. أظن أنني في محل ما، لا أعد دنماركية بالنسبة للبعض من هؤلاء المتعصبين، لمجرد أنني مسلمة، بالإضافة لاختلاف ملامحي ولون البشرة الحنطي الذي حباني به الله؛ وذلك على الرغم من نشأتي، ولغتي الدنماركية الأم، وحياتي وذكرياتي وكل المتعلقات الأخرى التي تجعل مني امرأة دنماركية. لكنني أتمسك بهذه الحقيقة. ففكرة الهوية الدنماركية ليست مسألة ثابتة كلياً، بل متنوعة ومختلفة، مع الأخذ بعين الاعتبار القيم والبِنى الرئيسية؛ أما كل ما عدا ذلك، فهو محظ اكسسوارات حياتية. خيارات، توجهات، أديان، طوائف، نزعات، ميول وغيرها الكثير، كل ذلك مجرد اختيارات طبيعية، مكفولة الحق.

في السنوات الأربعين الأخيرة، بات الدنماركيون أكثر جرأة على الامتزاج بجنسيات متنوعة وعديدة، عبر التزاوج، وهذه الذرية الجديدة أنشأت دنماركيين ذوي ملامح مختلفة وجديدة عن تلك القياسية والمعتادة، من شقار وطول قامة وعيون زرقاء. بل أن ولي عهد البلاد، والذي سوف يصبح ملك الدنمارك في المستقبل، هو من أم دنماركية (الملكة مارغريتا الثانية) وأب فرنسي ليس من أصل نبيل او ارستقراطي، بل من عامة الشعب. وربما يُعدّ هذا الأمير، الذي عهدناه بصورة شبابية وعصرية منذ فتحنا أعيننا على الدنيا، هو خير مثال على التنوع الذي بات سمة جديدة نسبياً في البلاد، لكنها جميلة وتؤيد التوجه العصري نحو الانسان الكوني. لماذا إذن يكون أطفال أي دنماركي آخر، أكثر دنماركية من أطفالي الذين ولدوا هنا، وبالكاد يتحدثون لغة غير اللغة الدنماركية؟ وهل يبدو الأمر أسهل إذا ما كانت الأصول البعيدة، ألمانية أو بولندية على سبيل المثال؟ هل لأن اللون أفتح؟ ولأنهم من العرق الأبيض؟ ماذا عن الدنماركي الذي يعيش في بلد آخر؟ ولد ونشأ في مكان بعيد، وقد لا يتقن اللغة ولا يتناغم مع الثقافة؟ لماذا يُعتبر أكثر دنماركية مني؟ وهكذا فإنني أضع علامات استفهام كثيرة أمام هذه الصناديق. ما هو مفهومي لذاتي؟ هل القالب

الذي وضعتُ فيه، والرؤية الذاتية يؤكدان دنماركيتي؟ إذن أنا دنماركية حتماً وفق اعتباراتي الذاتية. لماذا تُراني لا أعتبر نفسي ماليزية، أو مكسيكية على سبيل المثال؟ ذلك لأنني ببساطة لا أجد توافقاً وانسجاماً على مستوى الثقافة واللغة والنشأة مع هذه الجنسيات والثقافات. لكنني حتماً أشعر بالتماهي والانسجام مع الدنمارك حتى وان أصر الآخرين على عدم اعتباري جزءً منها. وذلك لأن المجتمع الدنماركي هو مجتمع تعددي، متنوع، ومن لا يتقبل أو يعترف بهذه الحقيقة، فذلك في الغالب لأنه يعاني من مشكلة مع فِرق أو ثقافات معينة، أو مع مظهر وشكل معينين. أتفهم أن ثمة من يشعر أن تغييراً مهدِّداً قد طرأ على الهوية الدنماركية في السنوات الأخيرة بالأخص، وأن هذا البلد الأوربي، بات يحتوي اليوم جيلاً ثانياً وثالثاً من دنماركيين جدد، لهم خلفيات ثانية، وأتفهم أن يؤثر ذلك على الشكل العام، ما قد يتسبب بنشوء موقف عدائي لدى البعض؛ إلا أنني لا أجد هذا العداء منطقياً، لأن الأمر غير متعلق بالمجتمع الدنماركي فحسب، بل بالمجتمع العالمي ككل والذي بات ينحو باتجاه انسان جديد، انسان متعدد الثقافات وذي هوية عالمية.

ديدن البشرية منذ نشأتها، كان التنقل والترحال، وبما أننا نعيش في عصر بات فيه الانتقال سهلاً، وأحياناً ضرورياً، فمن الطبيعي إذن أن تكثر في عصرنا الهجرات والتنقلات. عولمة وانترنت، وهويات وثقافات صارت تذوب في بعضها على نحو يصعب أن تفككه، وما زال ثمة من يقاوم ذلك بمحاولة صبغ المجتمع الذي يعيش فيه وفق رؤيته التي يعتقد بصحتها، أو تلك التي نشأ عليها ويرفض أن يتزحزح عن أدق تفاصيلها، مهما كانت عادية وغير قيِّمة. لأن ذلك يتطلب انفتاحاً، كما يتطلب أن يكون لدينا جميعاً، احترام للتأريخ والثقافات بكافة تنوعاتها، وأن نتعرف عليها، ونمارسها، وبهذه الطريقة نُفسِح المجال لفصول جديدة يكتبها التأريخ.

بعد قرن مثلاً، حين تلقي البشرية نظرة على هذه البقعة المسماة بالدنمارك، وتفكك المجتمع الذي تشكل خلال هذه الفترة، منذ منتصف القرن العشرين تحديداً، فلن تغفل أن المجتمع الدنماركي كان فيه لاجئون من الشرق الأوسط، وعمالة مستوردة من باكستان وتركيا، وقد تركوا أنسالهم تنصهر في هذه البلاد. لا بد أن يُنظر بعين التحليل لهذا التطور الاجتماعي الذي حدث، ما نوع الموارد التي جلبها هذا التطور، وما نوع التحديات؟ وهل ثمة نماذج لحلول اجتماعية توجه نحو التعايش أم أن الدلائل تشير للعكس، فتستثير مخاوف الاقتراب من المجهول، والخوف من الاقتراب والتماس مع الآخر، وتؤجج مشاعر العدائية ورهاب الغرباء؟!

لا تقلقني الإشارة لحقيقة أني دنماركية من أصل عراقي، فقد تمتعتُ برفاهية التواصل مع ثقافة بلدي الأصلي، عبر اللغة وغيرها من الأدوات المعرفية، لكنني لا أجد أي مشكلة في أن يعتبر أولادي أنفسهم دنماركيين مائة في المائة. ربما كنتُ لآسف قليلاً، أنهم لن يقدروا جذورهم المغربية والعراقية، إذ مهما كانت الجذور ومهما كانت أصالتها، أو أهميتها، فهي جزء من قصة الإنسان وهويته. لكنني أتقبل وأتفهم تماماً لو اختار أولادي الانفصال عن تلك الجذور، والتمسك بدنماركيتهم فقط. حتى أنني وبشكل عكسي، قد أكون غير مرتاحة لو أنهم اختاروا التشبث بالجذور فقط على حساب هويتهم الدنماركية مثلاً؛ فهذه الحالة ستكون مبعث تساؤل وقلق، وفي الغالب لن يبدو الأمر طبيعياً أو واقعياً، وفق المعطيات والظروف، وبلد المولد والنشأة. فأنا أتمنى أن يكون لهم موطئ قدم وانتماء هنا، لأن الإحساس بالانتماء هو أحد الأساسات التي ستجعل منهم مواطنين صالحين، لديهم من الموارد والمشاعر ما يدعم لديهم الإحساس بالمسؤولية تجاه المجتمع، وبذلك، سوف يساهمون لأجل فعّاليته، ونشاطه، ونوع الآليات التي يتم تفعيلها من أجل ديمومته. لن يتم هذا كله، إذا لم يشعر المرء بالانتماء المحمود والصحي، وبالتالي المسؤولية تجاه المجتمع.

من المهم الإشارة إلى أن مبدأ الاعتداد بالأصول والخلفيات، هو مبدأ راديكالي إلى حد كبير، فالتمايز ومسألة أن يضع المرءُ كل قدم في معسكر مختلف، هو أمر تعززه المجتمعات المتجانسة، تلك التي تحاول أن تكون متماثلة تماماً. لكن حين يكون المرء مختلفاً، سيصعب حينها القفز بشكل كامل وكلي إلى أحد المعسكرين، إذ أنه لن يُعرَّف أو يُستَقبل مئة بالمئة، مهما كانت المحاولات جادة في الانصهار. ثمة ما سيبقى ولن يتغير، في المظهر والشكل، وحتى في الدواخل. وستستمر تلك التساؤلات عن معاني الهوية مثلاً، ولن تتبدد بمجرد المحاولات العبثية للإجابة عنها. أظن أن التغريب وإشارة الآخر لملامح الاختلاف، في هذه الحالة، يعد أمراً محموداً، لأن الصناديق الجاهزة والمعدّة مسبقاً أمر لا يطاق! ولكي أكون ما أنا عليه بصدق، فلربما أكون بحاجة للإشارة أو حتى للتأكيد على اختلافي.

على سبيل المثال، فكرة أن يشير أقربائي في العراق، لي، على أنني قريبتهم العراقية التي تسكن في الدنمارك، هي مسألة شديدة الغرابة! فهؤلاء أجانب تماماً عني، ولو أنني سافرت لألتقيهم فلن أجد الكثير من المشتركات، فضلاً عن لغة للحوار أو مبدأ تفاهم نرتكز عليه جميعاً. الطريقة التي اتعاطى بها مع عراقيتي لن تتوافق مع مبدأ الهوية العراقية هناك. فهويتي العراقية بالنسبة لي هي أمر مركون، ومفهوم كسول، لم يُستَخدم كثيراً. مجرد أداة غير فعالة أتناولها في الجمعات واللقاءات العائلية. أنا ثقافياً دنماركية جداً، استخدامي للغة العربية قليل، ولا أتعاطى ثقافياً مع السينما والتلفزيون والكتاب المقروء باللغة العربية، إلا ما ندر. لا أعيش في عوالم موازية، بل أتحرك في مجال ونطاق دنماركيين إلى حد كبير، وبالتالي فان تفاصيل الحياة لن تتوافق على نحو مطلق مع الوصف المذكور، من أنني مجرد عراقية تسكن الدنمارك؛ فهذا شطب لعمري، وحياتي ونشأتي، وكل ما يشكلني، وإلصاقي بهوية ونمط حياة مختلفين كلياً عني!

أعدّ نفسي سعيدة في هذا البلد، وليس بوسعي أن أعيش عمراً جديداً كيما يتسنى لي أن أعتَبَر خلاله عراقية مائة بالمائة. وبالرغم من السلبيات التي ستجدها في أي مكان في العالم، إلا أن الدنمارك وفرت لي ما لن توفره العديد من الدول الأخرى. وأنا جد ممتنة لهذا! ولو قدِّر لي أن أنتقل اليوم إلى بلد آخر لسبب ما، فسوف أنتقل بأمتعة سفر محمَّلة بكل التفاصيل التي تبرهن على المكان الذي نشأتُ فيه، وصَقل ثقافتي ونظّم هويتي. لا بد أن عَلماً صغيراً للدنمارك سوف يكون مغروساً بين الأمتعة، فهو علم الفرح والاحتفال، ولن يكون بوسعي قضاء أوقات سعيدة من دونه. وسوف تُصَفّ بين أمتعتي، بضع أطعمة لن أجدها خارج البلاد، ليذكرني مذاقها بالوطن الذي خلفته ورائي. غير أن أهم ما سأحمله في جعبتي، هو عادات وقيم وأسلوب حياة ونظرة للذات، كلها ستبرهن وتؤكّد على المكان الذي ترعرعتُ فيه، وسوف يتساءل الأشخاص الجدد الذي سيتعرفون عليّ، «ترى لماذا تفكر وتتصرف وتعيش هذه المرأة الثلاثينية على هذا النحو؟» وحالما يعرفون خلفيتي سيستطردون «أهاا، هكذا إذن!». سوف أحشر في حقيبتي أغنية دنماركية كنا نغنيها صغاراً، ولكنتي الكوبنهاغنية، وزلاجة ثلج ربما.

فالثلجُ يذكرني على الدوام بعدد المرات التي بكيتُ وضحكت فيها وأنا فوقه، دون أن أتحرج من دموعي التي يطالعها المارة ظانين أنها مجرد ندى يبلل الوجه. أتذكر المرات التي عانقتُ فيها كل التفاصيل الصغيرة التي أثّرت فيّ وصنعتني، بضعاً وثلاثين مرة، كلما تساقط الثلج للمرة الأولى من العام.

هكذا أبدو إذن، ذلك الكائن الهجين غير القابل للتفكيك، وأجدني اليوم متقبلة لكل التفاصيل التي عجنتني، بكل حذافيرها، وليس بوسعِ كائن ما انتزاع أي من تلك العناصر التي شكلتني، بكافة تشعباتها وأضدادها، مهما أجتهد أو حاول!

* * *

حوراء

كنتُ مع عائشة ــ أو زينب كما اعتدتُ مناداتها ــ نعرف بعضنا جيداً في فترة الطفولة. درسنا في نفس الصف لفترة، ثم عدنا والتقينا في المدرسة الثانوية، حيث اختارت هي الفرع العلمي. وبحكم صداقتي التي كانت وطيدة بأختها الأكبر «زهراء»، والتي كانت في نفس صفي في الثانوية، فقد تعودتُ أن ألتقيها من وقت لآخر كلما ذهبتُ لزيارتهما، حيث كنا نقضي بعض الوقت للتسلية والدراسة معاً؛ فنأكل طعاماً عراقياً لذيذاً تعده أمهما، بعد ذلك، تطلعنا عائشة زينب على بعض رسوماتها وأعمالها اليدوية التي تتقنها، أو تتحدث عن قراءاتها وخبايا الإنترنيت الذي كان لا يزال عالماً جديداً في حينها، ثم تتركنا لنختلي ببعضنا، زهراء وأنا، حيث يمضي الوقت بالكثير من الثرثرة والقليل من الدراسة، فنتحاور ونناقش كتباً قرأناها أو نتحدث عن أصحابنا ومدرسينا.

دائماً ما كنتُ أقضي وقتاً ممتعاً للغاية عند آل «الجيزاني». فشقتهم في قلب كوبنهاغن الصاخبة، على عكس مسكني في الضواحي الهادئة. وصحبتهم غالباً ما اتسمت بالهدوء والسلام والحديث المسترسل الذي لا يمل. انطباعي عنهم في ذلك الحين، أنهم عائلة مطّلعة معرفياً ومبدعة بكل أفرادها، بالرغم من اختلاف التوجهات. وأنهم مهما بدوا عراقيين من الخارج، إلا أنهم دنماركيون جداً من الداخل. فكانوا من أوائل الأسر التي بدت لي متصالحة مع هذه الحقيقة، ولم تقاومها. حديثهم في الغالب يكون باللغة الدنماركية، والكتب التي يقرؤونها أغلبها دنماركية أيضاً، رغم أن زهراء اعتادت ان تقرأ معي لنجيب محفوظ واحسان عبد القدوس، بالإضافة لآخرين؛ لكنهم إجمالاً كانوا معتادين على التفاعل والتواصل، على نحو أعمق وأكثر تأثيراً، مع ثقافتهم الدنماركية. وكنتُ أحسدهم لتمتعهم بقدرة أفضل على التعبير عن أسلوب ونمط حياة دنماركيين بالمقارنة معي. كان والدي على سبيل المثال، سيرفض رفضاً قاطعاً أن أسافر لوحدي في ذلك الحين، أو حتى أن أعمل في وظيفة من الوظائف التي يعمل فيها المراهقين بالعادة، ناهيك عن الانتقال خارج المنزل والاستقلال التام عن الأسرة. لم يكن ذلك وارداً في عرف أسرتنا وعرف والدي المتمسك بتقاليده. بينما كان الأمر أكثر أريحية بالنسبة لآل الجيزاني، فهم أكثر اتساقاً مع واقع الحياة الدنماركي الذي لا يعارض مثل هذه المظاهر، بل يشجعها.

الفترة الصعبة التي مرت بها عائشة وذكرتها في سرديتها، هي ذات الفترة التي كنا فيها سوياً في الثانوية. أذكر بأني لاحظت تغيبها عن المدرسة لمدة طويلة، لكني لم أعرف شيئاً عن المتاعب التي كانت تمر بها حينها. لم أسأل أختها زهراء بالرغم من قوة علاقتنا، ولم أكن لأتدخل ما دامت لم تقل شيئاً. بعد فترة عرفتُ بأنها تركت مدرستنا وانتقلت إلى أخرى. ثم بعد إنهائنا الثانوية بفترة، سمعتُ بأنها قد غيرت مذهبها. أيضاً لم أسأل أو أتدخل، رغم أن الأمر كان مفاجئاً وغير اعتيادي في بيئتنا الخاملة. إذ لم يكن أحد ليجرؤ على مخالفة سرب الكتلة الاجتماعية هذه. لكنني سمعتُ الشائعات التي بدأ المجتمع ببثها، في محاولة للجلد الجماعي كي يرعوي هذا «الفردُ الناشز»، وكل من تسوّل له نفسه التشبّه بأفعاله.

تبدأ الشائعات بالعادة بالتسفيه والاستهزاء، فيدور الكلام بكثرة عن أنها «مجرد فتاة تحاول جذب الانتباه». لأن الإقرار بكونها تتخذ قرارات مصيرية مبنية على الفكر والمراجعة، وفي ذات الوقت مخالفة لما هو شائع ومقبول، لا يعد أمراً محبذاً، وحتماً لن يرضي القطيع تفسيراً كهذا. فالعقل الجمعي لا يمتلك الصلابة ولا حتى الأدوات المعرفية التي تمكنه من مواجهة المتمردين، فيركن في بادئ الأمر الى التسفيه والاستخفاف لغرض التهوين من الفعل المعارض. ثم فيما بعد، تبدأ مرحلة الشيطنة؛ شائعات وأقاويل تتردد بقوة عن مدى بشاعة فعل هذا الفرد المرتد، من قبيل «هذه فتاة تحارب آل البيت والرسول»، ولا بأس من تدوير بعض القصص المختلَقة لزيادة التأكيد والتوثيق. مرحلة الشيطنة تُهيّءُ بالعادة الطريق للمستوى التالي، حيث تبدأ من بعدها مرحلة الإلقاء والنبذ، الذي يُمارَس بشكل جماعي، وهو المستوى الأخير من العقاب والتأديب لهذا الفرد الشاذ عن القطيع.

من المثير أن العقل الجمعي بكل سطوته وأسلحته الاجتماعية والثقافية، يهتز ويفقد توازنه على نحو متساوٍ أمام أي محاولة للتمرد أو الشذوذ، مهما كانت تافهة وضعيفة، أو قوية ومدويّة الأثر. بينما ينجرف الأفراد فاترو الهمّة مع العقل الجمعي بسهولة ويُسر، لينفذوا برامجه المعدّة سلفاً؛ هؤلاء المفتقرون إلى الخيال والجرأة على التفكير النقدي، والقدرة على إنبات آراء فردية، المتدثرون بخلفياتهم الاجتماعية، ومحاولاتهم الحثيثة للتطابق والتوافق مع الأعراف الاجتماعية، لأنها تُشعِرهم بالرضا والراحة. هؤلاء بالعادة، هم الأكثر عرضة للخوف من الرفض والعزل، عن الجماعة التي تحقق لهم في الواقع مكاسب نوعية. فتجدهم يدسّون آراءهم الشخصية إن وجدت، في جيوبهم، ويتغلبون على الرغبة بالتعبير عنها، دون صعوبة تُذكر.

بعد أعوام من الانقطاع، كنتُ في زيارة لكوبنهاغن قادمة من لندن. ولا أذكر تماماً كيفية التواصل، لكن انتهى بي الأمر أن أجلس مع «عائشة ــ زينب»، في كافيه داخل مبنى عتيق يقع في قلب كوبنهاغن، أثناء ليلة من شهر ديسمبر، حالكة السواد وشديدة البرد. أمامي كوب قهوة بطعم الشوكولاتة المرّة، بينما فضّلت هي احتساء «شاي لاتيه». يتساقط الثلج في الخارج. نراقبه نحن الاثنتان من نافذة كبيرة، حيث ينحدر زقاق عتيق من تحتنا يتهيأ بزينته للأعياد القادمة إلى المدينة قريباً.

بضع أعوام من عمرنا مضت سريعاً، وبدت عائشة مختلفة بعض الشيء؛ وجهها خال من المساحيق، وتضع حجاباً أسود اللون يثبّت من ربطه على عنقها معطف رمادي غامق.

سار بنا الحديث نحو بعض القصص الجانبية، تكلمنا عن أناس لا يخصوننا، لكن ما يربطنا بهم ويدعونا للتفاعل مع مآسيهم أننا وإياهم نشترك في صفة البشرية. ذكرتُ قصةً مؤلمة، لا أذكر تفاصيلها كلياً الآن، فتساقطت دموع عائشة بغزارة، تماماً كما كان الثلج يتساقط غزيراً في الخارج. لم تدمع عيناي لبكائها العفوي. تأملتها بفضول، وتذكرتُ حكاياتنا صغاراً ومن ثم مراهقين. بدت لي عائشة تماماً كما كانت في طفولتها، زينب التي تحمل ذات الشغف، وبنفس الحسّ الإنساني المفرط. لعل الدنيا قد هذّبت من اندفاعاتها الوقتية، وطيش المراهقة الذي لا بد منه. لكن جوهرها العطوف مصقول أكثر من ذي قبل. والنضج السريع بدا ظاهراً عليها، من أول إيماءاتها الرزينة وحتى حديثها اللبق الموزون؛ ما أثار في داخليِ اطمئناناً وراحة عميقين.

كان اللقاء الأول والأخير، قبل أكثر من عشرة أعوام، باعدتنا بعدها الأيام مجدداً. كم عقد من الزمان تمتلك أعمارنا يا ترى لكي نقضيها في البُعد عن أصحابنا ومن نحب، كأننا سنعمر ألف سنة؟! عدنا بعدها لنلتقي افتراضياً، فقد ولدنا محظوظتين في عصرٍ له القدرة على جمع الشتيتين وقد ظنا ألا تلاقيا. جمعنا القدر بطريقة ما، لنحكي معاً هذه السردية، عن امرأة دنماركية جداً، لكن من أصل عراقي، عصرية جداً، وتقليدية جداً، بطريقتها الخاصة جداً، تعيش حياة استثنائية لأنها ببساطة لا تحاكي في هويتها وأسلوب حياتها أحداً، حتى من أولئك الذين يقربونها أو يعيشون حياة قد تبدو مشابهة لحياتها، «فالمظاهر تتراءى بسيطة من الخارج، لكنها من الداخل قد تكون في غاية التعقيد».

* * *

السردية الثالثة

سرور الصرّاف.. هشاشةٌ غير قابلة للكسر

حوراء

التقيتُ سرور في صيف العام 2019، في مقهى مزدحم في شارع «Strøget». كان يوماً حاراً على غير العادة، فقد تغيرت درجات الحرارة بشكل لافت في أوربا في السنوات الأخيرة. لا أذكر أوقاتاً صيفية مشابهة للصيف القائظ هذا. فأغلب ذكرياتي عن الصيف ممطرة وغائمة، وان سطعت الشمس في بعض الأحيان، فإنها لم تكن في الغالب لاهبة. ولذا فان التغيير المناخي هذا وان كان محبباً، إلا أنه مستغرب، ويثير بعض القلق لدى المهتمين بالبيئة.

لم أكن أعرف سرور شخصياً قبل هذا اللقاء، ربما التقينا منذ سنوات بشكل عابر، لأنني أعرف عائلة زوجها وتربطني بهم علاقة قديمة وجيدة. ثم مع ظهور مواقع التواصل، سمعت عن سرور أكثر، وعرفت أنها باتت معروفة كخبيرة تجميل دنماركية من أصول عراقية. التقيتها قبل المقابلة مرة وكانت هذه الثانية. جاءت ترتدي سترة بيضاء خفيفة، وبنطلوناً من الجينز، وحذاء أسود بكعب صغير مفتوح من الأمام. رشيقة وجميلة وتبدو أصغر من السن التي فاجأتني بها. ربما لولا الحجاب الذي تلف به رأسها لظننتها أوربية، ليس بسبب ملامحها المحيّرة التي تشبه نساء أوربا الشرقية، بل بسبب تلك اللمسة الشفيفة وذلك «الستايل» الاسكندنافي الهادئ، الذي بدا واضحاً في ذوقها واختيار ثيابها. تلك الألوان المحايدة التي لا تشي بنية لفت انتباه صارخة، وذلك الماكياج الخفيف الذي لا يبدو منه أنها تحاول إبراز ميزة محددة. وحزرت من البداية أن الجانب الدنماركي فيها يطغى على العراقي بمراحل. ابتساماتها صغيرة وجامدة، وهي غير مجاملة وجدّية، على غير عادة زملاء مهنتها الذين غالباً ما يكونون ملاطفين أكثر من اللازم، ويثنون على ذوقك في أي شيء حالما يضعون أعينهم عليك، فيباغتونك دونما إنذار: «أوه، يعجبني شالك «أو «ملمع شفاهك رائع!». سرور ليست من هذا النوع. لفتاتها وابتساماتها كانت تشي بثقتها؛ ووجهها ــ رغم كل ما ذكر آنفاً ــ كان صادقاً ويفضح دواخلها، بعيداً عن طبقة الجليد الخفيفة التي تحاول تغليفه بها.

بسبب الحر الشديد طلبتُ ماءً مع مكعبات ثلج، وزجاجة «كولا زيرو». وطلبت هي قهوة مثلجة.

انتبهتُ لكونها تحدثت بالعربية أولاً، ثم انتقلت إلى الدنماركية بعد أن اندمجت في الحوار، وشعرتُ أنها ترددت قليلاً، فأخبرتها أن بإمكانها الحديث باللغة التي تفضل. فارتاحت أكثر، وصارت تتأرجح ما بين اللغتين، وتستعير مفردات من هذه لتلك بمرونة محببة. لكنتها تعد قياسية في اللغتين معاً. فهي حيادية إلى حد كبير بالدنماركية، رغم ان بعض المفردات كانت تخرج من فمها مفرطة في أصالتها، لكن بدا لي أنها تحاول كبح جماحها كيما تحيّدها قدر المستطاع، فلا يُسمع منها لكنة تشي باندماج مفرط، أو حتى قلة انسجام مع واقعها الدنماركي الطاغي. لهجتها العراقية بدت لي هجينة بعض الشيء رغم كونها عادية جداً، مثل غالبية أقرانها ممن تربوا في المنافي. أشرتُ إلى ذلك في أثناء حوارنا، قلت لها بأنني حين زرت العراق للمرة الأولى كانوا يظنونني لبنانية، أو أتحدث لهجة شامية، رغم الفارق الواضح بين اللهجتين. ردت بالموافقة. لم تكن تبتسم كثيراً وهي تتحدث، فكرتُ وأنا أنظر إليها بأن هذه طباع دنماركية بحتة، عدم المبالغة في إظهار المشاعر، بل ومحاولة إخفاء أغلبها. في الواقع، لم ألاحظها تبتسم إلا ابتسامات سريعة وضيقة، خلال الساعتين اللتين قضيناهما معاً. وحتى عندما تحدثنا عن بعض الأمور المثيرة للشجن أو للعاطفة، لم يظهر على محياها أي علامات دالة على مشاعرها.

كل شيء هناك، غائرٌ في الداخل ولا يطفو إلى السطح بيُسر.

* * *

سرور

حدث ذلك معي أيضاً، حين زرت العراق للمرة الأولى، كانوا يظنون بأني سورية أو لبنانية ويسخرون من لكنتي. ربما لأنني ولدت بالفعل في سوريا في العام 1985. عمري الآن 34 عاماً. وخلال سنوات عمري هذه لم أرَ العراق إلا لعشرة أيام فقط، كانت بعد سقوط النظام السابق مباشرة. ذهبتُ ممتلئة باللهفة التي سرعان ما تحولت إلى صدمة، حين حدث انفجار بالقرب من بيت عائلة زوجي، في بغداد. تلك كانت طريقة الترحيب بنا. زجاج المنزل كله تكسر لأن الانفجار كان قريباً جداً، وشعرت بالخوف الشديد ما جعلني لا أفارق البيت إلا قليلاً؛ لذلك لا يمكنني القول بأني قد عرفت بغداد عن كثب في هذه الزيارة، بل ان الشعور بكوني غير منتمية تعمق أكثر. فالكل يذكّرني بانتمائي المختلف، وأنا لست قريبة منهم ولا أعرف عنهم شيئاً. عراقيو الداخل لديهم صور نمطية عنّا، هي في الغالب غير حقيقية. هنالك تصور غير مفهوم بأننا متكبرين أو لدينا شعور بالفوقية، ربما لأننا لم نعش معاناتهم، يظنون بأننا قد نشأنا مرفهين ومنفصلين كلياً عن الآلام التي صنعتهم وصقلتهم. ثمة محاولة دائمة للتذكير بأننا قد تلافينا كل المآسي التي عاشوها هم. كأنما يوجد ثمن معين ينبغي أن يُدفع لكي تتحقق المواطنة، تخطيناه نحن بطرق قد تبدو لهم غير مشروعة، ذلك الثمن الذي دفعوه هم من أرواحهم وأعمارهم.

حاولت تغيير هذه الصورة، ولكني فشلت. في الحقيقة لا ألومهم حين يشيرون لي ويذكروني كلما سَنحت لهم الفرصة بأني لستُ عراقية «كما ينبغي أن أكون»، فهذا الأمر صحيح إلى حد كبير لأني خليط من ثقافات عدة. أحنّ كثيراً لسوريا التي ولدتُ فيها وغادرتها طفلة في السابعة، ولدي ذكريات كثيرة فيها، وهي عزيزة جداً على قلبي. بينما ليس لي ذكريات في العراق مثلاً، وارتباطي به جاء من قصص أهلي والصور التي أروني إياها، أي أنني صنعتُ صورة العراق من ذكرياتهم هم، لا من خبراتي أنا.

كان أهلي وأهل زوجي قد غادروا العراق لأسباب سياسية منذ زمن بعيد، جميعهم ظنوا بأننا كنا سنعود متى ما سقط نظام حزب البعث. وكنت أتخيل بسذاجة أننا في اليوم التالي لفناء ذلك النظام الدكتاتوري سنعد حقائبنا لنرجع. كان حلماً ورديا وغير معقول،

فالفجوة بيننا وبين العراق باتت أعمق بكثير، وأظن أن عودتنا إليه أصبحت شبه مستحيلة. فأنا لا أجد الرغبة في العودة عند أي فردٍ من أسرتي، إذ لم يعد لنا أقارب من الدرجة الأولى في العراق، أغلبهم هاجروا، ولذلك فإن حبل الوصل قد بات شبه مقطوع اليوم.

* * *

كنتُ واعية حين وصلت الدنمارك وكبيرة بما يكفي لأختزن الذكريات. عمري حينها كان يقارب الحادية عشرة أو أكثر بقليل. قطعنا طريق الهجرة الوعر لفترة امتدت لعدد من السنوات، ومررنا بأحداث مؤلمة ومنهكة، حيث قضينا عاماً كاملاً متنقلين بين دول الاتحاد السوفيتي بِنيّة الحصول على لجوء في دولة أوربية؛ أنا وأمي وأختان بالإضافة لأخي الأصغر، بينما كان والدي يسلك طريقاً أخرى لعله يصل قبلنا ويطلب لم شملنا. كل دولة من بين تلك الدول، ألقت بنا إلى الأخرى.

كان الاتحاد السوفيتي قد تفكك قبلها بسنوات قليلة، والأوضاع سيئة جداً في تلك البلاد، ولذا لم تكن قادرة على تحمل أعداد المهاجرين الذين يسلكون أراضيها، بغية الحصول على اللجوء في الدول الأوربية الأكثر استقراراً. في واحدة من انتقالاتنا الكثيرة، وقع أخي الأصغر من على متن قطار، وكان لزاماً أن ينقل إلى المستشفى فوراً. وحين استقر مع المسعفين في القطار التالي، تحرك بهم القطار فجأة، فانفصل عنّا ولم نتمكن من اللحاق به. كان الحال مأساوياً بالنسبة لأمي التي فارقها ولدها المصاب الذي لم يتم السابعة. لحسن الحظ تمكنّا من معرفة المستشفى التي نقل اليها، فالتحق به والدي بعد أن قطع سير طريقه، وحين عَلِم فيما بعد بأننا قد ألقي علينا القبض لكوننا مهاجرين غير شرعيين، لا نملك سوى جوازاتنا العراقية التي نتحرك بها دون تأشيرات، سلّم نفسه للسلطات وانضم إلينا في السجن برفقة أخي.

تلاحقني ذكريات السجن البائسة بكل تفاصيلها، حتى يومنا هذا. كان السجن عبارة عن مصحة قديمة للمدمنين والمرضى النفسيين. حينها كان عددنا يزيد عن المائتي شخص، من عوائل وأطفال وشباب، عراقيين وعرب من جنسيات أخرى، بالإضافة لأفغان وإيرانيين وكرد. ننام جميعاً في صالة واحدة كبيرة، فيها سرائر حديدة من دون أغطية وفرش. نتشارك حماماً واحداً ومطبخاً واحداً. مقطوعين كلياً عن العالم، لولا ممرضة كانت تزورنا بين الحين والآخر لأجل الإشراف على أوضاعنا الصحية، سيما وأن بعض النساء كان من بينهن من هي حامل وعلى وشك الولادة.

صُعّد موضوعنا بعد فترة إلى الإعلام وتدخلت الأمم المتحدة، فبَنت وهَيّأت لنا داخل المبنى غرفاً انتقلنا إليها بعد مرور عام ونصف العام على وضعيتنا السابقة تلك. وبات المكان بعد هذه التعديلات يتمتع ببعض الخصوصية، فصرنا ننعم بغرف خاصة. كل عائلة أو عائلتين صغيرتين في غرفة. ثم بعد عامين، وزعتنا الأمم المتحدة لعدد من الدول، فكانت الدنمارك من نصيبنا.

فرحتُ فرحاً شديداً، ففي سنّي تلك، كنتُ قد تعلمت أن أكنَّ تقديراً عميقاً لكل المسلَّمات الحياتية، وحتى أبسط الرفاهيات. فرحتُ لمجرد أننا سنتمكن، بعد الوصول إلى هذا البلد الجديد، من الخروج في نزهة مثلاً. فكرة الخروج متى ما شئنا والعودة حينما نرغب، في حد ذاتها، كانت مثار سعادة كبيرة. السعادات الأخرى كانت أكبر من استيعابي، إذ لم أكن لأصدق أننا سنذهب إلى المدرسة مثل بقية الأطفال، بعد أن حرمنا منها لسنوات. وسنلعب كثيراً دون هم، دونما القلق من الإرشادات أو المنع، ولن تُردَع إذا ما تشاغبنا أو علت أصواتنا.

هذه هي الحرية إذن؟! كان عمراً مبكراً هو ذاك الذي فهمتُ فيه معنى أن تُسلب من الإنسان قيمته وكرامته وحريته. لكنني لم أكن أعرف بأن سجوناً أخرى ستستقبلني ومعارك كثيرة سأخوضها بعد حين، ستشكّل جزءاً أساسياً من حياتي ومصيري.

* * *

وصلنا إلى الدنمارك في شهر ديسمبر، منظر الثلوج كان بهياً ورائعاً، بالنسبة لطفلة احتجزت لعامين كاملين في سجن قَصيّ في أوروبا الشرقية. استقررنا كلياً بعد قرابة العام في منطقة «فاروم»، خارج ضواحي كوبنهاغن الشمالية بقليل. وصرتُ أذهب إلى المدرسة. كان عمري حينها قد بات حرجاً ولا يمكن لأمثالي الانخراط بسهولة في التعليم أو استقبال اللغة الجديدة بسلاسة، كما يفعل الأطفال الأصغر سناً. فوضعوني في صف خاص في المدرسة لتعلم اللغة الدنماركية، يُدعى «صف استقبال»، وتبين أن الوضع الدراسي لي ولأختي التي تكبرني مباشرة، شديد الصعوبة، إذ فاتتنا أربعة أعوام دراسية كاملة. ثم سرعان ما بدأ عامل الوحدة وتعذر الاندماج يتكشّف لي، خاصة في مدينة مثل فاروم التي لا يسكنها سوى القلّة من الأجانب. فكنتُ وأختي المحجبتين الوحيدتين، ليس في المدرسة فحسب، بل ربما في فاروم كلها.

وكأن المصاعب كانت تأبى أن تأتي فراداً، وتجمعت كلها عليّ، فقد تزامنت هذه الفترة من عمري مع مرحلة المراهقة التي تأتي بكل تفاعلاتها العجيبة، وتلك الهرمونات اللعينة التي صارت تؤرجحني ما بين الشرق والغرب. هكذا بدا كل شيء وكأنه مؤامرة كونية حيكت لأجل جعل حياتي أصعب مما ينبغي لها أن تكون. فكنتُ تلك الأجنبية التي بالكاد تنطق الدنماركية، والجديدة كلياً على البلد والمدينة والمدرسة، المختلفة من الداخل والخارج، والتي لا تقوى أفكارها وتعبيراتها على الإفلات خارج محيط جسدها الذي صار ينمو على نحو مختلف هو الآخر.

بهذه الطريقة الصادمة، اكتشفت السجن الجديد! هذه المرة أنا سجينة داخل جسدي وعقلي، ولا أقوى على الفرار أو الهروب أو الصراخ؛ وليس لي فرصة للتشبث بالأمل أو التطلع إلى الحرية. ثم عليّ التأقلم والتعود على هذه الطباع الجديدة والغريبة كلياً عني. هؤلاء الدنماركيون الذين لا أعرف كيفية التعامل معهم، وأجدني أخشاهم بكل ثقلهم القيمي، وثقافتهم المختلفة التي تلاحقني مثل صخرة ضخمة، أركض منها بكل قوتي وتكاد تدهسني كلما ضَعفتُ أو خارت قواي. وكلما أبطأتُ السعي، اكتشفتُ أني إذا لم أعطِ جلّ ما عندي، سأحَطَّم!

لا شيء يشبهني. أنا غير منتمية. هؤلاء المراهقون يمارسون مراهقتهم ببساطة ويسر، بالمقارنة مع الصعاب التي أخوضها. يحتفلون، يشربون الكحول، يرافقون بعضهم بعضاً في علاقات حب علنية كانت بحَسبِ العُرف الذي تربيتُ عليه تعد فاحشة. ولا

أظنهم يولونني الكثير من الاهتمام. لم يحاول أي منهم التعرف عليّ أو التقرب مني. كانوا هم، وكنت أنا. كيانين منفصلين. وبدوري أيضاً لم أحاول التقرب منهم. كسر الحواجز وتعدي الخطوط الحمراء الافتراضية، ليست مهارات يتعلمها الأطفال الذين قضوا سنوات من طفولتهم في سجون أوروبا الشرقية؛ ولهذا لا أدّعي بأن المسؤولية كلياً كانت تقع على عاتق الأطراف الأخرى، بل أن جزءاً كبيراً من انعزالي وتقوقعي في تلك المرحلة كانت أسبابه نابعة مني.

حاول المدرسون دمجي بمنعي من مرافقة أختي أثناء الاستراحات، وحين قَدِمت فتاة أخرى تتحدث العربية، منعوني عنها أيضاً. ولم يساعد هذا الإجراء إلا في التعزيز من عزلتي، لأنه لم يجبرني بأي شكل من الأشكال على التعامل مع الدنماركيين الذين كنتُ أخجل من التحدث إليهم، خوف أن يطلقوا ضحكاتهم العالية من أخطائي اللغوية، وخوفاً من إضافة أسباب جديدة للمتنمرين عليّ بسبب كل ما يثيره اختلافي. كل شيء فيّ كان مثيراً للسخرية، من اسمي «سرور» الذي كانوا ينطقونه «سوغوا» ويحورونه لفظاً إلى «سو غويا» (تعني قصبة شفط)، إلى الإيشارب الذي ألف به رأسي والذي كان يسهل جرّ طرفه، كلما مررتُ بأولئك المُتنمّرين الذين كنتُ أعَدُّ هدفاً سهلاً لهم، يفرغون فيه شحناتهم السالبة وطاقاتهم المتأججة.

كان أمراً مستحيلاً في تلك المرحلة تخيُّل، أني بعد سنوات قليلة، لن أتمكن من التعبير بحرية كاملة إلا باللغة الدنماركية، وأن اللغة العربية ستتراجع مكانتها عندي وتحجَّم لمواقع معينة، واستخدامها سيكون في أماكن خاصة ومحدودة. أشعر اليوم مع اللغة الدنماركية بأنها لغة حرّة، خالية من الإحراج وعدم الارتياح اللذين تسببهما العربية المقيَّدة بالآداب المبالغ فيها. فبتُ أشعر بأن لغتي العربية المحمَّلة بثِقل «العيب»، تخنقني وتحجِّر الألفاظ في فمي، فلا أقوى على التعامل مع ذاتي التي صرتُ أقدرّ لها انعتاقها من سجنها بعد سنوات طويلة من العزلة الجبرية، وطريقٍ طويل هو الطريق إلى حريتي؛ بل حرياتي جميعاً التي نلتها تباعاً بالكثير من الجهد والعناء. حرياتي اللفظية والنفسية والاجتماعية والشخصية. كل هذا لا يقدَّر عندي بثمن، وكل الأشياء الصغيرة التي قد تعد من المسلّمات بالنسبة لغيري من الناس، نلتُها عبر معارك بدأت صغيرة، ثم كبرت وتفرعت، خضتها جميعاً في سنوات عمري المبكرة. لا شيء أعده اليوم مسلّماً به. أنا ابنة هذه الظروف الصعبة جميعاً والتي تغلبتُ عليها كلها، وحياتي اليوم، ما هي إلا احتفالاً مستمراً بانتصاراتي الصغيرة والمتلاحقة.

* * *

تزوجتُ في السابعة عشرة من عمري فقط. تم الأمر بطريقة تقليدية. والدة زوجي رأتني في إحدى الجَمعات النسائية الدينية واختارتني لابنها. وافقت بعد أن تعرفتُ على زوجي. كان في الثانية والعشرين، ويدرس طب الأسنان في جامعة كوبنهاغن. لم يكن ثمة سبب لأرفض الارتباط به، بل على العكس، فكل مواصفاته بدت جذابة. وسرعان ما تعلقنا ببعض.

يتعجب الدنماركيون من ارتباطنا بالزواج في هذه السن الصغيرة، فهم بالعادة لا يُقدِمون على مثل هذه الخطوات المصيرية في مقتبل حياتهم ويفضلون الانتظار. وفي الحقيقة لا أفهم سر تعجبهم، فأشكال علاقاتهم لا تختلف كثيراً عني أنا وزوجي مثلاً. أعرف دنماركيات كثيرات ارتبطن بعلاقة حب مع شاب واحد فقط، قابلنه في سن صغيرة نسبياً، ثم تستمر العلاقة لسنوات طويلة بعد ذلك، فيسكنان مع بعضهما وينجبان الأطفال. الفارق الوحيد، هو أن الدنماركيين لا يسمّون هذه العلاقة زواجاً، لكونها لم تدخل هذا الحيز أو الإطار، ويكتفون بالتسمية الشائعة في اشارة للطرف الآخر، «الحبيب». لا أرى مثل هذه العلاقات تختلف عن علاقاتنا كثيراً، نحن فقط وبسبب عادات وتقاليد مجتمعاتنا، نضع العلاقة في إطار يحمل طابعاً شرعياً مناسباً لنا ولثقافتنا. حتى تلك الفكرة الشائعة عن الزواج المدبَّر، لا أجدها تختلف في شيء عن مفهوم ال «Blind date»، طالما أن لي وللطرف الآخر، حرية القبول أو الرفض في نهاية المطاف.

اتخذت حياتي بعد الزواج خصوصية أكبر، رغم أني كنتُ ما أزال حتى ذلك الحين، مثقَلة بالخجل واللغة السيئة وعدم الرغبة في التواصل مع الناس، حتى أن زوجي، وهو من أصل عراقي أيضاً، تربى في الدنمارك منذ طفولته، حاول أن يحررني من كل ذلك، لكنني كنت عصية وصعبة. قضيتُ السنوات القليلة الأولى من الزواج دون أطفال، واجتهدتُ في الدراسة قدر استطاعتي. ورغم كل الصعوبات بدأت لغتي بالتطور والتحسن شيئاً فشيئاً، وبعد صعوبات الدراسة ومتابعة صفوف خاصة ومدرسين كثفوا جهودهم من أجل تعلمي اللغة، نجحتُ أخيراً في الانتقال إلى الثانوية العامة، وأنهيتها في سنتين مكثفتين من الدروس والكورسات المتلاحقة. دخلتُ بعدها الجامعة لأدرس الدراسات الشرق أوسطية واللغة العربية، ثم أنجبتُ ولدي الأكبر خلال دراستي الجامعية، لكن لم يقدر لي العمل بشهادتي، إذ بينما كنتُ أحضر لكتابة بحث التخرج وقعتُ ضحية للمرض وللحادثة التي غيرت مسار حياتي.

كنتُ يومها في طريقي إلى الجامعة، وبينما كنتُ أنتظرُ القطار في المحطة، شعرتُ بدوار صار يتزايد بسرعة عجيبة، فجلستُ على إحدى المصاطب كي أتمالك نفسي. وسرعان ما شعرتُ أنه ليس مجرد دوار بسيط، وأنني بالفعل على غير ما يرام، فاتصلتُ بالطوارئ، لكنهم لم يأخذوا الأمر على محمل الجد. سألوني إن كنت حاملاً، فنفيت. ودونما الكثير من الاهتمام أخبروني على الطرف الآخر بأني ربما لم أنل كفايتي من الطعام، وينبغي أن آكل شيئاً.

لبثتُ في مكاني لبعض الوقت. كانت القطر تصل ومن ثم تغادر دون أن أتمكن من استعادة قوتي لأستقلها. وضعي يزداد سوءاً، وبدأت أشعر بالتثاقل وبفقدان القدرة على الكلام، بينما الشعور بالخجل الذي يملؤني عادة، يمنعني عن طلب المساعدة من الناس. بعض المارة قد يكونون انتبهوا لكوني لا أبدو طبيعية، لكنهم كانوا يتخطونني دون إلقاء نظرة أخرى، أو حتى سؤالي عن سبب ترنحي وحالتي السيئة. عليّ أن أعترف بأن الكثير من العادات في الدنمارك رائعة، لكن الخصوصية الشديدة التي يعامل بها الدنماركيون بعضهم، قد تنقلب إلى أمر سيء في كثير من الأحيان؛ إذ كنتُ في أشد الحاجة للمساعدة دون طلبها، فقد صار لساني ثقيلاً للغاية، وحين أحسستُ بأني على وشك أن أفقد الوعي، عاودتُ بصعوبة الاتصال بالطوارئ، لكنهم بدوا غير مهتمين، وطلبوا أن أكلم أحداً بالقرب مني في المحطة إذا ما احتجتُ للمساعدة. هنا فقط تجرأتُ وناولتُ الهاتف لامرأة كانت تقف على بعد أمتار قليلة، فاستفسروا منها عن وضعي، ثم طلبوا أن تساعدني للتواصل مع أحد أفراد الأسرة. تمكنتُ أخيراً من الاتصال بوالدي الذي جاء بسرعة قياسية وهو بثياب البيت، حين وصل كنتُ قد فقدتُ القدرة على النطق، وأصابني شلل، فلم أعد قادرة على الحركة.

أخيراً وصل الإسعاف، وأذكر تماماً أن أحد المسعفين كان شقياً بعض الشيء فأمرني بأن أقوم واقفة. أشرتُ له بصعوبة شديدة أني لا أستطيع، ليقول بنبرة مستخِفّة:

ـ «بالتأكيد تستطيعين».

أسندني المسعفان واستجمعتُ قواي كلها لأحرك جسدي لكنها خارت تماماً، فوقعت ثم بدأتُ استفرغ ما في جوفي. أذكر بأني سمعتُ والدي يقول لهما بأن طريقة كلامي مقلقة، فأنا بالعادة لا أتكلم على هذا النحو الثقيل، وأنه يخشى أن تكون هذه جلطة. فرد عليه أحدهما قائلاً بشبه استهزاء:

ـ «وهل أنت طبيب؟!».

حين أدخلوني سيارة الإسعاف كان المسعفان هادئين، ويتصرفان على أنها مجرد حالة إعياء، لكن حين أشرت إلى رقبتي وأفهمته أنها متشنجة، تغير سلوكه فجأة وصار يتحرك بسرعة غريبة، ويجري اتصالات بالمستشفى وبطبيب أعصاب طلب منه انتظارنا لمعاينتي فور وصولنا. كنتُ لا أزال أتمتع بوعيي رغم كل شيء. غير أن حالتي كانت تزداد سوءاً على نحو متسارع، ولم أكن أكف عن الاستفراغ.

أثناء الفحص في المستشفى، سألتُ الطبيبة عن أبي، فردت بأنه يقف إلى جانبي، لأكتشف للتو بأني قد فقدتُ البصر في عيني اليسرى. قرروا أن أخضع لفحص بالأشعة مباشرة، فأدخلوني إلى غرفة مرعبة، كلها أجهزة وأسلاك ربطوها بجسدي.

في خضم هذا كله كنتُ لا أزال متصورة أنني أعاني من دوار شديد، سأعالَج منه وأعود إلى البيت سريعاً. لكن الطبيبة جاءت لتعلمنا بالنبأ العجيب، فقد تعرضتُ لجلطة في الدماغ، وعليّ اتخاذ قرار فوريّ إن كنتُ أوافق على أخذ أدوية مميعة للدم مع الأخذ بعين الاعتبار خطورة حدوث نزيف داخلي، أو أفضل ترك الأمر على ما هو عليه؛ وهو خيار فيه مجازفة أيضاً فقد أغدو مشلولة. فجأة بات الوضع مخيفاً، بل بدا سريالياً تماماً وغير معقول. فقبل نصف ساعة فقط كنتُ في المحطة لأستقل القطار في طريقي إلى الجامعة، أما الآن فعليّ اتخاذ قرار فيه حياتي أو موتي. فيه أن أعيش صحيحة، أو أن أكون عليلة أو مشلولة لما تبقى من حياتي. لم يكن عقلي بقادر على استيعاب سرعة الأحداث. وطالعتُ وجه والدي الممتقع والمتغضن. كان يبدو كشبح.

وصل زوجي الذي ترك عيادته البعيدة، ولحسن الحظ كانت أعصابه قوية بما يكفي لاتخاذ القرار عني، فقال للطبيبة:

ـ «بالطبع عليها الخضوع للعلاج والدواء فوراً».

وضعوا لي مادة لتمييع الدم، ومن خلال الأشعة اكتشفوا أن الجلطة كبيرة وأنني على الأغلب سأحتاج لعميلة لأزالتها. بعد ساعة رحلوني إلى المستشفى الأكبر في كوبنهاغن، Rigshospitalet، حيث مكثتُ لأيام، وكنتُ المريضة الوحيدة في العشرينيات من عمرها في قسم أمراض الدماغ والجلطات، بقية المرضى كانوا كلهم قد تعدوا الستينات من أعمارهم.

بعد فترة، علمتُ من إحدى صديقاتي، وهي طبيبة دنماركية/عراقية تعمل في نفس المستشفى، أن الأطباء كانوا يستخدمون حالتي كنموذج للحالات المعقّدة وغير المفهومة. فما الذي سيجعل امرأة شابة صحيحة تماماً، لا تدخن ولا تشرب الكحول وليس لديها شراهة للطعام، أو حتى أمراض وراثية، تتعرض لجلطة في الدماغ وهي في السابعة والعشرين فقط.

مجرد قلة حظ، هكذا فسروا الأمر!

* * *

لم أستعِد عافيتي تماماً بعد خروجي من المستشفى، اقتضى الأمر أكثر من عام كامل، قضيته ما بين زيارات الأطباء والأدوية التي تنوعت بين أدوية تمييع وكولسترول وغيرها. خلال الفترة التي أعقبت تلك الحادثة، لازمتُ المنزل، فكنتُ لا أخرج إلا لتلبية المهمات الضرورية. وساءت مع الشهور المتعاقبة حالتي النفسية. أخبرني الأطباء أنني معرضة لما أسموه إعاقات خفيّة، من ضمنها الهلع، والقلق والاكتئاب، وأسبابها في الغالب عضوية وعليّ التأقلم معها، فليس ثمة علاج نافع لهذه الحالات.

في تلك الفترة توقفتُ حتى عن متابعة دراستي التي كنتُ على وشك إنهائها، ولم أعد أخرج من البيت الذي كنتُ أعتكف فيه لأيام طويلة؛ وإذا ما خرجت فان زوجي يوصلني بسيارته ويرافقني حيث أذهب، أما زياراتي ومشاغلي كنتُ أنفذ الضرورية منها فقط. ولا أدري في الحقيقة كيف تحمّل زوجي أن أكون بهذا الضعف، مسكونة بالاكتئاب، ورغبتي الوحيدة متمثلة في الوحدة والابتعاد عن الناس. لكنه كان عطوفاً ومتفهماً وحاول الشد من أزري، بالترغيب أحياناً وبإجباري على الخروج وكسر العزلة في أحيان أخرى. بعد فترة، باتت تصيبني حالات دوار وحصر نفسي، كلما تواجدت في أماكن مزدحمة، فكنت أشعر بالاختناق والرغبة في الهرب والعودة إلى منطقة الراحة الخاصة بي، المنزل! بتُ أعاني من رهاب الأماكن العامة، وسيطر عليّ الخوف من إمكانية تكرار ما حدث معي، دون أن أجد المساعدة. فكنتُ أتخيل نفسي أقع مرة أخرى، وقد شلّ لساني كلياً هذه المرة، فلا أستطيع حتى الصراخ من الألم أو طلب النجدة.

مرت شهور طويلة جربت فيها العديد من الأطباء والمعالجين النفسانيين، حتى أولئك الأكثر شهرة وخبرة، لكن دون أي تحسن. وحده زوجي لم يفقد الأمل، وجرب حلاً جديداً، فقال لي ذات مرة:

ـ «ألم تكن لديك رغبة في دخول معهد لدراسة المكياج؟ لما لا تجربين ذلك؟».

كانت تلك رغبة قديمة لم أحلم بتحقيقها فعلاً، لعلمي بأنها تقع في خانة الرغبات غير المشروعة، فالمجتمع العراقي في الدنمارك كان سينظر لي على أني مجرد فتاة تافهة، لم تفلح في دراسة المواضيع الجادة أو المهمة. هذا بالإضافة لكون هذا النوع من الدراسة في الدنمارك مكلف جداً، فتعلم المهن الحرفية والإبداعية يتطلب بذل مواد كثيرة وغالية، ومجهود مكثف وكبير.

لهذه الأسباب، ماتت رغبتي تلك مع السنوات، لكن مع هذا التشجيع المفاجئ من زوجي على أخذ المبادرة، وكنوع من التغلب على الألم قررتُ أن أجرب.

أول يوم لي في المعهد، كان أول مرة أستقل فيها القطار لوحدي، بعد تلك الحادثة، وبعد فترة طويلة من الاعتكاف والاعتماد على الآخرين. كنتُ ضعيفة ومنهَكة. جسدي هزيل وقد خسرت الكثير من وزني وعافيتي. عيناي كانتا تتفحصان المقطورة لأختار مكاناً قصياً، متمنية ألا يفكر أحدٌ بالاقتراب مني، أو الجلوس إلى جواري، فاضطر للانكماش في مقعدي.

في الأيام الأولى لي في المعهد كنت منزوية ومغلقة على ذاتي. وكان أمراً غريباً حقاً بين أروقة مثل هذه الدراسة الخاصة، لا سيما دراسة كهذه حيث يبدو الجميع سعيداً ومتشوقاً لتعلم أمر هو في الغالب يعد شغفاً. إلا أني على عكسهم كنت أبدو محبطة وتعيسة. لدي مواعيد دائمة مع الأطباء والمعالجين، وما زلتُ أتعاطى الأدوية بكثرة.

كانت أدوية تمييع الدم بالذات قد تسببت بملء جسدي ببقع زرقاء بيّنة، تبدو وكأنني قد تعرضت لضرب مبرح، فكنتُ أحاول إخفاءها إذا ما ظهرت على يدي مثلاً، بينما تتكفل حشمتي بالباقي. ومجدداً وجدتُ نفسي في الوضع الذي كان يتكرر على الدوام. أنا والآخرين! أنا منكفئة على ذاتي، حزينة ومريضة ومنكسرة، وهم بكل صخبهم وشبابهم وطموحاتهم وحبهم للحياة. ومع إنهائي الدراسة في المعهد، استعدتُ بعض الثقة أثناء التنقل. غير أن همومي ومتاعبي وكآبتي والحروب الصغيرة المشتعلة في داخلي، كلها لم تتغير.

* * *

فاجأني زوجي في أحد الأيام، ببطاقة لحضور ندوة مع مدرب حياة شهير، لم تكن بي رغبة للحضور لكنه دفعني دفعاً. فبعد العديد من الأطباء والمعالجين، كنتُ قد فقدتُ الأمل في أي مساعدة خارجية، ولبثتُ أنتظر القدر. معجزة إلهية، كأن أنام وأصحو لأجد نفسي قد تجاوزت هذه المرحلة الجحيمية. المفاجأة كانت في أن هذا الرجل، ومن خلال ندوته التي استمرت ليومين، تمكن من قلب حياتي تدريجياً. وكان أمراً مريحاً أن أقابِل وأتعاطى مع أناس مروا بتجارب مشابهة لي، مع الخوف والقلق. شباب من عمري وأناس لهم ظروف ربما مشابهة لظروفي، الكل عانى من هذه الكلمة المفزِعة «Angst». خوف، قلق!

تعلمتُ من المدرب، مواجهة نفسي بكل المخاوف بدل الاستسلام لها. الاكتئاب والقلق، اللا جدوى، وانعدام الرغبة بالحياة. كنتُ دائما ما أتساءل عن سر اختيار اللّه لي لأوضع في محنة كهذه. لماذا وأنا بعدُ في مقتبل حياتي؟ لأكتشف بأنني مملؤة بالغضب، وفي داخلي حدة وهياج أود التعبير عنهما بشراسة وقوة. عرفتُ ذلك عن طريق هذا الرجل الذي كان مختصاً في التدريب الإدراكي، وفهمتُ أن المحنة التي عشتها، قد جاءت لكي تطهّرني روحياً ومعنوياً وإنسانياً، وبأنها فرصة ثمينة لكي أرتقي، وستفلت مني إذا لم أستغلها كما ينبغي لصالحي.

إنها القدرة على انتقاء التصرف الصحيح في الوقت الذي كنتَ تظن أن كل ما عليك فعله هو الانتظار او الاستسلام. هل هذا هو الإيمان بالقدر، كما يطلقون عليه؟! لستُ أدري! إذ كان من الصعب فهم ذلك لوحدي، بل كان صعباً التعاطي مع مفاهيم الروح والارتقاء والوعي، بنوعية التدين التقليدية التي كنتُ أتبناها. إذ لطالما كان الدين أمراً اعتيادياً نشأتُ عليه، ومجرد اختلاف شديد الوضوح من الاختلافات العديدة التي أقارع بها المجتمع الأكبر مرغمة. إذ يستحيل إخفاء اختلافي وأنا أحمله واضحاً فوق رأسي وأدور به في الشارع. لكن ها أنا ذا، أتعرفُ إلى مفاهيم جديدة للعلاقة بالخالق. واكتشفتُ ان الخوف كان مثل لعبة ألهو بها! مثل طابة توتر أضغط عليها كلما أصابني القلق والتوتر، فقد تحول الخوف إلى منطقة راحتي.

هكذا عرفتُ بأني كنتُ أخاف من فقدان الخوف، والتحرر منه. وبعد فترة من معاركة هذا الوعي الجديد، تعلمتُ أن كل ما ينقصني هو قرار. قرار الخروج من محنة الاكتئاب بأي ثمن. قرارٌ أتخذه كل يوم، ومع كل صباح.

ثم اتخذتُ قراراً آخر بالعمل كخبيرة تجميل مستقلة، واستمريت على هذا الوضع لمدة عام تقريباً، كان لا بد من أخذ زمام المبادرة، ومع الشخصية القلقة التي كنتها، كان لزاماً أن أجبر نفسي على كل خطوة بسيطة أخطوها. فصرتُ أخرج شيئاً فشيئاً من المناطق المتعددة لراحتي، وأتحدى ذاتي، أنا الخجولة القلقة من الرفض، بأن أرسل على سبيل المثال، صوراً من عملي لبعض العارضات أو المصورين، أسألهم إن كان لهم الرغبة في التعامل معي.

وكنتُ أرى الصدمة في أعينهم حين يلتقوني لأول مرة. فتاة محجبة تتعاطى مع الجمال، ليس تماماً ما كانوا ينتظرون أو يتوقعون! لكنني اعتزمت ألا استقبل الأمور بشكل شخصي، لكي أسهل على نفسي تجاوز الخيبات. حين كانت ترفض جهة ما التعامل معي، أطمئن نفسي بأن الرفض حقٌ يمارسونه. ثم بدأتُ محاولة مزج ثقافتي الجمالية مع المعطيات المكانية، إذ بسبب خلفيتي العربية مثلاً كان لدي جرأة كبيرة على التعامل مع الألوان، جرأة أكبر مما تبيحه أعراف الجمال الاسكندنافية الناعمة والبسيطة جداً، ربما لأنهم يخافون من الألوان، بسبب اعتقاد أراه خاطئاً من أن ملامحهم الشقراء التقليدية، لا يمكنها احتمال الألوان الجريئة والصارخة. لكنني كنتُ أقنعهم أن ذلك جدّ ممكن، وصرتُ أمزج بين نعومة مفاهيم الجمال الاسكندنافية والجرأة الشرقية، وأرى أنني بالفعل أقف في المنتصف بين هذين المفهومين المتنافرين.

عندما اختارني المعهد الذي درست فيه لكي أكون واحدة من خبيرات المكياج لأسبوع الموضة في كوبنهاغن، كان عليّ بذل أقصى ما لدي. وبالنسبة لامرأة قضت معظم حياتها تعاني من رهاب اجتماعي على عدة أصعدة، وتجد نفسها فجأة بين مشاهير الموضة والجمال والفن في الدنمارك فان الأمر بدا خارقاً تماماً. مجرد تحركي بين هذه الجموع من الناس، وعدسات التصوير، والعديد من النظرات الفضولية التي تتساءل عما تفعله هذه الشابة ذات الرأس المحجب في مكان كهذا، كان أمراً صعب التصديق. لم أكن لأتخيل بأنني سأتعافى من الرُهاب بهذه الطريقة المتطرفة.

مع الوقت، صرتُ أسافر إلى دول أخرى بغية تعلم أساليب جديدة للمكياج، وأتمرد أكثر فأكثر على تقنيات المكياج الاسكندنافي، ربما هو أيضاً نوع من التمرد على القيم الدنماركية المعهودة، من أننا كدنماركيين لا نحب إظهار التميز، أو التباهي والتفاخر، ولا

حتى عبر المكياج. غير أن القيم الجمالية تغيرت إلى حد كبير في السنوات القليلة الماضية. كانت الدنماركيات في السابق يأتين إلى الحفلات والجَمْعات ببناطيل الجينز والتيشيرتات الباهتة، أما اليوم فصرنَ يخترن إطلالاتهنَّ بشكل مختلف؛ فيرتدين الفساتين ويضعن مساحيق أكثر مما اعتدن، ويتجاسرن على الكعب العالي بدل الأحذية المريحة. في ظني أن مواقع التواصل الاجتماعي سبب رئيسي في هذا التحول البيّن، إذ فرضت تأثيراً قوياً وواسعاً، غيّر كثيراً من الأساليب الجمالية البالية، فالنافذة المفتوحة على العالم بأسره، باتت أوسع وتوفر رؤية أكثر وضوحاً وشمولاً.

* * *

في أحد الأيام تواصلتُ مع السفارة العراقية في كوبنهاغن لأستسفر عن الفيزا الي العراق. قلت للرجل على الطرف الآخر من الهاتف أن والديَّ دنماركيان ولا يملكان أي أوراق ثبوتية عراقية. فوجئتُ بالرجل يقول بجفاء، وصوته يرتجف من الغضب:

ــ «انت شلون تقولين أولادي دنماركيين. ليش هو بكيفچ، انت ما تستحين؟!».

أخذتُ لوهلة من أسلوبه العنيف والجلف، لكني استجمعت نفسي ورددتُ عليه قائلة بأنه لا يعرفني ولا يعرف ظروفي، فولداي قد ولدا هنا! صرخ قائلاً:

ــ«بس هم عراقيين!».

ونشبت بيني وبينه مشادة كلامية انتهت بتمنعه إعطائي موعداً قريباً، فأبلغته بدوري أن لم تعد بي رغبة لهذه الرحلة من الأساس. ومنذ ذلك اليوم لم أعاود التفكير بزيارة العراق مع الطفلين.

كان الغضب في صدري قد اشتد مع الأيام كلما وجدتُ نفسي معرضة للإقصاء والتهميش من الطرفين، بينما أقف في المنتصف عاجزة ومغلوبة على أمري. من حق الدنماركي أن يشعر بأني كامرأة تربت وعاشت هنا، جزءاً من هذا المجتمع، بينما يرفض الجيل الأول أو الأقدم من أهالينا هذه الحسبة، ويخاف أن تستقطبنا الثقافة الدنماركية كلياً. إنهم يخافون أن تسرقنا الدنمارك منهم، لكن لماذا؟ هل نحن غالين إلى هذه الدرجة؟ ثمة رعب يجثم على صدورهم خوفاً على ديننا وعاداتنا وقيمنا التي ما فتئوا يغالون بالتمسك بها كنوع من التأكيد على الهوية، فتجدهم يستقتلون لترسيخ مفاهيم وعادات كانوا سيستصغرونها بل ويتجاوزونها لو أنهم لم يغادروا العراق. فهم يبالغون في إظهار الدين والتمسك بالشعائر والطقوس، بل وحتى التباهي بهذا التقوقع على الذات؛ وإن حدث وقررتَ أن تغادر بعض هذا، ستصلب على صليب أحكامهم وينهش لحمُك القيل والقال.

أما إذا وجدك المجتمع غير مبال بسياطه التي يجلدك بها، فسيمارس حينها حيلة أخرى: سيبدأ باستعطافك واسترحامك، ليشعرك بتأنيب ضمير دائم لأنك نبذته وتجاوزته! لكنهم في هذه المجتمعات الموازية ينسون أو يحاولون تناسي أننا رغم أصولنا وكل ما عُرفنا به، أبناء للمجتمع الدنماركي الأكبر، الذي ربانا وأنتجنا، ثم صقلنا أخيراً وفق أدواته الخاصة، وهذا أمر يستحيل الفرار منه.

كانت هذه الثنائية المتعبة أن أكون دنماركية عند العراقيين، وعراقية عند الدنماركيين، قد أنهكتني، بينما كنتُ أحاول جعل جيلي حلقة وصل بين جيل الآباء وجيل الأبناء. فقد نشأتُ في وقت كان الاحتفال بأعياد الميلاد مثلاً، يعدّ عيباً وتسليماً مطلقاً بالقيم الدنماركية، وقد يأخذه من هو أكثر تطرفاً إلى منطقة محرمة أصلاً. لكن بما أن ولديّ هما نبت هذا المجتمع، أحاول قدر استطاعتي تصحيح المسالك القديمة تلك بإيجاد غيرها، إذ يستحيل إبعاد هذا الطفل عن المجتمع مهما حاولتَ تحصينه وإقناعه خلاف ذلك. لهذا السبب مثلاً، صرنا نحتفل بالعيد ونضع شجرة داخل المنزل ونزينها، كي لا يشعر طفلي بأنه مختلف عن أقرانه وزملائه.

أذكر وقتَ طفولتي في سوريا، كيف أن نسبة كبيرة من الناس كانوا يشاركون المسيحيين السوريين احتفالاتهم، ومن ضمنهم أسرتي. لكن هنا في الدنمارك يأخذ الموضوع أبعاداً مغايرة ومتطرفة، فيصبح حدثاً عادياً كهذا، أمراً مقلقاً. فهذا يعدّ استقطاباً وانصهاراً كاملاً، ومحواً للخصوصية، ما يعني أن الدنماركي بقيمه وثقافته قد نجح بابتلاعك ومحق فرادتك وقيمك وثقافتك، لمجرد أنك اخترت أن تزين عتبة بابك في الشتاءات المظلمة، حتى وإن فعلتَ ذلكَ لمجرد ألا يغدو منظر بيتك كئيباً بين البيوت المزينة والمبهرجة. هكذا يفكرون! لكنني لم أعد أعير سمعي لهذه الأصوات مطلقاً، وحين كبر ابني قليلاً، تعمدتُ دمجه مع دنماركيين في الرياضة والنشاطات التي تتوفر للأطفال خارج أوقات المدرسة، كي يحاط بكل ما هو دنماركي بالفعل، فلا يشعر بالغربة والضياع بين العالمين. هذا على الرغم من أنه يحفظ القرآن، ويقرأ العربية أيضاً، وواع لحقيقة وأهمية اختلافه عن الكثير من زملائه. لكنني أحرص على ألا أدع له أسباباً قد تشعره بالضياع، كذلك الذي شعرتُ به أنا. أحياناً أسمعه يشير إلى جنسيته قائلاً «أنا دنماركي»، أو يبرر أمراً ما قائلاً «لأنني عراقي»، في كلتا الحالتين أترك له عفويته في اختيار الصفة، فقد قررتُ ألا أكرر أخطاء جيل الآباء.

لسنوات طويلة، سلمتُ نفسي للمجتمع العراقي في الدنمارك، في أسلوب حياتي وملبسي والكثير من تفاصيلي. كنتُ أرتدي الحجاب بالطريقة التي يعتبرونها الأفضل والأكثر احتشاماً واحتراماً، لكنني اكتشفت بعد سنوات ضيعتها في محاولة إرضاء الناس، أنهم مهما فعلت، سيستقتلون لإيجاد عيب ما يستوجب الجلد. أذكر أن بعض النسوة كن ينتقدنني لمجرد أني كنتُ أرتدي عباءة ملونة بدل السوداء. ثم بتُ ألاقى بالإقصاء والنبذ، لمجرد أني اخترتُ مسلكاً مختلفاً فيه نوع من التحدي غير المعتاد. فبات هذا المجتمع بعد ان ذاع صيت عملي، يتداول اسمي بالسوء. «سرور ابنة فلان وزوجة فلان صارت تعمل في مجال التجميل». «سرور تعمل في ذلك المجال الفاسد سيء السمعة، المليء بالفاسقات العاريات وبالمثليين. يا للوقاحة!».

إنه لأمرٌ صعب أن تضطر لوضع قدم هنا وأخرى هناك، فالمشية تصبح عرجاء مهما فعلت. لدي نفرة من هذا المجتمع الموازي الذي أوجِدنا فيه وارتبطنا به رغماً عنا، فهو يغصبك على مفاهيمه، ولا يسمح لك حتى بالتحرك خارج المساحات الضيقة أصلاً، المتاحة لك مع كثير من المشقة. شعور غريب ومؤلم أن تعيش عالمين مختلفين كلياً فوق أرض واحدة! وإذا ما خرجتَ ولو قليلاً عن الحدود والخرائط الخاصة بالجماعة، فسوف تُلعَن.

وفي الوقت ذاته كان المجتمع الدنماركي لا يرى فيّ سوى الصورة النمطية المُعدّة سلفاً عن فتاة مثلي؛ فهو لا يرى عقلي مهما درست وتعلمت، أو تفتح وعيي وتطورت قيمي. لا يرى فيّ سوى كيس أسود منفوخ بلا قيمة، ومجرد شيء مسلوب الإرادة ومقموع، أو مسيَّر في أفضل الأحوال. بعض الدنماركيين قد لا يعلمون بأني أترجم نظراتهم بشكل ممتاز، فأميز تلك اللطيفة من اللامُبالية، من تلك التي تحتقرني إلى تلك التي تشفق عليّ، حتى وان لم تطل النظرة لأكثر من أجزاء من الثانية. وقد تعبتُ حقاً من محاولاتي المستمرة أن أُرى، أن يُسمع صوتي، وأن أثبت بأني كيان قائم بذاته ليس تابعاً أو خاضعاً، ولا حتى متطرفاً أو مغسول الدماغ.

* * *

في مجالي الجديد، اكتشفتُ بأن اختلاطي واستقلاليتي والثقة التي بدأتُ اكتسبها، كلها أصبحت تؤثر على القناعات وتغير من أسلوب الحياة، وبشكل تدريجي وربما تراكمي، وجدتُ نفسي امرأة باتت مختلفة عن تلك التي ظننتني أعرفها جيداً، تلك المسالمة والمسايرة للعادات والتقاليد، الساعية للرضا وطلب الاستحسان من الآخرين.

باكراً اكتشفتُ مثلاً أن أقرب الناس إليَّ ضمن المجتمع الجمالي المصغّر، هم رجال مثليّو الجنس، كانوا أكثر من رعاني وعاملني بلطف ومحبة، وأكثر من استوقفه عملي بدل أن يحكم عليّ من الحجاب فقط. بل كانوا إذا صادف أن تعمد أحد ما التقليل من شأني، لأسباب لا علاقة لها بالعمل مثلاً، يهبون للمساندة؛ وذلك لسبب بسيط هو أنني وإياهم نتشاطر التجربة ذاتها! فكلانا منبوذ وكلانا محكوم عليه من شكله وميوله، حتى قبل أن يُعرَف أو أن ينطق. ولو أن أحداً منهم كان قد اطلع على دواخلي قبل اقترابي منهم، لما صدَّق أنني المرأة ذاتها التي تجالسهم في الاستراحات لتناول الغداء سوياً. إذ كنتُ في بادئ الأمر ممتلئة بالأحكام المسبقة تجاههم، ومشاعري كلها إجحاف وقلق، حتى أنني كنتُ أخاف من لمسهم خشية أن أصابَ بالعدوى من توجههم الجنسي، وأتعامل معهم بتحفظ وحذر شديدين. حتى اكتشفت لطفهم وطيبتهم، بالذات معي، لأنهم ببساطة أفضل من يَعلم. فهم يعرفون تماماً طبيعة الأحاسيس التي تعتمل داخل اللا منتمي والمنبوذ. ويبدو أنهم كانوا واعين لمعاناتي حتى قبل أن أشخصها، ومن هنا جاء احتضانهم لي ولا سيما «سورن هيذگورد[21]» الذي أصبح فيما بعد صديقاً مقرباً لي. وهو الشخص الذي تعلمتُ منه أن الحياة الخاصة لا تهم بالمرة، ما دمتَ تعاملني بإنسانية واحترام ولا تنظر لقشرتي السطحية، فانت حر فيما يخصك.

تعرفتُ على «سورن» عن طريق المعهد، وهو ذو الاسم المعروف والمهم في عالم التجميل والمكياج، ويتعامل مع الأميرات والشهيرات في اسكندنافيا كلها وليس في الدنمارك فقط. في ذلك الحين كنتُ بالكاد قد بدأت شق طريقي، واتخذني سورن كمساعدة له لفترة، وغمرني باهتمامه وعطفه الشديدين. فهو لطيف وأبوي ومحبّ، ويتعاطى معي بتقدير واحترام، ويفتخر بي أينما حل بطريقة كانت تشعرني بالحرج.

حينما كنتُ أرافقه في جولة لمغنيات أو عارضات أزياء، أو حين تقرر أن نضع المكياج للمتسابقات في حفل تتويج ملكة جمال الدنمارك، كان يلمح الناس بذكاء يلتهمونني بنظراتهم الفضولية المتعجبة، فيبتسم لي مشجعاً، ثم يقدمني لهم قائلاً:

ـ «هذه سرور إحدى أفضل مساعداتي».

ثم ينطلق في الحديث عن أسلوبي الخاص، مشيراً إلى الشخصيات المعروفة التي طبقت على وجوهها لمساتي، متجاوزاً القوانين الأخلاقية الدنماركية في عدم كيل المديح المبالغ فيه، إذ لعل ذلك ليس بأول دستور أخلاقي سائد، يضرب به «سورن» عرض الحائط، دون أن يرف له جفن. فكان بتعمده الحديث عني بطريقته المرحة، يذوّب الجليد الصلد بيني وبين هؤلاء المشككين المستغربين، أن كيف ستصنع الجمال هذه المرأة التي تغلف مفاتنها وتخفيها عن العيون؟! غير أننا وما أن كنا ننهمك في العمل، كتجهيز العارضات لممشى العرض، أو مرافقتهن في أثناء جلسات التصوير، كان الجميع ينسى أنني فتاة المكياج التي تغطي شعرها، فيغدو عملي هو الأساس للحُكم.

إلا أن هذه التقاليد التي لازمتني أينما حللتُ، كانت مختلفة كلياً مع ولية عهد مملكة السويد. فقد كان اللقاء لطيفاً في بدايته وتجاوزت هي التساؤلات عن حجابي وأسبابه وما إلى ذلك من فضول. كان سورن قد فاجأني باتصال يسألني فيه إن كان باستطاعتي التواجد في شمال الجزيرة بعد ساعتين، فأجبته بالإيجاب، ليقول:

ـ «ألن تسألي عن الزبونة؟»

لم أعتد مجادلته لثقتي فيه، فأكمل قائلاً:

ـ «إنها الأميرة فكتوريا، ولية عهد السويد».

تفاجأتُ قليلاً. توقعتُ أن تكون الزيارة لأسرة غنية، أو لإحدى الشهيرات، بما أنه ذكر الشمال، لا أن تكون المرأة التي يفترض أن تعتلي عرش السويد في يوم ما. وعرفتُ أن المناسبة مهمة، فالأميرة فكتوريا[22]، تستعد للاحتفال الذي سيقام بمناسبة العيد الخمسين لولي عهد الدنمارك الأمير «فريدرك». وقبل أن يغلق الخط أخبرني بأني سأتلقى اتصالاً من أحد المسؤولين في المخابرات الدنماركية، وذلك لدواع أمنية. وبالفعل اتصل بي أحدهم وأخذ تفاصيلي، مثل رقمي الشخصي وسيرتي بغية إجراء تحرٍ سريع.

كانت الصدمة على وجوه العاملين في القصر بينة، إذ لعلها كانت المرة الأولى التي يستقبلون فيها مسلمة محجبة في هذا القصر الدنماركي العتيق. دخلتُ بسيارتي الخاصة في موقف لصف السيارات قبل الباب الرئيسية للقصر، كان ثمة عشرون سيارة مسبقاً، وعدداً من الناس التفتوا جميعهم نحوي وصاروا يتابعونني بفضول. لعلهم ظنوا بأني قد ضللت الطريق وولجت هذه المنطقة بالخطأ.

أهملتُ النظرات واتجهت مباشرة إلى الحارس الذي لبث ينظر لي كأنه حائر لبضع ثوان، ثم سرعان ما قام بتفتيشي وتفتيش حقيبة أدوات التجميل التي أحملها، بعدها رافقني إلى غرفة عرفتُ أنها المكان الذي سأقوم فيه بالمهمة التي جئت لأجلها. أخرجتُ المستحضرات والأدوات التجميلية ونظمتها وحضّرت الأساسيات، وجلستُ أنتظر بهدوء.

لم يمر وقتٌ طويل حتى جاء شخصان يتحدثان السويدية، وطلبا مني مرافقتهما لأسلم على الأميرة. كان سورن قد نبهني عبر الهاتف أن أخاطبها بصيغ الاحترام، حضرتك، سعادتك، وما إلى ذلك من صيغ المخاطبة مع الملوك والأمراء. حاولتُ أن أذكّر نفسي بها وأنا في طريقي إليها، كنت قلقة أن تفلت من لساني لفظة «أنتِ» في هذا البلد الذي يشطب على صيغ التفخيم كلياً، ويعودك على ذلك مع الجميع، ثم يطالبك بها فجأة ودون مقدمات. تمنيتُ في سري ألا يقصَّ مضجعها خطأً كهذا إذا ما بدر مني دون قصد. نبهني سورن أيضاً أنني إذا ما وجدتُ صعوبة في فهم لغتها السويدية، يمكنني ببساطة الانتقال إلى الإنكليزية فهي لن تتضايق من ذلك. لحسن الحظ لم يكن لدي مشكلة في فهم السويدية من كثرة زياراتي المتكررة إلى مدينة مالمو، بهدف التسوق والتجول، وقد اعتادت أذني لهجتهم اللحنية.

جاءت الأميرة، وكانت لطيفة ومتواضعة جداً، بل بدا وكأنها تتعمد تسهيل الأمر عليّ بلطفها الفائض وتقديرها لعملي.

حين أضحينا لوحدنا في غرفة المكياج، بادرتني بالسؤال عمّا تجهله وأبدت اهتماماً رقيقاً بالتفاصيل، ثم سألتني سلسلة من الأسئلة الشخصية المعتادة، عن أصلي وان كنتُ قد ولدت في الدنمارك وعدد السنوات التي عشتها هنا، وسنوات العمل في عالم التجميل. ثم أطرَت شكلي قائلة بأن لي عينين جميلتين، وخلال دقائق قليلة أنستني أنني في قصر كبير، أضع لمسات المكياج لأميرة ستحضر به حفلاً بارزاً، وستكون معرَّضة لعدسات التصوير، وستلتقي بالعديد من الشخصيات الهامة!

أسعد سورن كثيراً أن وصيفة الأميرة، كتبت له تقول بأن التجربة مع الخبيرة التي بعثتها كانت ممتازة، ونأمل التعامل معها في وقت لاحق. لكنني ورغم مضي الموضوع كله بسلام، عاتبته على الطريقة التي أقحمني بها في الأمر.

ــ «كانت مفاجأة مربكة بعض الشيء يا سورن!»

ضحك قائلاً:

ــ «أردتُ للجميع أن يعلموا، أن فتاة محجبة مثلك، بإمكانها دخول القصور الملكية في أوربا دون حرج».

* * *

حوراء

كان تنقلي من بلد لآخر، قد ساعدني على مراقبة القيم الجمالية وتغيرها كمفهوم عام وشامل يتحول إلى خصوصية شديدة بحسب المكان، وبطبيعة الحال فإنه يأخذ منحى مختلفاً بسبب التحولات الزمانية أيضاً. وبحصر مثل هذه التفاصيل والاعتبارات، والتركيز عليها بغية تفكيكها، يبدو لي أننا قد نشأنا، أنا وسرور، وفق قيم جمالية متضاربة بعض الشيء؛ فنحن الاثنتان من جيل واحد ولد في منتصف الثمانينات، وتفتح وعيه الأنثوي في العاصمة كوبنهاغن إبّان النصف الثاني من التسعينيات تقريباً. في تلك الفترة، كانت الموضة العالمية صاخبة بعض الشيء، ألوان لامعة، مكياج صارخ، وحواجب منتفة تترك خطاً واحداً في أعلى الجبين يدل على دهشة دائمة، لعلها الدهشة من هذه الحقبة العجيبة!

أما أيقونات الموضة بالنسبة لجيلنا فكنّ على سبيل المثال، عارضات الأزياء شديدات النحافة، أو فتيات التوابل «سبايس غيرلز»[23]. فيكتوريا بيكهام بقوامها الهزيل، والتي كثيراً ما دفعني مظهرها في سنيّ مراهقتي لتمنّي أمنيات خطرة! فيا حبذا لو أنني أصابُ بأحد أمراض النحافة التي انتشرت بشكل مخيف في ذلك الحين، كي لا اكتسب كيلوغرامات إضافية من الطعام الشرقي الذي تعده أمي ولا يسعني مقاومته. أمنية لم تتحقق لحسن الحظ!

الكعوب الضخمة والأحذية القبيحة، في أقدام كل من جيري هالويل وإيما بونتون، جعلتني أتردد غير مرة على المحلات محاولة اكتشاف أحذية عالية دون أن تكون شبيهة بها تماماً، إذ ان الوقار الذي يفرضه عليّ الحجاب في تلك الفترة، لم يكن ليتناسب كلياً مع مثل هذه النوعية. فكنتُ أكتفي بحذاء «بافلو» ضخم، وحقيبة «ايست باك»، أعلق في طرفها دمىً وسلاسل مفاتيح، كانت تُحدِث رنيناً مزعجاً أثناء مسيري، لكنها تعلن عن مرواحي ومجيئي، وتشي بسنوات عمري الفتية التي على وشك الانتقال من الطفولة إلى الصبا. أما قيافتي فكنت أركنُ في أغلبها للّون الأسود، والبناطيل التي تضيق من فوق وتعرض عند الكاحل، تلك الشبيهة بموضة البناطيل في السبعينيات، والتي كانت قد انتشرت نهاية التسعينيات في الدول الاوربية. وبالنسبة لحجابي الدخيل على هذا التنسيق، فكان ليبدو رغماً عن كل شيء، متقناً ومتوافقاً إلى حد ما مع صبيانيتي البوهيمية تلك. ربما بدوت وكأنني «Gothic»، من أولئك المراهقين غريبي الأطوار الذين يحدثون ثقوباً في وجوههم، ويصبغون شفاههم وعيونهم بألوان مكياج داكنة. رغم أنني كنتُ أترك وجهي خالياً من المساحيق، ولم أخط كحلاً حتى ولجتُ عامي العشرين.

هنا عليّ أن أبيّن خصوصية القيم الجمالية بالنسبة لنا، نحن أبناء الثقافة الدنماركية/الاسكندنافية. إذ باستطاعتي مثلاً، أن أحزر بسهولة، إن كانت هذه الشابة اسكندنافيّة النشأة أم لا. بل أن ثمة سمة واضحة للفتيات في الدنمارك، ستميّزها سريعاً، حتى وإن كانت الفتاة المعنيّة تتمتع بملامح شرقية مثلاً، إلا أنها تمتلك مَسحة جمالية دنماركية الصُنع، لا تُخطؤها العين، وبوسعي التعرّف عليها مباشرة. فالمكياج في الدنمارك نظيف في تفاصيله، يمرّ على الوجوه كأنه لمحة دون رسوخ أو ثبات، فضلاً عن أنه لن يكون متكتلاً أو صارخاً. وجوه الدنماركيات، شقراوات كن أم سمراوات، كانت تصطبغ بلون أساس واحد، ضربات خفيفة من الماسكارا مع ملمّع شفاه بلونٍ غالباً ما يكون خفيفاً. الوجه ليس فيه ملمَح بائن على حساب بقية التفاصيل. وإذ يبدو أن محاولة التوازن الدائمة في البيئة الدنماركية تنعكس على وجوه الفتيات بوضوح؛ فالعيون مثلها مثل الشفاه، مثل الأنف، ومثل بقية تفاصيل الوجه، تمر عليها الألوان في تناسق تام، خفيفة رائقة، برشاقة الألوان الحذرة التي تأتي متناسقة مع الأجواء الباردة والداكنة ربما؛ كما أنها

معقولة إذ ما أخذنا بعين الاعتبار الرغبة الدائمة لدى الكائن الاسكندنافي بالتماهي، وتراجع رغبته بالتميّز والتباهي. وذلك على العكس تماماً من الحاجة الملحّة والدائمة لدى المرأة الشرقية، على سبيل المثال، في المبالغة برسم كحل عينيها، والذي يبدو جلياً حتى من خلف الحُجب، سواء أكانت تلك الأستار مادية أو معنوية. سواء أكان برقعاً/نقاباً، أو حتى حجاباً ثقافياً يأمرها بتستّر أدبي، وبأن لّا تُظهر كيانها وتعلن عن ذاتها جهاراً. فتجدها في المقابل تبالغ في إظهار زينتها، مستخدمة كلّ أسلحتها الأنثوية كيما تُعلِن عن هذه الذات الهشة أمام هذا المجتمع المتحكِّم، ربما كنوع من الرفض أو حتى التمرد.

وفق القيم الجمالية الشرق ــ أوسطية، ثمة ما يدعو للتساؤل عن مغزى التستر الذي يُطالِب به المجتمع، على الرغم من أن المرأة غالباً ما توضع في إطار جمالي صارخ وفجّ، في مثل هذه المجتمعات. العراقيون مثلاً يحبون المرأة البيضاء الممتلئة بعض الشيء، ويفضّلونها بعيون واسعة، وذات شعر طويل جداً. هذا النوع من الجمال يتطلب مكياجاً صارخاً، يكون وجه المرأة فيه «كانفاس» لخلطة من الألوان المكثّفة، ولا تنتهي عند التضخيم المبالغ فيه للتفاصيل، كإضافة الرموش الصناعية والعدسات الملونة، التي تأتي بألوان بهلوانية منافية للخلقة البشرية، كأن تكون بألوان فسفورية مثلاً، وهو ما لم يخلقه الرب، ولم تعرفه الطبيعة الفسيولوجية للبشر حتى. هذه الجرعة المركّزة من الاعتبارات الجمالية، هي ما يشكّل القيمة الأساسية للجمال في الشرق الأوسط بشكل عام، وفي العراق على نحو خاص. كل ما يخص الجمال مبالغ فيه وفي طريقة إعلانه، وإذ أن المفاهيم المبسّطة لاستقبال الجمال غير محبّذة هي الأخرى.

حين خلعتُ الحجاب وقوبلتُ بهجوم كاسح من متابعي موقع الإنستغرام تحديداً، لم أفكر كثيراً بالتهجم أو بالتعليقات المسيئة، إذ كان ذلك ردَّ فعل متوقع إلى حد كبير، بحكم أن المكانة الدينية لما يسمى بالحجاب في العالم الإسلامي، باتت تفترض مثل ردود الفعل تلك، على ما يبدو أنه تمرد كاسح. لكن أن اضطرَّ لإقفال التعليقات، لأني وضعت صورة شخصية لي بعد أن قصصت شعري قصة «بيكسي» الشهيرة، فذلك ما لم أتوقعه! كان رد الفعل صاخباً ومفرطاً في العدائية، على أمر شخصي تماماً، كأن أقوم بقصّ شعري. مع الوقت، تفهمت سر هذا العداء، فإن تقوم امرأة تبدو ظاهرياً بأنها عراقية، على بتر واحد من أهم صفاتها الجمالية، هو تبجح سافر واستفزاز لهذه البُنى الاستطيقيّة الراسخة في الوجدان الشعبي؛ وإذ لا بد من عقاب او تقريع جماعي كي لا تعيد هي أو غيرها الكرة. فالتمرد والتغيير أياً كانت أسبابه وأشكاله داخل هذه المجتمعات، غير محبّذ مهما كانت المسببات والطرق والتوجهات.

ثقافة البلاد وطبيعة شعبها يلعبان دوراً أساسياً في حس الملبس، بالإضافة لعوامل المناخ والجغرافيا وأسلوب الحياة؛ ومهما حددت دور الأزياء العالمية الذوق الذي سوف ينتشر لفترة من الزمن، إلا أن المكان والأسلوب سيفرضان طبيعتهما مهما كانت الموضة السائدة. اللون الأبيض الناصع حتى وإن كان صيحة هذا الموسم، قد لا ينفع في دولة تمطر ثلجاً، وتتلطخ طرقاتها سريعاً بالأوحال؛ والكعب العالي قد يصبح عائقاً أمام حركة امرأة لديها العديد من المهام التي ينبغي إنجازها خلال النهار.

من المهم أيضاً ملاحظة أن هذه العوامل غالباً ما تتشابك، وبإمكانها أن تختلف وتتباين داخل البلد الواحد، أو حتى داخل مناطق مختلفة من نفس المدينة، مما يعكس تنوع التأثيرات والتفضيلات. فالمرأة البغدادية في منطقة دينية كالكاظمية على سبيل المثال، لا ترتدي الثياب التي تلبسها بغدادية أخرى تقطن في منطقة المنصور، وهي المنطقة التي تبدو أكثر علمنة ومدنيّة من غيرها من المناطق.

منذ نشأة مفهوم العولمة، ومن ثم الثورة المعلوماتية المتسارعة التي سهَّلت من التبادل الثقافي الذي أصبح متزايداً، نشأ ثمة مزيج من الأساليب المختلفة في خيارات الموضة، مما أدّى إلى استقبال أكثر تنوعاً وتهجيناً لحس الملبس، وهو الأمر ذاته الذي بات ينطبق على المأكل ايضاً. فالمطابخ العالمية المتنوعة، مثلها مثل الثياب، ترتبط بشكل وثيق بالعوامل الجغرافية كالمناخ والبيئة، وأغلبها تبتكر الطبخات من واقع ما تجده متاحاً ضمن طبيعتها. المطبخ الإيطالي يشتهر بالأكلات التي تكثر فيها أنواع مشكلة من الأجبان، زيت الزيتون، الريحان، الثوم، وطبعاً الكربوهيدرات المثالية، كأنواع المعجنات المختلفة والباستا المتنوعة، كما يقل فيه الاعتماد على اللحوم، كعنصر أساسي، بالمقارنة مع غيره من المطابخ. في بقعة أخرى من العالم كدول شرق آسيا، يركز المطبخ على الأسماك والأرز، وتنعدم لديه البهارات بشكل ملحوظ، ليتّكل على منكهات مستخلَصة من حبوب الصويا، أو المحار مثلاً. المطبخ الإيراني، يشتهر بالزعفران، والجوز، وحب الرمان الذي يُصنع منه دبس حامض وحلو، وتدخل هذه المكونات والمنكهات التي توجد في الطبيعة الإيرانية تقريباً في معظم أكلاته. وكذلك الأمر بالنسبة للمطبخ الهندي الذي يعوِّل كثيراً على البهارات والطعام الحار اللاذع مع طُرق متنوعة لطبخ الأرز. بينما يعتمد المطبخ الشامي على العناصر التي تكثر في البيئات القريبة من بحر المتوسط، كزيت الزيتون والزعتر والألبان، بالإضافة لثقافة الطعام المخزَّن والذي يدعونه في بلاد الشام «بالحواضر»، كالمربى والمكدوس واللبنة المكورة، وغيرها.

إلا أن هذه المطابخ المعتمدة بشكل أساسي على طبيعتها الجغرافية وبيئتها، باتت تصدّر ثقافاتها الغذائية للعالم أجمع اليوم. وفي خضم عالم منفتح ومعولم أصبح الأمر أسهل وأيسر، حيث تعلّم المواطن العالمي، على تسوق كل شيء من مراكز تسوق تشير إلى الفواكه والخضار بأعلام بلدانها والمنابع الأساسية التي قَدِمت منها، لتحطّ في السوبرماركت المحليّ الخاص بمنطقته مهما كانت نائية. هكذا باتت الذائقة البشرية مدرَّبة على نحو جيد لاستقبال الأطعمة والنكهات المتنوعة والجديدة على بيئته وثقافته الغذائية؛ وكأن براعم التذوق البشرية، أصبح لها قاعدة بيانات مستحدثة، يتم تجديدها مع كل نوع غريب يدخل إليها.

تشتهر الدنمارك بالألبان والمعجنات التي لا يمكن تشبيهها بأي معجنات أخرى في العالم. وقد أكون منحازة قليلاً إذا ما أشرتُ لكون الكرواسون الفرنسي، قد اتخذ شهرته من شهرة البلاد نفسها، لأنه بالمقارنة مع أنواع المعجنات الدنماركية، عادي جداً ولا يمكن أن يصمد إذا ما قورن بالـ«تي بياركيس» الدنماركي، على سبيل المثال لا الحصر. بالإضافة، للأنواع العديدة للخبز الدنماركي الشهي، الذي من شأنه أن يجعل أي نوع من أنواع الشطائر، غاية في اللذة، أياً ما وضعتَ فيها من حشو.

كل ذلك أيضاً، له علاقة بطبيعة المكان وبيئته، مثل شطائر السلمون الطازج، أو نوع الزبدة الخاص والمميز، فمهما صدّرت الدنمارك ألبانها واقتحمت الأسواق العالمية بزبدة لورباك مثلاً، إلا أنها تحتفظ بأنواع زبدة لن تجدَ مثيلاً لطعمها إلا إذا زرتَ البلاد. ذلك بالإضافة إلى مربى الكرز والفراولة وتوت العليق، التي تأتي جميعها من قلب الطبيعة الدنماركية التي تتميز بهذه الفواكه مثلاً. لكن بالرغم من هذا كله، يبدو المطبخ الدنماركي شحيح في أكلاته، وما يشتهر هو مكونات متنوعة فقط، لكنها ليست اعتباطية أو أقل شأناً، لأنها مؤثرة في ثقافة الغذاء، وتترك بصمة هامة عليه لخصوصيتها. فالشاورما في الدنمارك، هي بحسب رأيي، شاورما دنماركية تماماً، نظراً لكونها ذات خصوصية ولا تشبه الشاورما في الشرق الأوسط، حيث منبعها الأساسي. إذ تشتهر الشاورما

الدنماركية، باللحم أو الدجاج المعدّ بنكهات مميزة، دون أن تكون لاذعة أو قوية كتلك العربية مثلاً. تُصنع الشطيرة من خبز دائري أبيض صغير الحجم، يُدعى بخبز البيتا، ثم تُحشى ببعض الشاورما، والقليل من الطماطم والكثير من الخس، بعدها تُغمَر بصلصة معدّة بالأساس من الكريما الحامضة، وتلك تقريباً نوعية من الصلصات ذات مذاق خاص معروفة في الدنمارك حصراً. أحياناً يُضاف صلصة فلفل حار، أيضاً تعد بطريقة مميزة، وتزخر بها مطاعم الوجبات السريعة في كوبنهاغن. هل يمكن في هذه الحالة لنا أن ندّعي، بأن هذه شاورما عربية أو تركية مثلاً؟ فحتى هاتان لهما خصوصيتهما التي تميّزهما عن بعض. ضمن هذا السياق، فإن الأمر يشبه تماماً ادّعاء أن البيتزا النيويوركية، هي ذاتها التي تُصنع في إيطاليا. والواقع هو أن هذه البيتزا الثخينة والمثقلة بالحشو الذي تفضله الذائقة الأمريكية، يُشار لها على أنها بيتزا نيويوركية بامتياز. والدليل أن السيدة الإيطالية العجوز التي تعد البيتزا وفق الطريقة التقليدية التي تعلمتها منذ وعت على الدنيا، في أرياف توسكانيا، ستستغربها بشدة، وربما تعارض وجودها بشدة أكبر!

العادات والتقاليد وحتى الأديان كلها عوامل مؤثرة، في ثقافة المأكل والملبس للشعوب حول العالم. بالإضافة لعامل الجغرافيا والمناخ. أما في المجتمعات الكوزموبوليتانية، حيث تتعدد الثقافات وتتداخل فيما بينها، فان الآثار الجمالية، والتنوع في الذائقة وطرق استقبال كل ما هو جديد، تضفي لمحة خاصة ومميزة، ممزوجة بالثقافة الأساسية للمكان. وهذا تماماً ما دخل على الثقافة الدنماركية، وأحدث فرقاً هاماً ومؤثراً، على عدة أصعدة، منذ استقبال العمالة المستوردة من باكستان وتركيا في السبعينيات، مروراً باللاجئين من البلقان والشرق الأوسط في التسعينيات، وحتى يومنا هذا.

* * *

السردية الرابعة

سورِن ڤيلَموس.. الآخَر بعيون المواطَنة

حوراء

من بين الزحام لمحتُ وجهه. كان مختلفاً عن الصور التي سبق رأيته فيها حين بحثت عنه في محرك «غوغل»، والتي كانت بدورها منوّعة ومتغيرة وفق نمط بدا لي عشوائياً وغير متسق. ففي إحدى الصور مثلاً ظهر بشعر قصير مرتب، وبقميص وسترة رسميين، وفي أخرى ظهر بشعر أقصر يقترب من أن يكون حليقاً وتحدد وجهه سكسوكة لطيفة، مرتدياً قميصاً رياضياً من النوع الثقيل، «هوودي»، ويبتسم ابتسامة مرحِّبة. بينما تنوعت صور أخرى بين مظهر يبدو فيه أصغر من عمره بكثير، وأقرب لأن تكون ملامحه لمراهق شقيٍّ وليس لشاب انتصف الثلاثينيات من عمره؛ ثم بدا في أخرى جاداً جداً، شعره متوسط الطول مرتدياً «تي شيرت» أنيق، وينظر مباشرة إلى الكاميرا بعينين لا تبثان تعبيراً واضحاً.

ورغم ذلك عرفته، لمّا لمحت هيأته التي لم يسبق لي أن شاهدت لها مثيلاً في أيٍّ من صوره، شعر طويل يصل إلى كتفيه بدا مجعداً على عكس الشعر المنساب الذي ظهر به في الصور، قيافته بوهيمية كلياً، إذ يرتدي «تي شيرت» بلون يصعب أن يعرّف، فلا هو أزرق غامق ولا هو رصاصي باهت، مع بنطلون فضفاض، ويحمل حقيبة من القماش تتدلى عند الفخذ.

اقتربتُ منه وحييته بلطف، فجفَلَ قليلاً كأنه لم يتوقع ذلك، أو كأنه لم يكن ينتظر أن أتعرف عليه بهذه السرعة. تمتم كلاماً مقتضباً بينما كنا نسير الخطوات القليلة إلى المقهى الذي سنجلس فيه سوياً، ولعلّي لمحتُ أثناء ذلك ظل ابتسامة، لكنني حزرتُ مباشرة أنه من النوع الدنماركي الذي بتُّ أتخوّفُ منه. النوع الذي لا يعكس تعابير حيّة ولا يتبسط بسرعة، ويضع حاجزاً من الجليد بينه وبين المقابل. وقد يظن من لا يتمتع بخبرة معايشة إسكندنافية طويلة الأمد، أن هذا النوع من الشخصيات الدنماركية قاسية، أو باردة وبليدة المشاعر؛ غير أني وبحكم التربية والنشأة، بتُ أعلم أن خلف ذلك الغلاف الصلد، الكثير من الخجل والإحراج والتخوف من الاقتراب والتواصل.

قد يظن البعض من ذوي الأصول الشرقية تحديداً، أولئك المعتادون على حميمية مفرطة في التعاطي مع الآخرين حتى وان كانوا غرباء، أن هذا السلوك موجه لهم على نحو خاص، بسبب النفور والعدائية لما يمثلونه من قيم مختلفة وغريبة، لكن ذلك أيضاً غير صحيح بالضرورة. فالدنماركيون بشكل عام متحفظون في إظهار انفعالاتهم والتعبير عنها حتى مع أبناء جلدتهم، وإذ أن الأمر في هذه الحالة ليس سلوكاً انتقائياً مع مجموعة ضد أخرى. إلا أنني، وفي تلك اللحظة بالذات، تذكرتُ كم بتُّ أتهيب هذا النوع المتحفظ، ربما لأني قد تعودتُّ الرفق واللطافة والحميمية الباذخة للثقافات الأخرى التي التقيتها بعد انتقالي من الدنمارك إلى لندن في العام 2006، ثم ما أعقب ذلك من تنقلات وفترات إقامة في دول مختلفة.

كنتُ في السابق، أعرف تماماً كيفية التعاطي مع هذه الطباع. كيف بإمكاني النقر على الجليد المحيط بها، إذا ما اضطررتُ لذلك. لكنني أصبحتُ أرى الحياة أكثر رحابة ورفقاً، وأقل تشاؤماً وتوجّساً مما تفترضه الطبيعة الدنماركية الصارمة التي تنتقد التحية الإنكَليزية/الامريكية مثلاً «How do you do?»، معتبرين أنها غير صادقة أو حقيقية في محاولتها معرفة كيف يشعر المقابل بالفعل، متناسين أنها مجرد تحية لطيفة، وفي عُرف الناطقين بالإنكَليزية، لا تستلزم الرد حتى!

ثمة كلمة باللغة الدنماركية ليس لها مرادف مباشر باللغة العربية هي، Berøringsangst، ومعناها الحرفي هو «الخوف من اللمس»؛ لكنها لا تعني فقط القلق من التلامس البدني المباشر، بل تعني أيضاً الخوف من القبول والاستيعاب والقلق من جسّ فكرة، أو قبول حقيقة مختلفة أو جديدة. بالإضافة لذلك يستخدمها الدنماركيون غالباً لانتقاد ذوي الأصول المختلفة لما يتملكهم من خوفٍ هائل إزاء المساس بأفكارهم ومعتقداتهم، أديانهم وقيمهم، بل وحتى أجسادهم ولا سيما أجساد نسائهم. وأجد بأنَّ العلة ذاتها موجودة في الرأس الدنماركي أيضاً، ذلك الذي يهاب التواصل أو الاقتراب من الآخرين، إذ لطالما تمنيتُ مذ كنتُ صغيرة، أن أجد سعياً متبادلاً لأجل التواصل من قبل رفاقي أو أصدقاء طفولتي مثلاً، فقد كنتُ طفلة وجلة وخجولة من الاقتراب مخافة أن أقابَل بالرفض، دون أن أعلم أن الآخرين كانوا يخافونني أيضاً، ويتوجّسون الاقتراب مني لما أمثّله من اختلاف صارخٍ، حسبما يبدو.

المهم، استنتجتُ بسرعة أن سورن من ذلك النوع الذي يحيطُ نفسَهُ بأسلاك شائكة، وسيكون من الصعب الولوج إليه من لقاء واحد، سيما وأنني ما زلت أعاني من بعض الخجل الذي أفترض معه أن يبدأ المقابل بالمبادرة بالتبسّط في الحديث كي أشعر بالارتياح، فقررتُ المحافظة على الإيقاع الذي سيختاره هو للحوار مهما كان، وأستمر في مجاراته قدر استطاعتي.

* * *

سورِن

اسمي سورن ڤيلموس، أعمل صحافياً ومحرراً في جريدة أسبوعية ثقافية، وأنا من قلب كوبنهاغن، حيث ولدت ونشأتُ في «نور برو»؛ وهي منطقة تُعرَف بكثرة الأجانب ذوي الأصول الشرق أوسطية، وبأسلوب حياة مدنيّ بحت، قد ينحو نحو البوهيمية أحياناً. في الخامسة من عمري حين أراد والدي تسجيلي في المدرسة الأقرب في حيَّنا، تفاجأ بمدير المدرسة ينصحه بمحاولة أيجاد مدرسة أخرى غير هذه، فغالبية الطلاب فيها من ذوي أصول أجنبية، وكانوا يتحدثون فيما بينهم بلغاتهم الأصلية، وكنت أنا الذي سيُعتبر غريباً وغير مرغوب فيه في مدرسة تعج بالأطفال مزدوجي الثقافة. في ذلك الوقت، لم يكن أي من المدرسين مُهيَّأً للتعاطي مع مثل هذه التحديات والصعوبات. إذ لعل التجربة برمّتها كانت ما تزال جديدة عليهم، حتى أن هذه المدرسة تحديداً أُغلقت تماماً بعد ذلك بفترة، بسبب تحولها إلى «غيتو» مصغّر. وبالفعل، انتهى بي الأمر في مدرسة أخرى، أبعد عن المنطقة التي أسكن فيها، لكنها كانت معتدلة في نظامها وفي جذب الطلاب ذوي الأصول غير الدنماركية.

ورغم أنني نشأتُ في المناطق التي تعج بذوي الأصول الشرقية، إلا أني لم أتأمل كثيراً بهذا الاختلاف، ربما لأني ألفتُهُ حدَّ أن لم يعد مستغرباً أو يدعو للتفكر. لم يكن لدي أي نوع من التحيز، كما أن وجودهم لم يلفت انتباهي سواء بالسلب أو الإيجاب، وكنتُ ببساطة معتاداً على هذا التواجد. أشكالهم المختلفة، المحال التي عليها كتابة بالعربية، الكلمات الغريبة التي يتفوهون بها فيما بينهم، وغيرها من المظاهر الدخيلة. رغم ذلك أذكر في طفولتي مثلاً بعض الحوادث العابرة التي كان من شأنها أن تثير بعض الاهتمام. في أحد الأيام عندما صرخ رجل دنماركي خلف أحد الأطفال السمر الذين كنتُ ألعب معهم قائلاً:

ــ «عد من حيث أتيت، فلتعد إلى بلدك ».

يومها تجمَّعنا نحن الصغار ضده، وقدنا حفلة مساندة لصديقنا «أحمد» الذي تعرض لهذا النوع المؤسف من التنمر، فرددنا للرجل مضايقته صديقنا أضعافاً. وفي حقيقة الأمر، فان أعمارنا الصغيرة لم تكن تعيننا بعد لكي نعي مفهوم العنصرية بأي شكل من الأشكال، إذ لم يحرّكنا سوى إحساسنا بأن صديقنا قد تعرض لمضايقة غير مستحبَّة من رجل بغيض ليس إلا.

وفي المدرسة، كان لي زميل من أصول باكستانية، معي في ذات الصف، وكوّنا أنا وإياه صحبة لا بأس بها، وأيضاً لم أكن أركز كثيراً في مسألة أجنبيته وأصوله الغريبة. فهو مجرد عنصر مختلف لا تربطني به صلة تشابه ظاهرية ربما، كما أن ذلك لم يبدُ ضرورياً بالنسبة لي على الأقل. ولعل طعامه كان مختلفاً عن طعامي، كما هو الحال مع بعض تصرفاته وطريقة ملبسه التي قد تكون مميزة بعض الشيء، لكن ألا أختلف عن أقراني من الدنماركيين أيضاً؟! أظن أن نشأتي في منطقة فيها هذا الكم من التنوع جعلتني لا أفكر مليّاً في الفروق، فهي لا تثير في دواخلي الكثير من التساؤلات أو حتى الفضول.

تغيرت الأوضاع في السنوات اللاحقة. مع الوقت، بات النقاش عن وجود هذه الفئة من الناس، وبالتحديد ذوي الأصول الشرقية والمسلمة، يثير العديد من التساؤلات السياسية والاجتماعية على حد سواء، حتى بدأت التصنيفات والنعوت تزعجني قليلاً. لم أجد في نفسي الرغبة في تحديد من تكون هذه المجموعة من البشر، وفق الترتيبات التي يحاول أن يسبغها البعض عليهم، أو حتى تلك التي يصفون بها أنفسهم. مصطلحات مثل «الدنماركيون الجدد» وغيرها، أجدها مصطلحات مدَّعية وغير واقعية، كما أنها تفترض النظرة الفوقية كأنها تنتشل هذه الفئة من مواطنين درجة ثانية، إلى الدرجة الأولى؛ لكنها لا تكتفي بذلك، بل تضع لهم علامة، اسم، إشارة، وتمنُّ عليهم بها، فتحاول تذكيرهم بتلك الأفضلية التي منحت لهم، كلما نوَّه عنهم أو تمت الإشارة إليهم.

شخصياً، أفضل الاعتماد على الواقع والارتكاز على الدلائل لأجل التأكيد على مثل هذه التوصيفات. فالواقع يدل أنهم ببساطة «أجانب»، فئة من الناس تحمل ثقافة، وديناً، وأعراقاً أجنبية ودخيلة على الدنمارك. كما أن العديد منهم لا يجدون غضاضة في هذه التسمية أو الصفة، مع فارق المستوى لمدى «أجنبية» الفرد منهم. فالجيل الأول أجنبي بامتياز، بل إلى حد قد يصعب معه التأقلم، ويصعّب مهمة الاندماج. لكن الجيل الثاني أقل أجنبية ولديه ميزات وسمات دنماركية بحتة، حتى وان كان ذلك بنسب متفاوتة ومهجنة أو فلنفرض فوضوية. ورغم أن التسمية في هذه الحالة هي توصيفية محضة، إلا أنهم في رأيي دنماركيون إذا ما ارتأوا في أنفسهم ذلك. لا شيء يحدد ماهية «الدنماركي»، فقد يكون المرء دنماركياً عرقياً، ذا أصول تعود به إلى الڤايكنغ مثلاً، لكنه غير مهتم لذلك، فلا تجد يمتلك حساً وطنياً من أي نوع، كما أن هويته الدنماركية قد لا تمثل له قيمة أساسية. في الوقت الذي يشعر فيه «عبد الله»، أنه دنماركي جداً، بل أكثر بكثير من هذا الشخص حامل الجينات الدنماركية غير المبالي بها. ولهذا السبب تحديداً، أرى أن المرء باستطاعته أن يكون دنماركياً وأجنبياً في الوقت ذاته، إذ ما من جزئية تستثني أو تحجب الأخرى. لدي أصدقاء مثلاً بخلفية دنماركية يعيشون في دول أخرى ولا يعتبرون أنفسهم دنماركيين، وقد يتضايقون من الوصف لأنهم يعتبرونه ضيقاً ومحصوراً، ولا يعبّر عن حقيقتهم لكونهم قد تبنوا وتلاءموا بل وتماهوا مع ثقافات أخرى! لا يمكن أن يُختزل البشر في هوية واحدة محتكرة، أو نمط واحد وثابت. ثم من غير المنطقي أن تُكره الآخر على ما تعتقده أو تظنه أنت عن هويته! أمر غير معقول أن يرى شخص ما في نفسه أنه دنماركي مثلاً فأتي لأقول له، «لا لستَ كذلك»، أو أن أفترض فيه أن يكون دنماركياً وفق نظرتي وتقييمي أنا. فما دام يعرِّف نفسه كدنماركي، ولد أو نشأ أو حتى عاش في البلد لفترة من الزمن، فهو كذلك قطعاً وفق تعريفه الشخصي للكلمة، أو حتى وفق مفهوم المواطنة لديه هو بالذات، مهما كان تعريف المواطنة هذا شاملاً أو عشوائياً.

ثمة من يعتبر ان «الإثنو ــ قومية»، هي الشكل الوحيد للمواطنة، أي أن المرء لا يُعتبر مواطناً من بلد ما، إلا إذا اختلطت دماؤه بدماء القوم، وحمل جيناتهم. بمعنى آخر، فان الإثنو ــ قومية تعني أن المرء يولد من رحم هذه التبعية القومية فقط. لكنني شخصياً غير مؤمن بذلك، فالثقافة والنشأة تحددان التبعية أكثر من الولادة لأسر تظن أنها ذات دماء أصيلة.

* * *

ما نلاحظه من وجود الغيتوهات أو التجمعات السكانية حيث يتكاثر الأجانب، هو أمر طبيعي بغض النظر عمّا يجلبه معه من تبعات غير محمودة. فلو انتقلت أي جماعة متجانسة إلى بلد غريب، فإن أول ما ستحاول فعله هو التواصل فيما بينها، بل والتواجد في بقع جغرافية ملائمة ومتقاربة لتسهيل الاتصال. مع ذلك، فأن وضعاً كهذا، قد لا يعد مناسباً ومقبولاً ضمن النسق الاجتماعي في الدنمارك. فنحن مجتمع يعتمد على الثقة التامة بالنظام، في شبكة تواصله ما بين الأفراد والدولة.

على سبيل المثال، الدنماركيون جميعاً يسلِّمون نصف رواتبهم تقريباً للضرائب، لأنهم على ثقة بأن هذه الأموال ستكون في خدمتهم عموماً وبشكل مشترك، فنحن نتكافل مع بعضنا البعض، ولدينا ثقة في أن الآخرين يفعلون ما نفعل دون احتيال أو مواربة. ولهذا، فعندما ينتبه الدنماركيون أن ثمة بؤرة لكتلة بشرية متجانسة، لكنها غريبة عنهم، تحمل في وجدانها قيماً وعادات مختلفة، بل وقد تكون على النقيض من قيمهم وعاداتهم، فسيراودهم الشك وربما القلق أيضاً. فالعَقد الاجتماعي في الدنمارك معروف، والجميع يسير وفقه على نحو معهود، لكنه قد يكون مبهماً وغير جليّ بالنسبة لهؤلاء الغرباء.

في الدنمارك، ننقل نسبة هائلة من قوانا وطاقاتنا كأفراد، كلاً حسب مجاله داخل مؤسسات الدولة أو المجتمع، منتظرين منها في المقابل أن تدير شؤوننا كما ينبغي؛ فتعتني الدولة بأولادنا وفق نظام دراسي ممتاز، ومؤسسات تعليمية جيدة لأنهم استثمارنا الأساسي لمستقبل أفضل. كما وتعتني بالمسنين الذين أفنوا حياتهم في خدمة المجتمع، فتراعيهم في أواخر سني حياتهم في دور للمسنين تكون فيها خدمتهم على أعلى مستوى، لكي يحظوا بالراحة والعناية في السنوات المتقدمة من أعمارهم. نحن ننتظر من

الدولة أن ترعى حقوق الأطفال في التعليم الجيد والرعاية الاجتماعية والمتابعة من قبل البلدية، مثلاً في حال كان الوالدين غير مؤهلين لرعاية الطفل، فالدولة هي التي ستستلمه. الدولة مسؤولة عن العناصر الضعيفة في المجتمع حتى تصبح أقوى، وهو أمر نتميز به لأنه غير متوفر حتى في الدول التي تُعتبر من بين دول العالم الأول، كالولايات المتحدة مثلاً، فنحن نتفوق في رعاية الأطفال والمسنين، وهذا هو نوع الثقة الذي نوليه الدولة حين ندفع أعلى نسبة ضرائب في العالم.

الأطفال هم وقود السنوات القادمة لكي يتحرك المجتمع بشكل سليم، والفرد منذ نعومة أظفاره لديه عَقد مع الدولة، هذا العقد بالمرتبة الأولى هو مع الطفل وليس مع الأسرة، وإذن فعلى الدولة أن تكون ملمّة ولها بُعد نظر فيما يحتاجه المجتمع ككل من هذا الفرد. ضمن هذا السياق مثلاً، فان التعليم عندنا ليس جزافياً، سيما في المراحل المتقدمة من المتوسطة والثانوية؛ فنحن في بلد يؤهل الطلاب ويوجههم إلى ما يحتاجه المجتمع منهم. هل ينقصنا صيادلة مثلاً؟ أم أيدي عاملة؟ هل لدينا نقص في مهن كالنجارة والحدادة والصباغة؟ أم لدينا نقص في المهندسين والطيارين؟ لهذا السبب تحديداً ما من مهنة غير محترمة في الدنمارك، فكلنا ندفع الضريبة لخدمة بعضنا، وكلنا نعتمد على بعضنا البعض كيما تسير عجلة المجتمع الدؤوبة. وإذا ما جمعنا مثل هذه الأسباب، فسنجد أن عمق المشكلة في مناطق كالغيتوهات، هو أنها مختلفة في هيكليتها عن النموذج الدنماركي، فمثلاً العائلة/الجماعة عند مجتمعات الغيتو لها الأولوية استناداً للإرث الثقافي المستورد مع هؤلاء المهاجرين من بلادهم. فهم يولون الكتلة/الأسرة، أهمية قصوى، وذلك بخلاف النمط الدنماركي الذي ذكرتُ بأنه يركّز على الفرد لا الجماعة. ولأن العائلة أهم وفق المنظور المغاير هذا، فإن العديد من المشاكل الاجتماعية التابعة لهذه البِنية تصبح حتمية، كالرقابة الاجتماعية على سبيل المثال، والتي تنشط في مجتمعات كهذه؛ إذ لا يمكن للفرد أن يكون رقيباً على ذاته ويمتلك قراراته وحياته كلياً دون تدخل الآخرين، بل الأسرة والمكوِّن هما المتحكم الأساسي في الفرد، وفق هذا النمط. وهنا من المهم الإشارة إلى القلق الدنماركي بشأن هذه البنى الاجتماعية، ولا سيما حين تنحصر في غيتوهات، فهو قلق مبرَّر بالنسبة للعقلية الدنماركية التي لم تعتد هذا النسق.

على سبيل المثال، طلبت الدولة من الأمهات الأجنبيات ربات البيوت، في بعض من هذه الغيتوهات، أن يضعن أولادهن في الحضانة في مراحل مبكرة جداً. ولأن وضع الطفل في الحضانة غير ملزِم للأسر التي تكون فيها الأم ربة منزل، فقد قوبل هذا الطلب بالتشكك والريبة. لعلهم فكروا، ترى لماذا يقر أمر خاص بنا لا يشمل غيرنا من الأسر؟! بينما بالنسبة للدولة، فإن الموضوع ببساطة منحصر في كون هؤلاء الأطفال مزدوجي الهوية، سيتعلمون الدنماركية بشكل أفضل وأسلم إذا ما أجبروا على الالتحاق بالحضانة في سن أبكر، حتى وإن كانت أمهاتهم ربات بيوت وغير عاملات. فالدولة ترى أنها مسؤولة عن طفلها الذي لن يحظى بالكفاءة اللغوية الكاملة، وبما أنها لن تتوفر له في المنزل، فمن واجبها أن تعينه على نيلها كما ينبغي، وفي الوقت المناسب، قبل أن يتعسّر الأمر لاحقاً إذا ما كبر.

وهكذا، فان أموراً كهذه، هي ما تجعل بعض الأجانب يتحسسون من القوانين الخاصة التي تشملهم ولا تشمل غيرهم من الدنماركيين. كما أن العديد منهم لا يفهم علاقة الدولة بالفرد، وقد يقضي حياته كلها في الدنمارك دون أن يعيها أو يدركها، كيما يتعاطى مع مثل هذه المبادئ بأريحية واعتدال. المشكلة الحقيقية في رأيي، أننا في الدنمارك نتحدث بشكل سيء جداً عن الأجانب، في إعلامنا المرئي والمكتوب، لكننا نعاملهم على نحو ممتاز، وفقاً للقانون الذي يحكم البلاد. وهو عكس ما يحدث في دول أخرى على سبيل المثال، حيث يعامل الأجانب بعنصرية وفوقية مفرطة، رغم أن الخطاب العام عن الأجانب يكون صوابياً ومعتدلاً.

ولأننا نعيش في بلد علماني إلى درجة كبيرة، فإننا لا نرتاح للخطاب الديني أياً كان وبأي شكل من الأشكال، كما أن الدين بالنسبة لنا يجب أن يجير لراحتنا وليس العكس. هكذا هي نظرتنا للدين، بينما الأمر مختلف عند العديد من الشعوب والمجتمعات الأخرى، حيث تُكرَّس حياة الفرد بأكملها لأجل الدين، فتجدها تدور في فلكه. لا أنكر أن الهجرة إلى الدنمارك في العقود الأخيرة قد أثّرت على رؤية الدنماركي لطبيعة الدين ككل، وربما بات يفكر ملياً بدينه المسيحي على وجه الخصوص، لكن بالرغم من هذا التأمل الذاتي الذي حفزه وجود الآخر، إلا أني لا أرى بأن الدنماركي قد أصبح أكثر تديناً، أو تمسكاً بدينه بسبب نزوح أتباع ديانات مختلفة إلينا. العلمانية في الدنمارك هي قيمة عليا، نتمسك بها جميعاً، أما التدين بحد ذاته فهو أمر شخصي وقد يتباين من فرد لآخر؛ ولا أجد أن ثمة اختلافاً بيّناً أو ظاهراً في طبيعة التعاطي مع الدين ككل، سواء قبل أو بعد هجرة المسلمين إلى البلاد، فالأمور تبدو لي كما هي منذ عقود خلت.

* * *

أعرف القليل عن العراق. فهو البلد الذي كان يحتضن حضارات وادي الرافدين، أوما يدعى بميسوبوتاميا. أعرف أن بغداد كانت مركزاً للعرب والفرس والمسلمين عامة، وأن العراق بقي تحت السلطة العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى، ثم نال استقلالاً واعتُرف به كدولة نُصِّب فيها ملك. تجتمع في العراق طوائف وأعراق وديانات عدة، بعضها لا يربطها بالآخر سوى أنها جميعاً تقع تحت خيمة هذا البلد. ثم جاء حزب البعث في الستينيات أو السبعينيات[24] على ما أظن؛ وقد تسبب صدام حسين في حربه مع إيران، بمقتل مليون ونصف المليون عراقي، كما كان ديكتاتوراً ومجرماً، مارس طغياناً عظيماً ضد شعبه وقمع الحريات، وتسبب في محو قرى كردية بأكملها، كما تسبب بهجرة هائلة من البلاد بسبب حروبه الثلاثة ومطاردة نظامه للمعارضين وقتلهم والتنكيل بهم. أما فيما يخص وضع العراق اليوم، فأنا مهتم جداً لما يحدث، سيما بعد أن توغلت فيه داعش لتحتل أجزاء كبيرة من أرضه. هذه أحداث لا يمكنني عدم متابعتها أو الاهتمام بها، أولاً لكوني صحفياً، وثانياً لكونها كوارث لا يمكن للمرء أن يغض نظره عنها.

بخصوص القضية الكردية، فهي برأيي قضية غير معقولة، ولا أرى أن الأقليات يحق لها متى ما شاءت الانفصال عن البلد الذي تنضوي تحت حكمه، سيما إذا كان الموضوع معقداً كما هو الحال بالنسبة لكردستان المقسّمة ما بين عدد من الدول التي لن تسمح بهذا الاستقلال، على حساب مصالحها الإقليمية والسياسية في المنطقة. وبالنظر إلى كردستان العراق تحديداً أجد بأنهم الأفضل حالاً ووضعاً من بين باقي الكرد، فحتى داعش التي دخلت إلى العراق عبر شماله لتحتل أراضيه لم يسعها الدخول إلى إقليم كردستان رغم أنها كانت قاب قوسين أو أدنى منه. ما يعني أن الحكم الذاتي والاستقرار النسبي الذي يتمتع به الإقليم منذ مطلع التسعينيات، هو دليل على أن الكرد في العراق تحديداً ليسوا بحاجة إلى إعلان الاستقلال التام لأن حقوقهم بيِّنة، وحكمهم الذاتي

لم يتأثر. في ظني أن حلم الاستقلال الكردي هو حلم سياسي وهمي يغذون به شعبهم، لأجل نيل مكاسب سياسية، ولن يتحقق عاجلاً. فتركيا وإيران وباقي القوى القومية والسياسية في المنطقة لن تسمح بذلك.

* * *

إذا فتحتَ التلفاز أو قرأتَ الصحف لتتابع النقاشات الدائرة منذ أكثر من ثلاثين عاماً عن الاندماج، فستظن أن الدولة الدنماركية تعامل الأجانب على نحو شيطاني كلياً. الإعلام الدنماركي بانفتاحه المتزايد، يسعى وبشكل دؤوب للابتعاد عن الصوابية السياسية، كأنها وصمة يحاول ألا يتلطخ بها خوف أن يفقد المساحة الهامة لحرية التعبير التي يعتز بها ويرعاها، كأنها رضيع جديد يدللّه، ويخاف عليه بشدة من المرض والهزال والتوعك. حرية التعبير والابتعاد عن التنميط الصوابي، يبعثان بالإعلام الدنماركي لأن يكون قاسياً وحاداً في خطابه، وفي بعض الأحيان تكون لنبرته دلالات تبدو وكأنها عنصرية. لكنك لو جئت للواقع فنحن نعامل الأجانب معاملة ممتازة، وفق القانون وما نتمتع به من حقوق ينالها الأجنبي تلقائياً كمقيم في البلاد.

قبل فترة تابعت استبياناً لمواطنين من أصول أجنبية، وكان السؤال إن كان الأفراد قد تعرضوا للتمييز او العنصرية في العامين الماضيين. الغالبية أنكروا ذلك، لكنهم حين سُئلوا إن كانوا شعروا بالتمييز أو العنصرية عبر وسائل الإعلام، فكانت ردودهم الساحقة هي بالإيجاب! وهذا التباين في الإجابتين، يؤكد ما وضحته للتو.

القيمة الأهم عندنا، والتي يمكنني أن أشرحها لشخص من خارج الدنمارك، هي القيمة التي تأسس عليها مجتمعنا، ألا وهي المساواة. لا أفضلية لأحد على الآخر مهما كانت خلفيته الاجتماعية، أو العائلية، أو حتى العملية والثقافية. الكل يعامَل بشكل غير رسمي، ولعل ذلك ما يميزنا حتى عن محيطنا الأوربي، فنحن نخاطب الجميع من دون صيغ تفخيم أو احترام. الطفل في المدرسة، الأستاذ في الجامعة، رئيس الوزراء، الجميع يُنادى باسمه الأول من دون ألقاب. هذه هي المساواة المثالية من دون ادعاءات فارغة برأيي. بالإضافة لذلك، فان الدنمارك بلد ديمقراطي، وفي هذا السياق فقد ضربنا رقماً قياسياً لعدد المؤسسات والجمعيات. كما أن حقوق إنشاء مثل هذه الجمعيات محفوظة في المجتمع المدني. كلما ودّ أحدهم أن ينشئ جمعية سيدعو لاجتماع عام، وسيُناقَش الأمر بطريقة مُثلى حيث يتم الاستماع للجميع، وهكذا ببساطة تنشأ جمعية جديدة!

الدنماركيون لديهم ما يدعى بـ «بثقافة التذمر»، ما يعني أنهم واعون جداً لحقوقهم، ومتى ما تم الاعتداء على هذه الحقوق ولو قليلاً، فستجدهم بالمرصاد، ولن يتوانوا عن التعبير عن سخطهم واستيائهم، مهما كان الأمر تافهاً، كمراقبتهم للشخص الذي يقف بجانبهم إن كان قد عبر الشارع من المكان المخصص للعبور مثلاً، أم خرق القانون بعبوره الشارع من على بعد مترين من الخطوط! نحن من الشعوب القليلة جداً في العالم التي يقف فيها المشاة للإشارة الحمراء في الطريق، بالرغم من كون الشارع فارغاً تماماً، لأننا نلتزم بالقانون حتى وإن اختفت الرقابة. أنا شخصياً سعيد في هذا البلد، لأن قيمه متسقة مع القيم التي أطمح إليها، وأنسجم معها. ولستُ كذلك لأنني دنماركي الأصل، فقد أكون دنماركياً، لكن على خلاف أو على نقيض مما تمثله القيم والثقافة الدنماركية؛ وذلك يعد حقاً مكفولاً لي بالطبع!

علي أن أعترف، بأن بعض أسسنا الثقافية باتت مهدَّدة، ربما بطبيعة الأحوال المستبدلة، ولطبيعة التطور في المجتمعات وسنّة التغيير المستمرة. لكنني حريص على بعض القيم، سواء أكانت قيم أصيلة، أم نتاج ثقافة اجتماعية، «كقانون يانته» مثلاً، والذي بات أقل تأثيراً في المدن منه في المناطق والمجتمعات الريفية. فالناس في المدن تولدت لديهم الرغبة في التفاخر والتبجح بما يملكون، وأصبحوا يشعرون بالغبن لأنهم ممنوعين أخلاقياً من هذا التباهي. بعضهم يود إبراز ساعته الفاخرة، فقد عمل بجد لأجل نيلها! التباهي بهذه الماديات مسرحه المدينة والأماكن المكتظة بالناس الذين سيلحظون الساعة والماركات الغالية ويميزونها، ولن يحدث ذلك في الريف أو في المجتمعات المتساوية، حيث ما من تمايز طبقي أو اجتماعي، وحيث يتسلط «يانته» عليهم مثل غول كبير ومخيف. شخصياً، ورغم مساوئ «يانته»، إلا أنني أجد حسناته أكثر بكثير، ولهذا السبب أحرص على إبقائه ولا أرغب بزواله كما باتت تلك أمنية لدى كثيرين اليوم.

الدنماركيون فخورون جداً بنتاجهم الثقافي والأدبي الذي انعكس بشكل عام على حياتهم الاجتماعية وبشكل دقيق. حتى ذلك النتاج الذي يتعارض مع قناعاتهم الحالية، أو يمثل حقبة وتوجهاً مغايراً لما لحق فيما بعد. النخبة المثقفة ستجدها تميل على سبيل المثال لـ «سورن كيركغور»، أما على المستوى الشعبي والعام، فيفضل الدنماركيون «غروندفيغ»، فكيركغور يبقى بالنسبة لهم، ذلك النخبوي المناهض للديموقراطية، والذي ينظر إلى العوام على أنهم مجرد كائنات «فلستية»[25]. بينما يمثل غروندفيغ لديهم الرغبة الجادة بالتطوير، وهو من حاول جاهداً الارتفاع بطبقة الفلاحين بالتحديد بغية تحويلهم لأمة ديموقراطية، إذ بحسب قناعاته لن تنجح أمة من دون تعليم وتطوير طبقاتها الأدنى.

من الناحية الفلسفية قد يعدّ كيركغور ذا جودة فلسفية عالية، بالمقارنة مع غروندفيغ، إلا أن تأثير الأخير على الدنمارك هو الأكبر والأهم. كيركغور ذاته كان ينظر إلى غروندفيغ نظرة ازدراء فيها لمحة تعال، إذ كان يعتبره مثقفاً متعثراً وغير متحقق، أشغل حياته العملية الثمينة، لأجل تحقيق أهداف هيّنة على المستوى الفلسفي والنقدي وحتى العملي. غير أن الواقع يقول عكس ذلك تماماً، فالدنمارك اليوم تُعتبر بلد غروندفيغ، أو البلد الناتج عن فلسفته وأثرها الذي طال حتى أجيالنا الحالية. إذا ما نظرت إلى الأمر من منظار الواقع، فان كيركغور لم يكن مخطئاً تماماً في تقييمه لغروندفيغ، لكن ما فعله وحققه الأخير للمجتمع وللدنمارك ككل، كان أكثر أهمية وأبقى أثراً، وذلك بمراحل عن فلسفات كيركغور التنظيرية التي لم تجد انعكاسها على نحو جاد في أرض الواقع، ولم تلقِ بظلالها على المستقبل.

* * *

السردية الخامسة

سارة جمال الدين.. رقصة الروح المعانِدة

حوراء

مرّت سارة في حياتي عندما كنتُ طفلة. لم تكن صديقةً مباشرة لأنها كانت أكبر مني بعامين أو ثلاثة، ما يعني أنها غالباً ما كانت تعد من الكبار، أولئك الذين لا يخالطون الصغار من أمثالي. ثم أنها كانت فتاة رقيقة جداً، وأنثوية بطريقة لا تجعلني وإياها نتقاسم مشتركات بيّنة. فرقّتها المفرطة، هي بالتضاد مع ما كانت تعكسه طاقتي في ذلك الحين، لأنني كنتُ «توم بوي» بامتياز. طفلة تلبس الجينز غالباً وتلعب كرة القدم والسلة، وتتعارك بالأيدي والأرجل مع الطلاب الذكور، إذا ما استدعى الأمر صرع أحدهم على أرضية المدرسة الصلبة. ولذلك فقد كنتُ أنظر لسارة على أنها خارج نطاق الصداقة. اهتماماتها أيضاً كانت بعيدة عن اهتماماتي الرياضية مثلاً، ومبكراً اتضح بأنها فتاة موهوبة فنياً، ما يفسّر كونها غالباً ما كانت تُنتخب لأداء الأدوار التمثيلية والمسرحية في احتفاليات الجالية العراقية. فقد عُرفت بتمثيل دور السيدة زينب بنت علي ابن أبي طالب، في مسرحيتيْ «الحسين ثائراً» و«الحسين شهيداً»، التي مثّلها الأطفال. كما أن صوتها كان جميلاً ودافئاً، وغالباً ما لمحتها من بعيد وهي منهمكة في الغناء والشدو. بيد أني لم أحزر في تلك السن الصغيرة، تمردها ونظرتها المشققة على مجتمعنا الموازي المنغلق، ربما لأنها كانت تبدو لي مغلّفة بإحكام بذلك الحجاب الصارم، فهي لم تكن تلبس الجينز مثلي، بل كانت تلفّ جسدها الرشيق المنمنم بمعاطف طويلة أشبه بالجلاليب تدعى «مانتو»، وتلك كانت فكرة مشابهة جداً لشكل الحجاب الايراني أو التركي. بعد سنوات اكتشفت أن الأمر قد بدا لي، وأنا أقف من هذه المسافة، مختلفاً كلياً عن الحقيقة والتفاصيل التي عرفتها فيما بعد. فالتفاعل الاجتماعي الواضح من طرفها، ترك عنها انطباعاً راسخاً لديّ، من كونها تلك الفتاة المنخرطة بشدة في مجتمع الجالية وملحقاتها الاجتماعية، ومناسباتها الدينية التي بالكاد تنتهي لتبدأ، بين حزن وفرح. ولعل اسم أسرتها، علاوة على ذلك، كان قد قَرض ذلك الانطباع بشكل مسلّم به. أسرة «جمال الدين» الدينية العريقة، التي ما أن تذكر اسمها حتى يتبادر إلى ذهنك علماء وفقهاء وأدباء معممون بعمائم سوداء تشير إلى النسب الهاشمي، وتقترح بذلك نمط حياة وسلوكاً متوقَّعيْن. وأذكر بأنني حين بدأتُ أتعمق في اهتماماتي الشعرية باللغة العربية، سألتها مرة إن كان للشاعر العراقي الكبير «مصطفى جمال الدين»[(26)] علاقة قريبة بهم، فأشارت باعتزاز أنه ابن عم والدها. ثم بدأتُ أولي اهتماماً في سن مبكرة لشِعر عمها المباشر الذي كان يقطن الدنمارك أيضاً، وهو شاعر رقيق يدعى محمد تقي جمال الدين، الذي كان منعزلاً كلياً عن الجالية العراقية في شمال الجزيرة، والذي أهداني بلطف، ديوانه المعنون «أعلنتُ طفولتي يا عالم المزيفين»، في وقت كنتُ فيه بالفعل بعد طفلة، غير أني للأسف كنتُ مجردة الطفولة إلى حد كبير، ومتخوفة من الإعلان عن أيٍ من ملامحها وآثارها الجلية.

كل هذه الأجواء والأنماط الحياتية المتوقعة المحيطة بسارة، كانت لتفترض شخصية منبثقة من رحم هذه الأسرة والمجتمع المتدين تديناً ثقافياً غير تقليدي. وكان في وسع ذلك أن يرسم شخصية نمطية لها، شخصية متوقعة وقابلة للتنبؤ. غير أن الفتاة أبت ذلك بإصرار عجيب، وهو ما أثار استغرابنا وربما شيئاً من استنكارنا، في وقت كان أغلبنا يحاول إرضاء الأهل وأصحابهم، ومجتمعنا الصغير الذي يمارس رقابته الاجتماعية باحترافية عالية؛ حاملين فوق ظهورنا حقائب مثقلة بعاداتنا وتقاليدنا التي لا تناسب المكان الذي قذفنا إليه القدر لنبدأ فيه حياة جديدة. فكانت سارة واحدة من أوائل الفتيات اللواتي تمردن على ذلك كله دفعة واحدة، فتزوجت في سن مبكرة وضد رغبة أسرتها، ثم تخلت عن مظاهر المجتمع المتزمت بتخليها عن قوالبه؛ ذلك الحجاب البارز، وذلك المعطف الطويل الذي يصل حد الكاحلين صيفاً وشتاءً، لتقرر من بعدها التخلي عن المجتمع وتقاليده واحتفالياته ومجالس عزائه وأعراسه ولقاءاته وصداقاته المفتعلة غير العفوية! تخلت عن ذلك كله بركلة واحدة. هزت كتفيها بعدم اكتراث وأدارت ظهرها، ثم مضت.

اتفقنا أنا وسارة، أن نلتقي على «Brunch» في إحدى مطاعم كوبنهاغن مع صديقة مشتركة. كان ذلك بعد سنوات طويلة من الانقطاع الذي لم يكن متعمداً بل حدث بحكم الظروف والابتعاد. حين وقعت عيني عليها للوهلة الأولى بالكاد عرفتها. بدت أجمل من ذي قبل، ومتوهجة الأنوثة عن تلك المراهقة الرقيقة النحيلة التي تخبئ عنادها خلف دماثتها. شعرها طويل ومصبوغ بخصل شقراء أضفت على وجهها إشراقة لطيفة، وجسدها الممشوق ملفوف بفستان نهاري ضيق أظهر رشاقتها اللينة. لكن عيناها احتفظتا بذات البريق الذي كان يلمع بشدة في سني مراهقتها. تمسكتُ بهذا البريق في الدقائق الأولى للقائنا كي لا أشعر بالوحشة، ثم ما لبثتُ أن استرجعتُ الذكريات سريعاً مع نبرة صوتها وايماءاتها وحركاتها، التي تذكرتها تباعاً. على طاولة الطعام في المطعم الهادئ، بدأت تتحدث بعفوية عن الماضي الذي خلّفته وراءها. لم تفارق وجهها شبه ابتسامة رافقت حديثنا المطول ذاك، حتى وهي تستذكر أموراً ومواقف مؤلمة. كنتُ أستمتع بلكنتها الجنوبية ذات النكهة البصراوية أحياناً، والتي تلوح بين كلماتها العراقية بين الحين والآخر، وانتقالها بين الدنماركية والعربية بلطف ويسر، مثل أصابع خبيرة تتواثب فوق آلة بيانو، ومع كل نقرة تصدر نغمة مختلفة. هكذا كان حديثها منغماً، شفافاً، ومطواعاً.

* * *

سارة

لم يكن في نيتي التحدي مطلقاً. شخصيتي كانت هكذا دون تعمد العصيان! تصرفاتي كانت مجردة، وعقلي قادني من غير تعقيد إلى حيث قناعاته التي بدأت تتشكل بذاتها، دون أي تدخل من الآخرين. لم أخف من الشكل الاجتماعي، أو اسم الأسرة الذي يحمل ثقلاً دينياً ومذهبياً عميقاً، لم يخفني سواد العمامة التي كبرتُ تحت ظلها، إذ لا شيء يهم حقاً غيري قناعتي. فالأهل من الصعب أن يدركوا ما هو أفضل! لقد أجبروا على تفاصيل كثيرة في حياتهم من قبل مجتمعاتهم، سواء كانت صغيرة أم كبيرة، موازية أم أساسية؛ لكنني لن أسمح بهذا الإجبار، لأنني ببساطة أشعر بأني حرة ومنعتقة، ولا شيء يقيدني.

حين قاطعني أهلي لسنوات لأنني تزوجت خلاف رغبتهم، ثم زدت على ذلك بخلعي الحجاب واتخاذ أسلوب حياة عكس إرادتهم وتوقعاتهم، قررتُ ألا أسمح لهم بنبذي. كنت أزورهم رغماً عنهم. كان أبي في البدء يشيح بوجهه عني، فأجبره على النظر اليّ،

وأكلمه حتى وإن لم يردّ حديثي. «أنا ابنتك، أنا صغرى بناتك! أنا مدللتك، ولن تتغير هذه الحقيقة مهما حصل، فالأفضل أن تتقبلني كما أنا»، هكذا كنت أقول له. بعد فترة، حتى وإن مرت طويلة وثقيلة، فعل! وعدتُ رغم كل العوائق والخلافات ابنته الصغرى المدللة.

لست مسؤولة عن الغصة في قلبه، والتي ألمحها أشبه بالشهقة في عينيه، بين الحين والآخر. فيها لمحة من خيبة أمل، لكن ألا يخيِّب الأبناء آمال آبائهم بطرق مختلفة ومبتكرة على الدوام؟ نظرته تلك لا تضع على عاتقي حمل محوها، فهي لا تختلف كثيراً عن خيبة الأمل التي يشعر بها والدٌ أمِل في أن يغدو ابنه طياراً فصار عازف غيتار، بوهيميّاً، طويل الشعر، وتغطي جسده الوشوم المبتذلة، بدلاً عن بذلة الطيران الأنيقة التي حلم أن يراه الأب فيها! ليس ضمن مسؤوليتي على الإطلاق إرضاء أحد. والأهل في مثل هذه الحالات، ليس لهم أن يعلموا أو يدركوا ما هو أفضل!

* * *

ولدتُ في البصرة التي غادرتها عائلتي بعد عشرة أيام فقط على ولادتي. والدتي سنية المذهب ووالدي شيعي.

في البدء، عشنا في لبنان لبضع سنوات، ثم في قبرص، حتى انتهى بنا الحال إلى الدنمارك التي وصلتها في الثامنة من عمري فقط. كانت أمي قد بدأت بارتداء الحجاب قبل أن نحط رحالنا في الدنمارك بفترة بسيطة، أما أخواتي اللواتي يكبرنني فلم يكنّ محجبات. حين وضعونا في منطقة ريفية معزولة، لم نكن في حينها نعرف شيئاً عن الحياة في المدن الدنماركية الكبيرة، لكننا كنا نسمع عن المجتمع العراقي في كوبنهاغن مثلاً، وصار أهلي يطمحون لانتهاء الفترة الانتقالية هذه بسرعة، كي نستقر في العاصمة، ونكون على قرب وتواصل مع الجالية التي ننتمي لها.

لا زلتُ أتذكر تلك الأيام في الريف بحنين كبير. أذكر جارنا الدنماركي، ذاك الخمسيني اللطيف الذي كنتُ أناديه «بعمّو أوله»، والذي عودنا في الصيف على إحضار طبق فراولة من حديقته الخاصة. مبردة ومغسولة وطازجة. وكان يهتم بنا نحنُ الأطفال المهاجرين ويغدق علينا من حنانه المتزن، ويحادثنا بدنماركية أصيلة، فلا يختار التخفيف من الثقل الذي تحمله مفرداتها، ولا يحاول التقليل من المطّ والمدّ الذي تُعرف به لكنته الريفية اللطيفة؛ كأنه كان يعي تماماً، أن هذه هي الطريقة المثلى لدمجنا وتعليمنا اللغة بأسرع ما يمكن. ربما تخيَّل مصاعب وأهوال عظيمة مررنا بها قبل أن نستقر في الدنمارك، لأنه كان شديد التعاطف ويقطر محبة بالرغم من ملامحه الصارمة. أحياناً أتساءل لو أنه لا يزال على قيد الحياة، فهل تراه لم يبارح تعاطفه وطيبته؟ أم أن خطاب الكراهية الذي يبثه الإعلام الدنماركي ضد المهاجرين قد أثر فيه، فغير من حنانه، وودّه، ومحبته الفائضة؟!

حينما قرر أبي ــ لنا أن نُهيَّأ لارتداء الحجاب، باعتباره السمة الأساسية للأسر العراقية الشيعية في كوبنهاغن، وعلينا أن نعتاده قبل الانتقال إلى هناك، كنتُ بيني وبين نفسي أستغرب الأمر بشدة، وأعلنتُ رفضي له رغم صغر سني حينها. كنتُ أرهِق أمي بالنقاش:

«يعني عمّو أوله لازم ألبس منه حجاب. بس هو مثل أبويا!».

والدتي لم تكن من النوع الذي يجادل ويطيل في الكلام. كانت تضع يدها على فمها فقط، مع نظرة معبرة من عينيها علامة على إسكاتي وإنهاء الحوار. لم أستسلم في البدء، وتمردتُ على الحجاب كثيراً. كنتُ أدّعي أنني نسيته في البيت، أو أتعمد الظهور بدونه أمام الجيران والأصدقاء. وأحياناً أخرج من دونه للعب في المنطقة المحيطة بالمنزل مع بقية الأطفال. وحين أعود تهرّبني أمي إلى داخل البيت من الباب الخلفي، خوف أن يراني أبي أو أخي الأكبر الذي صار شيئاً فشيئاً يهيَّأ ويُعدّ لاستقبال الحياة الحوزوية، وسيرث قريباً العمامة بكل ثقلها الديني والقيمي والعائلي أيضاً. فأبي وأغلب أقاربي المباشرين مدنيون لا يضعون العمامة، بل أنهم لم يكونوا منغمسين في الدين وتوابعه لولا الدنمارك التي تبرز فيك أضدادك التي لربما لم تكن لتعي وجودها من قبل. بالرغم من ذلك، فأن أسرتي الكبيرة، ورغم كل الملامح والتفاصيل الدينية المحيطة بها، كانت مختلطة التوجهات ومثقفة، وكنتُ واعية أثناء نشأتي لحبهم للشعر والخطابة والأدب، وكان الآخر المختلف قريباً منّا على الدوام قبل استقرارنا في الدنمارك. كما أن العائلة بذاتها فيها فروع متحررة جداً وغير تقليدية، بل أن أمي نفسها سنّية المذهب، بقيت على مذهبها ولم تغيره، بالرغم من أسلوب حياتنا الذي صار شديد التدين، وشديد التشيّع، فيما بعد.

أحياناً أتخيل لو أننا بقينا في لبنان مثلاً، لكانت مفاهيمنا وقيمنا أقل تعقيداً وتشدداً عن تلك التي رافقتنا في حياتنا الدنماركية هذه، والتي ازدادت حزماً مع انتقال الأسرة إلى كوبنهاغن. بيد أن الحدود الضيقة، لا تترك لك أي مفر! فأصبحت عائلتنا منخرطة بشكل مكثف في المجتمع العراقي، وبتنا أكثر تعمقاً بالتفاصيل الدينية عن ذي قبل.

لا زلت أفطن لكون هذا التحول قد جاء بغتة كانقلاب مفاجئ! من الانفتاح إلى الصرامة، من التعاطي مع الآخر والاختلاف والتّقبل، إلى التحرك ضمن منظومة اجتماعية تتحكم بأدق تفاصيل حياتنا، وتملي علينا أفكارنا وتحركاتنا. وبسبب ماضي الأسرة الديني واسمها ذي الوقع «الحوزوي» الرنان، وكون والدي ووالدتي كانا من المتعلمين الذين يعد بمقدورهم التصدي والمواجهة الاجتماعية، فقد صرنا، مع الوقت، تلك الأسرة المثالية ذات النسب الهاشمي التي بدأت تعدّ واجهة دينية واجتماعية لدى المجتمع العراقي الموازي والمصغَّر في كوبنهاغن. فتيات محجبات، أخ يرتاد الحوزة، ألقاب مثل «سيد» و«علوية» تتقدم أسماءنا، وهالة من البهاء والطوباوية تلفنا. وقد انخرطتُ شخصياً بمتعة جلية في هذه الأجواء، كنتُ شابة فعّالة في «الحسينية» أحفظ القرآن وأقرأ الأناشيد، وأحياناً أقرأ قصائد التعزية الحسينية، وأمثّل في المسرحيات التي تتحدث عن قصص أهل البيت وواقعة الطف.. الخ.

لكني لم أنسَ أبداً، أن لا رغبة حقيقة لي بهذا كله! وفي أعماقي كنتُ أعلم بأن أسلوب الحياة هذا لا يناسبني. إنه مجرد واقع فرض عليّ غصباً، ولم يكن ثمة خيارات أخرى وأنا بعدُ مراهِقة؛ كما يستحيل أن تكون ضمن هذه الدائرة الصغيرة، وتعيش بأسلوب حياة مختلف تختاره بنفسك. فإما أن تكون داخلها وتخضع لها ولقوانينها تماماً، أو أن تكون خارجها كلياً، فتُلعن! حتى وإن كان اختلافك ذاك في أبسط الأمور، كأن تختار مثلاً أن تلبس الحجاب بطريقة مختلفة أو مبتكرة، أو أن تفطر في شهر رمضان مع السنّة بدل الشيعة، أو أن يكون لك رأي مهما كان تافهاً، إلا أنه رأي سيعد مخالفاً للمجموعة وللسائد. كل هذه الصغائر، مستحيلة، وستقذفك خارج الدائرة مباشرة.

المجتمع الشيعي المصغّر الذي كان قد ابتلعنا في جوفه، صار مع الوقت أشبه بما يُعرف بالإنكليزية بالـ «cult»[27]؛ فالمجتمعات السنية مثلاً في الدنمارك أقل تجانساً لأن لديها تنوعاً أوفَر، كما أنها نسبياً أكثر تقبلاً للاختلاف، ومن يخرج عن أسرابها المتعددة لا يشيطَن كما هو الحال مع المجتمع الشيعي المتجانس، الذي يرفض أي شكل من أشكال التمايز.

وعلى الرغم من الإحجام الداخلي الذي أمسى ثابتاً في صدري لا يتزعزع، لم أكن من النوع الذي يرغب في أن يقود ثورة. ربما لأنني في حينها، كنتُ أعيش حياةً تبدو هانئة وهادئة، وأساير المحيط الذي وجدتُ نفسي فيه، وأنعطف بتؤدة مع الانعطافات القيمية التي اتخذتها حياتي بحكم المجتمع الصغير والرقابة الاجتماعية التي تلاحقنا بها الجالية. لكنني كنتُ أنتظر الفرصة! انتظرها بتأنٍ ودون استعجال. ولعلها لهذا السبب تحديداً قد جاءت سريعة، لكوني لم أعمد إلى التفكير المبالغ فيها فأخلق بذلك حصناً من المقاومة ضد تجلّيها.

حدث ذلك في الثامنة عشرة من عمري، قصة قد تبدو بسيطة ومألوفة، فقد التقيتُ رجلاً وتزوجنا رغم اعتراض أهلي وممانعتهم. وبعد الانفصال عنهم خلقتُ عالمي الخاص، وابتعدتُ تماماً عن كل الأحكام والمنغصات الاجتماعية التي كنتُ أنفر منها. صرتُ قوية ومحصنة داخلياً رغم ما كان يدور عني وحولي من كلام؛ بدئاً بإجراء الزواج الذي تم بطريقة غير تقليدية، وانتهاءً بمعارضة الأهل والانقطاع عنهم لفترة من الزمن. كانت الصفات السلبية والتكهنات والإشاعات تطلق عني على نحو مجاني، إذ لن يمر هذا الأسلوب المتمرد الذي اخترته مرور الكرام، ودون جلدٍ جماعي لي سواء في السر أو في العلن. فحياتي لم تعد في أعين العديد من أفراد جاليتنا نموذجية وكما يُفترض بها أن تكون، وفق نظرتهم وتقييماتهم. وحين فشل زواجي الذي طلّقتُ لأجله الدنيا بعد ثلاثة أعوام فقط، كنتُ محصنة نفسياً ضد كل ما كان سيطالني من تأنيب وشماتة، فقد تصالحتُ مع فكرة أن تكون لي خياراتي وأخطائي، وأني وحدي المسؤولة عنها.

من بعدها، صرتُ أعيش حياتي لنفسي، وأتخذ قراراتي دون وصاية اجتماعية أو أبويّة. وبعيداً عن مفهوم الحرية الذي اقتنصتُه اقتناصاً، فإن ظروفاً عديدة كانت السبب فيما بعد لتوعيتي بطبيعة الحياة التي سأرغب في عيشها. كما أن قناعاتي ومعتقداتي الدينية أغلبها تغيرت مع الوقت، لعدم يقيني بأن كل هذه المطالب الدينية هي فروض بالفعل. فبتُّ أؤمن بالدين بشكل رمزي أكثر. ما يضرّني ويضرّ الناس هو سيء ويجب أن يُجتنب، ما يفيدني ويفيد الآخرين هو أمر مستحب. بهذه البساطة أختصر قناعاتي، عكس تلك التي أزحتها عني، فقد كانت في الغالب بحاجة إلى الآلاف من الكلمات، والخطابات، والأمثلة بغية شرحها وتبريرها.

الكثير من الأمور التي تثقفنا منذ صغرنا على أنها محرمة أو محللة، باتت تخضع لتقييم ضميري أولاً. الأمور الظاهرة من صلاة وحجاب وصيام اختلفت بالنسبة لي، رغم عدم إنكاري لوجودها، بمعنى أن الصلاة مطلوبة لكني بتّ أختار الكيفية التي أود أن أصلي بها. قد يسمّيها البعض «صلاة»، وقد يطلق آخرون عليها «شكر»، أو محض تقارب روحي وتواصل مع اللّه.

أعلم بأن الغالبية العظمى سترى بأني أهرطق، لكني لم أعد أهتم لآراء الناس وما يحاولون جاهدين إملاءه عليّ من قناعاتهم الذاتية التي لُقِنوها دون إدراك أو فحص، سيما وقد وجدتُ بأن الاعتبارات الجانبية التي تثير اهتمامهم أكثر من الدين بحد ذاته، هي اعتبارات سياسية واجتماعية أثَّرت على مفهوم الدين في وجدانهم، فلم يعد خالصاً وهدفه ليس الارتباط باللّه. فلماذا يفرضون عليّ حيثياتهم التي أجدها مشوشة بينما لي اعتقاداتي الخاصة، تلك التي تهولهم؟ إذ يخيفهم أنني أفكر وحدي دون الاستعانة بتأويلاتهم وتفاسيرهم. هذه الطاعة العمياء لم تكن من صفاتي، رغم مهادنتي في وقت ما، بسبب الظروف.

* * *

أبعدتني القناعات المختلفة والمتحولة أكثر فأكثر عن محيطي، لكن حريتي كانت تضغط عليّ أكثر من أي اعتبارات أخرى، الحرية التي ذُقتها بابتعادي عن هذا المحيط. لم أكن لأتخيل عودتي إلى الممنوعات الكثيرة التي كانت تُطبِق على أنفاسي. فلعب الرياضة ممنوع، الاستماع إلى الغناء ممنوع (الغناء والانشاد الديني مسموح)، السباحة ممنوعة، ركوب الدراجة التي هي واحدة من أهم وسائل النقل في البلاد، كانت ممنوعة أيضاً. كل هذه الممنوعات كنتُ قد اقتربتُ منها وتعرفتُ اليها بعد انفصالي عن المجتمع، ومن الطبيعي أن أقدّر حريتي أكثر بعد تذوّقها، واستشعار طعمها اللذيذ في صميم الروح، فبات من المستحيل العودة إلى ذلك الضغط وتلك المحرمات والممنوعات التي كانت تصدّر بمجانية، ودون تعقل أو منطق.

ثم إني كنتُ قد تعبتُ من العادات والتقاليد التي تتحول إلى طقوس ومراسيم دينية تعبوية، تسري على الجميع في مجتمعنا الموازي. الكل كانوا يأكلون نوعية الطعام نفسها، يسكنون في بقع جغرافية متقاربة، يمارسون حيوات متشابهة، ويرضخون للمتطلبات ذاتها، ويتزوجون بعضهم بعضاً، ثم يتناسلون ليستعدّوا لذات الحياة العائلية التي خلفوها عند أهاليهم، يعيشون داخل مرايا متداخلة لا تعكس صورهم، بل تعكس صور الحياة المعدة سلفاً لهم.

مثلاً، كان من المستحيل أن تجد بيننا امرأة لا ترتدي الحجاب، فحتى وان كانت سافرة في العراق، فان الدنمارك سوف تحجبها رغماً عنها، إذا ما اختارت الانضمام إلى دائرة الجالية. بل كان من الصعب أن تجد امرأة تختار شكل حجابها بنفسها، فلم يكن ثمة تنوع أو تقبل لطرق جديدة أو مختلفة لتلك التي تتحجَّب بها النساء! فحتى الزي كان معداً ومحصوراً في أشكال معينة، لا تحاول حتى أعتى المتمردات الالتفاف عليه.

على الرغم من هذا كله، فإنه لا يمنع إطلاقاً بأن تكون في هذا المجتمع قيم وأخلاقيات وأواصر مودة إيجابية وجميلة. وبالرغم من امتعاضي البيّن، أدرك أن الهدف الحقيقي لم يكن الإساءة لنا أو لجيلنا. لعله الخوف، محركهم الأساسي وسط ظلام المجهول، ورغبتهم في الحفاظ علينا خشية أن تبتلعنا القيم الغربية، التي تبدو نقيضة لبعض ما يؤمن به الجيل الأكبر في هذه المجتمعات الموازية، ممن لا فرص لديهم للاندماج الصحي والطبيعي. ولهذا فأنني حين أتأمل الماضي، لا أجد في داخلي مشاعر كراهية تجاهه، ولا أحقد على الشخصيات التي حاولت السيطرة والتحكم بحياتنا؛ بل أجد بأنهم كانوا يحبوننا حقاً، وفي ظنهم أن ما يفعلونه هو تصرف سديد، إذ لم يكن متاحاً لهم إدراك أفضل من الذي توفر لهم. بعضهم كانوا مجرد أشخاص تقليديين وبسطاء في معرفتهم وأسلوب حياتهم الشرقي، وقد فرّوا من حكم جائر وتعسفي منتصف الثمانينيات، ليجدوا أنفسهم في مواجهة ثقافية ومعرفية تخلق تحدياً لم يستعدوا له على نحو جيد، ومع واحد من أكثر الدول والمجتمعات الأوربية تحرراً وانفتاحاً. من الطبيعي أن تكون لهم ردة

فعل عكسية، ليتمسّكوا بتقاليدهم وأعرافهم، بل ويستعيدوا حتى تلك البالية منها، التي أكل عليها الدهر وشرب، لكي يقرّوها من جديد، كنوع من مناعة مضادّة، وتحصين للذات من هجمات القيم الجديدة التي تتبدى لهم مختلفة ومرعبة، بل ومهدِّدة!

* * *

درستُ في مدرسة دنماركية من الصف الأول الابتدائي وحتى الصف الرابع، قبل أن ننتقل إلى كوبنهاغن لأبدأ في مدرسة خاصة، فيها دروس للغة العربية والدين الإسلامي. كانت مدرستي الدنماركية الأولى قد أسست لديّ شكل المحيط الدراسي، كما كانت تتمتع بالتنوع والانفتاح، بالمقارنة مع المدرسة ذات الأساس العربي والإسلامي، حيث كنا جميعاً متشابهين ومنمَّطين. لكن ربما نسي هؤلاء الذين يسعون لتنميطنا، بأننا لسنا مجرد كائنات مسلوبة الإرادة والتفكير وجاهزة لاستقبال ما يوضع في أدمغتها فحسب، لأن من الطبيعي أن نتمتع بكيان يتشكّل رغماً عنهم خارج هذا المحيط بطريقة أو بأخرى. ومهما كان ذلك التأثير طفيفاً أو هيناً، إلا أنه وبعد فترة من الزمن، سوف يحفر أثراً تراكمياً عميقاً.

لم أكن مجرد طالبة مجتهدة في مدرسة ذات توجه إسلامي، بل كانت لي ذاتي التي تكوّنت خارج جدران تلك المدرسة. نعم أنا نتاج المجتمع والبيت والمدرسة، لكنني بالإضافة لذلك، نتاج الشارع والتلفاز والكتاب وما تلتقطه عيني من حياة مختلفة أيضاً، تنالني بعض تفاصيلها بشكل لا شعوري، وليس بمقدور الساعين لتنميطي، التحكم فيها مهما حاولوا. إنني خليط من كل ما تفرزه هذه الأمكنة والوسائل من ثقافات وقيم متنوعة. اليوم، في السابعة والثلاثين من عمري، بتُّ أشعر بأني قد أخذتُ منها جميعاً، وفي المقابل أعطيتُها جميعاً شيئاً من ذاتي وفكري؛ ومهما كان ما أعطيته قليلاً، إلا أني أجد هذا التبادل مؤثراً وثرياً في الوقت ذاته.

في مقابل هذا، فإن المجتمع الشيعي للجالية العراقية كان حسّاساً جداً تجاه الإصلاح، ناهيك عن التغيير أو الانتقاد والاعتراض على النمط والمنهج. فكانت أبسط الأفكار الإصلاحية تواجَه بعاصفة من ردود الأفعال العنيفة. ومثل هذه الحركات الارتجاعية لا تتباين في قوتها وعنفها، ولا تميز بين فكرة بسيطة مغايرة أو انتقاد مزلزل ومهدد. إباحة الوضوء فوق صيغ الأظافر، أو الانتقاد الطفيف لبعض الشعائر الحسينية، أو تكذيب قصة كسر ضلع الزهراء[28]، كل هذه الأمور المختلفة والتي يفترض أن تكون متباينة في تأثيرها وحدّتها، كان لها ذات الوقع! وتستجلب ذات ردود الأفعال، فكلها تعدّ مهددّة للهوية والكيان الاجتماعي المتنامي في هذه المنطقة الباردة من شمال أوربا، ولذا فهي تستدعي ذات القوة في رد الفعل لأنها مهددة للنمط والنوع؛ وتصدُّع هذا النمط أو اهتزاز أسسه ولو قليلاً، يعد خطراً وجودياً لهذا الكيان الاجتماعي.

ربما عد ذلك أحد أكبر الخطايا التي طبقها هذا المجتمع، في محاولته التأكيد على فكرة الجمود. تأكيد فكرة الثبات بدلاً من حتمية التغيير، وتأكيد فكرة التماثل بدل التعددية والتنوع؛ لهذا السبب بالذات، فإن الانقلاب من قبل الجيل الثاني كان عنيفاً، وتحرك من أقصى الاتجاه إلى أقصى ما يتيحه الاتجاه المعاكس. فلو أن المجتمع قد أظهر القليل من التقبل وشيئاً من التنوع، لكان قد احتوى هذا الجيل بذكاء. إلا أن هذه هي المشكلة الأساسية في المجتمعات الموازية والاقصائية، فهي بطبيعتها مهدِّدة لكيانها ووجودها على المدى البعيد، ولها خواص وميول للتدمير الذاتي.

* * *

لم تكن الأجواء التربوية في بيتنا تشيطن المجتمع الدنماركي الكبير، لكن كان دائماً ثمة تذكير بأننا لسنا مثلهم.

عبارات تترد على الدوام، كانت كفيلة بتعزيز إحساسنا بالاختلاف، وأننا آتون من ثقافات شرقية حميمة حيث يتفوق الناس في المهارات العاطفية بالمقارنة مع الغربيين، ولا سيما الإسكندنافيين، حيث أوقعنا القدر.

حين أسترجع تلك العبارات اليوم، أضحك لبلاهتها. لأنَّ المشاعر الإنسانية ببساطة لا تختلف بين الشرق والغرب. فالأم التي تسمح لابنها بالسفر في سن المراهقة بغية التعلم، ليست أقل حرصاً من تلك التي تشجعه على عدم الابتعاد عن حضنها الوثير، لكنهما تختلفان ثقافياً بطريقة التوجيه، وبطرق التعبير عن هذا الحب.

حين كبرتُ وصرتُ أكثر اختلاطاً بالدنماركيين بحكم عملي كمدرِّسة ومشرفة اجتماعية، اكتشفتُ ويا للمعجزة بأن الدنماركيين مثلنا تماماً، يتمتعون بذات البراعة العاطفية ولديهم أسر مترابطة جداً، لكنهم فقط يعبرون عن هذا التواصل بطرق مختلفة، وأكثر تحفظاً. عرفتُ بأن الشاب ذا الـ 18 ربيعاً حين ينفصل عن أهله سيتعلم المسؤولية التامة عن حياته، وتلك أهم مهارة سيكون بحاجتها لما تبقى من عمره. وأن هذا النمط التربوي، هو مجرد اقتراب مغاير للحياة ومساراتها. أظن بأنه أمر مثير ولافت أن أتعرف إلى المجتمع الدنماركي بعمق، بعد أن نضجتُ وصرتُ أقيّم الأمور وفق معطياتها، ففاجأتني الإيجابيات، كما أنني كنتُ واعية كفاية لأشخِّص بنفسي ما أراه سلبياً، دون الحاجة لتلقي ذلك عبر التلقين، أو بتبني وجهات نظر لم أكتشفها بنفسي. ربما سيعتبر أمراً مفاجئاً إذا ما قلتُ بأنني رغم ذلك عشتُ حياة هي عبارة عن خليط دنماركي عربي، يعد كارثياً، فإدراك الأمور دون تنفيذها له أثمان باهظة. وأنا لم أكن في حينها أتصرف وفق وعي وإدراك ممرّنين كما ينبغي. بل كنتُ أحاول أخذ القليل من هنا، والقليل من هناك، دون التحقق مما هو سليم ونافع وما هو خاطئ وغير مناسب، فكان وضعي في ذلك الحين فوضوياً للغاية!

بالنتيجة فإنني أعد نفسي دنماركية الهوية والثقافة، مع رشة من ثقافة شرقية وعراقية وإسلامية، إلا أن هويتي قطعاً أساسها الفعلي نابع من البلد الذي نشأتُ وعشت فيه، وقضيت معظم حياتي بين ربوعه. استحالة أن أكون أي شيء آخر، لأنني لولا الدنمارك لما كنتُ أنا! لو أنني نشأتُ وفق ثقافة عراقية محضة لكنتُ سارة أخرى، لكنتُ التقيت بنفسي في عالم موازٍ دون أن أعرفني! ولكانت حتى ملامحي قد اتخذت تشكلاً مغايراً ومناسباً للبيئة والظروف التي أعيش فيها.

أنا سعيدة وممتنة للدنمارك لأنها تسمح لي أن أعيش وأتعلم من أخطائي دون أن يحكم عليّ المجتمع أو يلعنني، ولستُ متأكدة إن كان ذلك سيتاح لي لو أنني أعيش في العراق، أو حتى لو بقيتُ أساير حياة مهادنة في مجتمع موازي كذلك الذي نفرتُ منه.

الدنمارك توفّر وتحفظ حريتي والأسلوب الذي أختاره لحياتي، ولا يمكنني أن أقايِل مثل هذا الامتياز بالجحود أو بالتقليل. لكنني ممتنة في الوقت ذاته لأصولي وجذوري التي أقدرها وأحترمها.

إن كان قدري قد شاء لي أن أكون حلقة وصل بين ثقافتين، أو حتى اختار أن أكون مجرد حلقة ضائعة بين جيل سبقني وجيل سيلحقني، فأنني في نهاية المطاف قد عشتُ ها هنا حياة مقدَّرة؛ لم أفقد فيها كرامتي، ولم أجبر على قيم مخالفة لقناعاتي. والحياة حتماً قصيرة، أقصر من أن نعيشها بذهنية أناس سبقونا، أو وفق عقلياتهم التي ناسبتهم ربما في وقت مضى، لكنها لم تعد صالحة للحاضر.

* * *

حوراء

مع انتهاء الكتابة عن سارة، أسترجع في ذهني صورتين. صورة لامرأة «إيزيدية» محررة من قبضة «داعش»[29] تقف على ظهر سيارة مكشوفة، وتهم بخلع ثوب أسود. كان وجهها ضاحكاً سعيداً كأنها تشهد ولادتها من جديد، بانعتاقها من أسرها المادي وأسرها المعنوي. ستبتهج وأنت تطالع الصورة، لفرحة هذه المرأة المقموعة وهي تستقبل الخلاص أخيراً من ذل الاستعباد، وتستعيد حريتها الثمينة التي سلبت منها بأبشع الطرق.

أما الصورة الثانية فهي لفتاة تركية تقف أمام بوابة جامعة أيام حظر الحجاب في تركيا العلمانية. تزيل الحجاب عن رأسها يدا ضابط أمن، بينما تقف هي في ذل وخنوع، تنظر إلى الأرض نظرة ممزوجة بالخزي والألم. نظرة الإهانة في عينيها مؤلمة ولا يمكن أن تخطئها، وقد لا تنساها أبداً. إحساسها بالهوان يخترق الصورة، ومن الصعب ألّا يخز قلبك إن كنتَ إنساناً قادراً على التعاطف، دون أن تحوّلَ أخاك الإنسان لـ«شيء»، وتضعه في قالب مهيّأ سلفاً لكي تحكم عليه وفق معاييرك الشخصية جداً، وانطباعاتك الذاتية.

ولأنني خضتُ التجربتين بنفسي أعرف معنى ذلك جيداً. ارتديتُ الحجاب لسنوات طويلة، ثم قررتُ التخلي عنه، وفعلتُ. في الحالتين واجهتُ المعترضين، المغالين والمتطرفين من الجانبين. أناساً مثل ضابط الأمن التركي، حاولوا مد أيديهم لخلعه عن رأسي، ظانين بأنهم بفعلهم هذا سوف يحررونني من تخلفي ورجعيتي، بل قلة حيلتي أمام المجتمع المنغلق الذي يصاب بالهلع أمام شعري المتطاير في الهواء. ثم حين قررتُ خلعه بيدي أنا لا بيد غيري، واجهني الجانب الآخر بأحكامه المقدسة الجاهزة، وصخرة الدين التي سيسقطونها عليّ مرة واحدة في محاولة لدهسي. فالربُّ سيلعنني والجحيم ينتظرُني، ليس لأن شعري يثير حساسيتهم المفرطة، ويهيج مواجع آثامهم التي يقترفونها دون إحساس مسبق بالذنب، بل لأنني اتخذتُ طريقاً مخالفاً للسرب. لا بأس إن كنتُ أرتدي حجاباً كالزي الخليجي التقليدي مثلاً، عباءة كتف وايشارب يظهر نصف شعري. لا بأس إن كنتُ أضع ما يسمى «بالتوربان»، أخفي به نسبة غير مقنعة من الشعر، ولا بأس أن اظهِر رقبتي واذني وجزءً كبيراً من ذراعيّ؛ بل لا ضير من أن أتبنى أنماطاً خاصة ومتحايلة على ما يسمى «بالزي الإسلامي» وتقاليده، ما دمتُ بهذا التحجّب الخفيف والمستخِفّ بما يُدعى بالفروض الشرعية، أعلن تخوفي من المجتمع، لا من اللّه!

مؤخراً، قرأتُ بالصدفة مقالاً لوزيرة الهجرة والاندماج الدنماركية السابقة «إنغار ستوبيبرغ[30]»، المشهورة بعدائها الممنهج ضد المهاجرين من المسلمين تحديداً في الدنمارك، سواء من خلال حزمة القرارات السياسية التي ثبتتها في عهدها والتي كانت جميعها معدة لإقصاء اللاجئين والحدّ من تواجدهم في البلاد، أو مواصلتها بث خطاب الكراهية والعداء في وصلات بروباغاندا مستمرة ضد كل ما هو مختلف، أجنبي، شرقي، ومسلم. كان مقالها يحمل عنواناً مستفزاً «إذن، القِ عنك هذا الوشاح!»؛ ولأنني أعلم تماماً طبيعة الأفكار التي تبثها الوزيرة السابقة، ترددتُ قليلاً قبل أن أضغط على رابط المقال. ولم تخيب ستوبيبرغ ظني، إذ وجدتها تتناول حالة شابة دنماركية من أصول مسلمة، رُفضت من الجيش الدنماركي لكونها تضع الحجاب، وبما أن قانون الزي الموحد للجيش لا يقر غطاء الرأس ضمن زيه الخاص، فكان على الشابة إما خلعه أو ترك وظيفتها العسكرية. طالبت ستوبيبرغ الفتاة في مقالها، أن تخلع الحجاب فما أسهله من أمر، فهي بذلك لن تنضم إلى الجيش فحسب بل ستنضم إلى العالم الجديد، والقيم الغربية المتقدمة، وتنبذ عنها كل ما هو بال وقديم ومتخلف، بحسب رؤية الوزيرة السابقة.

شخصياً لا تضايقني القوانين، ومن الواجب احترامها والخضوع لها ما دامت قد ثُبّتت. وكمواطنة دنماركية من أصول مسلمة لا أتذمر كلياً من قانونٍ كهذا، فالبلد رغم كل شيء يعدّ بلداً ديموقراطياً، وإمكانية تعديل القوانين التي لا ترضي فئة من المواطنين، مشروعة ومطروحة للمستقبل، سواء أكان بعيداً أم قريباً. ما يشغلني هو أن تحاول امرأة فرض قناعتها على أخرى بحجة الضغط الاجتماعي، في الوقت الذي تمارِس هي أساليب ضغط ليست اجتماعية فحسب، بل سلطوية وتشريعية أيضاً. ليس عندي شك أن ستوبيبرغ المعروفة بكونها «وزيرة الاندماج» ــ منصبها بحد ذاته يثير مفارقة ساخرة ــ متى ما تمتعت بسلطة دكتاتورية مطلقة، فإنها ستمارس أفعال الطغاة بكل يسر، ودون أدنى تأنيب ضمير أو مراجعة أخلاقية أو تعاطف مع الآخر. وقد فعلت ذلك بالفعل، وتجاوزت القانون، في أثناء فترة استيزارها، حين فرّقت بين عدد من الأزواج من المهاجرين إلى البلاد كان معظمهم من سوريا، بحجة زواج القاصرات، لأن الزوجات كن أقل من ثمانية عشر سنة وقت طلب اللجوء إلى الدنمارك. ورغم أنني شخصياً ضد زواج القاصرات، إلا أن المسألة منطقياً تعاني من ازدواجية غير مبررة للمعايير الأخلاقية والثقافية معاً. إذ جرت العادة أن تبدأ الفتيات الدنماركيات بممارسة نشاطهن الجنسي في عمر مبكر جداً، وهو أمر مستهجن في ثقافات أخرى رغم أنه عادي وطبيعي في الثقافة الدنماركية. ولعل ثمة من سيشير لكون زواج القاصرات يتم بالإكراه، وبالرغم من كونها مسألة مستنكرة، إلا أن الإكراه هنا لا يعد الوضع الشائع لمثل هذه الزيجات في العالم العربي أو الإسلامي، وغالباً ما يتم الارتباط برضى الطرفين. أما بالنسبة للأزواج الذين فرقتهم السيدة الوزيرة، فأن ثمة نمطاً لافتاً للانتباه لهؤلاء وعددهم 34 زوجاً، وهو أن أعمار الشبان كانت قريبة ومعقولة من أعمار الفتيات. أي أن فارق الأعمار يعد طبيعياً جداً حتى بين الرجال والنساء في الدنمارك. أغلب الذكور كانوا في العشرينيات، بينما كانت الغالبية من الفتيات، وقت التفريق، في السابعة أو السادسة عشرة، أي أصغر بسنة واحدة أو اثنتين عن أن تُعتبر راشدة، وفق القانون الدنماركي.

أثناء نشأتي وعلى مر السنوات التي قضيتها في الدنمارك، كانت معظم صديقاتي/زميلاتي الدنماركيات، نشطات جنسياً في فترة ما قبل الثانوية، وكانت هذه العلاقات تتم بطبيعة الحال خارج إطار الزواج، لكنها ضمن الأطر المتاحة ثقافياً واجتماعياً في البلاد. ورغم ان الأعراف الاجتماعية، وحتى القانون، يمنعان الراشدين من ممارسة الجنس مع من هم أقل من 18 عاماً، إلا أنني كثيراً ما شهدتُ بنفسي علاقات لرجال فوق الثامنة عشرة مع فتيات تحت السن القانونية، دون تقريع أو تذنيب من أي نوع. وهنا أرى أن ثمة ازدواجية واضحة في التعاطي مع مثل هذه المواضيع، إذا ما كانت المسألة تخص الأجانب من ذوي الأصول الشرقية أو المسلمة، إذ من المهم أخذ التفاصيل والسياقات الثقافية بعين الاعتبار.

الدنماركي لن يتفهم أن تتزوج فتاة في السادسة عشرة، من رجل في السادسة والعشرين لأنها وقعت في حبه، أو حتى قبلت الزواج به عن طريق الأسرة، أو كما يطلق عليه في الثقافة العربية «زواج الصالونات»، لأنه سيعدها سناً مبكرة جداً على تكوين أسرة، غير أنها بالنسبة له، قد لا تعد سناً صغيرة لعلاقات الحب وممارسة الجنس وفق ما هو سائد في مجتمعه؛ وهو ينظر للشرقي على أنه يزوِّج فتيات صغيرات لرجال أكبر منهن سناً للمتعة الجنسية، ويجد في ذلك نوعاً من الاستغلال والقهر الذكوري.

الشرقي في المقابل يرى أن الدنماركي/الغربي، يترك فتياته الصغيرات ليعبث بقلوبهن وأجسادهن من يشاء، دون حسيب أو رقيب، وفي عرفه، فإن العلاقات المشاعة والمباحة هذه، هي دليل على تهتّك القيم الأخلاقية والاجتماعية الغربية، وهو يفضل أن تكون العلاقات ما بين الجنسين وفق ضوابط اجتماعية وأخلاقية، بدل الحالة العشوائية التي يعيشها الشباب الغربي.

أما بخصوص قضية «ستوبيرغ»، فان الموضوع لا يعدو أن يكون «سياسة رمزية»[31]، حاولت السيدة الوزيرة من خلال إنفاذها، جذب أكبر عدد ممكن من الأصوات، وترسيخ مفاهيم العداء للاجئين من ذوي الأصول الشرقية/المسلمة، بما أنه الخطاب السائد والأقوى منذ أكثر من عشرين عاماً، تماماً مذ بدأ الصوت اليميني يصم عن كل الأصوات العقلانية، حتى بات الخطاب الزينوفوبي/العدائي، العنصري والممنهج، يلقي بتأثيره حتى على أحزاب اليسار، وستوبيرغ نفسها خير دليل على ذلك لكونها كانت تمثل حزباً يسارياً عريقاً. الواقع والنتائج ينبئان، بأن الفكر الإقصائي الذي تطرحه الوزيرة المذكورة يتساوى وكل أفكار الإقصاء والترهيب الإسلاموي، حتى وإن كانت هذه الجبهة هي ذاتها التي تدعي السيدة الوزيرة صدّها ومحاربتها.

في كتابها المعنون «مقالات في الفهم 1930 ــ 1954: التكوين، والنفي والشمولية»، كتبت الفيلسوفة الألمانية «حنا آرندت»[32]: «إذا تعرض المرء للهجوم باعتباره يهودياً، فسيتوجب أن يدافع عن نفسه كيهودي. ليس بصفته مواطناً ألمانياً، ولا كمواطن عالمي، ولا كمؤيد لحقوق الإنسان».

إنه لمن العبث أن أتحدث عن نفسي كمواطنة دنماركية، أمام من لا يعدّني كذلك. بل إنه لمن العبث أن أتحدث عن نفسي كعلمانية على سبيل الافتراض، لأنني سأواجَه بالتشكيك والنبذ لمجرد الاسم المختلف، أو الديانة التي ولدتُ فيها، أو حتى لأصولي الشرقية. من العبث أن تذكِّر المقابل، بأنك مواطن نشأت في هذا البلد وتربيت وفقاً لقيمه وثقافته وأسسه، حتى وإن اختلط ذلك كله ببعض من ثقافة وقيم موطنك الأصلي. لكنك بالرغم من ذلك، تحمل جنسية البلد الذي يزعق كلما سنحت له الفرصة، بأنك غير مرحب بك لأسباب لم تفتعلها، أو لم يكن لك يد فيها. إلا أنه سيؤكد، كأنما رغبة بإبعاد تهمة العنصرية والانغلاق عن نفسه، أن عدم الترحيب هذا مرتبط بتلك الحقيبة الثقافية الأخرى التي تحملها فوق ظهرك؛ فلتلقها عنك إذن ولتسرع لأحضان الوطن! لكنك سرعان ما ستدرك أن ذلك كله مجرد إغراء زائف، وادعاءات باطلة، فالحقيقة هي، أن استقبالي لن يكون مختلفاً على أية حال، إذ ليس مهماً ان كنتُ متدينة حقاً، أم مسلمة بالاسم فقط، محجبة أم سافرة، شقراء أم سمراء؛ أشرب النبيذ في الجمعات أو أستبدله بزجاجة كوكا كولا، أعبر عن ثقافتي المختلفة أم أتجاوزها كلياً، كل هذا لن يهم! فمهما فعلت، لن يغير ذلك من حقيقة أنني مغايرة للآخر. أنا الضد، وسأبقى كذلك لكي يستمر وجودي، وبذلك وجود الآخر المغاير. جزء أساسي من كوني دنماركية ــ أجنبية هو أنني لست بدنماركية عِرقيّة. وجزء أساسي من كينونة العنصري المتطرف مثلاً، هو الثقل الوجودي لذاك الآخر، ذلك المختلف الذي يسمح مجرد وجوده بأن يشيطَن على الدوام، فلولاه لما وجِد العنصريون والمتطرفون، ولما ثبّتت كينونتهم، وترسخت.

* * *

أعود إلى الحجاب الذي لم أعد ألتزم به لأن مفعول الهالة الدينية المرتبط به كان قد انتهى، فلم يعد يحمل تلك الخصائص والمفاهيم التي نشأتُ عليها، وظننتُ في وقت ما أنها صحيحة وكاملة وذات معايير إنسانية ودينية شاملة. وكنتُ قد تعبتُ من ثقله على رأسي بعد انعدام إيماني به، وتعبتُ من شكله الذي يحمل بياناً واضحاً وصريحاً فلا يخطئني أحد، وتعبتُ من رزمة القيم والمفاهيم الافتراضية التي تأتي معه تحصيلَ حاصل. تعبتُ جداً من إرضاء جماعات الإسلام السياسي على غير رغبة مني. ومهما كان تأثير الثقافة الدنماركية عليّ، إلا أن خلفيتي الثقافية العراقية تحكي قصة أخرى تماماً، عن موضوع التحجب والتستر. قصة غير معروفة ربما للغربيين الذين بوغتوا بالحجاب مع قدوم موجات المهاجرين من الدول العربية تحديداً، وبالذات في الثمانينات والتسعينيات، أي بعد أن تغلغل الحجاب في المجتمعات العربية والمسلمة على نحو غريب ومستحدث؛ إلا أن ثمة مقدمات لذلك، لا يعرفها المواطن الغربي غالباً، وقد لا يعرفها العربي أيضاً.

مفهوم العباءة العراقية التي اعتادت العراقيات وضعها فوق رؤوسهن أثناء التجول والتعاطي مع العالم الخارجي، هو مفهوم ثقافي، مطاط وغير صارم. وتقريباً حتى السبعينيات من القرن الماضي، كانت العباءة تعد زياً عراقياً صرفاً، ترتديه العراقية من أي طائفة كانت، مسلمة، مسيحية، يهودية، صابئية، بل وحتى الكُرديات ونساء بعض الأقليات العرقية الأخرى كالتركمانيات، ممن سكن بغداد والمدن المحيطة، كن قد اتخذنه زياً؛ ما يعني أن لم يكن هذا الزي العراقي مرتبطاً على نحو متطرف بطائفة معينة أو عرق أو ديانة. ومع موجة الحداثة التي اجتاحت البلاد مطلع القرن الماضي، اعتادت العراقيات أن يرتدين آخر صيحات الموضة تحت ستر هذه العباءة السوداء، حتى وصل الحال بهن أن يرتدين الميني جيب في السبعينيات، بينما يضعن العباءة على الرأس غير المحجَّب، فتنزلق قليلاً إلى الوراء كاشفة عن الشعر دونما استياء. وكانت أجسادهن البضة التي يظهرها الميني جيب، تبدو واضحة من الأمام بكل تفاصيل أناقتهن السبعينية، ومخفيّة من الخلف حيث تستر العباءة ظهورهن كلياً. حتى ذلك الحين وقبل عام 1979، لم تكن للعباءة أي معنى أو بُعد آخر سوى أنها لباس المرأة العراقية، الذي يمثل تراثها وثقافتها. وكذلك كان الوضع بالنسبة «للشادور» في إيران ذاتها، لكن الثورة في البلاد، قلبت الموازين كلها ليس في إيران فقط، بل وفي المنطقة بأكملها، وانسحب الأمر حتى على

الدول العربية والإسلامية البعيدة عن هذا المركز الذي زلزلته الثورة الجديدة. وبات المفهوم المَرن للتستر الثقافي غير مجدٍ أو كافٍ بالنسبة لجماعات وحركات الإسلام السياسي التي اعتمدت الحجاب الصارم، وأعادت تفاصيله للواجهة مع بدايات القرن العشرين، ثم عززت من اعتباره وشكله مع الثورة الإيرانية تحديداً ليصبح رمزاً واضحاً وبيِّناً لا تخطئه العين، للإسلام السياسي بشقيه الشيعي والسني معاً. بهذه الطريقة فإن المرأة ومن دون أن تقصد، تدور حاملة مفاهيمهم وأفكارهم الإيديولوجية فوق رأسها أينما حلّت، مثل دعاية نظامية ومفاهيمية متنقلة.

وفق هذا السياق، فإن مفهوم الحجاب لم يعد مجرداً، مذ استخدمته الأحزاب الإسلامية للبرهنة على نفوذها في المجتمع، لا سيما وأنه يأتي محمّلاً برزمة القيم والأفكار الافتراضية التي تنمو من ضمنياته كتحصيل حاصل. حتى وإن كانت هذه المرأة المحجبة الرأس مجرد امرأة مسلمة، مقتنعة بكونها ملتزمة بالتعاليم وبما يُفترض أنه من المسلّمات بلا تعمق أو أدلجة؛ وذلك مهما كانت هي ذاتها بمنأى عن هؤلاء الذين يستغلون الدين لتنفيذ قيمهم وأيديولوجياتهم المتطرفة أو العنيفة، إلا أنها ــ أي المرأة ــ ورغماً عنها، سوف تُحسب عليهم. فهم يعززون وجودهم من خلال النساء المحجبات تحديداً، فأعدادهن التي باتت غفيرة مع السنوات، تبرهن على ثقلهم الأيديولوجي وعمق وجودهم وتغلغلهم في المجتمعات الإسلامية، بل وفي الوقت الراهن مثلاً، أصبح انتشار المحجبات في الدول الغربية، دليلاً على تغلغلهم إلى عقر دار الغرب.

ولنفس هذه الأسباب، والسياقات، لا أجد معاداة المحجبات أمراً صحيحاً، بل ينبغي تفهم قناعاتهن حتى وان اختلفت الرؤية، فمعظمهن في واقع الأمر غير معنيات بهذه السياسات، ويؤمنَّ بالحجاب كما لُقِّنَّ منذ الصغر، على أنه فرض ديني يطعنه دون نقاش؛ فقد تعودن على وضع غطاء الرأس كما تضعه الراهبات في الكنائس، أو كما تحتشم به يهوديات «الحريديم»[33] مثلاً. وإذا كان ثمة من يستجلب الجدال والنقاش، فهو المروّج لهذه القناعات على أنها من صميم التعاليم الإسلامية، لا الملتزم بها دون تفكّر.

ما يبين أن الحجاب قد تخلى عن ملمحه الثقافي ليتحول إلى أداة في يد السياسات الرمزية الإسلاموية تحديداً، هو أن ارتداءه من عدمه لم يعد قراراً شخصياً تنفذه المرأة متى ما شاءت، بل هو غالباً قرار تتدخل فيه العائلة والمجتمع وحتى الجيران، بعد أن تمرن الأفراد في المجتمعات الإسلامية على هذه الوصاية الجديدة. فالعبادات الباطنية لا تشغل بال أحد إذا ما تُركت، أما الحجاب فإن خلعه يهز عروشهم، ويبين هشاشتهم، والنفوذ الذي بدأ يتسرب من بين ايديهم. ولهذا السبب، فإن المرأة التي تتخفف منه إلى أقصى قدر ممكن وتُبقي على نتفة صغيرة من القماش مثل التوربان، أو الغطاء الشفاف، هي امرأة مُرضية جداً، فهي بإبقائها على هذا القليل تبرهن على استمراريتهم السلطوية، لأنها ضمنياً تهابهم، وتتجنب المواجهة المباشرة، إذ أنها تحسب حساباً خاصاً لغضبهم النرجسي الذي سيكون عنيفاً متى ما مُسّت المكانة التي عملوا عليها لسنوات.

في واقع الأمر، فإن الحجاب الذي روجت له الحركات الإسلامية هو حجاب سياسي بحت، بدليل أنه ليس حجاباً ذا سمات ثابتة، بل يختلف ويتباين في الألوان والتنسيق والتصميم من حركة لأخرى، ويمكن لتفصيلة صغيرة أن تبين التوجه والغاية! طريقة الحجاب ولونه في العراق مثلاً تدل على الطائفة والمذهب، فالمرأة الشيعية لا تضع حجاباً أبيض اللون والعكس صحيح، هذا مع الأخذ بعين الاعتبار «الموديلات» الدالة على التوجه السياسي من داخل الطائفة نفسها. وهو الحال ذاته في لبنان مثلاً فحجاب المرأة اللبنانية يدل إن كانت من منظمة أمل أم «محزّبة»، أي من جماعة «حزب الله». بل وبإمكانه أن يدل على مدى انغماس هذه المرأة بالذات في العمل السياسي. حتى الحجاب في إيران، حيث هو مفروض قانوناً وبودي بمن تجرؤ على التمرد عليه إلى السجن، فإن شكله وتفاصيله يوضحان إن كانت هذه المرأة معارضة لحكم «ولاية الفقيه» أم من أنصاره. فالتي تضعه مرتخياً وكاشفاً عن مساحة كبيرة من شعرها، هي في الغالب إما معارضة أو في أفضل الأحيان محايدة ولا تملك توجهاً سياسياً واضحاً، لكنها أيضاً ليست راضخة أو مستسلمة كلياً. أما اللواتي يرتدين حجاباً محكماً، وبموديل الشادور مثلاً، وهنا لا أعني الشادور التقليدي الذي تضعه الإيرانية في القرى والأرياف والمناطق الشعبية، بل ذلك الشادور الذي له سمات سياسية واضحة فتكون من ترتديه في الغالب من أدوات الدولة، مخبرات ميدانيات، بسيج، حرس ثوري نسائي... إلخ. أما في الفنون الإيرانية فان الحجاب مختلف ومتباين. السينما تختلف عن التلفزيون، والمذيعات يختلفن عن الممثلات.

في السينما الإيرانية، الممثلات أقل تشدداً ويُظهرن شعرهن مثل غالبية الإيرانيات غير المقتنعات بالحجاب، أما في المسلسلات التلفزيونية التي تنتجها الدولة غالباً، والتي تدخل البيوت بشكل مدروس وغير اعتباطي، فان التوجيه واجب نحو حجاب يكون أكثر احتشاماً وانضباطاً. بالنسبة للمذيعات فهن لسان الدولة وبوقها، ولا بد أن تصدح أشكالهن قبل أصواتهن بما تقره الحكومة، حتى وإن تفجرت فضيحة مدوية لمذيعة أخبار إيرانية ناطقة بلسان الدولة ومناهضة للمعارضة؛ فتظهر في واحدة من رحلاتها خارج البلاد مرتدية الشورت وتكرع زجاجة بيرة، بينما صورتها قبل ذلك بأيام قليلة بالشادور والحجاب الكامل تتصدر غلاف مجلة إيرانية معروفة، مع عبارات من قبيل «شادوري سر سعادتي». هنا الشادور سياسي، سلطوي، وليس دينيّاً بالمرة، كما أنه قد فقد ميزته الثقافية، ليتحول إلى أداة إشارة دالّة على التوجه والإيديولوجيا.

في السنوات الأخيرة بدأت مكانة الحجاب تتزعزع في المجتمعات العربية والإسلامية، وذلك مع السقوط المدوي للإسلام السياسي في العراق، ومصر، وحتى إيران، تماماً كما بدأ انتشاره بأشكاله المتطرفة مع صعود نجم تلك الحركات، ثم لحظة «الكلايماكس» في انفجارها الهادر سنة 1979، أي سنة الثورة الإسلامية في إيران، والتي قلبت الطاولة تماماً. فتبدلت الأحوال، من الانفتاح الشديد والمتزايد في أوج السبعينيات، إلى أسلوب حياة أكثر محافظة واحتشاماً ومن ثم تحجّباً، مع بداية الثمانينات وحتى التسعينيات، لتصل إلى ذروتها مطلع الألفية. اليوم بدأت أعداد كبيرة من النساء بالتخلي عنه، وهنا أيضاً يبدو أن نسبة كبيرة منهن لا يميزن بالضرورة الدور الذي تلعبه السياسة في طريقة لباسهن، سواء احتشامهن المتعاظم، أو سفورهن الصارخ! مع ذلك فان التناقض الكبير في أعداد المحجبات، والرغبة المتزايدة في خلعه يؤكدان أن التيارات الدينية فقدت عدداً استثنائياً من المتعاطفين، حتى وإن استعصى نزع التطرف الذي غُرِس عميقاً في تلك المجتمعات وبشكل ممنهج.

رغم كل ما سبق، فإن سرديتي الشخصية عن خلع الحجاب والأسباب التي دفعتني لذلك لن تنفع السيدة «ستويبيرغ» وأمثالها من السياسيين، فهذه السردية لا تبيع العناوين والصحف، ولن تستحضر ردود الأفعال المطلوبة. فقد قوبل قراري باحترام من أفراد عائلتي، لا سيما الذكور منهم، زوج، أب، أخ، عم، خال. كل هؤلاء كانوا مشجعين على أن يكون القرار نابعاً مني وحدي، دون التدخل من أحد. لعل أكثر من كان متشككاً وقلقاً وأبدى امتعاضاً واضحاً، هن نساء العائلة. ثمة من تخاف من كلام الناس، وأخرى تخاف أن تكّر السبحة فتخلعه المزيد من فتيات الأسرة. استغربتُ ألّا أحد منهن كان ليهتم لو أنني تخليت عن الصلاة مثلاً، أو حتى لو تخليتُ

عن الإيمان بالكامل، مع احتفاظي بالحجاب فوق رأسي. فالعبادات الباطنية لا تشغل الناس، ولا تستثير نميمتهم. أما ما هو ظاهر، وبالأخص ما يبدو أنه تمرداً على القناعات المسلَّم بها، فيثير الهلع، وبالتالي العداء والمطالبة بالاستغفار والتراجع، لا لأجل الرب، بل لأجل التراجع عن الجرأة على السائد والغالب. كأنني بذلك ينبغي أن أستغفرهم هم، وأتراجع لأجلهم هم، كي لا يشعروا بالإهانة لخدشي التطاول على مسلّماتهم.

وفيما يخص هذه المواضيع بالذات، فإن التأثير في الآخرين لا يُعدّ أمراً هاماً. أشعر بالرضا عن مبدأ أن يكون لكل فرد الحق في التوصل للقناعة التي ترضيه وتحفز عقله بطرقه الخاصة، ولستُ معنية بتلقينه أو توجيهه حتى وإن طلب العون. وبخصوص قرار خلع ما يعرف «بالحجاب الإسلامي»، فقد جاء بعد ما توصلت اليه من معطيات تاريخية وقرآنية، من كونه قد أُلزم بنسب متفاوتة من الاحتشام، كزي للحرائر فقط من دون الإماء، ولم يكن بالشكل أو التفاصيل المعروفة اليوم، مع الأخذ بعين الاعتبار أن كلا الفئتين من هؤلاء النسوة كن من المسلمات.

وعلى الرغم من قناعتي بأن الحجاب ليس واجباً أو فرضاً شرعياً، إلا أنني أرفض بشدة أن تدسّ السيدة «ستوبيبرغ»، أنفها، الملطخ بقذارات «السياسة الرمزية» في طريقة ملبسي؛ أو أن تنال تفوقاً حزبياً، أو أن يعلو كعبها سياسياً على حسابي أو حساب غيري من النساء. تماماً كما أرفض الحجاب السياسي المؤدلَج، وأرفض الحجاب المفروض غصباً، والذي تلاحَق به الفتيات المسلمات بأثر الرقابة الاجتماعية، أو ضغط الجماعة والدولة، وغيرها من العوامل المؤثرة في خياراتهن أو قرارتهن، أياً كانت.

حتى مطلع القرن الماضي، اشتهرت النساء في الدنمارك بوضع غطاء الرأس لأسباب عدة، من ضمنها المناخ العام للبلاد واتقاءً للبرد القارس، أو ربما كنوع من الموضة، وقد تكون ثمة رغبة بالاحتشام، سبباً مضافاً لكل ما ذُكر. غير أن قطعة القماش تلك، لم تشكل عائقاً معنوياً لدى النساء ولم يُشَر إليها على أنها رمز للتخلف، مع أنها كانت تكثُر في الغالب بين الفئات ذات الخلفية الريفية والرعوية من الدنماركيات. وربما كان غطاء الرأس مجرد رمز لحقبة قديمة، أو زي تعودت عليه النساء المسنات في الماضي، لكنه كان مستساغاً ولا يوحي بالنفور أو الاستنكار، ومفهومه إلى حد كبير يشبه مفهوم العباءة العراقية الذي ذكرناه. وفق هذا الشكل العفوي للزي الشعبي، غير المنمّط أو المؤدلج، وضعت الدنماركيات من الأجيال السابقة غطاء الرأس. ووفق هذه الحقيقة، يحاول بعض المسلمين واليساريين التذكير بالأمر على أنه معتاد، وأن انتقاد الحجاب فيه نوع من النفاق ما دامت العجائز الدنماركيات في الريف، ما تزال بعضهن تضعه حتى هذه اللحظة. إلا أن المقارنة برأيي غير دقيقة، فهذا الزي الريفي غير مؤدلَج بالمرة، تماماً كما كانت العباءة العراقية في سبعينيات القرن الماضي؛ كما أن الفارق بين هذا الغطاء وذاك، هو القيمة والمعنى الفكري الذي يحمله أحدهما. التعاطي مع ما يُسمى بالحجاب الإسلامي وغطاء الرأس الذي تضعه النسوة الريفيات هو كالفرق بين العبودية والحرية؛ إنها المسافة ما بين هذين المفهومين، المسافة لتي تجعل من هذا الغطاء رمزاً اسلاموسياسياً، وذاك الغطاء، لمجرد خرقة تقي من البرد، وربما تضفي بعض الوقار المغلف بالحشمة، حتى وإن لم تكن ثمة نية لذلك. كالعباءة العراقية سابقاً التي تغيَّر مفهومها على نحو شامل، فغدت بعد الثورة في إيران، ولا سيما إذا ما وضعتها امرأة شابة، رمزاً للإسلام السياسي بل وإشهاراً ضمنياً على العداء لنظام صدام حسين، الذي لاحق ونكّل بالإسلاميين في البلاد طوال فترة حكمه. بينما يختلف مفهوم العباءة كلياً إذا ما وضعتها امرأة عجوز، إذ غدت العباءة العراقية المعروفة، زي العجائز اللواتي يتمسكن بموضة شبابهن، تماماً كما هو الحال بالنسبة للعجوز المغطية شعرها في الريف الدنماركي الهادئ والوديع؛ حيث لا تهزه الثورات ولا الإيديولوجيات المتصارعة والمتناحرة، فتتقادم فيه الأشياء آخذة دورتها الطبيعية للزمن، حتى يكنسها التحديث فتُنسى بعد حين.

إن القصص المحبة في الغرب عن النساء المسلِمات اللواتي يتمردن على تقاليدهن تكاد تكون ذات نتيجة واحدة. فتيات يتمردن، فيواجَهن برد فعل عنيف يتدرج ما بين العنف المنزلي وما يطلق عليه بجرائم الشرف. مع الأخذ بعين الاعتبار أن أغلب هذه الجرائم من تلك التي حدثت في الغرب، قتل خلالها رجال شرقيون بناتهم، زوجاتهم، أو أخواتهم، كان فيها النظام الغربي إلى حد ما، هو أحد أسباب خذلانهنّ، وعدم أخذ صرخاتهنّ التحذيرية وهلعهنّ من أقربائهنّ على محمل الجد، كما حدث في قصص لعدد من النساء والفتيات المعنَّفات.

غير أن المبالغة في تصوير وسائل الإعلام للحوادث السيئة والنتائج الكارثية لقصص بعض هؤلاء النساء، وتصويرها على أنها الوضع الاعتيادي للنساء الشرقيات لا سيما بالنسبة للمتلقي الغربي الذي لا يعرف الكثير عن هذه المجتمعات، لن تؤدي إلا إلى دورة من نفس الحدث المتكرر. بينما قد يساعد عرض القصص الجيدة لنساء أخريات في تحقيق نتائج فعالة أكثر، كما سيساعد بنبذ الفعل الشاذ، فلا يجعله يظهر وكأنه الواقع الافتراضي للمرأة الشرقية أو المسلمة.

لكن في واقع الحال، فإن هذه القصص الإيجابية لا تناسب السياسيين الذين يرغبون في تحقيق نجاحات ومكاسب سريعة على أكتاف المهاجرين، فهم في هذه الحالة لن يحبذوا السرديات الهادفة، إذ من مصلحتهم أن تبقى الصورة مشوهة حتى وأن كان بعض ما يُسرَد حقيقي وواقعي وبنسب معيَّنة. غير أن تعميم السردية الخبيثة والصيت السيء يخدم مصالحهم، أكثر بكثير. وشيطنة المكونات والأقليات الدينية لا سيما المسلمة، وتخويف المجتمع منها، تعد أفيد بكثير لحملاتهم الانتخابية، لا العكس.

* * *

السردية السادسة

شيرين (آن كرستين) خانكان.. المعمَّدة بالماء مرتين

حوراء

قد لا تتخيل أكثر مما ترى أمامك وأنت تغوص في عينيها الزرقاوين العميقتين، سيما لو أنها أبقت على اسمها الذي وُلِدت به، وقدمت لك نفسها كما كانت تفعل صغيرة، «آن كريستين»، قبل أن تختار اسماً جديداً لا يدعم الحيادية التي ربما حاولت تبنيها بانتخابه. لم أنسَ أن أسألها عن سر اختيارها تغيير اسمها لشيرين بالذات، فهو غير عربي ولا يحمل إيحاءً إسلامياً مباشراً. ردت بأنه عربي ويستخدم في العديد من الدول العربية. سكتُ ولم أشأ جدالها، فالاسم حتى وإن انتشر في الدول العربية بكثرة إلا أنه فارسي/كردي بحت، وله دلالات ثقافية عميقة. فأشهَر من حملت اسم شيرين ــ ومعناه حلو المذاق ــ هي حبيبة «فرهاد»، في الثقافة الشعبية لبلاد فارس وكردستان. والتي طُلب منه لأجل نيل يدها، أن يحفر طريقاً في جبل «بيستون» بمعول صغير. ولما فعل، خدعوه فقالوا أن شيرين قد ماتت، لينتحر العاشق ظناً أنه سيلحق بحبيبته. شيرين وفرهاد في الثقافة الفارسية شبيهان بقيس وليلى عند العرب، الحبيبان اللذان خُلِّد حبهما الأزلي لأنهما حرما من بعضهما.

ترُى هل ثمة دلالات نفسية أو أخرى خفية على اختيار هذا الاسم؟ لم أكن لأعرف! لكن يبدو أنه قد بات لصيقاً بالسيدة «خانكان» اليوم ومعبراً عنها. فهي تلوح بالفعل مثل ثمرة حلوة المذاق والشكل معاً، بقامتها الممشوقة الرشيقة واستقامة ظهرها، ومشيتها المتزنة الصارمة كأنها بليرينا معتزلة (اكتشفت فيما بعد أنها بالفعل كانت تمارس رقص الباليه في طفولتها). لا شيء في ملامحها واسمها السابق كان ليوحي بغير ما يبدو أمامك؛ شابة في مقتبل العمر، دنماركية مائة في المائة بحسب الملامح والاسم الأول، غير أن المظاهر خادعة كما اعتادت دائماً أن تكون! والمفاجأة هي أن هذه المرأة ليست دنماركية الأصل، ولم تَعُد «آن كريستين»، وهي في منتصف الأربعينيات، في عمر لا تعكسه صورتها الشبابية التي تكاد تكون عشرينية. هي في الواقع شيرين ذات الأصل السوري من ناحية الأب، والفنلندي من ناحية الأم، وهي دليلٌ دامغ على أن الأحكام والانطباعات الأولى لن تكون صادقة أو مجدية على الدوام.

استقبلتني في المرة الأولى في المسجد الذي أنشأته مع مجموعة من الناشطين ويدعى «مسجد مريم»، يقع في قلب كوبنهاغن. وبالصدفة البحتة كانت الشقة التي استأجرتُها من شاب دنماركي لأقيم فيها الصيف كله، تقع على بعد أقل من مائتي متر من المسجد في جادة شهيرة تدعى «كوب ماغار». وكانت الشقة تعد لُقية بالفعل سيما بالنسبة لموقعها، فهي قريبة من معالم وشوارع وأماكن كثيرة معروفة، وكنتُ وزوجي سعيدين بذلك، وفضّلنا التحرك مشياً على الأقدام بدل ركوب المواصلات. سواء كنتُ أذهب إلى شوارع كـ «فستر برو» أو «نور برو»، أو حتى حين كنتُ أرتب لقاءات مع أصدقاء وبعض المعارف، فأجعلها كلها قريبة من المنطقة حيث أقطن؛ فكنتُ ألتقي بهم في «ستروغيت» مثلاً، أو في الشوارع الصغيرة المتفرعة عنه. وأحياناً كنتُ استأجرُ دراجة من تلك الدراجات المتوفرة للإيجار، إذا ما أردتُ الوصول إلى الپارك المفضل عندي «فالبي پاركن»، الذي يبعد قرابة السبع كيلومترات جنوب العاصمة. كنتُ أحرص دائماً على زيارته في كل مرة أعود فيها إلى كوبنهاغن، فهو من الأمكنة التي لي فيها ذكريات عدة، إذ كنتُ قد درستُ في مدرستين قريبتين منه فيما مضى، ولذا فان طفولتي ومراهقتي متشبعة بذكريات وصور هذا المكان الجميل والهادئ، بأشجاره الكثيفة ومشاتل الورود النادرة، وحيث ذلك الطريق الطويل الذي تحفه الأشجار العالية المؤدي إلى البحر.

وعلاوة على ذكريات المدرسة الثانوية، والتسكع بين الأشجار والتمدد على العشب الأخضر في الأيام التي يكون فيها الجو دافئاً، فان المكان أيضاً شاهد على رحلات غابات كنا ننظمها عشوائياً في الأيام الخريفية الكئيبة، حيث كنا نعود إلى منازلنا بأحذية وملابس ملطخة بطبقات ثخينة من الطين، بعد ساعات من التوغل في الحراج المحيطة بالپارك.

حين تواصلتُ مع شيرين لأجل لقائها، ردّت ببساطة أن بإمكاني القدوم لزيارتها في المسجد وأعطت موعداً كان بعد منتصف النهار تقريباً. يومها مشيتُ الخطوات القليلة من الشقة إلى المبنى الذي يقع فيه المسجد، قبل الموعد بنحو عشر دقائق، وصعدتُ الدرجات القليلة إلى الطابق الأول. كان يوماً ممطراً، فخلعتُ حذائي ومعطفي الصيفي الذي تبلل رغم قرب المسافة، ثم وضعتهما في مكان مخصص قرب الباب الرئيسية. لم يبدُ المكان مسجداً في بادئ الأمر. أمامي امتدّت صالة طويلة، على جانبيها أبواب لغرف أو صالات أخرى وفي نهايتها ممر عريض، فيه حمام ومطبخ وبضع غرف أخرى لم أقدِّر عددها. ولو لم أخبَر بأنه مسجد لظننته بيتاً ثقافياً من تلك البيوت الكثيرة التي توفرها بلدية كوبنهاغن لأغراض متنوعة. ويبدو أن جزءاً منه كان كذلك بالفعل.

في الصالة وضِعت بضع طاولات جلست على إحداها سيدتان استقبلتاني بابتسامة وإيماءة بالرأس. وشاهدتُ لوحات وقطعاً فنية معلقة على الحائط، بعضها كان مركوناً في الزاوية ويبدو نصف مكتمل، كأن أحدهم كان يمارس شغف الرسم ضمن هذا المحيط ذي الأجواء الدينية والثقافية التي تبدو غريبة الأطوار شيئاً ما. البناء قديم إلى حد كبير، فنحنُ بالضبط في قلب العاصمة كوبنهاغن وفي واحد من أقدم شوارعها وبذلك بناياتها أيضاً. صحيح أنها مرممّة على نحو جيد، لكنها ما تزال محافظة على تلك الروح العتيقة، بشبابيكها التي تفتح من المنتصف وتدفع إلى الخارج بميكانيكية مختلفة وغير معتادة، وبسقفها العالي نسبياً، وبالحمامات ذات الطابع القديم والمختلف؛ إذ بإمكان المرء أن يشعر بالقِدَم في كل شيء مهما كان الموقع محدثاً. إنها روح المكان، عبق الماضي الذي تثبته لوحة قديمة على كل عمارة تشي بتأريخ بنائها، ذلك الرقم الذي يبدأ بواحد ثم ثمانية أو سبعة؛ ألف وثمانمائة ومن بعده ضع أي رقمين آخرين، غير مهم! إذ ستشعر من النظرة الأولى للرقم بالتأريخ يحفر عميقاً في داخلك ويذكرك أن هذا البناء قد أسِّس قبل ميلادك بنحو مائة عام، وسوف يصمد بعد مماتك لأعوام طويلة أُخَر. هذا البناء يحمل في داخله أرواح، وشواهد، والعشرات من القصص والحكايات التي مرت عليه، فهو شبيه بآلة زمن شامخة ولا يمكن أن يكون مجرد جماد، هراء! إنه مدوَّن مواظب للأطياف التي تتعاقب عليه، وهو جوهر وخلاصة أرواح مشيدة، ويحمل لمحة راسخة من روح كوبنهاغن الاستثنائية.

جلستُ على صوفا سوداء في نهاية القاعة بعد أن أخبرتني إحدى السيدتين أن شيرين على وشك القدوم، أمامي طاولة عليها بضع كتب أغلبها عن الإسلام باللغة الدنماركية، بينما كانت توجد أخرى بالإنكليزية أيضاً. كنتُ أراقب المكان بصمت أثناء انتظاري، لم تكن الانحناءات والزوايا لتذكرني بالشكل المعهود للمساجد، لكن روح المكان وأجواءه اخترقتني تماماً كما تفعل المباني الدينية التي

سبق زرتها، سواء كانت مساجد، جوامع، أو حتى كنائس ومعابد لديانات مختلفة. ثمة هدوء وسكينة بالإضافة لشعور عام بالروحانية كان حاضراً بقوة، وتوجد طاقة، لا يمكن أن تخطئها، من الراحة ستجعلك تسكن رغماً عنك. كان بعض الأشخاص يتحركون في المكان بتؤدة وهدوء شديدين ويتحدثون همساً. نساء ورجال أيضاً، رغم أن المسجد عُرف بكونه أول مسجد نسائي في أوربا. فجأة دخل من الباب الرئيسي مجموعة من الشباب قدرتُ أنهم في منتصف العشرينات أو بداية الثلاثينات، أغلبهم كانوا دنماركيين عرقيّاً، وفي بادئ الأمر لم يتضح لي إن كانوا مسلمين أم لا، فاستغربت حضورهم. ثم اكتشفتُ أنهم جاؤوا لأن شيرين ستلقي محاضرة عن الإسلام في صالة المسجد الرئيسية أو ما يعرف بالمصلى، في نفس الوقت الذي كنت قد ظننته مخصصاً للقائي، وأنها تدعوني لحضورها إن رغبتُ بذلك. فرحبتُ بالطبع رغم أني لم أفهم تضارب المواعيد هذا.

جاءت شيرين أخيراً. تخطر في ثوبٍ أسود تحته بلوزة سوداء برقبة، وجوارب سوداء ثخينة رغم أننا كنا في الصيف، وتلف حول كتفيها شالاً خفيفاً. بدت لي أكثر نحولاً من الصور. شعرها نصفه معقوص، متوسط الطول يتهدل خلف ظهرها بإهمال ووجهها خالٍ من المساحيق، نبيل الملامح. روحها شفيفة، ونظرتها العميقة تسحرك وتجذبك إلى ضوئها مثل فراشة. قمتُ واقفة لما رأيتها ومددتُ يدي، ففاجأتني باحتضانها لي كأنها تعرفني منذ سنوات. طريقة للترحيب كانت حميمية وغريبة بالنسبة لي. ثم ثبّتت كفيها فوق كفي ونظرت في عيني مباشرة وابتسمت «السلام عليكم»، قالتها بلكنة أجنبية. هل تراها تعرف أن لعينيها هذا السحر والعمق العجيبين؟! عيناها كادتا أن تبتلعانني، ونظرتهما تسيطر عليّ من حيث لا أعلم، مثل تأثير مبهم لمخدر سريع المفعول. لعلها مدركة لذلك وتستغل هذه الخاصية النافذة لعينيها. لكنني وعلى نحو آخر، وجدتُ في هاتين العينين كلاماً كثيراً على وشك أن تعبر عنه غير أنها تحجمُ لسبب ما. فكرتُ، ربما تود هذه المرأة التعبير ولو قليلاً عن الرحلة الصوفية الباذخة التي سافرت عبرها خلال تلكم السنوات. لديها الكثير لتقوله، لكنها تختار الصمت الآن!

دخلنا بعد ذلك مباشرة إلى المصلى، وهو قاعة مجاورة فرشت بسجاد ذي نقوش شرقية، ليس نادراً ويمكنك أن تتحصل على مثله بسهولة من محلات الكماليات الشرقية في جادة «نور برو». صفت على الجوانب بضع وسادات، واستندت على الحائط مكتبة منخفضة من بضع رفوف، عليها أيضاً كتب عن الإسلام بالدنماركية، بالإضافة للقرآن الكريم مترجماً. جلس بعض الضيوف على الأرض، وبعضهم على الكراسي. اتضح أنهم دفعة من الجنود اللغويين في الجيش، ممن يدرسون اللغة العربية، وقد أتوا للتعرف أكثر عن الديانة الإسلامية في هذا المسجد الصغير، لتُلقي عليهم المحاضرة «شيرين خانكان» أول إمام مسجد أنثى في أوروبا. استمعتُ إلى المحاضرة بتركيز شديد على الرغم من أن أغلب ما تحدثت عنه شيرين، كنتُ قد سمعته مسبقاً في أثناء بحثي عنها، والتعرف على أفكارها عبر الانترنت.

بعد ان انتهت المحاضرة كان يفترض بلقائنا أنا وشيرين، أن يبدأ، فجلسنا في غرفة من غرف الإدارة أظن بأنها كانت مكتبها الخاص، لكني لم أرتح لكثرة المقاطعات، فكلما أوشكنا على التعمق في الحديث كان يُطرَق الباب من مساعدها الشاب لغرض إعلامها بأمر ما. وأنا من النوع الذي يفقد تركيزه إذا ما استمرت المقاطعة على هذا النحو، فصرتُ أتململ، ويبدو أن شيرين قد لاحظت ضيقي فقالت ان بإمكاني زيارتها في يوم آخر في بيتها لنكون على راحتنا أكثر. أخبرتها أنني أسكن قريباً جداً من المسجد ويمكنني أن آتي غداً دون إشكال. فردت بأنها منذ الغد ستكون في عطلة صيفية قد تطول لأسابيع، ولن تحضر إلى المسجد قبل انتهائها. لم أفقد إصراري، وتبادلنا هذه المرة أرقام الهواتف لتواصل أسرع من رسائل البريد الألكتروني، على أن نتفق على لقاء جديد، يكون بمعزل عن هذه الزحمة والانقطاع المتكرر للحديث.

لعلها كانت منهمكة جداً مع عائلتها وكثرة مشاغلها في تلك الفترة، لأنها أعطتني بعدها أكثر من موعد، ولم نتفق على اللقاء إلا بعد عدة اتصالات، وقبل أن أغادر الدنمارك بيومين فقط. تأملتُ العنوان الذي أرسلته إلي، فعرفتُ أن بإمكاني إما أخذ باص واحد مباشر، أو أن أركب الميترو للسرعة، على أن أغيره ثم أركب باص آخر. اخترتُ الطريق الأطول لأنه الأسهل، ولأنني لا أحبذ القطارات التي تسير تحت الأرض، فركبتُ الباص من عند محطة «نور بورت» وكانت تبعد أقل من ثلاث مائة مترٍ عن الشقة التي أسكنها، بعكس اتجاه المسجد النسائي المعروف.

لعل كوبنهاغن من العواصم القليلة التي يمكن أن يقلك فيها باص واحد، من قلب المدينة وحتى الريف، في نصف ساعة فقط؛ ولأنني كنتُ قد عشت خارجها لفترة من الزمن فإن تفصيلة كهذه كانت مثيرة لانتباهي وتبسّمي معاً. من ضجة المدينة وزحمتها، وجدتُ نفسي بعد دقائق معدودة في أقصى ريف جزيرة «آما». واستغربتُ أن تكون شيرين قاطنة هذه الجهة من «آما» التي لم أتعرف اليها من قبل. صحيح أنني لم أكن أتردد كثيراً على شبه الجزيرة هذه المرتبطة بكوبنهاغن، لكن عبر زياراتي السابقة والقليلة لها، فإني لا أستذكر منها سوى المباني القديمة والصورة النمطية في ذهني عن سكانها البوهيميين. ولم أكن أعهد وجود هذه البقعة المغرقة في ريفيتها وأصالتها، إذ وجدتُ نفسي أمشي في شارع على جانبيه بيوت لها فناءات وحدائق ومزارع، وفي الجو رائحة نفاذة للروث والحيوانات التي لم ألمح منها سوى بضع أبقار كانت ترعى في إحدى المزارع الكبيرة على جانب الطريق. كان الجو شديد الحرارة على غير العادة. ويمكنني تخيل المكان في وقت مختلف من السنة، كئيباً وقَصيّاً، وغارقاً في ظلمة الشتاء التي تجثم على المدينة لأشهر طويلة. إلا أنه في هذا النهار الصيفي بدا محبباً ولطيفاً، وخالياً من الناس، إلا من امرأة تقود دراجة مرت بجانبي. لم أجد رقم مسكنها بين أرقام المنازل ولبثتُ أبحث لبضع دقائق، ولما استسلمت اتصلتُ بشيرين أعلمها أنني قريبة لكن لا يسعني العثور على المكان. بعد أقل من دقيقة وجدتُ باباً حديدياً، لما ظننته سور خلفي لإحدى المنازل، يفتح، ثم تخرج هي. أيضاً، ترتدي ألواناً داكنة. بلوزة قاتمة أخرى، رغم الحر، وتلك الجوارب الثخينة. فتحت لي ذراعيها، فاحتضنتُها هذه المرة دون عَجب، فقد تعودتُ سريعاً على الحميمية المفرطة لترحابها. أدخلتني عبر السور ومشينا في ممر تحيطه شجيرات الأعشاب والأشجار الكثيفة، وفي نهايته، وجدت نفسي داخل فناء متوسط تحيطه مبانٍ منخفضة تبدو كأنها بيت واحد، لكنها في الحقيقة مقسّمة لشقق أو لبيوت صغيرة. لاح في المكان جو ودود ومريح جداً، فالجيران القليلون، أشعروني من الوهلة الأولى أنهم يتقاسمون هذا الفناء، مثل عائلة واحدة كبيرة. جلس رجل عند عتبة إحدى الأبواب ينظر إلينا دون اكتراث، وداعبت شيرين طفلة صغيرة كانت تسبح في طشت في أقصى الفناء، ثم ردّت على امرأة سألتها عن أمر ما لم أركز فيه للأسف، لأني كنتُ مشغولة بمعاينة المكان. وحين دلفنا إلى بيتها، تركت شيرين الباب مشرعاً، ولما رأيتها تخلع حذاءها خلعتُ نعليَّ الصيفيين، ودخلت أمشي حافية على الأرضية الخشبية التي أصدرت صريراً تحت قدميّ. عبرتُ الممر الضيق لأجد نفسي في مطبخ صغير، كان يطل مباشرة، عبر شباك كبير، على الفناء. اتجهت شيرين تواً إلى سكينة وقطعة من خبز الجاودار كانت تنتظرها، كأنها قد همّت بها، ثم تركتها حالما أتاها اتصالي. سألتني إن كنتُ أود مشاركتها طعامها، فشكرتها قائلة بأني قد سبقتها. دخلتُ إلى الصالة، بينما كانت هي تصنع ساندويتشاً سريعاً لنفسها. البيت يبدو عتيقاً لكنه مريح على نحو مبهر، يوحي كثيراً بأجواء المنازل الإسكندنافية التقليدية،

تلك التي كانت في السابق تُبنى مرتبطة بفناء وإسطبل، وكل ملحقات مثل هذه التفاصيل الريفية. كانت الصالة كبيرة بعض الشيء، أرضية خشبية رصاصية اللون، شبابيك كبيرة جداً على امتداد الحائط، تُدخِل الضوء القوي للشمس في هذا النهار الصيفي النادر، وتبدو من خلفها حديقة هي أشبه بغابة، لعلها تطل على الطريق ذي الشجيرات الذي مررنا عبره. مباشرة تحت النوافذ الكبيرة وعلى نفس الامتداد لها، رصّت أرائك خشبية ذكرتني قليلاً «بالكرويتات» البغدادية القديمة التي تصف في المقاهي التراثية. وضِع على تلك الأرائك فرش زرقاء اللون، تكاد تكون تقليدية في لونها وخامتها. بينما استندت على الحائط المحاذي للنوافذ مكتبة عالية، رصت عليها كتب وبضع أشياء لم أركز فيها. عدا ذلك لم يكن ثمة تفاصيل أخرى. لم أرَ تلفازاً أو أي أجهزة إلكترونية. على الأقل، لم أجد ذلك في الصالة حيث جلست أنتظرها. البيت دنماركي صرف، بل تقليدي جداً، وما من لمسة واحدة توحي بأن سكان المنزل مسلمون، أو أن لهم أصولاً مختلطة.

جاءت بصحن فيه قطعة الخبز المر، بعد أن دهنتها بحمص بطحينة شاحب اللون والنسيج، من ذلك النوع الذي يحاول ادّعاء الأصالة لكنه في الحقيقة رديء، ومتخفٍ في قالب يشبه الطحينة شيئاً قليلاً، ويسهل الحصول عليه بالعادة جاهزاً من الأسواق المركزية الدنماركية، لكن طعمه باهت وغير مُرضٍ لمَن يتذوّقه. أحضرت لي معها كوباً من العصير، وسألتني مجدداً إن كنتُ متأكدة بأني لا أرغب بقطعة ساندويتش، فأكدتُ ذلك وأنا أتذكر إفطاري الذي لم يكن صحياً بالمرة كطعامها؛ قطعة كبيرة من معجنات دنماركية شهيرة تدعى «تي بياركيس»، مع كوب كبير من القهوة بالحليب بطعم الكراميل المملح. الإفطار الذي اعتاد زوجي إحضاره كل صباح، حيث كان يشتري المعجنات الساخنة والقهوة الطازجة مبكراً. وبحكم موقع شقتنا المميز فإن كل المحال والمقاهي والمخابز المعروفة كانت تقع على بعد أمتار قليلة منا، وكنّا نحاول إقناع نفسينا أن الملذات الذوقية متاحة، والأكل الصحي والمعتدل مؤجل، ما دمنا في رحلة صيفية طويلة كهذه.

ما أن جَلست وقبل أن تبتلع أول لقمة بدأتُ معها دون مقدمات، كنتُ خائفة من أن يطرأ أمرٌ ما، أو يحضر شخص على نحو مفاجئ فيعكّر صفو هذا الهدوء والحالة المناسبة جداً للبوح. سألتها مباشرة عن طفولتها، قلتُ لها أن شكلها غريب بالفعل، كأنه تطوّع ليتشكل بما يتناسب مع المكان الذي ولدَت ونشأت فيه. فرغم أصول والدتها الفنلندية ووالدها السوري، إلا أن شكلها يبدو وكأنه دنماركي بحت. كنتُ في داخلي أحزر سر الإجابة، فالوالد السوري لا بد وأنه أشقر، أو له ملامح فاتحة وقريبة من الأوربية مثل غالبية «الشوام»، والوالدة الفنلندية لها ملامح شمال أوربية، فكانت النتيجة خلطة غير بعيدة عن الشكل الدنماركي. وقد أكدت هي ذلك فيما بعد قائلة بأنها في الواقع أقرب شبهاً بأبيها من أمها.

* * *

شيرين

نشأتُ في Kongelunden، هنا على جزيرة آما، وقضيتُ معظم حياتي في هذه المنطقة من جنوب الجزيرة، مذ كنتُ طفلة وحتى استقللتُ عن منزل الأسرة. وهي منطقة هادئة وآمنة ومليئة بالأسر التي يكثر فيها الأطفال. في طفولتي لم يتساءل الأشخاص الذين يقابلونني عن هويتي. شكلي كان ليبدو دنماركياً، أو فلنقل إسكندنافي، وقد يكون ذلك بتأثير من الجينات المختلطة، إلا أنني في الواقع أشبه والدي كثيراً. في ذلك الحين لم يكن الدنماركيون يولون الدين أهمية كبيرة، كما هو الحال الآن، فلم يُثِر استغرابهم أن نكون أسرة من أصول وديانة مختلفة، حتى أنني كنتُ الوحيدة في الصفوف الابتدائية من خلفيّة مسلمة. لكن ديانتي وخلفيتي، لم تكونا جليّتين إلى الحد الذي يثار فيه نقاش أو تساؤل حولهما، حتى بالنسبة لي أنا. فلم تكن تلك التفاصيل لتأخذ موقعاً هاماً من حياتي. المرة الأولى التي تنبهت فيها إلى ذلك وبإدراك متعمق، كانت في أثناء دراستي الجامعية. كنتُ قد غيرتُ اسمي قبل دخولي الجامعة إلى شيرين بعد أن قررتُ أن أصبح مسلمة ممارِسة، أي ألا أكون مسلمة بالاسم فقط، بل أن آخذ ديني على محمل الجد أكثر. وبدأتُ دراستي في الفلسفة وعلم اجتماع الأديان في جامعة كوبنهاغن، درّسني أستاذ دائماً ما كان يعاني من لفظ لقبي، وحدث أن رفع رأسه في إحدى المرات بعد أن تعثر اسمي في فمه قائلاً:

ــ «جميل أن نرى بيننا أبناء المهاجرين المسلمين! إنه لأمر مثير للإعجاب، أن يسعكم الوصول إلى هذا المستوى».

اليوم يُعرف هذا الأكاديمي بأنه من الاسلاموفوبيين المتشددين. لكني في ذلك الحين لم أفهم دوافعه تماماً، واستغربتُ كلماته على نحو لم يكن باستطاعتي تفسيره، فبعث في نفسي شعوراً غريباً، يقترب من أن يكون ضيقاً وعدم ارتياح. سألتُ والدتي حال عودتي إلى المنزل أن كنتُ بالفعل أعدّ من الجيل الثاني للمهاجرين المسلمين، فردت بأن الأمر صحيح!

غير أني لم أستوعب ذلك. ماذا يعني ألا أكون دنماركية؟! حتى وان كنتُ مدركة تماماً لذلك الشعور الذي يقبع في محل ما من عقلي، ويذكرني بين الحين والآخر بأني مختلفة بعض الشيء. فوالدي مسلم ووالدتي مسيحية، وجذوري ليست هنا. كما أن تجربتي مع الاختلاف لم تكن سلبية بالمرة، فوالدي يحتفل بالأعياد مع أمي، وأمي تصوم رمضان مع أبي، وكنا أنا وأختي شاهدتين على هذا الاختلاط والتعايش الديني والثقافي، وقد انعكس إيجاباً على كلينا. أبي شخصية منفتحة جداً وليبرالية، ومحبوب بين معارفنا وحتى بين أصدقائي بسبب شخصيته السمحة وكرمه، فقد كان بيتنا مفتوحاً دائماً لأصدقائي من الجنسين، وهو يستقبل الضيوف باستمرار. عشتُ في كنف هذا الرجل الذي يؤمن تماماً بالمرأة وحريتها وكرامتها، وقد منَّ اللّه عليه بابنتين ربما لأنه خيرُ من يكون أباً للإناث. لم يكن يستنكف من خدمتنا والطبخ والمساعدة، إذا ما تسنى له الوقت لذلك. ولهذا كانت لدي صورة قوية جداً عن شخصية الأب الذي يحمي ويخدم النساء في عائلته، أب معطاء في حبه وحنانه على عكس الصورة النمطية السائدة في الغرب عن الرجل الشرقي الذي يقمعهن ويمتهن كرامتهن مثلاً.

ضمن هذا السياق لم يكن لدي مشاكل أثناء نشأتي، عدا عن بعض المواقف القليلة ربما. بعض التفاصيل التي لم يكن في وسعي ممارستها أو القيام بها مثل غيري، كأن أشرب الكحول وأتنقل من حفلة لأخرى على سبيل المثال. غير أننا، أختي الكبرى وأنا، كانت لنا اهتماماتنا وهواياتنا مثل أقراننا تماماً. كنا نحن الاثنتين مثلاً نمارس الرقص، فاهتممتُ أنا بتعلم الباليه، بينما اعتادت أختي أخذ دروسٍ في الرقص الشرقي. في الواقع كانت لويز فريفرت[34] هي معلمتها والتي أصبحت أيضاً إسلاموفوبية متطرفة فيما بعد. لكن حين تقرر أن ترقص أختي في مكان عام كجزء من تدريبها، رفض والدي السماح لها بذلك. مثل هذه الأمور كنا فيها مختلفتين

عن البقية من أقراننا الدنماركيات، إذ يبدو أن بعض التقاليد والعادات الشرقية التي كانت متأصلة في والدي، لم يلقها عنه كلياً، على الرغم من مفاهيم الحرية والليبرالية التي أنشأنا عليها.

التقى أبي بأمي في كوبنهاغن مطلع السبعينيات. كان قد غادر سوريا إلى الدنمارك كلاجئ سياسي، بعد أن ضاق عليه العيش فيها. أما هي فكانت شابة فنلندية، لم تجد عملاً بعد أن تخرجت كممرضة في بلدها، فقررت أن تجرب حظها في الدنمارك، وذلك حين علمت أن البلد لديه نقص في الممرضات. خلّفَت وراءها قريتها الريفية الهادئة في فنلندا، بينما ترك والدي مدينته الشرقية العريقة ليهاجر إلى أوربا، فهو ابن العاصمة دمشق ذات التعداد السكاني الكبير، والتنوع الديني والمذهبي والطائفي الرحب. تصادف لقاؤهما مرتين خلال يوم واحد دون اتفاق مسبق، وقد رأى والدي في ذلك إشارةً تعلّق بها. تزوجا بعد ذلك بوقت قصير، وتغلبا سريعاً على كل الاختلافات التي كان بإمكانها أن تفرقهما. الديانة، الخلفية، الهوية، وحتى فارق السن، إذ أنه يكبرها بعشر سنوات. جمعهما أنهما كانا مهاجرين، ولم يكونا يتحدثان الدنماركية[35]، كما أنهما وحيدين من دون عائلة أو أي شخص مقرب. لهذا كان عليهما أن يعملا ويتعلما اللغة في الوقت ذاته، فعملا في وظيفتين، كلاً على حدة. ثم زادت مسؤوليتهما تجاه بعضهما البعض مع ولادة أختي الكبرى بعد عام واحد من زواجهما، ثم ولادتي أنا بعد ذلك بعامين، ما دفع والدي للتخلي عن حلمه في استكمال دراسته وطموحه في عالم الكتابة الذي بدأه بنشر رواية صغيرة قبل مغادرته سوريا، ليتجه إلى عالم مختلف كلياً ويعمل لحسابه الخاص، فافتتح مطعماً.

ورغم هذه الخلفية المشكَّلة، فإنني في واقع الحال أعد نفسي دنماركية جداً. فقد نشأتُ نشأة دنماركية إلى حد كبير هنا في «آما»، حتى أن اللغة الدنماركية هي اللغة المشتركة بين أبي وأمي، ولهذا فهي لغتي الأم الوحيدة، وثقافتي ومشاعري الوطنية كلها دنماركية محضة، إذ لم يتسنَ لنا تعلم العربية أو الفنلندية على نحو جيد أثناء نشأتنا. وبعد أن كبرنا قليلاً، حاول والدي تعليمنا العربية، بيد أن الأمر بات صعباً بعض الشيء، فقررتُ فيما بعد أن أضيفها إلى دراستي الجامعية. بضع دروس بسيطة ومبادئ أولية للّغة، ثم قضيتُ بعد ذلك ستة أشهر في القاهرة، ألحقتُها بخمسة أشهر في دمشق؛ ولما راق لي الحال عدتُ لثمانية أشهر أخرى، لدراسة العربية على نحو مكثف. لكني لم أتعلم الكلام بطلاقة حتى الآن.

* * *

في سنوات طفولتي ونشأتي تعودنا قضاء الصيف في فنلندا عند أهلي لأمي، ولهذا فان الروابط والأوصار مع الجذور التي تتمتع بها والدتي لم تتلاشَ أو تتوارَ أبداً. فنلندا يغلب عليها طابع شجيّ، لعلها تلك البيئة الصادقة والطينة الخام. الغابات والأنهر والجبال، والريف ذو الأشجار الكثيفة والبحيرات العميقة. الدنمارك تبدو بالمقارنة مع غزارة هذه التفاصيل والصور، مجدبة. كنتُ أتطلع إلى الصيف في كل عام، حيث أقضيه بالعادة عند أهل والدتي في عمق الريف الفنلندي، حيث الفناء الواسع والحيوانات الأليفة والطبيعة الأصيلة، وحيث كنتُ أطالع أفقاً واسعاً ممتداً أمامي، فلا يعكر صفاء المنظر وحيويته أي جماد بليد. كل ما تقع عليه عيناي نابض بالحياة وعفوي، وفيه تكثيف لواقعية غير مصنعة، وجمال مطلق. ثم كانت تلك الحياة الريفية البدائية، علف الحيوانات، حلب البقر وصنع الأجبان ومشتقات الحليب؛ حمّامات الساونا الساخنة، والسباحة في البحيرة صباحاً، ثم التجمع حول موقد للنار في وسط الغابة في أماسي الصيف الطويلة.

كنتُ أعي الاختلاف ما بين الفنلنديين والدنماركيين بشكل إيجابي ومحبب، ولكيلا أقع في فخ التعميم سأقول إن الغالبية ممن التقيتهم شخصياً، بدوا لي أكثر أريحية من الدنماركيين من أبناء العاصمة الذين كنتُ أخالطهم في حياتي العادية. قد يكون ذلك متعلقاً بكون أهل والدتي رعويين جداً، ومسيحيين متدينين على نحو قد يبدو زائداً بالنسبة للطبيعة الدنماركية الغالبة، والتي تميل إلى اللا أدرية وعدم الإيمان؛ أو أن يكونوا مسيحيين ثقافيين كما يطلقون على أنفسهم، أي أنهم يمارسون بعض العادات المسيحية ويحتفلون بالأعياد، دون الالتزام المطلق بالكنيسة وتعاليمها. على الرغم من ذلك، لم أجد في تدين عائلتي الفنلندية أي نوع من التطرف أو المغالاة، بل كان تديناً يبعث على السعادة ويستحضر راحة نفسية. كانوا يغنون كثيراً ويعزفون الموسيقى. الكمان والبيانو كانا أساسيين في حياتهم، إذ أنهم جميعاً يجيدون العزف على هاتين الآلتين. الخلاصة هي أنهم كانوا من تلك الأسر الموسيقية والفنية التي تأخذ على عاتقها أغلب الفعاليات والاحتفالات في كنيسة المنطقة.

غير أن النساء في العائلة، هن أكثر ما أثار انتباهي وفضولي في هذا الإطار الأسري الحميم. لعله ذلك الامتداد الأمومي البدائي والساذج، مثل حبل سري مرتبط بسلسلة طويلة، من هؤلاء النسوة الشماليات اللواتي أحمل دماءهن وجيناتِهن. إذ لطالما كنتُ مفتونة بجدتي لأمي على وجه الخصوص. أذكرها دائماً كتلك المرأة المعتدلة المتسامحة اللامبالية، فقد أنجبت ثمانية أبناء لم تكلف نفسها عناء تربيتهم. كان ذلك نهجاً وليس مجرد تكاسل، أو حتى انعدام لغريزة التفاني والتضحية التي تؤهَل وفقها النساء عادة. هكذا ربتنا أمي أيضاً، بمنهج اللاتربية، دون تلقين أو تثقيف ينحو باتجاه أفكار محددة. وهو لا يعد بالمنهج السهل، بل هو صعب للغاية. عرفت ذلك بعد أن اختبرته بنفسي وبت أحاول تطبيقه مع أولادي اليوم لإيماني بفوائده. إنه لمن الصعب التخلي عن التوقعات التلقائية التي ينتظرها الآباء من الأبناء، غير أن جدتي وعلى العكس مني لم تجد تعقيداً في ذلك. لم تؤرقها التوقعات والمتطلبات التي يتعاطى بها الآباء مع أبنائهم، فكانت تلقائية أكثر، ومبدأيّة من حيث لا وجود لمبدأ. وهي امرأة صلبة، رغم الحزن المضمر الذي يكتنفها، والذي نتوارثه كفنلنديين مثل تراث عتيق نرفض التخلي عنه.

أملك كتاباً مطبوعاً لرسائل الحب بينها وبين جدي، «من إيڤا إلى أولاڤي». كانا قد تزوجا مع بداية الحرب[36]، التي غادر جدي إلى مجاهلها مباشرة، ولبث يبعث لجدتي الرسائل العاطفية من هناك. ورغم زياراته القليلة في حينها وعدم تواجده الدائم إلى جانبها، تمكنا من إنجاب ثمانية أطفال. كان هذا الحب الساذج غير المزخرف، هو ما تأسست عليه هذه الدار التي أزورها كل صيف. أنه أمرٌ مثير للغاية!

أذكر أننا كنا نسبح في أحد الأيام في البحيرة، كل نساء العائلة من دون الرجال، وكنتُ صغيرة جداً أرتدي مايوه بكيني وأتواثب في المياه الضحلة، حين رأيتُ زوجة خالي فجأة تخلع ثيابها كلها، وتقفز في الماء عارية تماماً. إنهم يسبحون عرايا في فنلندا، هكذا فكرتُ! في الواقع لم يكن ذلك مجرد اندفاع ساقته اللحظة، بل هو تقليد فنلنديٌ معروف، فهم يسبحون عرايا ليتماهوا مع الطبيعة الخام، الرجال والنساء يسبحون معاً، دون أن تُفسد الغرائز الفطرية لحظات الامتزاج هذه. لكنني في تلك السن، لم أكن لأفهم

الدافع الذي يبعث بأحدهم لخلع ثيابه كلها على مرأى من الجميع، فلبثت أراقب المرأة العارية وأنا مبهورة الأنفاس. أطلقت هي تنهيدة عظيمة، بعد أن دفعت بنصفها العلوي خارج الماء الذي غاصت فيه لعدد من الثواني، ثم ابتسمت وأغلقت عينيها، وتركت جسدها ينزلق بسلاسة لتطفو على ظهرها. نهداها ووجهها وحدهم ما كان يبرز خارج صفحة الماء الرقراقة. خيوط من الماء تتراقص على النهدين، راقبتها بتأن تحت انعكاس أشعة الشمس اللامعة. التفتت إليّ حين تنبهت أن عينيَّ تلاحقانها، ثم قالت كأنها تقرّ حقيقة غير مخفية: «هكذا تسبح الفنلنديات!».

وعلى الرغم من هذه الأريحية الجلية في تعاطي الفنلنديات مع الطبيعة والحياة والجانب الأنثوي الكامن فيهن، إلا أن ثمة غموضاً كان يدفعني للتفكر في ذلك الشجن الخفي الذي يلفهن. ذلك الهدوء الشجي الخامل ذي اللمحة الترابية. نوع من أنواع الشجن الثابتة لا المماطِلة، مغروس في الأرض مثل جذع شجرة قويّ، صامد ومستقر، وسوف يبقى على هذا النحو لسنوات مديدة.

غير أن أمي، كانت تخلط شجنها بصفة صريحة فيها، فهي بالرغم من الحزن المتجذر في طبيعتها الفنلندية الأصيلة، إلا أنها امرأة براغماتية وعملية جداً. فهي على سبيل المثال لا تشتاق ولا تحنّ، ولا تعاني من النوستالجيا أو الرغبة في التواجد في مكان أو حال غير الذي وضعتها فيه الحياة. أسألها أحياناً إن كانت تحن إلى أهلها وبلدها، فترد ببساطة:

ــ «لا، لأني هنا الآن».

أظن بأنها أفضل مني في فهم اللحظة والعيش فيها. فأنا على عكسها ورثتُ الشجن الفنلندي، دون أن أرث معه الذرائعية التي تتعاطى بها أمي مع الحياة. أحب الأغاني والموسيقى الحزينة، وقلبي يثقله ألم مكنون كلما استرجعتُ ذكريات مضت، ولهذا فإنني أحياناً أجد تأزماً في التخلي عن اللحظة التي مرت، حتى وإن كنتُ متشبثة في العيش في «الآن».

وفق هذا النمط واستناداً لتلك التقاليد، تعودتُ أن أسبح يومياً، كنوع من التواصل مع ثقافة أمي، كما أنه نوع من التواصل مع ذاتي أيضاً. كانت هي قد عودتنا منذ الطفولة أن نسبح في منطقة «دراوغور» القريبة من سكننا، فكنا نذهب لشاطئ مخصص للنساء حيث يمارسن السباحة في البحر، بعضهن أيضاً، كن يسبحن عاريات دون قلق من ملاحقة الأعين المتلصصة. في المقابل كان ثمة شاطئ خاص بالرجال في نفس المنطقة، إذ أن فكرة عزل الرجال عن النساء في مواقف وأماكن معينة، ليست جديدة كلياً على الثقافة الاسكندنافية كما قد يظن البعض.

منذ صغري وحتى اليوم، في عز البرد أو الحر، أسبح في البحر مرتين كل اليوم. أحافظ على هذا الروتين مهما كانت الظروف، حتى أنني حين تزوجت وسكنتُ في مكان يبعد عن البحر، كنت أقود سيارتي كل صباح إلى البقعة ذاتها التي اعتدتُ السباحة فيها، رغم بعد المسافة. ولهذا فإنني أحاول دائماً أن يكون سكني قريباً من البحر، كي لا أصعّب على نفسي هذه الرحلات اليومية المكررة.

* * *

في المرة الأولى التي أتصل بها مع جذوري العربية كنتُ في العاشرة من عمري، وكان ذلك حين سافرنا إلى سوريا. والدي كان لاجئاً سياسياً ومعارضاً لنظام حافظ الأسد، وبعد سلسلة من الاعتقالات وتعرضه للتعذيب بسبب كتاباته وانتقاداته لسياسات النظام السوري، قرر أن يغادر البلاد. لبث في المهجر لسنوات عدة دون أن يتمكن من العودة، وبعد أن صدر عنه عفو خاص، ومُحي اسمه من القوائم السوداء للمعارضين، بطريقة مباشرة ومن حافظ الأسد شخصياً، قدّر لنا زيارة سوريا.

لم يكن الأمر مستغرباً قط، فكنتُ قد تعرفتُ إلى السوريين عبر لقاء أصدقاء والدي الذين يسكنون في الدنمارك أيضاً، على قلّتهم. وكان في داخلي وعي بطبيعة الاختلاف، فلم أشعر بصدمة ثقافية أو حضارية بيّنة. بيد أن ما أثار فزعي، هو كثافة تواجد العسكر في كل مكان، بعتادهم وأسلحتهم الكاملة، وصور «الأسد» المتناثرة في كل الشوارع والميادين. وكان ذلك التماسّ الأول لي، مع شكل السلطات الدكتاتورية التي كنتُ أسمع عنها من أبي أحياناً.

في تلك الفترة كان والدي مولعاً بالكاميرات والتصوير، وتوثيق كل المواقف واللحظات التي نمر بها، سيما رحلتنا تلك، حيث كان شغوفاً بتصوير أسرته الكبيرة، لكي يحتفظ بتلك الأفلام كنوع من الذكرى التي يسترجعها موثقة، كلما طرأ الحنينُ على قلبه. أذكر أننا في إحدى المرات، كنا في طريقنا لزيارة إحدى عماتي التي تسكن في بيت عربي مفتوح على فناء دمشقي جميل، بينما كان أبي يصور الشوارع طوال الطريق. حين وصلنا إلى بيت عمتي كانت الأسرة كلها بانتظارنا، عدد هائل من الأعمام والعمات والأقارب مع أطفالهم الكثر، أسترجعها كتجربة مكثفة من المشاعر والحنين والتقارب مع هؤلاء الأشخاص الذين يقربونني، ولم أكن قد تعرفت إليهم من قبل. ما نغّص علينا هذه الجمعة، مجموعة من رجال المخابرات الذين انقضوا فجأة على الدار، بصحبة شاب من أبناء عمومتي الذي كانت آثار الضرب والتعذيب واضحة عليه. لا زلتُ أذكر وجهه المتورم والدماء تنزف من أنفه، وأذكر الهرج والمرج والربكة. أناس يتصايحون ونبرات أصواتهم تعلو بلغة لا أفهمها. ثم والدي ووالدتي يؤخذان إلى سيارة شرطة، دون أن نتمكن من وداعهما. نساء يبكين ويتمتمن آيات من القرآن، وينظرن إلى السماء كأنهن يتوسلن اللّه. الشاب الذي ضُرب يجلس في ركن يمسح دماءه. كلمات، كلمات، وأصوات، كلها غير مفهومة بالنسبة لكلينا، أختي وأنا، فكان علينا أن نحزر أن أمراً جللاً قد وقع، لا نعرف سره وكنهه. بعدها عرفنا أن السبب في ذلك كله، هو أن المخابرات كانت قد لمحت والدي وهو يصور، وبطريقة ما توصلوا إلى الشاب الصغير هذا، ابن عمي الذي استجوبوه وضربوه، والذي كان خائفاً من الإدلاء بأي معلومات قد تضرنا فاقتادوه إلى البيت حيث كنا، لينتهي الأمر بأخذ والديّ للتحقيق معهما. لا أعرف ما الذي كانوا يظنونه فيهما، لعلهم قد اعتبروهما جاسوسين أو مخربين. لا أنسى تلك الساعات الطوال التي فارقنا فيها. كانت النسوة يبكين وهن يقبلن ويحتضننا، أنا وأختي، ويهذرن بالعربية، كلاماً فسرناه من حركاتهن ودموعهن على أنه مشحون بالتعاطف والأسف والخوف. استجوبوا والديّ، ورصدوا محتوى الأفلام التي كانت كلها عائلية وسياحية، ولمّا لم يجدوا شيئاً يمكنهم اعتباره خطيراً، أطلقوا سراحهما.

* * *

في صيف العام 2016، كنتُ أحصّر نفسي لإمامة الصلاة لأول مرة في مسجد مريم، فارتديتُ «جلابية» أهداني إياها والدي لأجل المناسبة، وبينما كنتُ أثبتُ الوشاح على رأسي، كان أولادي الأربعة يتابعون المشهد باهتمام، مدركين تماماً جدية ما سيحدث. فقد كانوا على علم بأن والدتهم، مع مجموعة من الناشطين على وشك أن يدخلوا التأريخ، بإمامة امرأة لأول صلاة في المسجد النسائي الأول من نوعه في أوربا. في ذلك اليوم كانت ابنتي الصغرى «حليمة مريم» في الخامسة من عمرها فقط، وتلعب مع صديقتها، وهي طفلة دنماركية كانت في ضيافتنا يومها. مالت الطفلة ذات العينين الزرقاوين والشعر الأشقر على حليمة مريم وهمست في أذنها:

ـ «ما هو الإمام؟»

فردت حليمة مريم وهي تنظر إليها بفخر واعتزاز: «ألا تعرفين؟ الإمام هو امرأة تقوم بعمل أشياء عظيمة!».

وقفتُ لثواني مشدوهة من الرد. أذهلني أن ما أفعله له القدرة على تغيير مفهوم تهيمن عليه الأعراف الذكورية في ذهن طفلة في الخامسة من عمرها، على هذا النحو السلس والبسيط، ومن دون تكلف أو ادعاء.

المرة الأولى التي كتبتُ فيها عن مفهوم إمامة المرأة كانت في العام 2002، في ذلك الحين لم أجرؤ على استخدام تعبير «إمام» وأنا أشير به إلى امرأة. غير أن فكرة مسجد تقوم النساء بإمامته، كانت قد راودتني وأنا أكتب بحث تخرجي من الجامعة، حين أقمتُ في دمشق قبل ذلك بثلاثة أعوام. كان بحثي عن «الصوفية والنشاطية في الإسلام». مر الأمر في خاطري مثل رؤية، بينما كنتُ محشورة مع البقية من النساء في مقصورة عالية، بعيداً عن الخطيب في مسجد أبو النور[37]، الذي كنتُ أتردد عليه في العاصمة دمشق، لأجل إتمام بحثي. كان احساساً مزعجاً أن تتلقى خطبة الإمام من على هذه المسافة البعيدة، والتي لم تكن مسافة مادية فقط، بل معنوية أيضاً وتحمل في طياتها فكرة صد وانفصال. يومها تخيلتُ مسجداً قائماً على النساء، فيه مفتي وأمام ودعاة، كلهن من الإناث.

لم يسبق لي أبداً أن تبنيتُ مفاهيم وقيم إسلامية تقليدية، ولعل ذلك يعود إلى نشأتي التي لم تكن تقليدية بدورها، والى والدي الذي يتمتع بروحانية وصوفية عالية. في فترة إقامتي في دمشق، قادتني المدينة إلى رحاب ابن عربي والرومي، والدهاليز الصوفية تلك التي أثرت كثيراً في رحلتي ومسيرتي الروحية. بيد أن هذه المسالك، لم تنسني أن أي إنسان معرض للانغماس في التطرف، لو أنه لم يمسك بعصا الاعتدال كما ينبغي، فحتى مفاهيم الصوفية الجذابة، والتي قد تبدو للوهلة الأولى معتمِدة على الاتصال المطلق والمباشر بالله، يمكنها أن تنحو منحى التشدد إذا ما مورست بطرق متعصبة وتقليدية، وهو ما لم يكن ضمن وعيي وتشكيلي منذ البدء. لهذا السبب، حرصتُ على ألّا نتبع منهجاً صوفياً محدداً في مسجد مريم، فنحن مرحبون بكل الأفكار المعتدلة والعرفانية، دون تطرف أو مغالاة أو ميلٍ مبالغ فيه.

وهنا عليّ التأكيد بأنني لا أجد نفسي مرتبطة بقيم مكانية بحتة، أو منبثقة من موقع معين، فقد رباني والداي على ما نعتبره قيماً عالمية نشترك فيها كبشر. الانفتاح والتقبل والرحابة مثلاً، هي قيم أساسية نشأتُ على تقديرها، ولذلك كما ترين فإن أبواب بيتي مشرعة، هي كذلك غالباً لأنني أستقبل الزائرين والجيران على الدوام. كما أنني لا أرى بأن قيمة مهمة مثل حرية التعبير، هي قيمة مسيحية أو غربية محضة، بل هي في نظري قيمة كونية لكنها للأسف مقموعة في دول مثل دول الشرق الأوسط، بسبب الحكومات التي لا يمكن أن تجيزها. ولهذا السبب بالتحديد، فإنني واعية تماماً للحرية في التعبير عن الرأي وعن الذات. هذا نوع من الحرية متاح لي هنا في الدنمارك، ولو كنتُ في الشرق الأوسط لما أتيحت لي فرصة الإمامة مثلاً. لكني رغم ذلك عنيدة جداً، ولو كنتُ نشأتُ وعشتُ في الشرق لكنتُ مارستُ كل ما يفعله الإمام، مهما صُدِدتُ عن هدفي. كنتُ على سبيل المثال، سأؤمُّ نساء في الصلاة، وأنشط في حقوق الإنسان، وأتعاطى مع الهموم الإنسانية بشكل عام، فقط دون أن أضع تعريفاً لما أكون. في الشرق ثمة نساء كثيرات يمارسن الإمامة بهذه الطريقة المتخفية، الفرق أن ما فعلناه هنا في الدنمارك هو أننا كسرنا النمط السائد، بافتتاح مسجد نسائي صغير تأمُّهُ امرأة بالفعل، لأننا نستطيع!

الحلال والحرام ليسا معقدين كما قد يظن أو يدّعي الكثير من الناس، فالأصل في الأشياء الإباحة، والحرمات قليلة ومحدودة، ويمكن أن تحصى وتجتنب بسهولة. يظن البعض، أننا لكي نغير البنية القيَّمية المتعارف عليها، فأننا بحاجة إلى أفعال عظيمة أو إلى أتباع كُثر، رغم أن الحقيقة هي العكس تماماً. فكل ما يتطلبه الأمر هو عدد قليل من الأشخاص، لتغيير البنى الثقافية والمعرفية والقيمية، بل في أحايين كثيرة جداً، كان وجود شخص واحد فقط كافياً لإحداث تغيير ثوري، وهنا تكمن المعجزة!

لقد قدّمنا المرأة كإمام، واليوم لدينا ثلاث نساء يقمن بهذه المهمة في مسجد مريم. في مسجدنا يمكن للمرأة التي ترغب في الطلاق أن تطلق نفسها، وبدأنا أيضاً بعقد زيجات بين الأديان، لا سيما للنساء المسلمات اللواتي يُحرَمن من عقد الزواج على الطريقة الإسلامية، بحجة أن الإسلام لا يبيح للمرأة الزواج من غير المسلم، وهو أمر لا نعتقد به. مثل هذه الأمور كانت مستحيلة منذ ثلاث سنوات فقط، لكنها باتت ميسّرة اليوم. البنية الأبوية جبارة وهائلة وتمتد أذرعها في ثقافات عديدة، لكنها في الوقت ذاته هشة جداً متى ما تحدَّيتها. عليك أن تجرؤ فقط!

* * *

في عام 2006، كنتُ في أوغندا، حين تسلمتُ دعوة من السفارة الدنماركية في كامبالا لألقي محاضرة في مؤتمر كبير، حضره عدد هائل من الأئمة ورجال الدين من دول شرق أفريقيا، وكان ذلك تحديداً في أثناء أزمة الكاريكاتور الشهيرة[38].

كانت القاعة تعج بآلاف من الرجال وأنا المرأة الوحيدة التي ستخطب فيهم. أذكر أنني في ذلك الصباح وحين كنتُ أرتب هندامي قبل الانطلاق، فكرتُ للحظة هل أضع على رأسي غطاءً أم لا أفعل، وكان من حسن حظي أنني فعلت. ارتديت «جلابية» كعادتي، ولففتُ رأسي بوشاح خفيف. وحين صعدتُ إلى المنصة، انتبهتُ ألّا أحد من الأئمة الحضور قد رفع رأسه لينظر إليّ. وقد يُظَن أن ذلك كان على سبيل غض البصر، غير أنهم لم يسلموا عليّ، ولم يردوا سلامي حين بادرتهم به! بل أشاحوا بوجههم عن المنصة التي

أقف عليها، كأنهم غير مهتمين. قبضتُ على الميكروفون بكفي، وأهملت نظراتهم الزائغة، ثم بدأت حديثي الذي كان بالإنكليزية، بعد دقائق قليلة بدأوا يرفعون أعينهم باتجاهي، ثم أمعنوا النظر، وبعدها بقليل هتفت القاعة «الله أكبر»، حين ثار حماسهم لما أقول.

أعلم تماماً أنني لو لم أكن أضع وشاحاً على رأسي، لما لفتُّ الانتباه ولأثرتُ انزعاجاً وتململاً أكثر من الذي أثرته قبل أن يستمعوا لقولي. لكنني اليوم لا أضع الحجاب، رغم أني قد فعلت لفترة من حياتي، ثم عدتُ وخلعته لمّا اختلفت قناعاتي وتحولت. برغم ذلك، ما زلتُ مؤمنة بالاحتشام وألتزم به دون إطلاق الاحكام على خيارات غيري من النساء؛ فأنا لا أؤمن أن قطعة قماش يمكن أن تكون مقياساً للإيمان من عدمه. غير أن الأهم بالنسبة لي، هو الحق في وضع الحجاب أو عدم وضعه، ففي الحالتين أقف مع حرية الاختيار وأدعمها، لأننا وحدنا من نقرر ما ينفعنا ويعنينا في هذه الحياة.

كما أنني مؤمنة «بالنسوية الإسلامية»، مؤمنة بأن المرأة كانت فاعلة ومؤثرة في صدر الإسلام وقد أمّت النساء في الصلاة، وحسب الأحاديث والمعطيات قد تكون أمَّت بالجنسين معاً. كما في الحديث الشهير الذي أمر فيه الرسول «أم ورقة» أن تأمَّ أهل دارها للصلاة[39]، إذ ثمة من يجادل أن أهل دارها لم يكونوا نساءً فقط بل من كلا الجنسين؟ وإذا كان الرسول قد أمرها بإمامتهم دون أن يحدد جماعة معينة؟ فهو بذلك يعني النساء والرجال معاً. وحين أشدد على مفهوم النسوية الإسلامية فهي للأسباب العديدة التي تعاني منها المرأة، بسبب الأنظمة والقيم الذكورية التي، وللأسف الشديد، تبدو أكثر تجذراً في المجتمعات الإسلامية منها في المجتمعات الأخرى. لكننا مع ذلك، لا نسعى لكسر التابوهات فذلك ليس الهدف الأكبر، لأنها تتهاوى وتتحطم في أثناء خوضنا المسيرة. برأيي أننا نعود إلى الأصل، حين نصنع من المسجد ملاذاً اجتماعياً وروحياً للناس. هكذا كانت المساجد الأولى في الإسلام بالفعل، لا سيما في فترة «المدينة المنورة». كانت بيوتاً صغيرة وبسيطة فيها الرعاية والإصلاح والملجأ الروحي. ولهذا فإن جزءاً مهماً من نشاطي، بالإضافة إلى النشاط الديني والدعوي، هو النشاط الاجتماعي والمعرفي، النابع من اختصاصي الإضافي كوني معالجة نفسية للسلوك الادراكي. وقد بادرتُ لإنشاء «دائرة الخروج»[40]، وهي منظمة تُعنى بطرق الخروج من العنف النفسي، حيث ننسق مجموعات نقاش للأشخاص الذين تعرضوا للعنف النفسي، والرقابة الاجتماعية، بالإضافة للرقابة الاجتماعية الدينية. ولدينا اليوم مجموعات نقاش، في سبع مدن دنماركية كبيرة.

رغم كل ما سبق، ورغم تشديدي على أفكار الاعتدال والمساواة، أواجِه دائماً المتطرفين من الجانبين. فأنا لا أُرضي اليمنيين الدنماركيين الذين أطلق عليّ بعضهم وصف «راديكالية»، لمجرد كوني مسلمة وأؤمّ مسجداً. على الجانب الآخر يحاربني مسلمون يرونني «مهرطِقة»، مدعين بأني أفضّل إسلاماً بحسب المقاسات الغربية. إلا أنني تعلمتُ أن أسير في طريقي دون الالتفات لمثل هذه المضايقات الصغيرة، وأراها ضريبة الوسطية والاعتدال، لأنه أمرٌ حتمي بالنسبة لنا أن نقع ما بين مطرقة هؤلاء، وسندان أولئك.

* * *

حوراء

دائماً ما أحاول استرجاع اللحظة الأولى. المرة الأولى التي تقع فيها عيناي على ذلك الشخص مثلاً. الانطباع الأول الذي تركه فيّ أشخاص سيصبحون فيما بعد أصدقاء أو مقربين، أو حتى مجرد معارف أو عابرين من أولئك الذين لهم قدرة فائقة على ترك أثر، مهما كان ضئيلاً أو عميقاً، إيجاباً كان أم سلباً.

هل شاهدتها وأنا أقلّب قنوات التلفاز بملل، دون أن يستوقفني خاطر ما؟ هل رأيتُ وجهها في إعلان في الشارع، عبر صورة لها، معلقة على عمود كهرباء، أثناء انتخابات البرلمان التي ترشحت له في وقت مضى؟ ربما كان الأمر هكذا! لعلي جلست في الباص بالقرب من النافذة التي تعكس مجرد وجه لامرأة جميلة تكرر أمامي. وقد أكون راقبتُ صور المرشحين وهي تتتالى، في صباح لا أذكر معالمه كلياً الآن. ولأن ذاكرتي الفوتوغرافية التقطت الشكل والصورة فقط، دون باقي التفاصيل، فلربما تكون قد اختزنت شكلها. ولم أكن لأعرف حينها أنني في يوم ما، سوف يتقاطع طريقي بشكل عابر مع هذه المرأة ذات الصورة المعلقة على عامود الكهرباء، وأنني سأرى فيها امرأة ملهمة وفعالة وتحمل محبة صادقة لما تفعل، وأنني سأكنّ لها إعجاباً لقدرتها الفائقة على الاحتفاظ بهدوئها وأصالتها أمام الهجمات المتلاحقة من المتأسلمين، والإسلاميين، والعنصريين وكارهي الغرباء والنساء، وكل ما هو مختلف!

جميلٌ أن تكتشفَ امرأة تحافظ على أن تعمَّد في الماء مرتين كل يوم وبانضباط عجيب! يغريني أن أعتقد، بأن هذا التمرين اليومي هو نوع من التطهر أو الصلاة. ويبدو لي الإذعان الخلاق للانحناءات المتكررة بشكل يومي تحت الماء، وفي أقسى الظروف والأجواء، دالاً على مستوى رفيع من النظام، ويذكّر بالممارسات الروحانية لأولئك المتطهرين الذين سيُنبَذون لنقائهم وتمسكهم بما يؤمنون به. «**.... أخرجوهم مِن قريَتِكم، إنَّهم أناسٌ يَتَطهرون**[41]». كما أن الانغماس في الماء دونما استدعاء القلق أو هاجس الغرق، وعلى هذا النحو المتكرر، يوحي بحالة برزخيّة بين الحياة والموت، بين اللحظة الفاصلة بين الروح والجسد؛ حيث يحبس المرءُ أنفاسه لثوانٍ أو لدقائق، دون أن يعرف إن كان بوسعه إطلاقها فيما بعد أم أنها ستتوقف إلى الأبد؟! إنه الماء الذي كان «عرشه عليه»، وإنه الماء الذي مشى فوقه عيسى دون أن يبتل، وهو الماء الذي جُعل منه كل شيءٍ حياً!

قبل أن أكمل هذا الفصل الذي انهمكتُ في كتابته، تراءت لي امرأة شقراء في حلم يقظة، تسبح في بحر رمادي عظيم. جسدها متماهٍ مع البحر كأن بشرتها والماء بذات اللون الباهت. تغوص عميقاً، تختفي بين لجج البحر الذي لم يكن هائجاً، ثم ترتفع خارج الماء تارة بقوة، وأخرى بسلاسة وانسيابية. وحده شعرها الأشقر كان يلوح فاقعاً، كلما اندفعت بجسدها خارج الماء الذي لم يُظهر ملامح وجهها كأنها وإياه كياناً واحداً. تمثلت لي كائناً بحرياً شديد المرونة والطراوة، لكنني كنتُ داخل الحلم لا أعرف من تكون؛ كما أني لم أشعر بالقلق كلما غاصت واختفت في الماء، كأني كنتُ مطمئنة لسلامتها وخلاصها. هل كنتُ أرى شيرين وهي تمارس السباحة في بحر البلطيق؟ يومها أمضيتُ النهار وقد لازمني قول البسطامي، يرن في أذني طوال الوقت: «**خضتُ بحراً وقفَ الأنبياءُ بساحِله**».

* * *

العودة إلى كوبنهاغن سائحة..

أخيراً، تُقنع نفسك أن الذكريات هي ما يحملُك وليست الأوطان.

تقلّبُ الأمور في رأسِك ثم تقرر على شكل سؤالٍ أن: كيف بإمكانه أن يحتويك الوطن الذي لم تَصنع لنفسك فيه ذكرى واحدة تَركن اليها، وتحتمي بها كلما نُبذتَ وتغربتَ وأُقصيت؟

تُفاجئك رائحة المعجنات بالقرفة وأنت تقضم منها قطعة، لتذكرك بإحساس الوطن الذي تملكك في وقت ما، «رائحتها شبيهة بما يسمى وطن»، هكذا تحدّث نفسك! وتتلفت باحثاً عن الذكرى التي تنقر على كتفك وأنت منهمك في المضغ، فتجدها قد تبخرت وما من سبيل لاسترجاع اللحظة المفعمة بالنوستالجيا.

تُقرر أن تسير في شوارع طفولتك وتحصي الذكريات. وفي واحدة من ألاعيبك الاغترابية التي اعتدتَ عليها، تمزج روحك بالمكان عبر موسيقاك الشرقية، فتثبِّت السماعة في أذنك بينما تسير في ممشى الذكريات الطويل. ثَمّة ما يدعوك للتحايل على نوستالجيا المكان، لأنك تَعلم بأن أنغامك تعاند البقعة التي تقف فيها، لكنك تُصر على استحضار الصور التي أسقطها عقلك عبر أنغامٍ دخيلة.

«هذه أوطاني الصغيرة التي ربيتُها بنفسي فلما كبُرت استقلّت وهاجرتني. هذه البحيرة التي كانت تتجمد مع كل شتاءٍ دنماركي قارس، أنا في الثالثة عشرة وقد نسيتُ قفازاتي في البيت، أحبس كفيّ تحت أكمام الجاكيت وأسير على الجليد الصلد اختصاراً للطريق. ثم في لحظة طيش يخطر لي أن أدق بقدمي على الماء المتجمد، رغم كل القصص المخيفة والمحذِّرة التي سمعتها عمّن فعلوا ذلك لتبلعهم المياه الباردة».

هكذا اذاً، هي الذكرى التي تُعربد في داخلك مثل عربدة طفولتك التي لم تكن بريئة تماماً وعنوانها الشقاوة والذهن الذي لا يحايد في سكونه واضطرابه أبداً. ذهن غير قابل لأن يصفو بسهولة.

تُفكِّر، ربما تقصي نفسك عن الناس، عن أصدقائك المختلفين الذين صنعَتهم لك أيامك الجديدة، بحديثك عن طفولتك وذكرياتك التي لا تعنيهم من قريب أو بعيد. ذكريات إسكندنافية باردة، لن تكون ابداً دافئة، وهي خالية من كل ما يشير إلى منبعك الأصلي. لن يكون من ضمنها مفردات كالنخيل، الرازقي، بيت جيراننا، شاي العصاري، رائحة التراب بعد زخة المطر الخ... لا أبداً، أنت عراقيٌ شبَّ مغترباً لا تعرف شكل الرازقي حتى؛ رغم أنك بثقافة عراقية نادرة لا تشابه فيها أقرانك لربما أدركتَ أنه نوع معيّن من الزهور، وأنك حين تقرأ مثل هذه التفاصيل، فان ذلك لن يعدُ كونه نزقاً وطنياً مفاجئاً، لن تنَل منه الكثير من حس الفكاهة.

حين تختار أن تنعطف في شارع مدرستك القديمة ستجد هذه المدينة تحافظ على ذكرياتك بشكل مثير. ستجد سياج الجار اللطيف الذي يسكن في شارع مدرستك ما تزال فيه نفس الثَّلمة التي مررتَ بها كل يوم لسنوات، ثم تركتها لسنوات، لتعود فتجدها كما هي. فتُفكّر «هذا من لطف المدينة بنا! مدينة عصيّة على التطور اللافت وتطبع مشاهدها وذكرياتها على القلب، بل وتطوّقنا بها، فلا يعود هنالك من مفر».

تتذكر شكل الشارع كم كان واسعاً وضخماً حين كنتَ تطويه راكضاً لتلحق بالباص الذي على وشك أن يغادرك، بينما قدماك تغوصان في الثلج وتثقلان حركتك، وتوق روحك المتأهبة الحماسية. كم كنتَ تحمل من السنوات؟ أربعة عشر عاماً؟ قضيتَ نصفها الأول دون وعي؟ يحملك القلق على راحتيه مبكراً، لكن يحميك طيشك ونزقك من أن تَسكنَ إلى الشكوك والأوهام. ونضجك الحديث يبدو وكأنه يفسر لك أسرار روحك التي طالما أقلقتك، وها هو يجيب على تساؤلاتك الدائمة «كيف تُخلَق الأوطان فينا؟».

هذه الشوارع التي تحمل خطواتك الطفلة وصدى ضحكاتك التي ارتفعت في السماء ثم تلاشت في الأعالي. قصص عراكك مع أطفال المنطقة، وآثار «شَحطات» دراجتك الهوائية. هذي هي أوطانك الصغيرة أيها الغريب، ما دامت الحياة لم تهبك الوطن الحقيقي الذي تبغي، اغزلْ من ذكرياتك أوطاناً والتحف بها كلما داهمك صقيع الصدّ والغربة القارس، ففي النهاية وطنك هو الأشياء الصغيرة التي صنعت منك هذا الكائن المهجن الذي هو أنت. حتى نظرات الاستفهام التي تقابَل بها، هي جزء مما يشكل لك وطناً، لأنك ببساطة لم تعتد على نظرات مرحبة، ولا على تساؤلات لها إجابات حادة وقاطعة كالموس.

فوطنك مثلاً، هو الشعور الجميل الذي يحتويك وأنت تراقب زينة أعياد الميلاد التي لا تحتفل بها. وطنك هو لونك الغريب وعُقدة لسانك، صوت معلمة الابتدائية الشقراء الذي ما يزال يرنّ في أذنك، ذكريات بلوغك وافتتانك الأول. كل هذه الصغائر هي أوطانك وأكثر! وهو بالتأكيد حاجتك الدائمة للتفسير، بأن الوطن ليس اسماً بعينه بقدر ما هو شعورك العميق بالألفة. فاذا كنت تألف ساندويشة جبنة فاعتبرها وطنك اللحظي، ولا تخجل من هشاشة الفكرة.

امضِ.

* * *

العراق

عن بغداد، المعشوقة التي لم أعرف...

تأخذ الحكايات منحى سحرياً وجذاباً حين تقصها عليك جنية الحكايات الصغيرة. ذلك الكائن الذي بالكاد يُرى بالعين المجردة، مرفرفاً بجناحيه اللامعين، تطير الجنية بين صفحات الزمن لتجمع الحكايات والأساطير من عهود غابرة. بروحها التي لا تعرف الحدود، وقدرتها الفائقة على القص، تقف على كتفي لتهمس في أذني بأسطورة المدينة التي ولدتُ فيها.

فتبدأ الجنّية قصَّتها بصوت يشبه حفيف النخيل في الليل الهادئ، قائلة: «في قديم الزمان، في أرضٍ كانت تُنير السماء بمآذنها وأبراجها الذهبية، ولدت مدينة تُدعى بغداد، كانت أجمل من القمر، وسحرها لا يضاهيه سحر».

ولأنني كائن ناضج لا يعترف بمثل هذه التفاهات، ولا يصدق مثل هذه الخيالات، أهشُّها بطرف أصابعي، كما أهش ذبابة. فتطير بعيداً، ثم تعود بإصرار، لتمسك بطرف أذني بين أصابعها الرقيقة، كأنها تقرصني فلا أتوجع. فقط أنتبه. وأقرر تسليم أذني لها. فتهمس:

«في قلب الحكايات الغابرة، ثمة جميلة تدعى بغداد. مدورة مثل القمر، تنام في أحضان مارد عاشق يدعى دجلة.

كان رفيقاً صامداً، وشاهداً صموتاً على دهورٍ من الحكايات والأساطير، التي هُمِست في أذن معشوقته الأبدية.

ولكثرة عشاقها، وحسّادها، ومحاولاته الحثيثة صدِّهم عنها، تعب دجلة تعباً شديداً؛ ثم انزوى وحيداً واجماً، حتى جفت عروقه وغاضت أناملة المعطاء. ورغم أن الغواني يغرُّهن الثناءُ، إلا أن الجميلة كانت وفية لحبيبها، ولم تلق بالاً لمريديها وطُلّابها، وهي العالمة بنواياهم الجشعة، ونزعات قلوبهم الحرّى التي تعذبها الرغبة.

يشهد الحبُ الأسى والجفاء الذي دق إسفينَهُ بين العاشقَين. والرعدة التي أصابت قلبيهما من اقتحام خلوتهما الأزلية، بعد إلحاح المتسابقين لنيل الحبيبة. كلُ من سمع بشائعة الجفاء، قدم مجرباً حظه، عله ينال بعض الرضى، أو ربما كلّه.

البازارات التي كان ينادي فيها الناس على بضائعهم بألحان من قبيل: «يا بغداد، يا دجلة»، أصبحت الآن تردد موشحاً كئيباً بنغمات مغمومة. ويتجول فيها التجار القادمين من الأراضي البعيدة، ببضائع غالية الأثمان، سعياً لإغراء بغداد بالكنوز العجيبة والسحر الإفرنجي. لكن الحبيبة، الموالية لعشيقها النهري، ظلت صامدة، وقلبها يرتجف لحبها الخالد الذي يسري في عروقها مسرى الدم. أما دجلة، فبتدفقه الرحيم، تحمّل ثقل أعباء الفراق، ومساعي تطييب أوجاع غاليته. ثم هاج وماج لما تناهى لسمعه تكالب الطامعين بها، فدار حولها دورةً كاملة ليعيدها لأحضانه الثرّة. ولمّا كانت قصة حبهما محفورة في جوهر الأرض، لم يَطِب للحبيبة الدلال، وعادت من جديد لضمة محبوبها.

في نسيج قصتهما الرقيقة، ثمة ما يدعو للتأمل. النهر عاشق مخلص، والمدينة حبيبة متفردة، يتشابكان عبر العصور، وتُهمس قصتهما عبر الريح، في حفيف سعف النخيل، وفي تلاطم الأمواج التي ترتطم بحافات الضفاف. يتنقل الحبيبان معاً في تيارات الزمان، لينثرا هوىً يتجاوز حدود الوجود الأرضي، كأنما قد نُسِج في السماء».

لم يكن لبغداد في وجداني ذكريات كافية أتعكز عليها في نشأتي البعيدة عنها. وهكذا اتخذت أشكالاً سريالية في ضميري مرتبطة بماضيها الأسطوري، فكانت ترتسم لي كطيف لحكاية عشق خرافية، وعبق معتق لماضي ساحر لا ينكره الزمان، مهما حاول أن يلعب لعبة التجاهل. لكنني اخترتُ أن أولدَ في أشدِ وأقسى العصور على المدينة. في منطقة الأعظمية حيث سكن جدي وترعرع أبي. في بقعة عجائبية تتّحد فيها عناصر شتى لتشكّل تفاصيل بغداد الغنية بتنوعها.

على بعد أقل من خمسين متراً من بيت جدي يقع قصر شعشوع، مباشرة عند نهر دجلة. وفي الجانب الآخر منطقة شعبية تدعى «الكسرة». ما بين قصر سكن فيه ملكاً حكم العراق، ومنطقة مغرقة في شعبيتها، يقع بيت جدي الذي انتقل اليه في السبعينيات في شارع كان يوماً ما هادئاً، تسكنه أسر من الطبقة المتوسطة، متنوعة الخلفيات. وبهذا المزيج العجيب تركت بغداد آثارها على روحي، رغم شُح الذكريات، ورغم الاغتراب عنها، وبعد المسافات!

* * *

جدار في الرأس..

في السنوات التي قام فيها جدار برلين وعزل سكانها عن بعضهم، تكون لدى الألمان جدار ثقافي صاروا يدعونه بـ (Mauer im Kopf)، أي الجدار في الرأس، كناية عن الشرخ الثقافي الهائل الذي أحدثته العزلة، سيما ما أفرزته التبعيات السياسية للأيديولوجيات المختلفة والمتناطحة فيما بينها. سكان المانيا الشرقية، وبسبب تبعيتها الشيوعية، اعتادوا على عزلة مظلمة مقارنة بالنمو والانفتاح المتزايد في ذلك الحين للألمان الغربيين، والذين تميزوا بالغرور و«شوفة الحال» بالأخص على أبناء جلدتهم من المعزولين. استُخدمت في وقتها مفردات عامية مثل «الـ أوزي» و«الـ ڤيسي» (Ossi und Wessi) كألقاب للتنابز، وكانت في الغالب تحتوي على نوع من التعظيم «للڤيسي» أي الغربي، ومعايرة وتقليل من «الأوزي»، أي الشرقي. أما الأدبيات الشعبية لألمانيا الغربية، فاقترحت ذلك من خلال النكات والأقوال وحتى الأشعار. في المقابل، لم يجد الأوزي أمام غرور منافسه حلاً سوى التمسك بكل المظاهر التي يعيَّر بها سيما ما كان يعتبره الآخر تخلفاً، ربما في محاولة يائسة للمكابرة.

«هذا الخبز أيها الأوزي يدعى «توست» هل سبق أن عرفت التوست؟ وهذا «كورن فلكس» رقائق ذرة تضيف إليها الحليب الطازج. تذكَّر دائماً أن من الأفضل شرب الحليب طازجاً، ليس بالضرورة مباشرة من البقرة، ولكن احرص على ألّا يكون قديماً. مفهوم أيها الأوزي؟ أما هذه فقنينة كوكا كولا، وهو مشروب يدخل في فمك ليخرج من أنفك. تجربة لذيذة لم يقدّر لك أن تستمتع

بها من قبل. والمطعم الذي هناك، هو للوجبات السريعة الأمريكية، يا من اعتدت على أكل البطاطا المسلوقة منذ الحرب العالمية الثانية حيث توقف بك الزمن».

بخلاف المشتركات والفروقات وما يقربنا ويبعدنا، ما بين الغرور والتعصب والعنصرية، طالما أشعرني العراق ان من بداخله وخارجه لهم نفس ملامح تلك الحقبة الألمانية. أتخيل دائماً أن القيسي العراقي، ذلك الذي تربى في الخارج (في الغرب تحديداً)، إذا ما قدر له أن ينال بياناً سواء بلغته الأجنبية، أو بلغته العربية التي عادة ما تكون ركيكة، أتخيله يفصح عن نفسه على غرار الألماني بهذه الطريقة:

«هذا سوشي، سمك نيء مغلّف بفضلات البحر ورغم فكرته المثيرة للاشمئزاز، إلا أنه آخر تقليعة وصلت إليها عولمة الغذاء، يا من لم تكتب له الأقدار الإفلات من الجحيم المسمى بالعراق. لا تنظر إلي ملابسي البسيطة والمريحة هكذا وكأنك مشمئز! لم أعتد الألوان البرّاقة والبهرجة التي تحاول أن تتّميز من خلالها كي لا تغدو أنت وعجاجة ما حولك من غبار كتلة واحدة. وأنا لست تقليدياً تماماً، ولا أحاول ان أكون مبدعاً بطرق فجّة ومباشرة. لن أرتكب جريمة قتل على وقع أنغام «فيفالدي» في سمفونية «الفصول الأربعة»، مقطع الشتاء تحديداً، بل سأعتزم ارتكابها ربما بطريقة ربيعية أكثر، لأكونَ على قدرٍ مموهٍ من التميّز. ورغم أني كثيراً ما شعرتُ تجاهك بشفقة كتلك التي أشعر بها وأنا مختنق بالتعاطف، إلا أني أجد نفسي مجرداً من الحلول حين أدرك أن كل ما يعيقُكَ ويكبحك نابعٌ منك. أخلق لنفسي الأعذار المناسبة كي لا أشعر بالذنب أمام شوارعك المليئة بالقذارة وأنت تلقي بفضلات ما استهلكته من طعام من نوافذ السيارات. هل عليّ التعاطف مع عقلك الذي يملي عليك تلوثاً على جميع أصعدة حياتك؟ كل ما لدي من مظاهر للجمال لا تَعرفها، وقد يصعب عليّ أن اعرّفك بها، فذوقك يبدو لي تعيساً من اختيارك لمطربك المفضل، ذلك المصاب بتضخم في الحنجرة وبانشطار مكثف لحرف العين الطاغي في غنائه. ولستُ مسؤولاً عن ذوقك الذي صار بائساً، لن أظلمك بظني انه كان هكذا دوماً، فغالباً ما تبدأ الاشياء جميلة ثم تتحول إلى القبح، ونادراً ما يحدث العكس. يمكنك بهذه المناسبة، أن تقدم خدمة للبشرية، للإنسانية، لعالم الحيوان، لنفسك، بأن تقرأ كتاباً، تشاهد فيلماً، تحضر عرضاً، تزور متحفاً.. لا لا، ليس تلك الكتب التي تقرأها ولا تلك الأفلام التي تشاهدها، اخرج من قوقعتك وانح عنك كل ما دأبتَ عليه وخِرته.. وابدأ من جديد يا أخي.. ابدأ من جديد..».

على عكس نظيره الألماني الذي كان ليكتفي بصمت خجل ربما، وهو يقابِل التباين الثقافي الهائل بينه وبين خصمه، فإن الأوزي العراقي له صوت مجلجل، ووفق العقلية المحبة للجدل التي نشأ عليها، لعله سيرد مستخدماً بقائه في البلاد كحجَّة على وطنيته وعمق انتمائه، مقارنة بمن اختار الرحيل والفرار كحلّ. لعله سيقدّم تأريخه الحافل بالألم كشهادة له على حسن وطنيته. وربما سيستخدم سخريته اللاذعة:

«هذه لاَلَة. تُستخدم للإنارة ليلاً إذا ما انقطعت الكهرباء. هذه مبردة، نضع الماء هنا في مؤخرتها فتلفظ علينا بصاقها من مقدمتها، تنجح أحياناً مع حرنا القاتل. هذه صوندة. لا، لا نستخدمها بالطريقة التي تعرفها، بل... ربما سأريك كيفية استخدامها لاحقاً إذا ما أصررتَ على التفلسف و«الفستقة». أما هذه «فغدّارة»، وهي سلاح ناجع، كلنا هنا نتسلح، حتى إذا ما اضطررنا قتل بعضنا بعضاً. لا ترتعِد هكذا يا بزرة «النوتيلا» السائحة، فالموت أمر عاديٌ في هذه البقعة من الأرض، ويحدث بسلاسة. انظر إلى تلك الجَزرْة الوسطية، ليست تلك حيث يتكوَّم المتسول الصغير، بل تلك التي عليها بقايا عشبٍ أخضر. نعم! انظر وأخبرني كم هي جميلة! نحن نقدر الجمال ونكبره لأنه نادر، لا نمله كما اعتدته أنت حد البطر. أما ذلك اللون الأحمر البعيد الذي يخط السماء ساعة الغروب، فلون ألمنا الذي لن يحسن أمثالك معاشرته. منذ عقود وهو هناك، ويزداد قتامة كلما نزفنا أكثر. هذه الفوضى التي ترى هي حياتنا، حيث لا مكان لك فيها!

أما هذه فأغنيتي.. «خالي، ها، ها ها..».

العراق اليوم وبغداد تحديداً صارت تقتطعها حُدُر عديدة، لا تصنع منك اوزي وقيسي فقط! شرقياً أو غربياً. عراقياً خالصاً أو مهجَّناً. بل تصنع منك نسخاً عديدة مع كل جدار ينشأ في الرأس سواء كان طائفي، عِرقي أو ديني. منذ تحولت بوابات بغداد إلى «سيطرات» ومواقف تفتيش، عليها رجال سحنتهم تذكرك دائماً بالخوف مما تنطوي عليه ذاتك من قناعات، صرتَ تشعر أنك تدخل مدينة معزول بعضها عن بعضها ومقتطعة لكن بحُدُر غير مرئية.

برلين التي بُني جدارها الصلد في العام 1961 يبدو أنها هنا، لكن فوضاها أكبر، وما أن تتجرأ على عبور الجدار الحجري فسوف تسقط برصاص حراسه. غير أنك هذه المرة لن تجسر حتى على عبور الجدر الوهمية التي في رأسك خوفاً من أن تسقط برصاص طائفتك، مذهبك، قوميتك أو حتى أحكامك المسبقة.

* * *

لسنوات طويلة حملتُ العراق في رأسي كأنه حائط مبكى، تتحطم عنده كل الأحكام والقناعات المسبقة عن الأوطان.

تَمَثّل الوطن مثل كتلة كونكريت صلبة لا يمكن تفكيكها إلى خواطر صغيرة، أستمرئها على مهل وبروية. فكل ما يخص العراق تحديداً كنتُ بحاجة لتعلمه، بحاجة لاكتسابه، ولم يأت على نحو تلقائي أو اعتيادي.

حتى الكلام، بدا لي أنني أتعلم فهمه من جديد. تُرَص الكلمات أمامي فتبدو لي معقولة، لكنني لم أكن أفهم ما يُراد لي أن أفهمه بالفعل! مثل هذه الأدوات اليومية كان عليّ استقبالها من جديد في العراق. حتى اليوم، وعلى سبيل المثال، يصعب عليّ أحياناً، إدراك حس الفكاهة العراقي، وكثيراً ما تطايرت النكات من فوق رأسي دون القدرة على التقاط معانيها ومقاصدها، ومتى ما تم تفسيرها، كانت تتبخر بسرعة. فكيف باللّه تُترجم وتفسَّر النكات؟

ثمة هوة ثقافية كبيرة بيني وبين الوطن المغيَّب، الذي لم أجد إليه سبيلاً في طفولتي. كان العراق معزولاً عن العالم بأسره، ولم أكن أملك أدوات حادة من أي نوع لاقتحامه، والتعرف عليه بالقوة. إلا اللهم بضع أشعار وحكايات من هنا وهناك، ومما أسمعه من

انطباعات أهلي وبعض الأصدقاء. في مراهقتي، وقع في يدي مرة كتاب لحكايات منوعة عن بغداد في الثلاثينيات والأربعينيات، عددته في حينها كنزاً، رغم بساطة القصص مقارنة بالنوعية التي كنتُ أقرأ. لكنها رسمت رؤية ساحرة لسردية بغداد القديمة، وطبيعة الناس فيها في ذلك الحين. عدا ذلك، فقد بقي العراق لسنوات، لغزي الخاص الذي أحاول تفكيكه أحجية بعد أخرى؛ وكلما اقتربت منه أكثر، زاد تعقيداً وتعسراً.

* * *

في هذه الأيام، وبينما أعمل على هذا الكتاب، أكون قد أمضيت ثلاثة أعوام في هذا البيت في مدينة أربيل، في كردستان العراق، حيث قذفت بي الدنيا، في مفاجأة لم أكن لأتوقعها أو أعد نفسي لها. كان يفترض أن أبقى لسنة واحدة، بحسب ما قدّرناه، أنا وزوجي، عندما انتقلنا إلى هذه المدينة الخامدة لغرض بعض الأعمال الخاصة التي تطلبت تواجداً في العراق؛ فتركنا بيتنا في منطقة «مردف» في مدينة دبي، وانتقلنا على أمل العودة بعد عدد من الشهور. طالت المدة وعبرت العام بسرعة فائقة، من بعدها، استقبلنا أزمة «كوفيد 19»، التي حجرتنا في البيت وأقعدتنا عن العمل، وبالتالي باتت العودة إلى دبي مسألة صعبة. هكذا، قضيتُ ثلاث سنوات شبه متواصلة في العراق، للمرة الأولى مذ غادرته طفلة، لكني ما زلتُ أشعر بالغربة! بل أشعر بها عميقاً في داخلي، كأني غير منتمية بالمرة للمكان وللبشر ولكل ما يحيط بي. ولعل هذا الإحساس نابع من كوني في كردستان مثلاً، بدل أن أكون في بغداد، حيث أهلي ومسقط رأسي. وهل يكمن إحساس الاغتراب في مثل هذه التفاصيل؟! لستُ متأكدة. فبغداد باتت على مرمى حجر مني، وزرتها عدداً من المرات التي لم تعني على خلق الرابط المثالي للشعور بالوطن!

حياتي هادئة وغير مزدحمة في أربيل، ولا تختلف كثيراً في ايقاعها عن تلك التي كنتُ أحياها في دبي، بالرغم من كل مظاهر الترف والمتعة التي توفرها تلك المدينة الخليجية التي باتت تتحول شيئاً فشيئاً لواحدة من المدن الكونية على نحو مطّرد ومتسارع. فأنا بيتوتية بطبعي، وأميل للعزلة حيث أقضي معظم وقتي في القراءة أو الكتابة، والاهتمام بشؤون المنزل وغيرها من النشاطات الاعتيادية. وعلى الرغم من الأحداث المتصاعدة في باقي مدن العراق ولا سيما منذ بداية خريف 2019، إلا أن أربيل هادئة كلياً، كأنها غير منتمية بالمرة لبلد تضج عاصمته ومدنه الكبيرة بثورة عارمة. فتبدو المدينة مطمئنّة وساكنة كأنها تقع ضمن حدود دولة أخرى، ولا يعنيها ما يحدث في باقي البلاد من قريب أو بعيد.

في حقيقة الأمر، لم أشعر أني في العراق فعلياً، منذ انتقلت إلى أربيل. فالطبيعة والأجواء والناس واللغة والثقافة كلها مختلفة عمّا أعرفه عن العراق. حتى لغتي الكردية لا تعينني كثيراً هنا، فهم يتحدثون بلهجات ولكنات كردية لم يسبق لي أن عرفتها؛ بعضها يصعب عليّ فهمه، وبعضها الآخر أفهمه جيداً لولا أنني اخترتُ بعد وقت قصير من إقامتي في كردستان ألّا أرد بالكردية. فلهجتي الفيلية تشي بتلك اللمحة الفارسية في اللكنة، والتي اكتشفتُ سريعاً أن بعضهم يستصعبها أو يستغربها، بينما يتضايق بعضهم الآخر منها لأسباب لا يهمني تتبعها. وبعد أكثر من موقف مزعج، قررتُ التغابي أثناء التعاطي مع الغرباء، فأبدو لهم كأنني عربية بحتة، ولا أفهم الكردية مطلقاً.

كنتُ قد تعودت مثل هذه الحيل الثقافية التي أركن إليها في الدول الاسكندنافية أحياناً، إذا ما لمحتُ بائعاً حانقاً، أو وددتُ طرح استفسار عن وجهة القطار وليس بجانبي سوى أربعيني دنماركي، لا يحبذ النقر على فقاعة عزلته خصوصاً من امرأة ذات ملامح دخيلة، فأختار حينها التحدث بالإنكليزية بدل الدنماركية مثلاً. وكنتُ ألاحظ مباشرة، تغيراً في الأسلوب الذي سيصبح أكثر ترحيباً ورغبة بالمساعدة منه لو أنني تحدثتُ بالدنماركية؛ فحديثي بها يفترض كوني لاجئة دخيلة مهما كانت لغتي سليمة ولكنتي صميمة، بينما حين أتكلم بالإنكليزية فسأبدو كسائحة ربما، أو طالبة متمرنة مثلاً، وستضفي عليّ الإنكليزية لمحة حيادية، كما ستفترض فيّ العبور لا البقاء؛ وشتان ههنا ما بين الدخيل الباقي، والمستكشف الرحّالة!

لا بد لي الآن استذكار ذلك المسنّ السويدي الذي استأجرت منه غرفة في فندقه الريفي في أثناء الطريق ما بين غوتنبرغ وأوسلو، والذي رفض إتمام الإجراءات إذا لم أغير حديثي معه من الدنماركية إلى الإنكليزية. إذ على الرغم من إنكليزيته المتواضعة، تجاهل العجوز الامتياز الذي منحته إياه بالحديث بلغته الأم مع سائحة عابرة تقطع طريقاً طويلاً وقد استسلمت للتعب، وهي بحاجة لمأوى بعد أن غابت الشمس وباتت الغابات المحيطة موحشة ومعتمة، ليس إلا!

غير أن الرجل رفض بإصرار عجيب قائلاً بالسويدية: «لا، لا دنماركية هنا!». فقررتُ بعناد بعد هذه الحادثة، أن أتحدث الدنماركية في كل مكان أدخله في ستوكهولم ونواحيها من المدن السويدية، ربما كنوع من التعنت، لكن أيضاً كنوع من الانتخاب، وتحديد الاختيار بدل أن يكون فرضاً وواجباً يمليه عليّ الآخر؛ وبعد أن أكرَهني المسنّ على إلقاء لغتي خلف ظهري والاستعانة بلغة جرمانية أخرى، متجاوزاً مُرادي وواقع الحال الذي يؤكد بأن الدنماركية أقرب بكثير للسويدية من الإنكليزية!

أتذكر أيضاً بيروت التي فضلتُ الحديث فيها بالإنكليزية مع البائعين وعمال الفنادق، لا سيما في «شارع الحمرا» حيث سكنتُ في فندق لشهر تقريباً، وكنتُ أحياناً أحتاج لبعض المشتريات التي كنت أذهب لابتياعها، فلاحظتُ أن البقال يبدو فظّاً معي. ولأنني في حينها كنتُ حساسة جداً تجاه التكهنات والأحكام التي يفترضها الناس فيّ، فقد شككتُ في كونه يتضايق مني لكوني، وقبل أكثر من عشرة أعوام، كنت محجبة الرأس. ربما يكون الرجل مسيحياً أو درزياً ولا يرغب في التعامل مع المسلمين على أغلب الظن! هكذا فكرت، وقد أكون مخطئة. لكني من يومها قررتُ التعاطي مع البيروتيين باللغة الإنكليزية بدل لهجتي العراقية الخجولة، التي كانت ذات لكنة مميزة وغير أصيلة كلياً، فلا تجد الناس يحسنون تقدير بلدي الأصلي، ويستمرون بطرح أسئلة عن أصلي ومنشأي. أسئلة كنتُ في حينها أعتبرها شخصية ولم يكن بي رغبة للرد.

وبعيداً عن الهزل واحساس المرح الذي يعتمل في داخلي وأنا أمارس هذه الألاعيب اللغوية، فإنني أتساءل أحياناً لماذا لا تعينني اللغة التي أتقنها في تصريف أموري المعتادة في الأماكن التي تنشط فيها هذه اللغات فعلياً؟ وما الحاجة للّغة أياً كانت، وهي مثبّتة كما هي بكل ثقلها الوجودي الراسخ في الكيان والوجدان، إذا لم تكن معينة في الأمور والمواقف الحياتية البسيطة؟! ما فائدتها وأنا أتخلى عنها بتواضع قسري، لصالح أخرى أكثر حيادية وتأقلماً؟! ثم ألا أثبّت قيَم العولمة بهذا التصرف، وأنا أسمح للّغات المميزة والفريدة بالتراجع لصالح لغة العالم الأوحد؟ لغة الامبريالية والسيطرة والنفوذ، تلك التي من ضمن خططها ابتلاع هذا العالم بأكمله في جوفها السمين؟!

مع تقدم السن وبعض النضج الذي لا بأس به، بتُ أعاني من وخزة ضمير تشير إلى وازع أخلاقي يبين أني يجب أن أتحدث إلى الناس باللغة المشتركة بيننا، لا أن أدعي أمراً ليس فيّ! لكن في كردستان، تأخذ الأمور منحىً سياسياً واجتماعياً مختلفاً بعض الشيء، إذا ما شك الشخص المقابل أن محدثه من جنسية لا يحبذها مثلاً، فبتُ أفضل الركون إلى التغافل، وإغلاق أدراج اللغات واللهجات الفريدة تلك، التي تُفتح في رأسي، لصالح اللغات الأكثر انتشاراً ولا سيما حياداً، بحسب المكان، والزمان، والمحدِّث وغاياته.

* * *

إنه شهر نوفمبر من العام 2019. العراق تجتاحه مظاهرات عارمة منذ مطلع شهر أكتوبر، وستُعرف هذه الانتفاضة فيما بعد باسم «تشرين». أفتح الفيس بوك، نافذتي على العالم، بحذر في هذه الأيام، كي لا تباغتني صورة لشهيد. قلبي لا يحتمل كل هذا الوجع. قلبي الترف الذي ما عرف الدنيا وما فطن، لا يقوى على تحمل صور الشهداء والمختَطفين والمغيبين التي تملأ «التايم لاين»، والتي ستتبعها بعد ساعات قليلة صور أيتامهم وأهليهم الذين يخلفونهم وراءهم نهباً للفقد، وللبؤس المتوارث. لا أحتمل إطالة النظر لتلك الصورة التي تظهر فيها طفلة في الثالثة أو أقل مبتسمة أمام لافتة نعي أبيها، الذي فقد حياته لسبب تافه كأن يكون لرأيه المختلف! رأيه المجَرد الذي يرعب تجار الحروب الطائفية، وصوته الذي علا أكثر مما تقره المساحات المتباينة للحريات المزعومة.

خرج العراقيون إلى الساحات والشوارع طلباً للعيش في بلد يسوده القانون، بدل فوضى الميليشيات والأحزاب. يطالبون بخدمات أساسية كالماء والكهرباء والصرف الصحي وغيرها. هذه المظاهرات التي بدأت عفوية وصادقة، قُمعت من الجهات كلها. قمعتهم السلطة والأحزاب وميليشيات تابعة لدول الجوار، وحاولت جهات عدة إفراغ المظاهرات من محتواها بتسفيهها، والركوب على ظهور المتظاهرين لنيل مكاسب سياسية. تنوعت التوجهات، مليشيات مسلحة تقتل باسم الرب والدين، إسلاميون، علمانيون، إعلاميون، بقايا حزب البعث، نشطاء ممرنون ولهم أجندات خاصة. الخ. كلهم حاولوا اقتسام كعكة المظاهرات على حساب الشباب ودمائهم. ثم واجهت المتظاهرين خلال الأشهر القليلة التي اعقبت انتفاضتهم حملات منظمة يقودها مرتزقة المنصات الالكترونية وأخرى إعلامية لتشويههم. وكان الرد على مطالبهم بالاختطاف والترهيب والقتل. قُتل الناشط المدني، والمصور، والإعلامي، والثائر، والشاعر. قُتل الشاب والمراهق والعجوز. قتلت الفتيات الشابات من المضمدات المتبرعات بتطبيب الجرحى.

يتفرج العالم ولا يأبه، يحتفل بالسنة الجديدة بتفاؤلٍ عجيب، سنة 2020! يعدّ الأرقام عكسياً ويطلق المفرقعات فدخول سنة جديدة ستوجع الكرة الأرضية وتشل حركتها تماماً، حدث يستحق الاحتفال. ثم إن أخبار الموت في العراق باتت مع الوقت معتادة، حد أن صارت مملة ولا تستحق التداول، والدم الجديد أغلى من ذاك القديم، فكلما قدم الدم صار رخيصاً وكاسداً، ولا يعين وسائل الإعلام والتواصل على ابقاء جذوة الإثارة حية ونشيطة.

يسألني الفيس بوك عمّا يجول في خاطري، ولا يسألني عن الحقائق أو الأرقام، لا يسألني عن الثوابت أو المنطق السليم. يسألني عما يجول في خاطري المنشغل بفك خيوط التعقيدات التي تتركني حائرة، فلا أكاد أميز الفكرة التي تنبثق في رأسي من تلقاء نفسها، من تلك التي تحاول الأيديولوجيات المتنافرة والمتقاتلة حشرها في رأسي عنوة. أتأكد من الإشعارات التافهة بسرعة قبل أن يبتلعني «التايم لاين»، وتحاصرني صور الشهداء وأطفالهم، أو دموع أمهاتهم التي وثقتها وخلدتها الصور وأفلام الهاتف القصيرة. أقفل الفيس بوك ثم أطلق أنفاسي الحبيسة. أحاول أن أمرّن نفسي على التناسي أو حتى التغاضي. أنظر إلى طفلي الذي يلعب ببراءة متخيلاً ديناصورات أليفة يستقبلها على الأريكة في صالة منزلنا ويقاسمها الطعام، مجدِّداً معها صداقة لم تكن متينة. قلبي ترهقه آلام الشفقة والحيرة، وربما الهوان، لكوني أتمتع بامتياز اغتراب جسدي وروحي وثقافتي عن أصلي. من أين أتاني هذا الاستحقاق؟! أليس من المفترض أن أقاسم الناس أوجاعهم ومصائبهم؟ هل تراني أمتاز بكوني مجرد كائن محاط بالامتيازات حيث التفت، كائناً متخماً بالملل والروتين والهدوء والفراغ؟ مترفة ثقافياً، خاوية روحياً، باردة كما ينعتني العراقي الذي يكتشف بعد حين أنني مشطورة بين الشرق والغرب فيحيل برودي المستنتَج إلى الغرب مباشرة. «انها باردة، جامدة يستحيل أن يلامس الدفء قلبها مثلنا»، هكذا يقولون وهكذا أترجم نظراتهم نحوي. «هذه التي تظن نفسها عراقية أجزم بأنها لا تعرف رائحة التراب الذي يبلله المطر. لم تأكل الباقلاء المسلوقة والمرشوشة «بالبطنج» من على عربة في «شارع الكفاح». لم تجلس فوق دكة لتغتسل في ماء كانت قد سخنته مسبقاً، في قدر لأن الماء الساخن غير متوفر في صقيع الشتاء. لا تطاردها ذكريات الطفولة المختنقة بالحصار والعوز. لم تأكل «النستلة» المصنوعة من التمر متخيلة أنها نوع من الشوكولاتة. لا تعرف البرامج التي كان يبثها تلفزيون الشباب في التسعينيات ولذا فان وجدانها لم يصبَّ في القالب ذاته الذي صُبِبنا فيه. لا تحبذ صوت هيثم يوسف المختنق وهو يغني «بس انت وحدك ليا، تغمرني بالحنية»، لأن ذاكرتها غير مرتبطة طردياً مع كلمات الأغنية ولحنها، ولا تستعيد معها أوقاتاً تثير فيها الحنين والشجن. لم يكد يصبها انهيار عصبي، لأن قناة التلفاز قطعت لعبة مباشرة ومهمة للمنتخب الوطني، لنقل اجتماع صدام حسين بأعضاء مجلس قيادة الثورة. الخ..».

حقيقة لا أستّثار من هذه الادعاءات والتوصيفات، ولا تعنيني نظرتهم كثيراً. لا أشعر بالنقص من محاولاتهم الجادة تذكيري بالجزء المبتور من هيكلي العراقي المعلول أصلاً. أترك كل هذا الهراء خلف ظهري وأعاود طرح السؤال على نفسي مجدداً، هل تراني أتمتع بامتياز أنى لم أتربَّ فوق أرض اسمها العراق؟ ولو أنني بقيت، فبأي أفكار أو تجارب كنتُ سأنشأ؟ كيف كانت شخصيتي لتكون؟ مثل هذه الأسئلة وغيرها الكثير، حاولت البحث عن إجاباتها من خلال غيري، من خلال أقراني، وبعض أصدقائي الذين ولدوا وعاشوا في العراق، وخبروا تحولاته، ومآسيه عن كثب. ردود أفعالهم، انطباعاتهم، وتجاربهم التي تبدو وكأنها تخصهم وحدهم، إلا أني أشعر بتواصل خفيّ بيني وبينهم. تواصل عاطفي، يكاد يكون تقمصاً. حين يحكي لي أحدهم عن تجربة مع انفجار سيارة مفخخة على سبيل المثال، أسمع الدوي قوياً في أذني، وأشم رائحة البارود والنيران، وأشعر بالهلع، وبالقلق، وبالضياع، وبالتحير الذي يصيب الناجي من الموت، وبإحساسه العميق بالذنب لأنه نجى!

هل ما أشهده واقع حقاً؟ أم هو الموت متنكر على شكل حياة متواصلة؟!

* * *

السردية السابعة

علاء قحطان.. مسرح الوجوه ذات الألف قناع

كان عليها أن تقضي حاجتها في علبة من الصفيح الصدئ، شديدة القذارة، بينما السجّان في الخارج، يروح ويجيء، وهي تراه من خلال القضبان، وتحاول قدر استطاعتها أن تختبئ عنه. تحشر نفسها في زاوية من الزنزانة القذرة تلك. تقرفص على العلبة الحديدية، مراقبة الفتحات بين القضبان. السجان يروح ويجيء. يمر الضابط الخفر. ينظر إليها ثم يبصق على الأرض قبل أن يقول ساخراً: «ــ قحبة».

* * *

تبدأ الحكايات هكذا. تبدأ بالتعريف المجرد، أنا علاء قحطان صغيّر، من مواليد بغداد في يناير من العام 1984. خريج المعهد العالي للفنون المسرحية، وطالب دكتوراه فرع الإخراج المسرحي. وأعمل ممثلاً ومخرجاً مسرحياً، حيث قدمتُ عروضاً بين العراق وتونس وعدد من الدول العربية والأجنبية.

نشأتُ في أسرة عراقية متوسطة، لوالد مسرحي يساري النزعة، وأم رسامة رقيقة وجميلة من منطقة الكاظمية. أسرة والدي تعتبر بسيطة ومعتدلة في توجهاتها، فهي ليست متشددة دينياً ولا سياسياً، ومثلها مثل غالبية الأسر العراقية في الثمانينات تنتهج سياسة النأي بالذات، في ظل حكم دكتاتوري بشع، حيث أن الغالبية العظمى من الشعب كانت تعيش رعباً حقيقياً يجعلها تبتعد عن التدخل في السياسة، بغية الحفاظ على السلامة.

إلا أن والدي وبحكم دراسته في كلية الفنون الجميلة، انضم لفرقة في المسرح العراقي ينشط فيها عدد من المسرحيين الذين كان أغلبهم في ذلك الحين من اليساريين والشيوعيين، فحدث أن تأثر بهم، ولعله انخرط في الانتماء بطريقة أو بأخرى ضمن حركات سياسية يسارية التوجه والفكر. ومن هنا حلّت الكارثة. كارثة من الكوارث التي أصابت أسر كثيرة في العراق في ذلك الحين، إذا ما شاء أحد أفرادها أن يفكر خارج القوالب المعدة والمسموح بها.

قدم والدي، وهو فنان عراقي معروف اسمه «قحطان صغيّر [42]»، أعمالاً فنية من مسرحيات ومسلسلات، مرت في بادئ الأمر بسلام، حتى أقدم على تجربة مسرحية لعمل يدعى «المهندس المعماري وامبراطور آشور»، لكاتب اسباني هو» فرناندو أرابال»، وعُرض العمل في منتدى المسرح آنذاك في منتصف الثمانينات. لم تكن المسرحية تشير بشكل مباشر لرأس النظام، لأنها أساساً كانت ذات ترميز عالٍ، وبالعادة فان هذا النوع من الترميز لا يفهمه الساسة الفاشيون الذين يتمتعون بتبلد استثنائي، لا سيما في مواجهة الفنون والآداب. إلا أن الواشي كان فناناً، وزميلاً لوالدي ورفاقه؛ شخص يتعامل مع أجهزة الدولة بكتابة التقارير عن أي عروض تثير ولو القليل من الشكوك، في كونها تنوّه بالضد من سياسة البعث، أو حتى تلقي بالتلميحات على شخص الرئيس ونظامه. ويبدو أن عرض «المهندس المعماري وامبراطور آشور»، قد أثار حفيظة هؤلاء الوشاة من المسرحيين، كَتبة التقارير.

بحكم فورة الشباب والآراء، والانطباعات المحتدمة والمتأججة حينها، وبحكم الأجواء اليسارية التي تواجد فيها والدي في الكلية وبين رفاقه، فانه ودون أن يعلم، كان قد وضعت عليه علامات استفهام وإشارات عدة، تفيد بأن هذا الشاب لديه الجرأة على الثرثرة وانتقاد النظام في الجلسات الخاصة والعامة أحياناً. هذا بالإضافة لميوله اليسارية التي لم تكن خفية، فجاء عرض المسرحية المذكورة كنوع من التأكيد على كل ما أشيع حوله، وإثباتاً لحقيقة ما أشيع من كونه بالضد من توجهات النظام الحاكم، بما لا يدع مجالاً للشك. وسرعان ما تحول والدي لكبش فداء لتلك المجموعة من المسرحيين، فقد غادر مخرج العمل العراق مباشرة ما إن بدأت التحقيقات في الموضوع، كما غادرت أسماء أخرى من تلك التي شاركت في العرض، وانسحبت غيرها تماماً عن المشهد الفني والثقافي لتعتزل رغبة بالتخفي. فكان والدي الوحيد من بين فريق العمل، الذي سحب إلى التحقيق، سيما وأنه يعتبر ذا سوابق في الانتقاد والتلميح، وثمة تقارير عدة قدمت ضده مسبقاً أشارت لذلك، فتم اعتقاله من المسرح اثناء تأدية بعض البروفات. اعتقل سحلاً وبطريقة مهينة أمام الجميع، ومن بعدها اختفى دون أن يُعرف له طريق. في أي سجن أو معتقل غيبوه يا ترى؟! لم نكن لندري.

بعد عدد من الشهور، وصلت لوالدتي معلومة منقوصة عن طريق أحد الفنانين بأنه معتقل في «الشعبة الخامسة[43]». أمي التي كانت شابة مرهفة حينها، قضت أياماً صعبة في محاولات للبحث عن والدي، ومن ثم حين شكّت في وجوده في الشعبة الخامسة، صَعُبت المهمة أكثر، فتوسطت لدى وجهاء الكاظمية وغيرهم ممن في وسعه مد يد العون، وذلك كي تتأكد من سلامة الوالد أياً كان مكانه أو وضعه. أخيراً، حين سُمح لها بالتوجه إلى الشعبة الخامسة بغية لقائه، أخذتني معها، وكنتُ طفلها الوحيد آنذاك ولصيقاً بها، تقريباً في الثالثة من عمري. قبل أن يأتوا به، أخبروها أنهم سيسمحون لها بخمس دقائق فقط للقاء، لكنهم سحبوه من أمامها بقسوة بعد دقيقة واحدة، فانهارت بالصراخ في لحظة عاطفية استبدَّت بها، تفوهت بكلام لم يغفروه لها. رد أحدهم مستهتراً:

ــ «تريدين زوجج، دتعالي يمه»!

قذفوها في زنزانة صغيرة وقذرة. كنتُ قد تشبثتُ بها، فسحبوني معها وأودِعنا معاً في ذات المكان. لا أذكر الكثير من التفاصيل عن السجن وأذاه، لكنني أتذكر تماماً بأنه كان قذراً جدّاً، حتى أنني وبعد أن أفرج عنا، لبثت لفترة طويلة أتعالج من أمراض جلدية، منها الجرب والأكزيما. تتذكر أمي المعاناة الرهيبة وأنواع العنف الذي تعرضَت له حتى الآن. عنف جسدي ولفظي من قبل الضباط والسجانين، وإساءات مخلة تنال من أنوثتها وشرفها، دون أن تجرؤ على الرد أو الدفاع عن نفسها.

أما والدي فقد تعرض خلال هذه الفترة لتعذيب جسدي مريع، وتحقيقات استمرت طيلة الأشهر التي قضاها معتقلاً. كما أمطروه بأسئلة عن خليّته ورفاقه ونشاطه السياسي إن وجد، أسئلة من قبيل، هل أنت شيوعيّ؟ هل أنت ضد البعث والسيّد القائد؟ الخ. رغم أنه لم يكن ناشطاً فعلياً، بقدر ما كان كفاحه ضدهم معنوياً، ومن الصعب أن يترجم على أرض الواقع، بحكم الضغوطات

والظروف. مجرد شعور يحمله في قلبه، أو فكرة تنشأ في الرأس، لم تطبق، إلا أنها ومهما كانت مجردة، فلن تُغتفر! لأن الفكرة لدى هؤلاء هي كائن عضوي قابل للنمو والتكاثر، ومتى ما ولدت فهي مهدِّدة وخطرة، وقابلة لأن تشهر في وجوههم أسلحة ترهبهم وتتوعد بهلاكهم!

وفي مكان كهذا، يتفنن السجانون بنزع كرامة وإنسانية ضحاياهم؛ كانوا يتعمدون أشد أنواع الإهانات إيلاماً للروح قبل الجسد، مثل علبة الصفيح المهترئة والقذرة التي كانت تُستخدم للفضلات البشرية، دون توفر أي وسيلة للتنظيف. وان كان الأمر صعباً على الرجال، فان صعوبته مضاعفة على النساء. أما الأكثر تعاسة وقرفاً، هو أنها كانت مكشوفة للسجانين والضباط في أثناء هذه العملية. فكان بوسع إيٍ منهم أن يراها عبر القضبان في أثناء مرواحهم ومجيئهم، سواء رضيت أم لم تفعل، فان ذلك جزءٌ من التعذيب الذي كان يمارَس بشراسة تارة، وبتأنٍ وتروٍّ تارة أخرى.

تلك كانت مرحلة الهدم الأول الذي منيت به عائلتنا، حتى تم الافراج عن والدي، ربما لأن ما من تهمة فعلية ثبتت عليه، وبعد أن أتت التزكية من الشاعر العراقي المعروف يوسف الصائغ [44]، والذي شغل في حينها منصب مدير عام لدائرة السينما والمسرح، والذي تمتع بشيء من السلطة في حينها، وبكثير من الاحترام في الوسط الثقافي، بالإضافة للوسط الأمني والمنظومة الأمنية آنذاك باعتباره موظفاً في الدولة. فتمت أخيراً الموافقة على الافراج عن أبي، بعد توقيع عهود وضمانات بعدم ممارسة أي نشاط فكري أو سياسي.

* * *

لم يكن والدي مناصراً لفكرة دخولي الفن، رغم أنني اشتركتُ للمرة الأولى في حياتي كممثل في فلم سينمائي، وأنا بعدُ في التاسعة من عمري فقط. وكان من الطبيعي أن أتأثر بهذه الأجواء كما تأثرتُ به حيث كنتُ أرافقه في حله وترحاله، ولصيقاً به، بما أنني ولده الوحيد، والبكر الذي لحقته ثلاث أخوات، كلهن غير معنيات بالفن.

بهذه الطريقة تولَّد الشغف في داخلي صغيراً. وبعد أن انهيتُ دراستي المتوسطة، أخبرتُ والدي برغبتي الدخول لمعهد الفنون المسرحية، فقوبلت برفض بارد وقاس، من دون نقاش. لكنني تجاوزتُه مصراً على حلمي، وطلبتُ العون من صديقه، وهو ممثل عراقي كبير يدعى «عبد الخالق المختار»[45]، الذي ذلل لي الطريق لدخول المعهد، حيث درست لعامين، من دون أن يعرف والدي أو أحد من الأسرة الذين ظنوا بأني أتابع دراستي الاعتيادية في الثانوية. حتى كانت تلك اللحظة العظيمة التي لن انسها ما حييت. كنتُ قد عملت على أول عرض مسرحي في حياتي، في عمل قصير من عشرين دقيقة تقريباً، وتفاجأتُ بحصولي على الجائزة الذهبية كأفضل مخرج شاب، في مهرجان مسرحي، كان قد عنون باسم المسرحي الرائد «حقي الشبلي»[46]. وحين أعلنوا عن اسمي في المهرجان، ومن شدة سعادتي بالجائزة لكونها الأولى لي في حياتي المهنية، قفزتُ على خشبة المسرح هاتفاً بفرح، لأتفاجأ بوالدي جالساً في الصفوف الأولى. كانت مفاجأة، تلتها صدمة، حين رأيته يقف ويصفق بحرارة. لحظة لن أنساها أبداً وما تزال حاضرة في وجداني إلى اليوم. منذ ذلك الحين، بات الداعم الأول لي في مشواري عبر السنوات، مذ تخرجتُ من المعهد ومن بعدها الكلية، ثم نلتُ الماجستير. وبعد أكثر من تسع تجارب مسرحية و38 جائزة عربية وعالمية، وعبر هذه المحطات كلها، كان والدي المشجع الذي لم ينفك يشد من أزري. في لحظات داعمة كتلك اللحظة التي وقف فيها مصفقاً لي، بالرغم من كوني خالفته وكذبت بشأن الدراسة.

لم يكن رفض والدي نابعاً من رغبته في التحكم أو التسلط المجرد، وأنا بعدُ مراهق في ذلك الحين، بل كان خوفاً من الطريق الشاق الذي سأصادفه لا محالة، في بلد يضع كل من يمر تحت الاضواء محل استفهام وملاحقة. لعله كان يرى اندفاعي الشديد، وجموح المرحلة الذي بوسعه ان يودي بي إلى التهلكة، فشعر بالرعب! ولعله ظن أن المسالك الأخرى، كالكليات العلمية والإنسانية، أقل تعقيداً وأكثر سلامة. فطريق الفن والثقافة، يعني أنني بالضرورة سوف أعرف ما لا يفترض بي أن أعرفه، أما المسالك الاعتيادية فلعلها ستفتَرض أن أعيش حياة أهنأ بقليل من حياته هو. إذ لا بد في وسط كالوسط الذي نحن فيه، أن تكون صديقاً للجميع ومسايساً للعموم، ولعلك ستضطر لمصافحة دكتاتور في السلطة، أو للتبسم في وجه كاتب التقارير، متجاوزاً رغماً عنك وشاياته وتنكيله بك. ربما ود والدي، أن يجنّبني الإهانات التي تعرض لها في حياته الفنية التي اتصفت بالتعقيد، إثر تزامنها مع حروب الدكتاتورية، والأوضاع الصعبة، ثم ماضيه هو بذاته كمعتقل سابق، سيجعل الأنظار تنتبه لي باعتباري ابنه، وأظنه أراد أن يجنبني كل هذا. هذه «الوصمة»، السياسية والمعنوية التي ستبقى تلاحق كل من سولت له نفسه معارضة النظام ولو بالروح والوجدان! إلى أين يود الفنان أن يذهب بفنه في ظل سلطة رقيب كهذه، وهو محدود ومقيد، لا يُسمح لخياله بالجموح أكثر مما تتيح له السلطة أن يفعل؟! كل هذه التخوفات كانت أسباباً مباشرة وخفية في الوقت ذاته، لرفضه بادئاً عملي في الحقل الفني.

* * *

كنتُ شاهداً على تناقص أصدقاء والدي، وابتعاد الغالبية من الفنانين من زملائه عنه. كان أمراً مؤلماً أن أراه وحيداً على الدوام، لكنه بالرغم من ذلك يعتبر أمراً معقولاً، بل ومغفوراً، بالنسبة لمن يخاف على حياته وسمعته التي يكتسبها بالتملق للنظام، أو حتى بالمسايرة والابتعاد عن المشاكل. كانت أسماء بعض الفنانين من كَتبة التقارير، مرعبة في وقتها، فيُتداول بين الأوساط الثقافية والفنية، على سبيل المثال، أن التقرير الذي يكتبه فلان الفلاني «يذبح»؛ أي بمعنى أن تقريره بإمكانه أن يودي إلى الإعدام والتصفية بسهولة. إحدى الفنانات الشهيرات، كانت معروفة بإرعابها الجميع بتقاريرها، وقد خلقت لنفسها مكانة مقربة لدى النظام باعتبارها عينه التي لا تنام بين الفنانين. في إحدى الأيام دخلت إلى كافيتريا مسرح الرشيد، فرأت والدي، ولم يعجبها جلوسه بهذه الأريحية دون تنغيص، فقالت أمام الجميع موجهة كلامها لعامل الكافيتريا محاولة إثارة اللغط:

ـ «أبو حسن، اليوم الخوَنة شعدهم هنا؟! شو ماخذين راحتهم هالأيام؟».

هذه الفنانة بالإضافة لكثيرين غيرها ممن سببوا ذعراً حقيقياً لكل من حولهم، بدّلت جلدها بالكامل اليوم، لتكون أكثر تزلفاً وقرباً من النظام الحالي، نظام الطائفية والمحاصصة، ورموزه من ذوي التوجه الإسلامي.

وفي الوقت الذي كان فيه بعض الفنانين يصرون على تمثيل مسرحيات فيها إسقاطات وتلميحات، فيعتقلون لفترة ثم يغيبون، كان ثمة فنانين آخرين، يتفقون مع النظام على مسرحيات ذات تلميحات سياسية، هي أشبه بفخ كبير، فكل من سولت له نفسه المشاركة في مثل هذه الأعمال، ومع هؤلاء من الحزبيين المتخفين، كان يُعتقل أو ينتهي به الأمر إلى الإقصاء والتهميش عن المشهد الفني والثقافي كلياً. أحد هؤلاء على سبيل المثال، كان فناناً معروفاً، عمل عدداً من المسرحيات ذات إسقاطات سياسية، لكنه في الوقت ذاته كان متزوجاً من شخصية فنية معروفة، مقربة من رأس النظام شخصياً. ثمة من سيراقب هذه الحالة ليعتبرها مثيرة للتساؤل أو الحيرة ربما، لكن بحسب رؤيتي فان هذا الفنان لم يكن سوى «علّاس»[(47)] فترة التسعينيات، ليس إلا.

تجبرنا الحياة، كما واقع المهنة التي تجمعنا، على المرور بالقرب من هؤلاء متناسين رغماً عنا ماضيهم الذي يخصهم، بكل ترهاته، وماضيهم الذي أثّروا من خلاله على الآخرين. أحياناً نضطر لمصافحتهم والتبسم في وجوههم في الجمعات واللقاءات العامة، رغم أننا نعرف تأريخهم وأقنعتهم المتعددة، ونعلم أن لو تعارضت مصالحهم الشخصية مع أي كان، فلن يتوانوا عن إلقائه لقمة سائغة، أو قرباناً رخيصاً لمصلحة هينة. بمعنى آخر، أن ثمة من نسايرهم ونتعايش معهم، باستطاعتهم وبجرة قلم أو ببضع كلمات وشاية، أن يتسببوا في قتلنا، دون أن يرف لهم طرف.

كانت مرحلة الثمانينات والتسعينات هي الأشد، حتى هدأ الوضع شيئاً ما مع بداية الألفية، وبالتحديد فترة ما قبل حرب 2003. هدوء ما قبل العاصفة. كانت تلك بداية النهاية للنظام البعثي، ولهذا السبب ربما لم نشهد خسارات جمة. بعد سقوط النظام، نفس الفنانين الذين ساهموا بإقصاء، وأحياناً إعدام، زملائهم من المعارضة أو اليسار، أصبحت لهم توجهات إسلامية وانخرطوا ببساطة مع الأجواء الجديدة.

تتشابه الغايات والنيات، وتختلف سُبل تحقيقها ليس إلا. التجربة التي مر بها العراقيون بشكل عام، والمعارضين للنظام السابق بشكل خاص، هي تقريباً التجربة ذاتها التي نعيشها اليوم مع «اللانظام»؛ هذا النظام الفاسد الذي أوجده الاحتلال الأمريكي بعد عام 2003، وذلك مع اختلاف المسميات، والخطاب والأشخاص، بطبيعة الحال. هنا لا أود الإشارة إلى أن هؤلاء الجدد يتساوون مع نظام صدام حسين بالكامل، فهو حالة خاصة واستثنائية ونادرة بالقتل والدمار والفاشية، لكنني أعتقد أن الأزمة التي طالت جيلنا ما بعد 2003، هي أزمة دينية وسياسية، أزمة يمينية متطرفة، ولا بد لهذه الأزمة أن تنعكس في اللاوعي. بالنسبة لي وعلى نحو خاص، فكل العروض التي قدمتها منذ عام 2005 وبشكل عملي هي ذات خطاب سياسي، وديني، وتوجّه ضربة ما للسلطة الدينية المتطرفة، الإسلام السياسي الذي شلّ البلد وفرض أيديولوجيات متشددة وتوجهات راديكالية، فبتنا، وكأننا استجرنا من نار فاشية صدام، برمضاء السياسات التي تعتقد أنها سماوية ومقدسة، وتمتلك الحقائق كلها والصواب كله!

قدمتُ عرضاً يدعى «ستربتيز»، وفيه لعب على كلمات مشابهة هي «ستر الدين»، كان إسقاطاً على فكرة استخدام الدين لأجل غايات أيدولوجية ودينية، فيستر المرء عوراته البشرية والفكرية بالدين. قدمتُ عرضاً آخر اسمه «باسبورت»، بينت فيه كيف أن السلطة الدينية، دفعت الناس إلى الهجرة والفرار من قبضتها المتعصبة. في عرض آخر، اقتبسته من مقولة جان بول سارتر، «الآخرون هم الجحيم»، تساءلتُ عن الآخرين الذين يشكلون جحيماً بالنسبة لنا كمواطنين عراقيين، وخرجتُ منها بخلاصة أن التطرف الديني وسلطة المقدس، ينعكسان داخل المجتمع على نحو متزمت، عبر التوغّل في دواخل الناس بطريقة ممنهجة، غير قابلة للمناقشة أو الحوار، بما أن السلطة تستخدم فرضيات سماوية كيما تعبّد طريقها للسيطرة على الناس.

أما آخر العروض التي عملت عليها فيدعى «خمسة وعشرين رختر»، ويتحدث عن انتفاضة الشباب العراقي في الخامس والعشرين من تشرين عام 2019. وكما هو واضح فان التأثير السياسي والديني وكل هموم البلد، تنعكس في كافة أعمالي الفنية، فأنا بالعادة لا أكتب آرائي أو أعبر عنها عبر أي منصات أخرى، بل أضمّنها في عروض مسرحية ذات طابع نقدي وتحليلي، أو حتى استفهامي، فكل ما نصنعه من فن، أو نقدمه كرؤية أو كشف لمجتمعنا، هو سؤال كبير نقذفه في وجه هذا العالم؛ هذا السؤال هو تعبير عن والوجود والكيان، مهما كان هشاً وضعيفاً، إلا أنه يتقوى بالاستفهام والفضول، وعدم تقبل الأفكار الجاهزة، أو المفاهيم المعلّبة.

أعد نفسي محظوظاً أن كل ما مررنا به من شقاء، سواء على المستوى العام أو حتى الخاص، لم يغير المصير سلباً. وقد تبدو حياتنا لمن يراقبها من الخارج هادئة، لا بل هنية ربما. ما زلنا في العراق؛ والدي ووالدتي ما زالا بخير، رغم ما كان سابقاً وما لحقه لاحقاً، إلا أننا تخطينا كل الكوارث بعناد عجيب!

أن تكونَ فناناً، يعني أنك مقاوم، لا يمكن أن تكونَ فناناً حقيقياً وأنت مهادن، مهادن للسلطة الحكومية أو حتى الاجتماعية، مهما كانت الحياة في بقعة ما، سلسة وبسيطة، لا بد أنك بفنك ستقاوم البساطة الباعثة على الركود. أنت بحاجة للانتفاضة، للعصيان، لأن فنك لن يربو ويرتقي دونهما، والمجتمع لن يتقدم أو يتطور من دون فنك، ومن دون زعزعة الأسس التي وضعها آباء سابقون، ومن دون إثارة الأسئلة والاستفهام والفضول.

* * *

السردية الثامنة

أحمد ساجت شريف.. ابن لحضارةٍ أطفَأت مصابيحَها

كنت أتمنى لو أن عمر الناصرية مائة عام فقط. كان ترقيع الخراب سيكون أسهل بكثير! إذ كيف سترقع خراباً، لمكان عمره سبعة آلاف عام، وله امتداد من العمق الحضاري والاعتباري؟ كيف تمحو خراباً بات تراكمياً ومتغلغلاً؟! وما قيمة التاريخ العظيم، أو الحضارة العظمى أمام سنوات التردي والدمار؟ مثل هذه التراتبيات النسبية، ستثبت أن التأريخ كله ما هو إلا مهزلة أمام أي مهلكة تنال من البشر في أي بقعة من الأرض؛ وهكذا فسيتحول التاريخ لمجرد ملهاة كبرى، بينما الحقيقة ضمن هذا الواقع هي واحدة فقط، وهي وحدها ثابتة. الحقيقة وحدها راسخة، وكل ما عدا ذلك هُراء!

حقيقة أننا ولدنا في خراب، وعلى الأغلب سنموت ونحن منغمسون داخل هذا الخراب.

تُرى كم بالمائة من الازدهار الحضاري المنسي، عاشته هذه المدينة، مقابل الجوع والتخلف والتجهيل والإقصاء؟!

هل يهم في مثل هذه الحالة الترتيب الدقيق؟ لا أظن!

هذه هي، مدينة الناصرية، محافظة ذي قار، جنوب العراق حيث ولدتُ ونشأت. منبت السومريين، ونحن، يُفترض أن نكون أحفادهم. لسنا عرباً أقحاحاً وإن اختلطنا بهم. لسنا من شبه الجزيرة، أو إيران أو تركيا. بل في الواقع، نحن الكائن الميسوبوتامي، الرافديني، السومري تحديداً، الذي يُظَن بأنه قد أنقرض للأبد.

يقال بأن العرب لما استعمروا العراق، استعبدوا القوم، وتماماً كما فعل الرجل الأبيض مع الأفارقة، تغيرت أسماء السومريين الذين استخدموهم إلى أسماء القبائل العربية لمخدوميهم. عند من يعمل فلان، عند بني كذا، فحمل بذلك اللقب، وصار يُنسَب إلى مخدوميه. هذا ما يُقال بالرغم من عدم شيوعه، وقد يَغضب الكثير من أولئك المتنطعين، الذين يعتاشون على الانتماءات الجوفاء. العراقي الذي يعاني من شيزوفرينيا هوياتية مستفحلة، فتجده يفتخر بأصوله العربية التي تعود إلى شبه الجزيرة، لكنه في الوقت ذاته يحتقر من يُطلِق عليهم لقب «العربان»، متفاخراً بعراقيته، أو برافدينيته المزعومة، وبحضارة وتاريخ ليسا له؛ إلى آخر ذلك من هراء فارغ، ينفخ ذوي الشعور الهش، ويخدر دونيتهم إلى أجل غير معلوم. ذلك الكائن اللزج والرخو، الجاهل بتاريخيه وتاريخ الأقوام المجاورة له، والذي إذا ما أشرنا بشكل مباشر إلى هذه الحقيقة أو تلك، إلى هذه التفصيلة التاريخية أو تلك، فسوف ينقض علينا مستجلباً كل عنتريات ذاته الهشة، التي ستَجليها ريح الحقائق مع أول هبة. غير أن هذا كله، لم يعد مهماً اليوم! سواء أُطمِرت الحقائق أم استُلّت من غياهب الجب الذي تعفنت فيه لعشرات، بل لمئات من السنوات. لا يهم! لا شيء يهم بالمرة، أمام الواقع؛ وأمام الحقائق والدلائل!

لا شيء يغير من شعوري بأن هذه المدينة ملعونة، بسبب هذا الخزين التاريخي المتخم بالحكايات المهمَلة. لم تَتحقق لي كفرد، أي فائدة تذكر في رؤية الحضارة المنسية تلك بعيني، فأنا أعيش في مدينة منسية تفتقر لأبسط مقومات التمدن، لكنها تدّعي حضارة بعمر آلاف السنوات! وبذلك تصنع منك معبوداً بالوراثة، مخدراً بربوبية زائفة لم تستحقها. عندما أقرأ عن تاريخ دول وشعوب لم يتعدَ على نشأتها قرن واحد فقط، وأعقد في سري مقايسة حتمية، أرى بأننا الأكثر خسراناً على وجه هذه البسيطة، ولا أملك أمام هذا سوى السخرية، لأن الأسف بحد ذاته، لن يعينني على شيء.

في الخامسة والثلاثين من عمري رأيتُ الزقورة[48] للمرة الأولى والأخيرة. لم أزرها وأنا طفل في رحلة مدرسية، بل زرتها وأنا رجل ناضج متخرج من كلية الحقوق ويكتُب الشعر. كنتُ أحمل معي آنذاك ثقل السنين وأحلاماً كثيرة بعيدة التحقق، ربما هي أشبه بالزقورة نفسها، متراصة الطبقات، شامخة ولكنها غارقة في الماضي.

ذهبت وحيداً، وكنت كذلك الزائر الوحيد. كانت خالية، يحرسها حارس يدعى «ضايف»، يسكن في بناء وضيع تابع للدولة، دون كهرباء، وعلى الأغلب دون السبيل للماء أيضاً؛ بالقرب من هذا البناء المهول، الضارب في عمق التاريخ.

أي تاريخ؟! بصقة على تاريخ البشرية بأكمله، إذا كان لم يعن «ضايف» على التمتع بالكهرباء في حضرة أجداده القدماء، كيما يقدرهم حق قدرهم؛ رغم أنه يلعب دور المرشد السياحي باقتدار، حيث أشار إلى مكان معين قائلاً: من هنا أخرجوا القيثارة.[49]

يشغلني سؤال محير، لماذا يا تُرى اختار الاحتلال أن يترك هذه المدينة بكل ما فيها من مساحات وخرابات ليرسي قواعده بالقرب من الزقورة؟! الزقورة التي لم أكن قد زرتها من قبل، لأنني ولدتُ في حرب، ونشأتُ في حرب، وبلغتُ في حصار، ومن الترف ان تذهب لموقع أثري لتُثري حسّك الثقافي أو شغفك بالتاريخ مثلاً، مهما كان قربه، وانت لا تملك قميصاً أو حذاءً. وسريعاً عرفتُ انني كنتُ محقاً بعدم زيارتي لهذا المكان، كل تلك السنوات، إذ لم أشأ عقد تلك المقارنات العقيمة، كيف كنا قبل سبعة آلاف عام، وكيف نحن اليوم! كأنني كنتُ خائفاً من الوقوف أمام هذا الصرح، فقط كي لا أضطر مرغماً لأن أرثي حالنا أمام الأجداد. هؤلاء الذين اخترعوا الكتابة وعلموها للعالم، بينما نحن نمتلك أسوأ نظام تعليمي في العالم اليوم.

البعثية[50]، خلقوا كل هذه الرثاثة، التي نعيشها الان، كل الخراب، وكل ما أعقبه من ظروف محفزة للميز من الخراب، لأن نهجهم هو جذر الكارثة؛ وما هو أخطر من الكارثة ذاتها، هو عملية الانبات التي حدثت في العقل العراقي، وسببها الدكتاتور ومنظومته الخطرة التي خلقت فكرتين لا ثالث لهما، فكرة الولاء المطلق له أو معاداته، والتي ستُشيّئك وتضعك في خانة الضد مباشرة، مهما كان عداؤك هشاً أو حتى مستتراً. هذا الصراع انتقل في الجينات بين العراقيين، وانتشر كالوباء، كوباء العمى عند «ساراماغو»[51]. ذعر وخوف وقلق، حتى للذي لم يعاصر الدكتاتور. إذ أن أخطر ما يمكن أن يواجِه الفرد، هو ليس فقط ما يعززه محيطه أو الشعارات التي ينادي بها هذا المحيط، بل تكمن الخطورة فيما يعتمل في ذهنه شخصياً، ويحاول أن يسوِّقه لمن حوله على أنه مَنطِق مطلق.

* * *

كنتُ قد نشأتُ في محيط غريب جداً، تفاصيله متناقضة، ما بين إسلاميين، وشيوعيين وقوميين. كان خالي الأكبر منتمياً لخلايا ثورية، أعدم عام 1976، في مجزرة شهيرة تدعى بـ«تل الزعتر». كنتُ أسمع عنه من الأهل؛ صورته كانت حاضرة أمامي رغم أنه مات قبل ولادتي بنحو سبعة أعوام، إلا أن الأسرة كانت دائمة الحديث عنه. حتى شاهدتُ صورة بالمصادفة في جريدة عربية، في عدد صادر سنة 1988. كانت الصورة لمشاهد إعدام من تلك المجزرة، وبقيت عالقة في ذهني بطريقة يصعب محوها من الذاكرة والوجدان. مثل هذه الصور البشعة يتعسّر على الطفل نسيانها، وتترك آثارها المؤذية على النفس والروح الفتية، فما بالك إذا كانت مرتبطة بشخص قريب منك؟ الأخ الأكبر لأمك على وجه التحديد.

أما خالي الأصغر سناً منه، فكان شيوعياً محباً للشعر والأدب، والخال الذي يصغر هذان، اتهم بالانتماء لحزب الدعوة الإسلامية[52]. ثوري منتمي لخلايا قومية، وشيوعي حالم، وإسلامي متعصب، كل هذه التوجهات في بيت واحد، فضلاً عن أن الجانب الآخر، أي أعمامي، كانوا متشعبين أيضاً. بينما كان جدي لأبي مختلفاً هو الآخر، فقد عُرف بروحانيته العالية وشفافيته، إذ تعود أن يشفي المرضى من أبناء المنطقة بوضع يده على جباههم وهو يتمتم بآيات قرآنية. ولعل هذا التنوّع الفج، هو ما جعلني فضولياً محباً للقراءة والاطلاع، ربما رغبة في فهم سر الاختلافات الحادة هذه. وبأن ذلك الشغف مبكراً، ما جعل «ست ماجدة» معلمة الابتدائية تنتبه لي، وحينما أحبت إهداء طلابها بضع هدايا بسيطة بمناسبة عيد الطالب، أحضرت لهم الحلويات والألعاب، إلا أنا، فقد أهدتني مجلات، وشجعتني على القراءة أكثر. ومن هنا بدأ شغفي بالقراءة والاطلاع وشغف اكتشاف الأشياء. وزاد على ذلك وجود مكتبة في بيت جدي، وذلك الخال الشيوعي الشاعر، الذي كان يرسلني يومياً لابتياع الجرائد التي كان ينهاني عن قراءتها بحجة صغر سني. فكنتُ أجلس تحت شجرة سدر ضخمة، أقرأ الجريدة التي لم أكن أفهم منها الكثير، قبل أن أذهب بها إليه، فقط رغبة في معاندة ما تُهيتُ عنه، ولأروي هذا الفضول المسيطر عليّ، إذ لعلي سأكتشفُ أمراً خطيراً لا يود لي خالي أن أعرفه.

كانت الحياة بالنسبة لي كطفل في المرحلة الابتدائية الأولى، سنة 1989، شبه طبيعية، إذا ما استثنينا لافتات نعي الشهداء وتوابيتهم التي كانت تطوف في المدينة بين الحين والآخر. كنتُ أسمع عن الحرب، وأشاهد مثلي مثل البقية من الأطفال في سني في ذلك الحين، برنامجاً يدعى (صور من المعركة)، نتابع من خلاله تفاصيل الحرب بكل جوانبها المظلمة؛ ففهمنا أدبياتها ومفرداتها حتى قبل أن نعي تماماً باقي تفاصيل الحياة ومتعها الطفولية. هكذا، اختمرت هذه الصور في داخلي، ومع الوقت باتت تبعث بالأسئلة: لما كل هذا التوحش؟ والى أين يا ترى سوف يقودنا؟ فبالرغم من أننا فتحنا أعيننا على الحرب، وكادت أن تكون واقعاً اعتيادياً وطبيعياً، إلا أن الفطرة الطفولية لم تكن لتقتنع بحتميتها!

في المدرسة، كان منظر ابن الشهيد، الذي يُحتفى به دوناً عن البقية من الطلاب، يثير فضولاً عجيباً في داخلي، فلا أدري هل أرثي حاله على فقدانه لأبيه، أم أضمر في داخلي كما الغالبية إحساساً بالحسد على الاهتمام وكل الامتيازات التي كان يحظى بها؟ وكان خالي الشيوعي قد أصيب إصابة بالغة في الرأس مع بداية الحرب، أقعدته في البيت لسنوات، وحين يكثر من الشراب، كنتُ أستمع لهذيانه وهو سكران، غالباً ما يكون حانقاً ويصب جام غضبه وحنقه على النظام ورأسه ممثلاً بالرئيس. فكان السؤال الأعظم الذي يترعرع في داخلي طفلاً، كيف هو هذا التناقض بين المدرسة، حيث المديح المفرط لرأس النظام وتعظيمه الذي يكاد يكون تأليهاً، والاعتناء الفائق بابن الشهيد أحد أهم إفرازات الحرب التي يخوضها النظام، وبين البيت الذي يعبِّر فيه خالي عن غضبه وكراهيته الشديدة لنفس الشخص الممدوح، ونظامه، وكل أدبياته وعنترياته؟!

حين انتهت الحرب العراقية الإيرانية، ثم بدأت بعدها كارثة غزو الكويت، وحرب الخليج الثانية، بدأت الأسئلة في داخلي تتخذُ أبعاداً أخرى، أعمق وأشمل. لم تعد الحرب أمراً اعتيادياً. كنتُ أتابع أفلام الكارتون، وأقرأ القصص والمجلات التي تحكي حكايات عن بقاع أخرى من العالم، ليس فيها حروب، وصواريخ، وأصوات غارات، وشهداء تطوف توابيتهم في المدينة قبل أن يُدفنوا! كطفل لم يتم الثامنة بعد، عرفتُ أنني أعيش رعباً بكل تفاصيله، وأن الوضع الذي أُوجِدتُ فيه استثنائيّ. ولأننا لم نُمهَل وقتاً، حتى جاءت المرحلة التالية، غزو الكويت، والحرب الجديدة التي دفعت بنا إلى أوضاع مزرية. انقطاع شبه دائم للكهرباء، وانقطاع متكرر للماء، فكنا كأطفال نذهب إلى شط الفرات، بغية الحصول على الماء الذي نعود به إلى البيت. أعتقد أن تلك اللحظة كانت فاصلة في حياتي، ففكرة أن تذهب كطفل صغير إلى النهر بغية إطفاء عطشك، هي في عمقها لحظة صراع البقاء؛ الإبقاء على حياتك وحيوات من يخصونك، لتنشأ في داخلك صلة مباشرة ما بين الأرض والماء، ثم الماء والبشر. منذ ذلك الحين، انبعثت قصة حب ممتدة لي مع الأنهر. كنتُ أشعرُ بأن الهدوء الذي يكتنف الدنيا كلها، والذي تفتقر إليه طفولتي المبعثرة بين أصوات الصواريخ والغارات، بإمكانه أن يجتمع عند ضفة النهر، وبين أمواجه المنسابة، أنسى الحرب والعوز والطفولة المرتعبة، وكل ما يلتف حولي من عبث ودمار.

كنا قد اعتدنا ملء الماء عند أحد جسور المدينة، ويدعى للمفارقة «جسر النصر»، وكان جزءٌ منه مهدماً ومدمراً إثر القصف. في تلك اللحظات كنتُ أشعر بأن أرواحاً عديدة لأناس أعرفهم، معلقة فوق الجسر، من ضمنهم مثلاً جارنا «جبار»، هو وزوجته وابنه الرضيع الذي لم يتم الأربعين يوماً. كانوا مارين فوق الجسر، وقتلوا جميعاً لحظة قصفه. أتساءل، كيف يقتل طفل بهذه الطريقة البشعة حتى قبل أن يتعرف إلى الحياة؟ يخيل لي دوماً بأن الأرواح تعود إلى المكان الذي انطفأت فيه، وإذ أن الأنهر والجسور، حيث يلقى الناس حتوفهم لأسباب شتى، كالغرق أو الانتحار، أو القصف في حالة جبار وأسرته الصغيرة، تعدُّ أماكن رومانسية للانطفاء الأخير هذا. مشهد الماء والأرواح الطافية، بقي عالقاً في ذاكرتي منذ ذلك الحين، من بعدها أصبحتُ مدمناً على الجسور، وأتعمد يومياً العبور من فوقها، كنوع من التواصل مع الماء ومع تلك الأرواح التي لربما كانت تعود ليس لمجرد المرور، بل للمطالبة بالعودة إلى الحياة، من ضمنها ذلك الطفل المحروم من حياته قبل الأوان.

* * *

لطالما شعرتُ بأن الناصرية كمدينة بحاجة إلى دراسة نفسية متعمقة، بسبب هذا التنوع الأيديولوجي والفكري العجيب، على الرغم من أن الغالبية الساحقة من أهلها هم هؤلاء الرافدينيون المستعربون، والذين يدينون بالمذهب الجعفري. فكان نسيج الناصرية لا

يعد شديد التنوع على المستوي الديني أو الإثني، وبخلاف بعض الأسر القليلة من الصابئة المندائية، وبعض الأسر ذات الأصول الكردية، لم تكن ثمة إضافات إثنية كبيرة.

كنتُ أسمع منذ الطفولة أن حزب البعث والحزب الشيوعي قد تأسسا في الناصرية، الأحزاب الإسلامية معظمها انطلقت من الناصرية أيضاً. ولما كانت البيوت القديمة في المدينة بلا أسيجة، كنتُ أراقب جارنا المسنّ وهو يصلي في حديقته الصغيرة. كان معظم أولاده قد غادروا العراق بسبب انتماءاتهم الإسلامية، فلبث الرجل وحيداً مع ابنة معاقة تعمل خيّاطةً لنساء الحي. كنتُ أشعر بالشفقة عليه من وحدته، ومن حياته الرتيبة، ومن الوصمة التي دمغت بها الدار الصغيرة بسبب توجه الأبناء المرتحلين. وللمفارقة، اكتشفنا بعد سنوات عديدة، أن الحديقة الصغيرة حيث كان يصلي الرجل المسن، مدفون تحتها مكتبة عامرة بالكتب الممنوعة، تلك التي كان مجرد امتلاكها في زمن النظام السابق، عليه عقوبة تصل إلى الإعدام.

كان الأمل بانتهاء الحرب هو الملاذ الأخير لنا، حتى اندلعت الانتفاضة[53]. حينها وكمجرد طفل لم أفهم هذه المسميات، بالنسبة لي كان الأمر واضحاً وبسيطاً، ففهمتُ بأن الجيش العراقي قد هُزم، وأن ثمة معارضة كبيرة للنظام، بدأت تنتشر في البلاد. كنا نلعب في بيت جارتنا «أم غايب»، حيث اعتدنا على التجمع عندها أثناء تلك الاضطرابات، فكنا نرى عربات كبيرة تأتي محملة بالمقاومين الثوار ضد النظام. في تلك الأسابيع الأولى لم يكن صدام حسين ونظامه قد أطلقوا على معارضيهم لفظة «عُوغاء»، بعد. فكانوا بالنسبة لنا معارضين ومقاومين، وتمت بينهم وبين البعثيين مواجهات مسلحة في الشوارع. تلك كانت أولى إشارات إدراكي لهذا الرفض الهائل للنظام، في حينها. ثم شهدتُ واقعتين لم تنمحيا من ذاكرتي قط؛ حين حملوا نعش أحد المقاومين وكان من أوائل من سقطوا في الانتفاضة، كان اسمه «صاحب حسن شلّال»، أذكر الاسم حتى هذه اللحظة. يومها راقبتهم وهم يمضون به محمولاً على الاكتاف وكان المشهد مهيباً ومذهلاً. أما المشهد الآخر فكان لابن جيراننا واسمه «ضياء»، جاءوا به مُصاباً إصابة بالغة في قدمه، لكنه كان يقف في السيارة «الپيك آب» وقفة منتصر بدلاً من الجلوس، وكأن قدمه المصوبة والمشدودة لا تنزف بشدة، وكأنه مستعد لخوض المعركة القادمة حتى وإن كان مصاباً. علّم هذان المشهدان عميقاً في وجداني، ورسما لي رؤيتي الثورية فيما بعد، وجعلا بيني وبين النظام السابق عداوة لم ولن تنمحي أبداً.

استمرت مثل هذه المواجهات المباشرة لفترة، حتى بدأ النظام العراقي بقصف منازل الأهالي بالهاونات. بدأت في تلك الأثناء مرحلة مخيفة في الناصرية. حوصرت المدينة وأغلقت الأسواق وشحّت المواد الغذائية بشكل كبير، حتى أن بعض الناس في المدينة بدأوا باقتحام دوائر الدولة للبحث عن الغذاء. أذكر أننا كنا نضطر لتناول القليل جداً من الطعام المتوفر، وجبتان فقيرتان فقط؛ بينما كنا نسمع عبر الإذاعة أن القصف سيستمر على منطقتنا، وثمة تحليق للهيلوكوبترات الأمريكية في سمائنا، ما يعني أننا معرضون للإبادة في أية لحظة. وفي الأيام الأخيرة للانتفاضة، بات القصف عشوائياً على المدينة، فانقسم أبناء منطقتنا إلى فريقين. فريق اتجه إلى مدخل الناصرية من جهة مدينة البكر، والتي بات اسمها اليوم مدينة الصدر، وهؤلاء أعدِم معظمهم، لأن علي حسن المجيد[54] كان قد وصل برفقة قواته إلى مكان قريب جداً. ألقيت جثث هؤلاء في مقابر جماعية خلف مدينة البكر، وقد ظهرت هذه المقابر بشكل تتابعي بعد عام 2003. أما الفريق الثاني فقد اتجه نحو منطقة بساتين تدعى «السديناوية»، وتعتبر رئة المدينة، بسبب كثافة الأشجار والخضرة في هذه الناحية.

سلكتُ برفقة أهلي هذا الطريق، وكانت رحلة شاقة وعسيرة. لم نكن وحدنا بطبيعة الحال، أعداد الناس الفارين من القصف كانت بالآلاف. وفي أثناء مسيرنا كنا نسمع بالأخبار تأتينا عن أناس نعرفهم، لقوا حتفهم بطرق بشعة. أما في الطريق المعاكس، فكنا نقابل المعارضين، بعضهم منسحب يائس، وبعضهم معاند شرس يبغي العودة إلى الناصرية على أمل المواجهة المباشرة.

أذكر أن البيت الأول الذي استرحنا عنده، كان لامرأة مسنة، تقدم للمارين حساءً تطبخه من بذور الماش، مع خبز حار من تنورها وخضروات من بستانها الذي يمتد حتى ضفة النهر. هكذا كان مشهد النهر مرافقاً لي، حتى في أشد لحظات عمري خوفاً وعسراً وألماً. تناولنا طعامنا، واسترحنا قليلاً، ثم اتُخِذ القرار بمواصلة المسير لكي نتمكن من العبور إلى الجهة الثانية من الشط، بغية الوصول إلى بيت جدي الذي يبعُد قرابة الأربعين كيلومتراً. كنا أنا وأختي الأكبر آلاء، قد أُعطينا مهمة تبادل حمل اختنا الصغرى أسماء. طفلة صغيرة، جميلة بعينين ملونتين كبيرتين، تدور بهما بتساؤل وهي تتفقد الوجوه، وتتفحص تفاصيل الطريق. لا تدري أننا نهرب من الموت، ونتجه نحو المجهول الذي قد يكون حتفاً هو الآخر.

كنا نسير لمسافات طويلة، ثم نستريح كلما تعبنا. بعض الناس في تلك المناطق كانوا قد فتحوا بيوتهم للفارين، وآخرين فتحوا مضايفهم، ومدارسهم. وحينما يخيم الظلام كنا نختبئ في أحد هذه الأمكنة المتاحة لنبيت ليلتنا. باتت أعداد الفارين تتضاعف بشكل مطرد، وكلما ازداد القصف، فر الناس بالاتجاه العاكس له. بينما خيّم فوق رؤوسنا غطاء من الطائرات الأمريكية، وثمة أمريكان على الجانب الآخر من المدينة، كانوا يتواجدون براً في سياراتهم الهامر.

بعض الأسر والشباب، وبعد أن استبد بهم اليأس اتجهوا إلى القوات الأمريكية. منهم من عبر النهر في قوارب، ومنهم من ساروا لساعات حتى تمكنوا من الوصول إليهم عبر الجسور؛ وذلك لأن الأمريكان كانوا قد أشاعوا بأنهم سيأخذون معهم الأسر الراغبة بالهجرة الي أمريكا. رفضت أسرتي العرض، واستمرت بالمسير باتجاه بيت جدي. كانوا ما يزالون يأملون زوال النظام البعثي الذي ظنوا بأنه على وشك السقوط بالفعل. حياة مترفة وخالية من الدكتاتورية والإرهاب تنتظرنا إذا ما زال النظام! يا للآمال العظيمة!

ترى كيف كانت ستتغير حياتي لو أن أهلي أعادوا التفكير لثانية، وقرروا الهجرة إلى أمريكا؟! ربما كنتُ اليوم مواطناً أمريكياً، أعرف القليل عن العراق فقط، ولكانت هذه مجرد ذكريات مؤلمة من طفولتي المبكرة في بلدي الأم. ذكريات بالكاد أذكر تفاصيلها للاختلاف الصارخ لحياتي فيما بعد. إلا أن ذلك لم يحدث! وها أنا ذا بعد أكثر من ثلاثين عاماً على تلك الأحداث، قد عاصرتُ كل التبعات المؤلمة، والمهلكة، التي لم تتح لي فرصاً جديدة لألوذ بالفرار.

هكذا، تواصل المسير. ومع اقترابنا من الوصول، كانت أحذيتنا قد بدأت تهترئ تماماً، أما الأجواء فكانت باردة نوعاً ما، يصاحبنا في الطريق طين وعاقول وطرقات مبللة. إنه أول جرح أتحسسه بهذه الطريقة الجلفة. احتكاك الأقدام المتزايد أثناء المسير، مع الأرض الخشنة، واضطراري لاستكمال الطريق للسير حافياً، بعد أن فقد الحذاء نعله، وبات غير نافع، بينما أتناوب على حمل الصغيرة أسماء مع أختي.

وصلنا إلى منطقة قريبة من بيت جدي، وكان ينبغي أن نعبر النهر بقارب صغير ومهلهل. عبر والدي برفقة إخوتي، ثم عاد القارب لكي نعبر أنا وأمي وجدتي والصغيرة أسماء التي كانت في حضني. في هذه اللحظة انهارت أمي قائلة بأنها تفضل الموت هنا على العبور. كان القارب صغيراً وقديماً، والجو بارد، ومنظر النهر مخيفاً. تلك لحظة الذروة القصوى من الخوف والحيرة وتراكم الساعات والأيام القليلة الماضية من الأوجاع. حيرة طفل لم يتجاوز الثامنة من عمره بعد، لا يعرف كيف يتخذ القرار السليم. هل اعبر النهر وحدي، وأسماء في حضني، مخلفاً أمي وجدتي ورائي؟ أم أبقى معهما؟

وهنا، افترقنا عن أبي وإخوتي واكتفينا بالتلويح، واخترتُ أنا البقاء مع أمي وجدتي في تلك المنطقة، دون أن نعرف إلى أين ستكون وجهتنا التالية. لكن من حسن حظنا، أن جدتي كانت تعرف المنطقة جيداً. ولم يكن أمامنا خيار سوى محاولات البقاء بعيداً عن الأماكن المحتقنة، سواء بالثوار أو بالجيش ومتعلقاته. أما والدي وإخوتي فكانوا أكثر أماناً حيث انتهوا.

برفقة أمي وجدتي وأسماء في حضني، كنا نتنقل من مكان إلى آخر بصعوبة وحذر شديدين، وصادفنا مضيفاً مفتوحاً بتنا ليلتنا فيه. كانت المنطقة شبه مقطوعة، فغالبية الأسر الفارة كانت قد استقرت في مدارس أو مستوصفات، فكنا نحن قلة لم تجد لها مستقراً بعد النزوح. بقينا في المضيف قرابة الثلاثة أيام، حتى علمنا أن الجيش قد دخل الناصرية، وانتهى كل شيء. فقررنا العودة! كنا نركب أي وسيلة مواصلات تتاح لنا كيما نقصّر المسافات قدر الإمكان، ثم نعاود السير. لعل المسافات لم تكن طويلة جداً؛ كانت أربعين كيلومتراً ربما، لكنني كنتُ أشعر أن الرحلة طويلة جداً وشاقة عليّ كطفل يسير حافياً حاملاً اخته. في إحدى المرات ركبنا جرافة، سارت بنا قليلاً ثم نبهنا صاحبها أننا قد اقتربنا من الناصرية. اقترحت جدتي أن نطل على المنزل، حتى وان لم يكن آمناً كلياً. وعلى مشارف الناصرية رأينا الجيش العراقي منتشراً بكثافة في المنطقة. لم تكون وجوههم تشبه تلك التي نعرفها، بل كانت سحناتهم غريبة، أجساد ضخمة، وبشرة بيضاء محمرة، أما لهجتهم فكانت مختلفة تماماً، لم تكن جنوبية بالمرة.

وبدا الوضع غريباً عليّ حين دخلنا بيتنا الخالي. سكنني شعور بالتعاسة والحزن، ربما لخلو البيت من إخوتي وأبي. فبدا لي وكأنه مَسكَن للأرواح المغادرة، سيما حين يحل الليل الذي كان بلا أنوار بسبب الانقطاع المستمر للكهرباء، فيتحول المكان الذي كان عامراً بأهلي وإخوتي إلى محلٍ شديد الوحشة والكآبة. لكنني وبالرغم من كل الأوضاع البائسة هذه، وحين كانت أمي تشعل قارورة بدائية مملوءة بالنفط، في فوهتها عجينة وفتيلة تشتعل بصعوبة، كنتُ أشعر أن ثمة حارساً يحرسنا!

ثمة قوة تلتف حولنا من الخلف لتحمينا. ولا أدري ان كان ذلك مجرد هاجس طفل خائف يرغب بتهدئة نفسه ذاتياً كنوع من أنواع آليات الدفاع عن النفس، وصراع البقاء الذي يخوضه المرء أحياناً حتى مع ذاته. فلو أن الخوف تغلب عليّ طفلاً، لكان صرعني منذ زمن. لكنني تمرنت على مواجهته جيداً، ولم أزل.

لم تعد الحياة إلى طبيعتها أبداً. النظام الذي كاد أن يسقط، ثم بقي، عاد حاقداً على المنطقة بأسرها، هذه المناطق التي ثارت ضده وكادت تهزمه. فرجعنا إلى مدارس مهدَّمة، ومقاعد دراسية خالية من أطفال غادروها إلى الأبد، إما بالموت أو بالهجرة. كما جلس إلى مقاعدنا أيتام، مات آباؤهم لأنهم كانوا طامعين بإزالة نظام أدخلنا في حروب ومعارك واشتباكات لم ننل منها سوى مزيد من الخراب والدمار.

وكان من المستحيل أن أنشأ طفلاً سوياً بعد كل ما شهدتُه. كراهية النظام ونزعة الانتقام منه نمت في داخلي مع نموي، حيث شببتُ في قلب حصار اقتصادي كان قد تسبب به إثر قراراته الرعناء، بخوض حروب لا ناقة لنا فيها ولا جمل.

كانت حياة مشدودة، ومتأزمة على الدوام. فكرة أنك حين تأكل قطعة حلوى مثلاً، بينما جارك لم يذق الطعام، بوسعها أن تحول كل السعادات الصغيرة، إلى وحوش عملاقة تنهش قلبك الفتي. أن تكون أقصى أماني طفل صغير هي تذوق الحلوى، أو ارتشاف القليل من المياه الغازية. وما قيمة تحقق مثل هذه الأماني الصغيرة، ما دام زميلك لم يعرف لها طعماً في حياته؟ ما دام يقضي شتاءه بإعادة خياطة لحاف على شكل سترة لتقيه البرد؟!

دمر الحصار ما تبقى من شخصية الفرد العراقي، فنزع عنه كرامته وإنسانيته واعتداده بنفسه. نخر قيمه من الداخل، فباتت بلا اعتبار يذكر! مثل صحيفة مبللة، ستتفتت بين أصابعك ما أن تجرؤ على لمسها، نشأ جيل بلا هوية واضحة، بلا إطلاع على العالم الخارجي، طُمست الملامح الأصيلة وشوهت، لكي يطبع عليها ما يشاء من ترهات، دكتاتور عجوز، خارت قواه بعد سلسلة من الهزائم، وبحار من الدماء.

* * *

السردية التاسعة

نورا القيسي.. دم صابئي في العروق

الأعظمية، بغداد. قد يختصر هذا التعريف الكثير. مدينة الأعظمية الصاخبة، المتعددة، والمتنوعة الطبقات الاجتماعية، لكنها في الوقت ذاته المدينة الواشية، تلك التي تبوح بكل ما يخصك، وتدل على كل ما قد لا يخصك.

ولدتُ فيها، لأب مسلم سني، وأم صابئية مندائية[55]. ومن هنا تبدأ حكاية الرفض الذي قوبلت به وتعاملت معه على مر حياتي. أمي التي فرّت من أهلها وطائفتها لكي تتزوج من رجل مسلم، في سن صغيرة، وعاشت عمرها بعيدة وغريبة، بين أناس كانوا ينظرون إليها باستصغار وريبة دائمَين، سيما وأنها بقيت على دينها ولم تُسلِم، كما قد تفعل غيرها من النساء اللواتي هجرن مللهن، فتجدهن يتبعن الرجل الذي غادرن حياتهن وأسرهن وماضيهن لأجله.

لم تكن أمي تكترث لكل ما يقال عنها، سواء في وجهها أو حتى خلف ظهرها. ربما كانت قد حصّنت نفسها جيداً بإرادتها، وتمرنت مع الوقت على تقبل اختلافها بل والاحتفاء به، حتى لم يعد التمييز الذي تعامل به مسألة مربكة تقلقها.

لكن الوضع كان مختلفاً بالنسبة لي! فقد نشأتُ وأنا أسمع الآخرين يشيرون إليّ بـ «بنت الصُبِّيَّة»؛ فكنتُ تلك الطفلة المرفوضة من باقي الأطفال في المدرسة، لأن دمي قد اختلط بها. دمي ليس طاهراً كدماء المسلمين، بل دم نجس، دنسته أمي حين اختلط بدمها الصابئي الكافر. لم تورثني أمي لون بشرتها الصافي، أو جمالها الرافديني الخالص، بل ورّثتني عبء الاختلاف ومرارة التمييز. ورغم أنها كانت لطيفة المعشر وهادئة الطباع، إلا أنها على خلاف ذلك قد نقلت لي شرارة تمردها الذي تعملَق مع الوقت في داخلي، وبات عنيفاً ومهلكاً وكاد أن يدمرني. تمردٌ كبر فيَّ مع السنوات وكاد يقتلع كل الجذور التي امتدت بي عميقاً في هذا المجتمع. تمرد على الطائفة، طائفتيهما معاً، أمي وأبي. تمردٌ على العادات، التقاليد، الدين. وبالأخص التمرد على وجودي وكياني كأنثى، وكل علامات الاستفهام والتعجب التي ولدتُ أصارعها حتى قبل أن أعي أسبابها. كان ذلك أسلوبي في التعاطي مع المجتمع الذي رفضني بكل الطرق المتاحة. رفضني كأنثى في مجتمع ذكوري، ورفضني كبنت لأبوين من ديانتين مختلفتين، ثم رفضني فيما بعد كامرأة غير خاضعة للشروط والأعراف. ولهذا، كان لا بد لانتقامي منه، إذا ما تم، أن يكون باطشاً لا مبالياً، ومن دون رحمة.

* * *

كانت بداية سنوات الاحتلال فوضوية بشكل لا يصدق. ولأنني من الأعظمية حيث النسبة الأكبر من سكانها هم من العرب السنة، شهدتُ بنفسي وقع العمليات الأولى المقاومة للاحتلال الأمريكي وتبعاتها فيما بعد. انفجار لدبابة أمريكية بالقرب من جامع «أبو حنيفة النعمان»، أدى لأن يفرغ الأمريكان المنطقة من رجالها كلياً؛ ومن الغريب أنهم لم يعتقلوا الإرهابيين وعناصر القاعدة، بل تعمدوا اعتقال الشبان والرجال من الأبرياء، أولئك الأناس العاديين غير المنخرطين في أي نشاط معارض. وكنا إذا ما أردنا التبليغ عن إرهابي، أو فرد نعلم علم اليقين أنه من القاعدة، فإن الشخص الواشي كان يصفّى في اليوم التالي مباشرة. وكان قد سبق وجود القاعدة مجموعات مسلحة نشطت منذ بداية السقوط، حزب إسلامي، وما يسمى بالمقاومة العراقية. هؤلاء، وهم على المذهب السني، استهدفوا حصراً السنة العاملين في الدولة؛ ضباط، أطباء، صحفيين، أسر ثرية، موظفي التربية، موظفي الخارجية والداخلية ووزارة العدل، ما اضطر عدداً كبيراً من الناس لترك وظائفهم، لأن الخيار في هذه الحالة يكون منحصراً إما بالوظيفة أو بالتصفية الجسدية.

كان هذا هو التمهيد الذي سبق تنظيم «القاعدة»، التي بدأت باستهداف الأسر الشيعية القليلة في الأعظمية، إما بالتهديد أو بقتل أحد أفراد الأسرة، فيضطر الناس للانتقال وإخلاء المنطقة. ثم بعد أن نبتت أذرع «القاعدة» الأخطبوطية بشكل مكثف، صارت الأمور تأخذ بعداً أكثر تشدداً ومنهجية، وبتنا نشهد إبادة عوائل كاملة، بحجة أنهم «أسر منحلة أخلاقياً». قُتلت امرأة تعمل «حفّافة» في حينا بعد أن اتهموها بممارسة الجنس مع ابنها المراهق. قتلوها هي وولدها في الشارع وفي وضح النهار. المسكوت عنه في هذه الحالة مثلاً، هو أن «القاعدة» صفّت من أبناء السنة في هذه المناطق ذات الغالبية السنية، أكثر مما صفّت من الشيعة والطوائف الأخرى بكثير. أحد أهم الأسباب هو رغبتهم في إشاعة الرعب، وإخضاع الناس لميولهم المتطرفة؛ فإن لم يتم الأمر بالإقناع، فسيتم بالقتل والترهيب والإجبار. وبهذه المنهجية، فان الإرهاب الذي كانوا يمارسونه ضد الأهالي، لا بد أن يتم بتهم ملفَّقة لسحب تعاطف الناس من الضحية. تهم أخلاقية، زنا محارم، مثلية، دعارة، تهم بالخيانة أو التعاطف مع العدو. الخ. أي فرد يُظهر ولو القليل من التمرد، يتم قتله دون رحمة.

فمثلاً، تلك المرأة التي اتهموها بزنا المحارم مع ولدها، كانت رافضة بشدة محاولاتهم استمالة ابنها المراهق لصفوفهم. ربما لم يكن من السهل التعامل مع امرأة «معطماوية» من منطقة شعبية، غير مبالية وسليطة اللسان، من ذلك النوع الذي يقف في وسط الشارع «يعد ويصفّ»؛ لم تكن لتقبل بليّ ذراعها حتى وإن كان خصمها هو فئة من المسلحين المتشددين، فواجَهتهم بصلافة وجسارة نادرَين. وإذ كان لا بد من التخلص منها سريعاً وبتهمة من هذا النوع المخزي، لكيلا يتجرأ أي فرد من أهالي المنطقة على مجرد التفكير بالدفاع عنها. غير أن المشكلة الحقيقية، هي أننا كطائفة سنية، إذا ما ذكرنا مثل هذه البشاعات والكوارث التي تعرضنا لها، يتم إسكاتنا من السنّة أنفسهم، فالحديث عن القاعدة وعناصرها والتطرف السني لا يخص هؤلاء وحدهم، بل يُنظر له على أنه عام، وسينسحب على أبناء السنة جميعاً. وهي بالمناسبة المشكلة ذاتها التي يواجها الشيعة أيضاً، فإذا ما ذُكرت المليشيات الشيعية، ستجد بأن العديد منهم يتضايقون من الإشارة، وكأنها تمسّهم بشكل شخصي، حتى وإن كانوا منهجياً بالضد منها كلياً.

تلك السنوات الرهيبة، 2005 ــ 2008. سنوات القتل الطائفي على الهوية، هي السنوات الأشد ترويعاً! لوحة سريالية شديدة الغموض. فيلم زومبي من شدة قباحته أصبح لا يثير الرعب حتى، بل يخلف إحساساً بالاشمئزاز والقرف سيلازمك لفترة بعد مشاهدته. شوارع بغداد كانت مليئة بالجثث التي تُلقى فيها عشوائياً، دون أن يتم التعرف إلى أصحابها. خرابات تتجمع فيها جثث لشبان من نفس الاسم، عليّ أو عمر، بكر أو حيدر. كانت الأسر العراقية تشتري جثث أبنائها من وسطاء بين الحركات المسلحة، شيعية وسنية، من سماسرة جثث يمتهنون واحدة من أحقر وأحط المهن التي توصّل إليها العقل البشري. يستلم السمسار مبلغاً

من أسرة المقتول يدفعه لقاتليه، ثم يقتطع عمولته ويسلم الجثة لذويها. أعرف امرأة اضطرت لبيع قطع من أثاثها، حتى وصل الأمر لبيع أطباق الطعام، فقط لكي تحصل على جثة ابنها، لتدفنه بنفسها. محاولات المساومة على تقليل السعر أو غيره من هذه الأمور، تعد عبثاً هزلياً في حالة كهذه؛ فهذه تجارة غير أخلاقية من الأساس، وإذ يستحيل ضمان إن كان السمسار صادقاً أم كاذباً، وهل سيسلمك الجثة بالفعل، أم سيضع المبلغ في جيبه ويمضي عنك، دون أن تجرؤ على مطالبته بشيء!

حين تحيا حياتك في لوحة سريالية كهذه، ستكتشف أن الأشياء تفقد دلالاتها على نحو قد يبدو مفزعاً، لأنك مع الوقت ستبدأ بتلقي مثل هذه القصص دون أن تثير فيك أدنى تفاعل. ستتخدر حواسك، ولن تنتبه من غيبوبتك ربما إلا بعد ذلك بسنوات. كأنك في حالة دائمة لاضطراب ما بعد الصدمة. هكذا كان الأمر بالنسبة لي، فإن استرجاع هذه الذكريات والقصص وسنوات الألم، لم يتم معي إلا حين غادرتُ العراق نهائياً قاصدة السويد. بل لم يحدث إلا حين استقر بي الحال في مدينة «سكيلستونا» الوادعة.

هذا الهدوء، وهذه السكينة، وصوت النوارس عند البحيرة أثناء تمشية العصاري، ورؤية الناس وهم يمارسون حياتهم بطمأنينة غير اعتيادية بالمقارنة مع ما شهدَته سنوات شبابي الممتلئة بالرعب، كل هذا بات يوقظ في داخلي الصخب، ومشاهد العنف والقتل والقصص الفظيعة التي كنتُ أنام وأصحو عليها، فصرتُ أعيش داخل فقاعة الذكرى المؤلمة.

حينها فقط، فقدتُ توازني وزال عني خدر الصدمات الذي لازمني طويلاً، حيث بدأتُ أدخل في موجات بكاء وهلع عنيفة، كأن الماضي كله يعاد عبر ذلك الشريط الذي اختزنته الذاكرة، وكأن الألم يتفجر في جوفي الآن فقط؛ كأنني أدوس على تلك التقرحات التي ملأت هيكل الذاكرة، فيُبعث الوجع من جديد. وجع طازج وصريح، سُلِخت عنه كل المحسّنات التي ترشها عليه الأعوام المتبددة في اللاشيء.

* * *

لم يأت عدائي الصارخ للمجتمع بدافع معاناة منزلية كغالبية الفتيات من أقراني، ممن كن يتحاملن على المجتمع بسبب الأهل أو الظروف؛ لأنني في واقع الأمر نشأتُ في كنف والد متفهم ومنفتح جداً، كان يراعي وجودي وكياني كابنته الوحيدة التي أنجبها بين ثلاثة من الشبان الذين كان باستطاعتهم تجاوز المعضلات الاجتماعية بسلاسة، بما أن تصنيفهم الجندري يعصمهم عن الكثير من الترهات الاجتماعية والأسرية، من تلك التي يصعب علينا تلافيها، نحن النساء. غير أن الإحساس الأساسي الذي كان يلاحقني في ذلك الحين، هو مشاعر الرفض وعدم القبول التي لازمتني مذ كنتُ طفلة صغيرة، إذ لم أقع بعدُ على تفاصيل هويتي المختلطة التي أُرفَض لأجلها!

كنتُ «بنت الصبّية»، «دمك نجس»، «كفّار»؛ أشياء مثل هذه تعودتُ سماعها من الناس، حتى قبل أن أعي خطورتها. أما في الجهة المقابلة، بين أهل أمي، فكنتُ مرفوضة أيضاً، لا بل وبشراسة أقوى ربما، لأني ابنة المرأة الناشز التي مضت عن أهلها وملّتها، لتلحق بقلبها الذي سرقه رجل مسلم. لسنوات طويلة ترعرع الرفض معي، وفيما يخص طائفة أمي، فقد نشأ معي أيضاً إحساس خفيّ بالخوف؛ الخوف من أن ينتقم أحدهم من أبي فيّ، ليشفي صدور أهل أمي الذين قاطعوها جميعاً، ولم يعترفوا حتى بأولادها الذين انجبتهم من هذه العلاقة المغضوب عليها.

في صغري وقبل أن أنضج فكرتُ أن اتشبث بأحدهما وأنبذ عني الآخر، لعلي بذلك أصنع لنفسي هوية واضحة وثابتة. غير أن الإسلام كان ينطوي على تعاليم عديدة وقيود لم أكن أرغب العيش بين أغلالها، أما الصابئة فلم يسمحوا لي أبداً بالولوج إلى عالمهم والتقرب منهم، ونبذوني بكل ما أوتوا من قوة، فانتهيتُ إلى نبذهما معاً.

كنتُ الفتاة الوحيدة في شارعنا، بل وفي منطقتنا بأسرها، التي رفضت ارتداء الحجاب، رغم أنه كان قد فرض بالقوة في أوج الاقتتال الطائفي، من قبل العناصر المسلحة، سواء شيعية كانت أم سنية. مر على العراق وقت تحجبت فيه كل النساء والفتيات، حتى غير المسلمات ارتدينه ليجنبن أنفسهن المواجهة والتعرض للمخاطر، لكنني رفضت ذلك بشدة! وبسبب هذا الرفض والتمرد، خافت الأسرة عليّ ومني، فكان أخي دائم الشجار معي، ويطالبني بارتدائه تجنباً للمشاكل وللعيون المتربصة. لم يكن الأمر هيناً أبداً، فقد كدتُ أفقد حياتي بسبب تمردي هذا، وبعد حادثة كنت فيها على وشك أن أُختطف وأقتل، قرر والدي أن الحل الوحيد لي هو في بعدي عن العراق لبعض الوقت على الأقل، فتقرر أن أغادر في بداية عام 2005، إلى سوريا حيث بقيت لبضع سنوات، حتى هدأت المرحلة التي ينعتها العراقيون «بالطائفية»، عدتُ بعدها إلى بغداد، للعمل كصحافية، ومعدة لبرامج ثقافية على قناة العراقية.

* * *

ليس سهلاً أن تكون من خلفية سنية في العراق بعد عام 2003. ثمَّة ملصقات عديدة سوف توضع عليك ما أن تذكر لقبك الذي يشير إلى مذهبك. وهذه الملصقات أمر عادي وحتمي لو أن الوضع هو الآخر كان اعتيادياً، لكنها تتحول إلى أمر خطير إذا كان يشار لمذهبك على أنه مذهب القاعدة وداعش، أصحاب المفخخات، ومحبي النظام السابق، ورأس السلطة فيه، صدام حسين!

الوصمة الأخيرة وحدها، تطلبت مني وقتاً وجهداً مضاعفاً لكي أغسلها عني. لم نتربّ نحن أبناء السنة على أن نكون ثوريين أو حتى منتقدين؛ إذ لم يعتد أهالينا التحدث أمامنا عن تبرمهم من الوضع في البلاد وقت النظام السابق، مهما صعبت الظروف وتراكمت المآسي، كما قد يفعل باقي أطياف الشعب الذين شعروا بأنهم مُستهدفون على نحو مباشر من النظام، لا سيما الشيعة والكرد. أما نحن فقد كنا مهادنين إلى حد كبير، وخاضعين لمفهوم السلطة التي لن تؤذيك ما دمت تتجنبها بحذر، أو حتى تسايرها بكل حواسك وقناعاتك وأفعالك.

حين سقط النظام فُتحت أمامي غرفة تعذيب سرية، كان قد تناهى لسمعي أنها موجودة، وتصدر من خلفها آهات مكتومة. هكذا ولجتُ هذه الغرفة المعتمة، لأتعرف إلى ما كان خفياً عني! عرفتُ سر كراهية الغالبية العظمى من الشعب تجاه ذلك النظام الذي

قتل وعذب فئات عديدة من شعبه بدم بارد. ومع انفتاح العراق فجأة على العالم الخارجي، بعد سنوات من العزلة، أتاحت لي مواقع الانترنت ومن بعدها مواقع التواصل مثل هذه الرفاهية المعرفية. لكنني رغم إقراري، لم أعفَ من التهم. أي انتقاد أوجهه إلى حكومة ما بعد 2003، مهما كان تافهاً، كان يفجّر في وجهي تهمة جاهزة، وهي الحنين إلى النظام السابق، وذلك بسبب لقبي ومذهبي المرتبطين طردياً مع تلك الفترة. أبسط التهم، هي أننا كعرب سنّة، كنا المواطنين الأقرب إلى النظام، ينعتنا باقي العراقيين بأننا «مواطنون درجة أولى»، وذلك مهما حاولتُ أن أجب مثل هذه التهم، وهذا الامتياز الكاذب عني. ومهما أقررتُ بحقيقة البشاعات التي حدثت إبّان ذلك العهد، ومهما حاولتُ أن أبيّن بأن النظام لم يكن يفرّق بين الطوائف والخلفيات، ما دام الفرد الذي أمامه مبعثاً للقلق، أو يشكل تهديداً لسلطته.

لكن على الجانب الآخر، لا بد أن أعترف بأن العديد من أبناء السنة في العراق، يحنون بالفعل للنظام السابق، ولا يقرّون بسهولة بفاشيته؛ ففقدان السلطة المطلقة أشعرهم بالقلق على هويتهم ووجودهم، ولا سيما القلق من استهدافهم المباشر كنوع من الانتقام. ولعل ردة الفعل الحذرة هذه تعد طبيعية ومتوقعة، لكن عليّ أن أعترف هنا بأننا لم نُجبَل على مفهوم أن تكون معارضاً أو ثورياً. الوضع برمّته جديد علينا، وهذا الإحساس بالتهديد لمجرد أن اسمك أو لقبك قد يثير الأحقاد لدى من ظُلم بالأمس، وقد يستلّ سلاحاً ليريق دمك بغية الانتقام، هو ضربة قاضية لأي حلم بالتعايش، ما بعد 2003.

في ظل هذا الواقع المتشابك والمتخم بالأوجاع، وجدتني مضطرة للتوقف، ليس فقط للتفكّر في هويتي، بل في علاقة وجودي الشخصي بتاريخ طويل ومعقد، رسم خطوطاً غليظة على جسد وذاكرة هذا الوطن المرهق. لم يكن سهلاً أن أتقبل أن اسمي، الذي لم أختره، ولَقَبي الذي ورثته، باتا مدخلاً لتأويلات جاهزة وأحكام قاسية لا تعكس حقيقتي؛ وأنهما بوسعهما بسهولة أن يتسببا في إقصائي أو مقتلي. غير أنني في الأعماق، أدركت أن مواجهة هذا الإرث الملتبس لا تتم بالهرب منه أو إنكاره، بل بفهمه والغوص في تفاصيله الحادة، كي أتمكن من التبرؤ من القيود التي حاولت أن تكبلني بها أصوات الماضي، والفرضيات الجاهزة، والقوالب، والأحكام، والإرث الاجتماعي والديني والثقافي، وغيرها من الأمور التي لا يد لي فيها، وينبغي أن أضبط من نفسي ووضعي، وفقاً لها. وربما لم أكن مسؤولة عما ارتُكب من جرائم وقسوة في عهد النظام السابق، ولكنني مسؤولة الآن عن خلق طريق آخر، طريق لا يكرس للانقسامات التي أحالت مجتمعنا إلى أشلاء متنافرة، بل يسعى لإعادة روابط التواصل والتفاهم بيننا. وكان لا بد لي أن أتعلم، بشجاعة نادرة، كيف أواجه تلك الوصمة أو ذلك الملصق، وأعيد تعريف نفسي بما يتجاوز الألقاب والاختصارات المذهبية والفئوية والطائفية.

العراق ليس مجرد فسيفساء من الطوائف، ولا يمكن أن يختزل في سردية واحدة تهيمن عليها جهة دون أخرى. إنه أكثر تعقيدًا من ذلك، أكثر شاعرية وألماً، فهو وطن مزروع بالقصص، كل قصة تحمل في طياتها ألماً وآمالاً مختلفة. والطريق إلى التشافي من آلام وتحديات الماضي، وإن بدا طويلاً ومليئاً بالعقبات، يبدأ بالاعتراف بكل هذه القصص وتداخلاتها، وبأننا لسنا مجرد تمثلات طائفية، بل كائنات بشرية تعيش على هذه الأرض، وتتوق إلى حياة تتسع للجميع.

قد يكون الماضي شكّل جذور هويتي، لكنني لن أسمح له بأن يكون الشجرة الوحيدة التي تظلل حياتي. بإدراك أعمق لهذا الواقع، قررت المضي قدماً، بحذر ووعي، لكن بعزم لا يلين. اخترت أن أكون صوتاً للحب وللتسامح، رافضة أن أُحصر في تعريف ضيق أو وصمة أُلصقت بي. فالعراق اليوم بحاجة إلى من يتجاوز الجراح، ويعيد بناء الجسور التي تهدمت، ليخلق مساحات جديدة من التعايش والحلم بمستقبل أكثر إنسانية وشمولاً.

* * *

السردية العاشرة

أسامة النعيمي.. ظهير أيسر في لعبة موت

دخلتُ إلى الغرفة حيث جسدها مسجىً على السرير، وتفوح في المكان روائح الأدوية، والعفونة الممزوجة بزناخة الرائحة النفّاذة للدم المتخثر. اقتربتُ منها بحذر. ضحية تعذيب مريع! جسدٌ بالكاد يمكن التعرف إلى تفاصيلهِ من كَثرة الخدوش والدماء والأوساخ التي دبقت به، فيما يبدو أنها كانت حفلة تعذيب مطوَّلة.

أول كلمة صدرت مني كانت:

ــ «متزوجة؟»

أردتُ التأكد من أنها لم تكن عذراء حين اغتصابها، إذ ما من شك بأنها قد تعرضت لاغتصابات متعددة حتى قبل أن أفحصها. تنهدتُ ببعض الارتياح حين أومأت برأسها بصعوبة، ثم أعقبت بصوت مرتجف وكلمات متقطعة:

ــ دكتور أسامة، عرفتني؟

تمعّنتُ في ملامحها المختفية خلف الدماء والأوساخ والشعر المنكوش. تمعنتُ في عينيها محاولاً تذكّر ان كنتُ قد رأيتهما سابقاً، فطالعتني هالتان سوداوان حفرتا عميقاً جداً وصعّبتا المهمة. لم أعرفها!

ــ آني ريم[56].

لبثتُ لثواني أحاول التعرف على الملامح وربطها بالاسم، لكن دون جدوى. فقالت:

ــ آني دكتورة ريم.

شهقتُ. إنها ريم بالفعل! زميلة أعرفها عن بعد. طبيبة، سمعتُ بأنها قد خطفت منذ فترة!

وقبل أن أنطق أو أستفسِر وجدتها تردد ودموعها تنهمر بصمت:

ــ دكتور أبوس إيدك موتني.

لم أرد، عقلي لم يعد يستوعب، إنها الصدمة الثانية لي في ليلة واحدة. احتشدت تساؤلات عديدة في رأسي انقلبت جميعها لسؤال واحد: هل حقاً بوسعي تحمّل كل هذا؟!

أكمَلَت متوسّلة:

ــ انطيني جرعة بروبوفول. آني ما أقدر أعيش بعد!

* * *

كانت خفارة ليلية من تلك الخفارات التي تعودتُ فيها استقبال الجثث المشوهة والرؤوس المقطوعة، وتجميع بقايا الجثامين ومحاولة العثور على الأجساد الصحيحة للقطع البشرية التي تأتينا متناثرة ومهترئة، في أبشع نسخة للعبة «بازل» يمكن للعقل البشري أن يتخيلها. كنتُ طبيباً جديداً حديث التخرج، وأعمل كمقيم دوري في مستشفى في منطقة ذات غالبية سنية، وذلك على الرغم من أن تعييني بعد تخرجي مباشرة كان قد جاء في منطقة شيعية، إلا أن الزملاء في تلك المستشفى وهم ذاتهم من الشيعة، كانوا قد نصحوني بالانتقال إلى مستشفى أخرى نظراً لأصولي سنية المذهب، واسم العشيرة الذي يشير إلى ذلك؛ وآسفاً، اضطررتُ للانتقال حفاظاً على حياتي، بسبب الحرب الطائفية في ذلك الحين.

مع نهايات العام 2006، أي في قمة تأجج الاقتتال الطائفي، كانت المستشفيات تستقبل الجثث أكثر من استقبال الجرحى والمصابين. وأكاد أجزم بأن طبيباً في ضعف سني حينها، وفي بقعة أخرى من العالم، لم يكن قد تلقى على مر حياته المهنية، عدد الجثث المشوهة التي استقبلتها أنا في هذه الفترة القصيرة، ومؤكد أنه لم يقف على الخبرات البشعة والوحشية التي كنتُ أستقرؤها من الضحايا الذين حاولتُ انقاذ بعضهم عبثاً. كان اغلب العمل أثناء الخفارة ينحصر في معاينة الجثث وتحديد أسباب الوفاة، ثم تدوين التفاصيل على قِصاصة صغيرة، يتم تعليقها في إصبع القدم الكبير، لكي تُنقل الجثة فيما بعد إلى الثلاجة. وكنتُ دائماً ما أقف حائراً أمام مسؤول الثلاجات الذي يكرر سؤاله المعتاد:

ــ نقفّل الثلاجة دكتور؟ خلاص؟

ــ وآني شمعرفني؟ آني مو عزرائيل.

ثم أردف أحياناً بيأس:

ــ قفّل عيني قفّل.

إذ أن سيارات الجثث لم تكن تنقطع، وكنت أستقبل في أثناء خفارتي ما لا يقل عن سبعين إلى ثمانين جثة، وما من ضمان أن الجثة التي بين يدي، ستكون الأخيرة.

في تلك الليلة التي غيرت حياتي وستبقى تلاحقني ما حييت، تلقيتُ اتصالاً من أحد اقربائي يبلغني بأن ابن عمتي خالد، تعرض لإطلاقات نارية في مواجهات بين القاعدة والقوات الأمنية، خلال تواجد المسكين في محله لممارسة عمله. أقفلتُ الخط وأنا شبه متأكد من أن جثته ستنقل إلينا، لقرب المستشفى التي أعمل فيها من المكان الذي قتل فيه.

وبالفعل، وصلت إلى المستشفى سيارة تكدس فيها عدد من الجثث، وبعد بحث قصير وجدت ابن عمتي بينهم. كانت مشاعري في تلك الأثناء قد تبلّدت، فاستلمتُ جثته كما أفعل مع العشرات غيرها، عاينتها ومن ثم كتبت تقريري، ودونتُ القصاصة المعتادة ثم علقتها في إصبع قدمه. تلك كانت الصدمة الأولى التي استقبلتها مخدّراً، وقد تعطلت أحاسيسي، إذ لا يمكن أن تهزني كارثة أكبر من هذه التي نعيشها أصلاً!

بعد مضي بعض الوقت، جاءنا خبر أن جسد امرأة يرقد في الغرفة الفلانية بين الحياة والموت. ضحية جديدة من ضحايا الخطف والتعذيب التي انتشرت كالنار في الهشيم، في بلد يسوده اقتتال وعنف طائفي لم تشهد المنطقة له مثيلاً من قبل. ولأنها امرأة، فقد طُلب من زميلتنا الطبيبة في قسم «النسائية» رؤيتها، والتي بدورها، رفضت المهمة بشدة خوفاً من المسؤولية. فالمرأة الملقاة على ذلك السرير قد تموت في أية لحظة، وهي مجهولة الهوية وطائفتها غير معرّفة بعد؛ ثم أنها مؤكد ضحية اغتصاب، ما يعني ملاحقة عشائرية أو عائلية ستكون الطبيبة الشابة في غنى عنها، في خضم وضع متأزم وعصيب كالذي كنا نعيشه. ففحص النساء المغتصبات مهمة ثقيلة في هذا التوقيت العنيف، إذ أن بعض الأهالي قد يتهمون الطبيب بتمزيق غشاء البكارة في أثناء الفحص، فمعظمهم يعيشون حالة إنكار أن تكون ابنتهم قد تعرضت للاغتصاب والانتهاك، ولمثل هذه الأسباب، فان المهمة والمسؤولية الملقاة على عاتق الطبيب، تكون ثقيلة جداً، وفي بعض الأحيان مرعبة.

ما من مفر إذن! قمتُ من مكاني مستعيناً بالصبر، ومتجلداً بما سبق أن شهدته في الشهور الماضية من بشاعات التعذيب وضحايا الخطف والاغتصاب وغيرها. تُرى ماذا ينتظرني أسوء من الذي استقبلته مسبقاً على أية حال؟ ما الذي سيكون أقسى من استقبال جثة قريبي قبل ساعات قليلة مثلاً؟! لم أكن أعرف وأنا أقترب من الغرفة التي سجيت فيها تلك المرأة الشابة، أن هذه الحالة بالذات ستغير حياتي إلى الأبد. لم ألق بالاً لالتماسها وتضرعها كي أريحها من بشاعة الدنيا، بقتلها بجرعة بروبوفول زائدة. رددت باكية أن ما عاشته لأربعين يوماً على أيدي خاطفيها كان شنيعاً، لدرجة أنها لا ترغب في استمرار حياتها. تجاهلتُ كلامها محاولاً تجاوز الصدمة في لحظات. وأسرعتُ لمناداة ممرضتين طلبتُ منهما أن تساعداني. نزعنا عنها ثيابها كي ننظفها، فتفاجأنا بأن كل جزء من جسدها كان قد كتبت عليه كلمات نابية، حُفرت على جسدها بالموس. جروح تنز منها الدماء والقيح، بطنها، ظهرها، ساقيها، جسدها كله، مزقته تلك الكلمات والعبارات! أما مهبلها فكان قد سُد بالأتربة والحصى، وحاولتُ نزع الأوساخ التي عبأته بصعوبة شديدة، حتى أنني وحين استسلمتُ، طلبتُ شوكة طعام، وصرتُ انظفه بها، فانفجرت مثانتها فجأة، إذ يبدو أن مجرى البول كان قد ردم لساعات طويلة. وبدا جلياً أن مهبلها قد مزِّق تماماً، من كثرة الاغتصاب ومن محاولات التشويه والإيذاء المتعمدة. في تلك الأثناء، كان عقلي ينبض فيه سؤال واحد، أن كيف بوسع كائن بشري، أن يقدم على إلحاق هذه الفظاعة بكائن آخر، لا حول له أو قوة، على هذا النحو الرهيب، وبهذه الطريقة الشنيعة؟!

وبينما كنتُ أعمل مقاوماً إحساساً قوياً بالغثيان، من الفظاعة التي مورست على جسد هذه المسكينة، وقد تلطخت صدريتي البيضاء بالدماء والقذارة، كشاهد على الدنس البشري الذي في وسعه أن يحيل عِبء البراءة الفطرية إلى عهرٍ دنيوي لا يُغتفر، دوى في رأسي صوت هدير صاخب لتصفيق وترحيب حارّين لجماهير غفيرة. فرمشت عيناي بصعوبة من ضوء الكشافات القوي الذي يكاد يعميني عن النظر. وفي الوقت الذي كانت تداعب أنفي رائحة العشب الطازجة، وتهبّ عليّ نسمات هواء ندية تحف وجهي وساقي المكشوفتين، سمعتُ صوت صافرة اخترق روحي، أعقبه هتاف الجماهير المهيب!

* * *

تفتّح شبابي مثل غالبية العراقيين بين الحروب والحصار، والأوضاع الأمنية المتزعزعة والمضطربة. كنتُ في طفولتي أمارس لعبة كرة القدم، وتدرجتُ فيها حتى وصلت إلى اللعب ضمن فريق منتخب الناشئين. أي أنني كنتُ لاعب كرة قدم منذ الطفولة، وحتى مطلع الشباب؛ ومع تفوقي في الدراسة كان عليّ أن أختار بينهما، إما الحياة الدراسية ومن ثم العملية أو الاستمرار في لعب الكرة، سيما بعد أن انهيتُ الثانوية العامة بمعدل يخولني دخول كلية الطب. أخبرتُ والدي في حينها، أني سأحاول قدر استطاعتي الموازنة ما بين دراسة الطب ولعب الكرة، فأبدى تحفظاً رغم أنه لم ينصحني بالابتعاد الكلي عن اللعب، إلا ان الأمر كان صعباً بالفعل. ساعات التمرين اليومي، المباريات، المعسكرات، وغيرها من الضرورات للاعب الكرة، لم تعد تناسب جدولي الدراسي المكتظ. فاضطررت أخيراً للتخلي عن الحلم، والشغف الذي رافقني طفلاً، لأنغمس كلياً في دراسة الطب، التي تزامنت مع بداية سقوط النظام السابق، والاحتلال الأمريكي للبلاد. أي في أوج فترة الانفجارات والاقتتال الطائفي والوضع الأمني المضطرب، الذي أعقب ذلك.

أذكر أنني كنت في المرحلة الثالثة من الدراسة، وفي طريقي إلى الجامعة لحضور امتحان هام، عبر مسار معتاد يكون على النحو التالي، من بيت الأسرة في منطقة «الدورة»، أتجه إلى الكاظمية، عبر شارع المطار، ثم الخط السريع لحي الجامعة. فجأة تحولت إحدى السيارات أمامي، والتي كان بيني وبينها سيارة واحد فقط، إلى كتلة من اللهب، بعد ثانية أو اثنتين سمعتُ الصوت الرهيب للانفجار، وقبل أن أعي ما حدث، فقدتُ السيطرة من شدة العصف، فدارت سيارتي مرتين، ثم استقرت على الجزرة الوسطية للطريق وانطفأ محركها من تلقاء نفسه. جلستُ في مقعدي لدقيقة أستعيد توازني بعد أن هدأت الأمور، ثم نظرتُ حولي فرأيتُ عربة للأمريكان، وعرفتُ مباشرةً أن السيارة التي انفجرت كانت تستهدفهم. بحثتُ بعدها عن هاتفي الذي وجدته ملقى على المقعد بجانبي، لأتصل بوالدي وأخبره بما حدث. طلب مني أن أهبط من السيارة، لأفحص إن كان ثمة دماء قد سالت مني دون أن انتبه. فأخبرته أنني سليم. ثم طلب أن أتفحص السيارة، إن كان بها عطب خارجي. لا يوجد أيضاً!

ــ ارجع لسيارتك وشغل المحرك.

فعلتُ ما طلب مني، ودار المحرك بالفعل، فقال:

ــ خلاص، روح لامتحانك.

لا أدري حقاً ما هي نسبة احتمالات أن يصادف طالب آخر في أي بقعة أخرى من العالم موقفاً كهذا، قبل أن يدخل إلى قاعة الامتحان بأقل من ساعة؟! ربما يلخِّص هذا الموقف حياة الطالب الجامعي في بغداد، تحديداً في العام 2004.

والطريف في الموضوع أنني اعتدت تدريس أبناء الجيران مادة الفيزياء كنوع من المساعدة، وصرتُ أستخدم أمثلة عجيبة عن سرعة الضوء وفرقها عن سرعة الصوت. وغالباً ما كنتُ أستخدم هذا الانفجار الذي شهدته، على أن سرعة الضوء تسبق الصوت، لأنني انتبهت لتحول السيارة الى كتلة من النار، قبل أن يصم سمعي دويّ الانفجار! وكانوا يوافقون على هذا المثال الذي أضربه لهم، لأن منهم من شهد انفجاراً بنفسه. مواقف عجيبة، تدعو للاستغراب والألم ممزوجة بالفكاهة والضحك، فحتى أمثلة الفيزياء للطلاب العراقيين هي عجيبة وغريبة، ولا يمكن أن تكون قياسية أو معقولة لغيرهم من الشعوب مثلاً!

* * *

عملت لفترة في شركة اتصالات، في خفارات ليلية، زاملني فيها مهندسو اتصالات وأطباء. في الصباح، كان كلاً منا يذهب إلى عمله المعتاد بعد انتهاء الخفارة، وكنوع من التمويه، في تلك الفترة الطائفية العصبية، كنا نوصل بعضنا بعضاً. فنركب السيارة مع زميل شيعي في يوم، ثم في اليوم التالي يوصلنا زميل سني، وذلك كي نصعب من مهمة تتبعنا. وبحذر مضاعف، لأن المهن العالية كالطب والهندسة، كانت تعد مستهدفة جداً، ويصفَّون بسهولة تامة إذا ما عُرف المكان الذي يعملون فيه. أما شركات الاتصال فكانت مستهدفة بشكل مباشر، باعتبار كونها شركات أُسِست بمباركة من الأمريكان، وهذا وحده مدعى للتصفية.

كنا مجموعة من ثمانية، توطدت العلاقة بيننا، أغلبنا أطباء، أما هو فكان مهندساً، وكان اسمه أمير؛ شاب شيعي، أوصلني أكثر من مرة، وهو يبتسم نصف ابتسامة كأنه يستخف بالمغامرة اليومية هذه، وبكل الأخطار التي تهدد حياتنا. أو كأنه غير عابئ، أو غير معني، بهذا الرعب كله. يومها كنت في المستشفى صباحاً، بعد انتهاء الشفت المسائي في الشركة، حين استقبلت خبر اختفائه. أمير لم يعد!

كنتُ قد اعتدت في تلك الفترة تلقي اتصالات من معارف أو أصدقاء بين الحين والآخر، تطلب مني المرافقة إلى الطب العدلي، بغية البحث عن أشخاص مفقودين من أهلهم ومعارفهم. اتصل والده ليطلب مني مرافقته هو أخوه الذي كان صديقاً ايضاً، وطبيباً درسنا معاً أنا وهو. دخلنا يومها إلى بناية الطب العدلي، فباغتتني الرائحة التي كان يفترض بي التعود عليها، إلا أنني لم أفعل ابداً. رائحة مقرفة جداً للجثث المتعفنة والمتحللة. مزاد كبير من الجثث التي لم يأتِ أحد بعد للسؤال عنها، وآخرون غيرنا يبحثون عن ذويهم بينها. قلّبنا الجثث، دون أن ندري، هل نتمنى ألا نجده، كيما نعيش على أمل أن يكون ما يزال على قيد الحياة، أم نتمنى لو أننا نجده لكي نعرف لجثته طريقاً بدل أن يبقى مفقوداً، ودون جثة إلى الأبد؟! ليس هذا. وهذا أيضا ليس هو. حتى لمح والده يداً من بعيد، فصاح بصوت بدا لي متماسكاً:

ــ «ذاك هو. ايده، آني اعرفها».

أمسك الأب تلك الكف، ثم قلب الجثة وهتف:

ــ «أي هذا هو أموري وليدي، أعرفه من إيده».

كانت الجثة قد شوِّهت، وثمة ثقب في الرأس، ومن الواضح انه قد عُذِّب بشكل بشع. إلا أنه هو! رغم التشويه والتعذيب كان هو أمير!

* * *

كل هذه القصص التي عشتها، بانت أمامي في تلك الفترة كتراكمات، تسقط في جوفي الذي كنتُ أظنه يتسع ولن يفيض بما يحتمل، ظاناً بأني أكسح عني متعلقاتها بجَلَد، ومن ثم أمضي، متبلّداً، خاملاً، كي لا أفقد اتزاني كلياً إذا ما أعطيتُ المواقف استحقاقها الكامل. كنتُ اتحرك بين ذلك كله، ربما على أمل أن يخفَّ الخراب شيئاً ما. «من المستحيل أن أرى ما هو أسوأ!»، هكذا كنتُ أحدث نفسي. غير أني كنت قليل حيلة، وربما عديم الخيال ايضاً، لأن السوء والبشاعة والدمار تباروا بإظهار أبعد ما يمكن تصوره من القبح والفظاعة، التي بوسع البشر أن يحملونها في أنفسهم.

فوضى البلد المحتلّ، وقلوب الناس الممتلئة بالغل والحقد على بعضهم. كنتُ أمنّي نفسي أن لعلهم سيوغلون في قتل بعضهم لبعض الوقت، لينفسوا عن أحقادهم قدر ما يستطيعون، ومن ثم ينتهون، فننصرف إلى حياة أقل هدماً، نلملم بعدها أشلاءنا المبعثرة. إلا أن الفوضى تفاقمت. أصبحت خراباً عظيماً. ديستوبيا هائلة بكل ما في الكلمة من معنى، لكنها للأسف ليست مُتَخَيلة، بل واقع نعيشه، يوماً بعد آخر. أصحاب يتناقصون. آباء وأمهات يعيشون إما مكلومين، أو في هلع دائم على أبنائهم، ووطن يضيع ويُنهَش، بكل ما في معنى الكلمة من ضياع.

كان والدي ينتظرني في كل مرة أعود فيها، مراقباً الشارع، يفتح باب الكراج، يدخلني ثم يقفل الأبواب، ويتنفس الصعداء. أنا ولده الوحيد ولدي ثلاث أخوات، وأبي كان مدرس رياضيات؛ أفنى عمره كله لأجل تربيتنا وتعليمنا وتوفير احتياجاتنا، بل كان حريصاً حتى على ما يمكن أن يصنف بالكماليات، كممارسة الشغف الذي نطمح اليه، وفي حالتي كانت كرة القدم. في فترة الحصار، عمل والدي في ثلاث مهن متفرقة، وكنت بالكاد أراه، وكان بالكاد يستريح. يستحق والدي قضاء شيخوخته بسلام، بعد سنوات طويلة من

الكد والقلق والخوف، لا أن يستقبل فصلاً جديداً من العناء، وقلقاً مختلفاً على ابنه الذي تورط في مهنة باتت مستهدَفة، وسيُطلب بسببها رأسه!

* * *

نشأ حبي لكرة القدم مثل غالبية أقراني الذين كانوا مولعين بها. كانت ملاذاً لربما بالنسبة لجيلنا الذي لم يتمتع برفاهيات أخرى، وقضى طفولة خائفة ومضطربة بسبب أوضاع البلد غير المستقرة. ومثل أي مراهق صغير، حلمت باللعب في ملعب الشعب، وأن تهتف الجماهير باسمي. استمتعتُ بساعات التدريب رغم صعوبتها، لما كنتُ أجنيه من متعة خالصة. رائحة العشب المبلول، صياح اللاعبين، غرف التبديل، دفعات الادرينالين ومن ثم اليوفوريا التي تجتاحك كلياً، من بعدها الراحة التي تشعر بها بعد جهد، كل ذلك كان باعثاً للإدمان، لكنه كان يضفي قيمة لأيامنا الماضية.

أعطتني كرة القدم أهم درسين تعلمتهما في حياتي، مكّنتني أولاً، من مخالطة شباب من الطبقات البسيطة، ومن سكنة الأحياء الشعبية. وهو أمر لم يكن ليتوفر في بيئتي المتوسطة، حيث كنت أتحرك بين أناس هم أقرب شبهاً بي.

ومن كرة القدم، تعلمت أن ما تناله في هذه الحياة من رزق، مادياً كان أم معنويّاً، غير معتمد بالمرة على أصولك أو عائلتك، أو تحصيلك الدراسي. بل بمدى صلاحك مع الناس، والفائدة والمتعة التي تقدمها لهم، أو تلك التي يستخلصونها منك.

من خلال كرة القدم، خالطت شباب مدينة الثورة، والتي عانى سكانها، من صور نمطية عديدة، من ضمنها أنهم طبقة أدنى لباقي سكان بغداد، حتى أقل من باقي المناطق الشعبية. وكانت النظرة الشائعة عنهم، بأنهم غير متعلمين، ومناطقهم قذرة وغير مؤهلة. وبحكم أن غالبية لاعبي الفرق الرياضية، هم من هذه المنطقة تحديداً، انفردتُ بين أقراني ممن اعتادوا النظر إلى هذه المناطق نظرة استعلاء أو حتى ريبة، بتقربي من لاعبي مدينة الثورة، وكنتُ أعتز بمخالطتهم ورفقتهم. وخلَق ذلك لدي قناعة واستعداداً لتحطيم الصور النمطية أياً كانت.

من هذه النقطة، أدركتُ أن المرء يكون متعَباً جداً متى ما وضع الأحكام على الآخرين، لأنها تهلكه نفسياً من حيث لا يعلم، وكلما أتخِمت روحه بأفكار مسبقة، كلما تعسّرت طريقه في الحياة. في تلك السن المبكرة، كان هذا درساً قيّماً جداً لي، لأنني بتُّ أتحرك في مسارات الحياة المتعددة، دون محاولة إصدار أحكام على البشر، سواء فرادى أو جماعات. يذهلني أن الناس لهم القدرة على إطلاق الأحكام على شعوب أو جماعات كاملة، وشحن ذواتهم بأحقاد وضغائن يملؤون بها أنفسهم، ضد أناس لم يلتقوهم في حياتهم، ولا يعلمون عنهم شيئاً البتة. سواء لأنهم يدينون بأديان أخرى، أو ولدوا ضمن أعراق أخرى، أو أن تكون ثقافاتهم وأنماط حيواتهم مختلفة، على نحو سافر.

عندما رجعتُ إلى العراق، بعد سنوات طويلة قضيتها في الخارج، وعدتُ للقاء بعض أصدقائي من سكنة أرقى أحياء بغداد، المنصور، شارع الأميرات، وغيرها من المناطق التي تعد راقية، أولئك ممن كانوا يستنكفون مرافقة شخص من مدينة الثورة مثلاً، اكتشفت أن بعض هؤلاء، وعلى الرغم من النشأة التي يفترض بها أن تكون مترفة وراقية، قد تحولوا لوحوش بشرية. كائنات ممسوخة إنسانياً، ومشوهة نفسياً. لم يعد الصديق القديم الذي أعرف! تبدّل تماماً، تحول إلى شخص فظيع؛ جشع للمادة، ولا يملك القدرة على التعاطف أو التواصل الإنساني مع الآخرين. لعل هذه الصفات المستحدثة سببها الرئيس هو ما يصطلح عليه بـ«مخلّفات الحروب»، تلك التي شَرَخت النفوس، وابتلت من عاب، وقلبت حياته وشخصه رأساً على عقب؛ ذلك الذي ليس له حظوة في هذه الدنيا سوى التفاخر بأصوله وأسرته وإمكاناته المادية، ستتفنن الحياة بالطرق التي تذل فيها كبريائه، لتظهر أسوأ ما فيه. أحياناً أسائل نفسي، إن كنتُ سأستحيل إلى هذا الكائن المشوه لو أنني بقيت؟ لو أنني مكثتُ أجمع أشلاء جثث مشوهة ومقطعة قُتلت على الهوية؟ ما الذي كان سيبقى من إنسانيتي، وكياني، وتعاطفي؟ هل تراها لعنة خصّت ولم تشمل الجميع، عفيتُ أنا منها؟ وما سر هذا التوفيق الذي قادني إلى نتيجة أخرى تماماً، هي بالضد مما قادت اليه غيري؟!

في الليلة التي عالجت فيها زميلتي الدكتورة ريم، عرفتُ أنني لن أبقى في العراق طويلاً. ما رأيته من بشاعة كان فوق احتمالي، ويفوق كل الفظاعات التي مرت سابقاً. عرفتُ فيما بعد منها، أنها خُطفت من قبل عناصر إرهابية، أخفوها في دار بين البساتين، في إحدى ضواحي بغداد، حيث عُذِّبت واغتصبت لأكثر من أربعين يوماً، ثم تركوها حالما بُلِّغوا بأن دورية شرطة في طريقها إليهم. تركوها لتموت موتاً بطيئاً، لم يتوقعوا بأنها ستعيش! عدتُ بعد ذلك اللقاء المشحون إلى البيت، لأخبر والدي وأهلي أني سوف أغادر العراق؛ وفعلتُ ما أن اتيحت الفرصة.

* * *

غادرتُ العراق كأغلب العراقيين قاصداً عمّان في بادئ الأمر، وساقني القدر إلى مدينة بوخارست عاصمة رومانيا، التي احتضنت حلمي في متابعة دراسة الطب. كنتُ محظوظاً جداً في هذه البلاد، فالشعب مرحّب وغير متحامل بحسب تجربتي معهم، ويحترم من يجدّ في عمله من الغرباء، سيما إذا ما أثبتَ بأنه متحمس للتعلم والعمل، وغير متواكل أو متكاسل. تتمتع رومانيا بالعديد من الميزات التي سهلت عليّ مهمة العيش وصعوبات الغربة، من ضمنها مثلاً أن المستوى المعيشي في البلاد يعد متوسطاً، فلم يرهقني كثيراً في تأمين أول سنين الاغتراب التي تكون بالعادة صعبة ومنهكة.

أخبرني والدي ما ان استقررتُ خارج العراق، بأنه أخيراً بات قادراً على النوم باطمئنان، وذلك بعد أن فقد تسعة من عائلته ما بين أخوة وأبناء أخوة، في أحداث 2003 ــ 2008.

خلال وقت قياسي، حصلتُ على فرصة ممتازة في مستشفى جامعي مرموق يستقبل كل طبقات الشعب؛ هناك واتتني الفرصة للتعرف أكثر على هذا الشعب المسالم إلى حد كبير، والذي يستقبل صداقتك بسهولة ودون تعقيد. يصدف أن يكون هذا الشعب الأوربي، أكثر شبهاً بشعوبنا الشرقية، بالمقارنة مع باقي دول أوربا مثلاً، أو الدول الغربية عموماً. بل لعله أقرب شبهاً بالشعب

العراقي بالذات، من ناحية أنه قد مر بأزمات مشابهة. إذ قطع مرحلة مؤلمة مع حكم دكتاتوري فاشي، أثناء حكم نيكولاي تشاوتشيسكو[57]، فكانت ثمة لغة واحدة تجمعنا، إذا ما تشاركتُ مع الرومانيين الحديث عن المآسي التي مررنا بها. كانوا مثلنا تماماً، محرومين من السفر، يقفون في طوابير طويلة للحصول على مؤن غذائية بسيطة، حصص تموينية، انقطاع عن العالم، انقطاع للتيار الكهربائي، تمجيد لشخص الحاكم الواحد، والحزب الواحد، بالإضافة طبعاً لقمع وسلب الحريات، وفاشية وتعسف في التعامل مع من تسول له نفسه معارضة الحكم. وهنا لا بد أن تتشابه التجربة والصور، فالسلطات الفاشية كلها تتطابق في طرق القمع، باستثناء ربما مسألة الدم! إذ لم تسل الدماء في رومانيا بالكم الذي سالت به في العراق، ولا بذات البشاعة والوحشية. يخبرني الأصدقاء من الرمانيين أن البلد عانى كثيراً من فقد أبنائه فترة الثورة التي أسقطت حكم تشاوتشيسكو سنة 1989. ولهذا السبب كان بوسعي توصيل المأساة التي ألمت بنا كعراقيين، بسهولة لزملائي وأصدقائي الرومان، حيث ان صدى تلك السنوات البشعة ما زال يتردد في وجدانهم.

بالإضافة للمعاناة مع الدكتاتورية، فإن إحدى أسباب التقارب بيني وبين الشعب الروماني أجدها الدين برغم اختلافه، وذلك لأنه شعب مؤمن ومتدين، ونسبة كبيرة منه تلتزم بزيارة الكنيسة أيام الآحاد، وممارسة الطقوس الدينية، وهو أمر كفيل بجعلهم يتفهمون أنني أنا الآخر مؤمن بالرغم من اختلاف ديانتي. لكنني لاحظتُ أن شعوب أوروبا الغربية مثلاً تختلف في هذه النقطة تحديداً؛ فقد نبذت عنها الدين مع الإبقاء على بعض قشوره من شكليات. وسبق ولاحظتُ أيضاً بأنها شعوب تحمل ضغينة مستترة لمن استمر بالتمسك بمظاهر إيمانه. ولهذا فإنني وفق تجربتي الخاصة وجدتُ بأن الرومان يحترمون الديانات الأخرى، ولا سيما الطبقة المثقفة منهم، بل يكاد بعضهم يؤمن بأن الدين هو دين واحد على سطح هذا الكوكب، ومهما تباينت الأسماء، فأن الطُرق المختلفة هذه، جميعها تؤدي في النهاية إلى رب واحد. تلك قناعتي الشخصية ايضاً، بخصوص وحدانية الرب، وبالتالي فالدين أيضاً واحد، وتختلف التسميات اعتماداً في أي أرض ظهرت هذه الديانة أو تلك، وفي أي حقبة زمنية، وعلي يد أي مبتعث. من المؤلم ألا يكون قد توفر لي في وطني هذا التسامح والقبول، حيث يقتتل أبناء العشيرة الواحدة، تحزباً لطوائفهم أو مذاهبهم، التي تكون نابعة من نفس الدين. من المؤلم أن أعيش حريتي الشخصية بكل تفاصيلها بعيداً عن موطني الذي لم يوفرها لي.

أؤمن بصدق أن اللّه كان رحيماً بي، وجنبني العديد من الكوارث التي كانت ستسحق أحلامي جميعاً، وأحلام وأمنيات أهلي لي، كما كانت ستضيّع سنوات عديدة من التعب والسهر والجهد والقلق، كلها كانت لتذهب أدراج الرياح لو أنني لم أوفَّق للمغادرة والإبقاء على حياتي. أحياناً أتساءل عن أولئك الذين لم يحالفهم الحظ، وسقطوا برصاص الكراهية والحقد؟! أصدقائي وزملائي الذين قضوا وفارقوا الحياة، أو الذين تعرضوا للظلم والتعذيب، ترى كم منهم كان سيكون لافتاً في مجاله اليوم، لولا أنه في وقت ما تحول إلى مجرد رقم إضافي، أو لجثة غير معرَّفة، في سجل الموتى في الطب العدلي؟!

* * *

حوراء

تعرفت على دكتور أسامة عن طريق زوجي، نشأت أكرم[58]. كان صديقاً قديماً له مذ كانا يلعبان كرة القدم سوياً في أندية الناشئين. إلا أن أسامة اختار بعد تردد الالتحاق بكلية الطب التي حرمته من ممارسة كرة القدم الاحترافية، بسبب صعوبة الدراسة. لكن بالرغم من ذلك، حافظ على صداقة قوية واستثنائية مع زوجي، نظراً لافتراق طريقيهما وابتعادهما معاً عن العراق.

في البداية كان تعارفنا عن طريق مواقع التواصل، وكصديق مقرب لنشأت صرنا نتواصل بشكل منتظم، حتى التقينا أخيراً في مدينة دبي حين جاء للسياحة مع أسرته الصغيرة. شاب دمث وخلوق ولطيف جداً، ولا يشبه في الواقع الصورة النمطية السائدة للأطباء، فهو مرح وبشوش، بشكل لافت.

وكما يأخذنا الحديث دوماً كعراقيين مهاجرين، ليمر بنا عبر سنوات الهجرة وطرقها وبداياتها، ثم ما آلت إليه الأمور بعد ذلك، تطرقنا في الحديث إلى الشهور الصعبة التي سبقت تركه العراق، لأكتشفَ ان هذا الوجه الباسم الودود، يخفي خلفه حكايات مروعة. قص علينا ما شهده في تلك الليلة الرهيبة التي استقبل بها جثمان ابن عمته، ثم الجسد المعذَّب للدكتورة الشابة. كانت جلسة عائلية تسودها أجواء فرح واحتفال، ولم يكن حديث أسامة عن الآلام متعمداً، بقدر ما كان عفوياً وجاء ضمن سياق الكلام عن قرار الهجرة وتبعاته. امتلأت المحاجر بالدموع، وبعضنا ذرفها بصمت، بينما كان أسامة مسترسِلاً بسرد القصة بتلقائية كأنه معتاد على تلقي هذا الانفعال كلما حكاها. حتى أن زوجته طلبت منه ببعض الحرج أن يكفَّ عن ذكر مثل هذه التفاصيل الموجعة، لكيلا يتسبب بتغيير المزاج الجيد للحاضرين. لكننا كنا قد تورّطنا بالقصة، وتوقَّد فضولنا. مسحتُ دمعة متمنية عليه الإسهاب، وسألته عن حال ريم الآن، فقال:

ــ «غادرت العراق بالطبع. وانتقلت إلى بلد أجنبي».

ثم أردف ضاحكاً بتوتر، أن بوسعي اقتباس مثل هذه القصص وكتابة روايات عنها. مردفاً بعد برهة صمت:

ــ «لكن، لعل تصديق حكاية كهذه سيكون صعباً، إذا ما تحولت لرواية!».

انتبهتُ مباشرة لكلماته. هو يقصد بأن هذا المستوى من البشاعة لا يمكن أن يتحقق إلا بالخيال!

وهنا اتخذتُ قراراً لحظياً. استأذنته أن أدوِّن القصة كما هي مع الحفاظ على خصوصية الضحية. فوافق ورحَّب.

يقول الكاتب الأميركي مارك توين[59]، «لا تدع الحقيقة تقف عائقاً أمام قصة جيدة». وذلك لأن الحقيقة أحياناً تكون أغرب من الخيال وأكثر تعقيداً، حين يمتلك الخيال حظوظاً أقوى للتصديق والإقناع من الحقيقة المجرّدة. وتلك فكرة معاكسة لفكرة أن الخيال غالباً ما ينحني أمام الواقع، ويدعمه لخدمة سرد قصة مثيرة، أو تبرير حدث غريب. لكن حينما يكون الواقع نفسه عجيباً، أو

خارقاً وصعب التصديق لدرجة أن بإمكانه تحدي القبول والإقرار، يواجه الكاتب معضلة مختلفة، إذ كيف يقدم هذه الحقيقة بطريقة مقنعة وموثوقة للقارئ، دون أن تبدو مختّلقة أو مفتعلة أو حتى مبتذلة؟!

في أثناء كتابتي لروايتي الثانية «قِسمَت»، التي تسرد حكاية عن أسرة من الكرد الفيلية وقصة تهجيرهم، سمعتُ قصصاً عجيبة بينما كنت أحضر للمادة التي كنتُ سأعتمد عليها كمرجع ثقافي وتاريخي للرواية. سافرتُ إلى إيران، وتحديداً مدينة إيلام، حيث استقر عدد كبير من الأسر المسفّرة، التي ألقى بها النظام البعثي على الحدود، فوق حقول الألغام، ما بين البلدين بحجة الأصول أو التبعية الإيرانية. سمعتُ قصصاً تفوق الخيال لغرابتها حيناً، ولبشاعتها حيناً. وكان بالإمكان توظيفها والاعتماد عليها داخل النص، لكنها كانت بشعة، ولبشاعتها، كانت تفوق الخيال! إلى درجة أني خفتُ من تحوّلها لمجرد مشاهد كاريكاتورية، غير صالحة للاستهلاك الأدبي. بالإضافة لذلك، وهي المسألة الأهم، يبدو لي أن ثمة ما سيُفقِد الحقيقة بعضاً من بهائها متى ما تحولت لمجرد قصة خيالية؛ حيث لا يعرف المتلقي أن ما يستقبله على أنه وهم واختلاق، هو في واقع الأمر حدث حقيقي، وأن الشخصيات التي يعاملها على أنها هلامية، واهياً إياها بعضاً من مشاعره والقليل من تأملاته، وربما سينساها ما أن يغلق الكتاب، هي في واقع الأمر شخصيات حقيقة تستحق تعاطفه الكامل، ومشاعره الإنسانية الأصيلة!

ناقش الشاعر الإنگليزي ساموبل كولريدج[60] مفهوماً هاماً جداً في كيفية استقبال النص المتَخيل، فيما أطلق عليه اصطلاحاً (Suspension of disbelief)، أو ما يترجم إلى العربية (بالتعطيل الطوعي للشك). حيث اقترح كولريدج أن المتلقي، وعلى نحو تلقائي، يعطّل تصديقه مؤقتاً لكي ينغمس تماماً في العوالم الخيالية. إذ يؤكد كولريدج أن نجاح أي عمل أدبي أو روائي، يعتمد على هذه التفصيلة بالذات، وإقرار المتلقي التام بالعناصر الخيالية، واعتبارها حقيقة من أجل إنجاح القصة؛ ما يسمح للقارئ بالتفاعل مع التجارب العاطفية والفكرية التي يعتزم المؤلف نقلها، دون أن يعرقل ذلك استحالة وقوع الحدث، أو السرد، أو حتى انعدام معقوليته وتصديقه.

لهذا السبب تحديداً، أعد هذا الكتاب بالنسبة لي ككاتبة، مهماً للغاية، وفرصة ثمينة لنقل القصص والحكايات والسرديات الخاصة جداً التي أسمعها وتمر في طريقي، وأعلم آسفة بأنها لن تكون مناسبة للتوظيف الأدبي لأسباب عدة، من ضمنها أنها قد تبدو مبالغ فيها، وخيالية إلى درجة يصعب معها الإقرار بحدوثها. فهذه فرصة ثمينة لعرض سرديات عدد من الأفراد، على نحو يبتغي الصدق الكامل، دون تجميل تفترضه المناورات الأدبية، ولا تشذيب أو تعديل تضطر له ككاتب كيما تبدو قصصك وعوالمك الأدبية والفنية أكثر تصديقاً ومعقولية. كما أن السرديات الواردة هنا، هي حقيقية جداً، ومن النوع الذي يشفق عليه الكاتب من أن تتحول إلى مجرد قصة توظَّف ضمن منجز أدبي خيالي، يعمل المتلقي من خلاله على تعطيل شكه بغية المصادقة على التفاصيل غير المعقولة! فضمن هذه السرديات ثمة ما يدعو للتشكّك ربما، الناتج عن صدمة أو هول الحدث والتجربة التي يستعرضها الكتاب، لكنها حقيقة، ولا تدعو أبداً لتعليق خاصية التصديق لدى المتلقي.

* * *

السردية الحادية عشر

نور علي زيدان.. طفولة الأمَل المؤجَّل

كان من المفترض ألا أكون. جئتُ بعد تلك السنوات التي كادت تجف فيها المنابع التي تزود الحياة بالرغبة بالاستمرار.

جئت مثل جائزة ترضية، بعد وقت كان ليُظن أن الحياة على وشك أن تتوقف ولن تستمر. جئتُ بعد اليأس، فكنتُ أملاً لا يستدر الرجاء. بهذا المعنى كان وجودي، ولهذا فلطالما عاش في داخلي ذلك الإحساس من أنني كدتُ ألا أكون. أنا البنت التي ولدت بعد ثلاثة أبناء ذكور. كان وجودي ثمرة الحياة التي ظنوها جديدة ومعوِّضة عن سنوات الألم والاحتياج والقلق؛ فجئتُ أنا بعد أن اختفى أبي لأربع سنوات، عاد بعدها متهيئاً للحزن والانكسار. وهكذا كانت ولادتي لتبدو مثل معجزة غير مبررة. فقد أُسِر والدي من ضمن آلاف الأسرى في الحرب العراقية ــ الإيرانية قبل ولادتي بخمسة أعوام. حين غاب، وقطعت أخباره عن أمي الشابة وإخوتي الثلاثة الذين كانوا صغاراً في حينها، أقامت العائلة شبه مأتم عليه، بالرغم من أنه لم يكن قد اتضح بعد، إن كان قد أسر أو قُتل. في الحالتين كان الأمر يستدعي الحزن الممنهج، والتمرّن على البؤس الذي سيعقب ذلك. فالفقد دون خبر مؤكد يضع الإنسان في حالة برزخية، فلا هو متماهٍ مع الحدث، ومستسلمٍ للخسارة، ولا هو متأملاً ومتطلعاً للخبر المجهول الذي قد يخذله أيما خذلان، بعد سنوات من استنزاف الصبر والرجاء.

راقبتُ حياتي وهي تنزلق من حرب لأخرى، لاقتتال طائفي، ثم لعشرات المفخخات التي كنا نتفاداها بمعجزات صغيرة تتكرر يومياً بشكل عجيب؛ كأن أتأخر لأمر ما، فيحدث انفجار في مكان كنت سأتواجد فيه في اللحظة ذاتها التي تتطاير فيها الأشلاء البشرية في الهواء. ذلك أنني فقط لو التزمتُ بالمواعيد التي يفترض بها أن تكون دقيقة، كنتُ سأفقد حياتي.

لا شيء أكثر دقة من القدر، سوى ذلك الإرهابي الذي يضغط على زر التفجير فيحسم كل العهود والمواقيت، بضغطة يؤجل بعضها إلى يوم يبعثون، ويضع غيرها على قائمة انتظار لعلها لن تطول. أتُراها سخرية الأقدار التي يتكلمون عنها؟ أن أتقافز بين المفخخات وأتفادها مثل خبيرة بالمتفجرات تتلاعب بالموت دون أن يرف لها جفن؟!

* * *

كانت أمي قد تمنت أن تولد لها طفلة، فجاء ثلاثة من الذكور قبلي، ثم اختفى أبي. ولعلها ظنت في وقت ما، أن الحلم الذي راودها في أن تكون لها ابنة، قد تلاشى مع الأيام. لكنني جئت رغم ذلك. بعناد وإصرار دخلت إلى هذه الحياة وحققتُ لها حلمها الذي طال انتظاره. ولسوء حظي أو حظها، فإن الحصار الاقتصادي على البلاد تزامن مع طفولتي، ما يعني أنها لم تكن بقادرة على تحقيق أمنياتها جميعاً معي، من شراء الفساتين الملونة والأحذية الراقية الجميلة، وتجهيزي بكل المستلزمات الأنثوية التي كانت تتمنى أن تغرقني بها. لكنها أنجزت ذلك بطرق كثيرة أخرى، وتحايلت على الوضع الاقتصادي المنهك، بأن حولت فستان زفافها إلى فساتين صغيرة لي. كان بعض معارفنا يحاولون نهيها عن فعلتها تلك، فترد قائلة بأن إعادة استغلال فستان زفاف على هذا النحو، أفضل من تركه في خزانة قديمة لتأكله العثة، فهي لن تعود إلى ارتدائه على أية حال.

يثير دهشتي واهتمامي معاً، أن أمي كانت في مثل سني الآن حين أسر والدي. بين جيلها وجيلي تبرعم الألم والحسرة والتعب. أنظر اليها أحياناً وهي تتنقل في المنزل تمارس حياتها المتعبة في استمرارية عجيبة وكد وعناء لا ينتهيان، كأنها قد خُلقت لأجل المعاناة ليس إلا. أتخيل نفسي مكانها في تلك الفترة من حياتها. أتخيل شكل حِملها وآلامها النفسية المبرحة وأظن بأني كنتُ سأجزع. قطعاً لم أكن لأحتمل ما مرت به. قد يكون من السهولة التعامل مع الأعباء التي اعتدتُها، لكن يصعب ذلك مع تلك التي أتخيلها دون أن أعشها فعلاً. أن أكون امرأة في نهاية العشرينيات عاطفية ومرهفة، وأم لثلاثة أولاد، وزوجة أسير لا يُعرف ما سيؤول إليه مصيره، وعليّ أن أطالع الأسئلة في أعين الأطفال يومياً، بل وأحاول الرد عليها على قدر استطاعتي، فهؤلاء لا يتفهمون غياب أبيهم وحزن والدتهم. عليّ أن ألعب أدواراً وجودية كأن أكون الأم والأب معاً، وبالرغم من صعوبة ذلك إلا أنه أمر مفهوم، لكن كيف سألعب أدواراً عاطفية لكائنات أسطورية لا أعرف أن كانت قد وجدت أصلاً؟ أن أكون صدراً حنوناً وكتفاً سانداً، في الوقت الذي أكون فيه بأمسّ الحاجة لمن أسند عليه خيبتي وقلقي وعواطفي المنهارة! هذا بحد ذاته عبئٌ لا أفهمه، ولا أتمنى مزاولته أو أن أُمتَحن فيه.

كلما تستذكر الأسرة تلك الأيام السوداء، أجدني أحمد اللّه في سري أني لم أكن قد ولدتُ أصلاً، فلست أؤمن بقدرتي على تحمل ما مرت به عائلتي في تلك الفترة القاسية، حتى وان عُدّ الأمر هيناً بعد أن علموا بأسره، بعد ستة أشهر من استنزاف المشاعر والأمل، بالإضافة للخوف من هذا الأمل الذي يعتاشون عليه، ورعبهم من أن يخيب. ففي فكرة الأسر يكمن ثمة أمل ورجاء. إنه الفقد المطمئِن، أن تعرف بأن من تحب ما زال يتنفس وعلى قيد هذه الحياة اللعينة رغم كل شيء. تقول أمي أن أخي الأوسط الذي كان في الرابعة من عمره في ذلك الحين، كان يدور في البيت باكياً يطلب والدي، وكان بكاؤه يستمر لساعات طويلة حتى أنها عندما لم تعد تحتمل، وضعته عند جدتي عله يلتهي وينسى لبعض الوقت. كم كانت تلك الأيام قاسية حد أن مجرد ذكر كلمة الأسر تجعله يدمع بشكل لا إرادي حتى يومنا هذا، وبعد أن صار في الثلاثينيات من عمره، لا زالت الذكرى تنهكه وتعطب روحه.

كان الآباء ــ جيل مواليد الخمسينيات والستينيات ــ، وفي فترة الثمانينات يتم دفعهم إلى الحرب سواء شاءوا أم أبوا. والدي كان موظفاً حكومياً، سيق للحرب كجزءٍ مما أطلق عليه «مجهود حربي». لم يكن عسكرياً أو جندياً وليس له أي علاقة لا من قريب ولا من بعيد بالسياسة أو حتى بتأييد الحروب أو نبذها. وحين طالت الحرب أكثر من المتوقع وبدأت تلتهم أبناء جيله من الشباب بنهم غير مسبوق، صار الديكتاتور يزودها بالوقود والنار والبارود، وبالأعمار الغضة ودموع الأبناء وعرق الزوجات الصامدات في خضم هذا الأتون المستعر.

أنا لا ألوم جيل الآباء هذا على أي شيء، حسبهم أن الدراسة والزواج وشهور العسل والحب والأمل والتطلع إلى المستقبل، كلها كانت تسير بمحاذاة الحرب والموت والخراب والاستبداد. تلك كارثة حقيقية ومعصرة هائلة عصرتنا بقسوة، تجاوزناها جميعاً

بالنسيان رغماً عنا، لا برغبة منا، لأن ما جاء بعدها كان أتعس وأمرّ. جيل الآباء مسكين ومسحوق ومسلوب الإرادة والكرامة، طحنته الحروب والحصار والدكتاتورية، ثم الاحتلال والمفخخات والأحزاب والمليشيات وداعش وحكومة المحاصصات الطائفية. ولهذا فأنني أجنّبهم العتاب على أي قرار لم يُتخذ، أو غاية لم يسعوا لها، بل أنني لا ألومهم إن وقفوا صامتين تلفهم الحيرة والحسرة على حياتهم التي تلاشت في ظل هذه الفوضى والتعاسة. لا ألومهم حتى إن تقاعسوا أو جَبنوا!

* * *

لستُ متدينة بالمعنى التقليدي، لكنني أحب الطقوس والتقاليد التي تنبع من الأديان وأتشبث بها بطريقة قد يستغربها من يعرفني. فأحب رمضان وأجواءه الجذابة، والطقوس العاشوراتية في محرم، أو حتى تلك التي يقيمها السنّة في الأعظمية مع مولد النبي محمد (ص).

أنا من خلفية مختلطة على نحو طريف، فجدتي لأمي وجدتي لأبي، أختان شيعيتان تزوجتا من رجلين سنيين هما أبناء عمومة. فكان الرجال في عائلتنا من السنة، والنساء من الشيعة. وقد صنعت هاتان المرأتان نقلة «لطيفة»، في هذه العائلة التي اختلط فيها المذهبان بسلاسة عجيبة، على الرغم من بساطتهما والطريقة التلقائية والتقليدية التي كانتا تتعاطيان بها مع الدين. وبعيداً عن العقائد التي لم تعنني كثيراً، فإنني لطالما كنتُ أرى بأن المذهب السني هو مذهب السلطة، مذهب الدولة والقرارات الحكومية والمواقف الرسمية وما ينطق به التلفاز، سيما قبل سقوط النظام السابق. أما المذهب الشيعي فكان مرتبطاً في ذهني بالشارع والمجتمع، وبالأخص بالبسطاء والعامة؛ ربما لأن طقوسه في غالبها تقام في الهواء الطلق، وبين الناس. بالإضافة لارتباطه بالتراث والتقاليد، وتلك الطقوس السنوية الحسينية للقضية الشهيرة التي تحمل بعداً ثورياً، والتي تستمد منها مفاهيم ثورية، تكون في الغالب مناهضة ومنتقدة للسلطات المتعسفة. وأنا بطبعي، لطالما انحزتُ للقضايا وللمواقف الثورية، وللمضطَهدين والمهمَشين، فكان سرّ شغفي بطقوس شهر محرم، نابعاً من هذا المفهوم ربما.

من أعز ذكريات الطفولة إلى قلبي هي زيارات الإمام الكاظم[61]، الذي كانت تطلق عليه جدتي لأمي لقب «سبع بغداد»، وكانت تحرص على اصطحابي معها كلما زارته كنوع من الترفيه، فضلاً عن كونها زيارة دينية. أذكر كيف كانت تَقْلي «كباب العروق»، وتسلق البطاطا، وتحضر الطعام وملحقاته، ثم ترتبه في سلة صغيرة تحملها تحت عباءتها السوداء، بينما أتعلق أنا بأذيال العباءة وأسير خلفها. لم يكن صحن الإمام الكاظم بهذا الزحام الشديد، كما قد بات في السنوات الأخيرة، ولم تكن إجراءات التفتيش بهذه الصرامة. كانت جدتي تؤدي أولاً صلاتها ومراسيم الزيارة المعتادة، ثم أجلس وإياها في الصحن الكبير، في الهواء الطلق وتحت السماء المطعّمة بالنجوم المتلألئة، نتشارك الطعام الذي احضرته. وقد أجد في أطفال الناس المجاورين لي رفقاء مؤقتين للعب، فألعب وأتزحلق معهم على أرضية الصحن المرمرية، مستمتعة ومستغلة هذه المساحات التي كانت تبدو شاسعة ولا نهائية في تلك السنون المبكرة من عمري، حيث تتبدى الأمكنة والمساحات والأشياء أكبر بكثير من حجمها الأصلي. ثم في النهاية وبعد أن أشبع من الطعام واللعب معاً، ويتملكني التعب، ألقي برأسي في حضن جدتي فتغطيني بعباءتها المضمخة برائحة الجدات الطيبات. ألبث لدقائق قليلة أراقب الطيور في السماء.

ـ «الطيور تعرف موسى الكاظم، وتأتي هي الأخرى لزيارته.»

هكذا كانت ترد على سؤالي، عن سبب كثرة أسراب الطيور التي تحلق فوق الصحن، وتحوم حول المقام، كأنها هي الأخرى تؤدي الطواف والزيارة. ثم يغيم صفاء السماء في عيني شيئاً فشيئاً، ويثقل جفناي فلا أعود قادرة على ملاحقة الطيور بنظري الذي ينطفئ تماماً، حين أسقط في نوم مطمئنٍ وهانئ.

* * *

دائماً ما أفكر، أن لو كانت الظروف في العراق آمنة وطبيعية، لكنتُ في الغالب سأقع في حب شاب مسيحي، ببساطة لأنني تربيتُ في منطقة «الدورة»، التي عرفت بكونها منطقة يغلب عليها التنوع، وفيها عدد كبير من الأسر المسيحية والصابئة، وعدد لا بأس به من الأسر السنية وبعض الأسر الشيعية. ولكثرة المسيحيين في الدورة، في ذلك الحين، ولكونهم كانوا جيراننا وملاصقين بنا، أظنني كنتُ سأقع في حب شاب مسيحي.

«الكراش» الأول لي في مرحلة الابتدائية كان زميلاً آشورياً، اسمه وليد. كان يدعوني أحياناً إلى القداس يوم الأحد، فأذهبُ برفقة أمي، وكنتُ جد مبهورة بكنيستهم وتفاصيلها والأجواء التي فيها، إذ أن لها وقع مختلف في الوجدان، عن ذلك الذي يثار في داخلي مثلاً حين كنتُ أذهب لزيارة «الكاظم» برفقة جدتي. هذه الأماكن الروحانية تضرب ناقوساً ما في الأعماق على اختلافها وتباينها، إلا أنها كانت تثريني وتملأ جانباً ما في روحي، بقي معي حتى وأنا ابتعد شيئاً ما عن مظاهر التدين مع تقدمي في السن.

ما زلت أذكر اليوم الذي أخبرني فيه وليد عن هجرتهم الوشيكة. قال إنه سيرحل إلى أمريكا، ومثل غالبية المسيحيين العراقيين، ستكون أرض العم سام، هي وجهة أسرته. يومها اغرورقت عيناي بالدموع وأحسست بغصة عميقة في قلبي لأني لن أره أبداً! ثم مع تقادم الأيام نسيته، بل نسيت اسم والده ولقبه، ونسيتُ أن الدورة كانت منطقة ملأى بالمسيحيين الذين غادر غالبيتهم العظمى، فتحول الشكل الديموغرافي في المنطقة كلياً، حتى انتهى بها الحال في أعوام الحرب الطائفية إلى أن تصبح معقلاً «للقاعدة». تغيرت «الدورة» التي كانت تُعرف بنظافتها، وبيوتها العامرة بالحدائق الكبيرة، وتنوعها الثقافي والحضاري، لأرض ملعونة بالإرهاب والطائفية، والقتل على الهوية.

دائماً ما أردد، أن كل ما في العراق هو عراق مصغّر، ما يعني أنه فوضى مصغرة، وخراب مصغر! الدوائر، الجامعات، المؤسسات، الشوارع، البنى التحتية، البشر، النفوس، الأرواح، كل شيء! أما فيما يخصنا نحن المختلطين بين مذهبين، أو طائفتين، أو عرقين، أو ربما أكثر، فإننا في مصيبة يصعب أن نتخطاها دون خسائر جسيمة. في حالتي فأنا من أسرة لا يمكن تعريفها بأنها شيعية أو سنية. على سبيل المثال أيام الاقتتال الطائفي، أخي الذي يحمل الاسم «حسين علي حسين»، كان يعد بحسب الاسم، مطلوباً

«للقاعدة»، غير أن لقبه «الجنابي»، يعد لقباً سنياً، ما يعني أنه مطلوب للمليشيات الشيعية. يرعبني حتى مجرد استذكار هذا القلق، ولا أدري كيف أننا ما زلنا على قيد هذه الحياة العجيبة، رغم تلك السنوات الوحشية التي اختطفت من العراقيين أحبتهم بأبشع الطرق الممكنة.

ربما لهذا السبب، تعودتُ أن أحتفل، وعلى نحو مبالغ فيه، بكل أعياد ميلاد أصدقائي، فكل عيد ميلاد جديد في العراق، في تلك المرحلة التي تفتَّح فيها شبابي، هو نجاة جديدة، تستحق الاحتفال. كان الأصدقاء يتناقصون. بعضهم يهاجر، وبعضهم يتخذ رحلته الأخيرة سريعاً، قبل أن يعي معنى الحياة أو يتساءل عن معنى وجوده، وقبل أن يعشها بحق، تجده قد رحل دون وداع. على هذا النحو المطرد، تربى في داخلي غضب لم أستطع التنفيس عنه سوى بالفعل. وكنا قد تعبنا من الآمال الكاذبة، تعبنا من الانتظار والترقب، فكان لا بد أن نأخذ زمام الأمور بأيدينا.

* * *

على مدى السنوات التي تلت الاحتلال وسقوط النظام السابق، شهد العراق أنواعاً متعددة من أشكال المقاومة، بعضها مسلح ومؤدلج، بفصائل سنية وشيعية، قاومت الاحتلال الأمريكي، وبعضها سلمي ومدني على شكل مظاهرات تتأجج بين الحين والآخر. ورغم ما كانت تدعيه بعض الفصائل المسلحة من سلامة النية والوطنية والعمل ضد المحتل، إلا أن غالبيتها كانت توجه سلاحها إلى العراقيين أنفسهم ما أن تتغير المعادلة، أو تدخل النزعة الطائفية إلى الحسبة.

مع الوقت، تحولت الاحتجاجات جميعها لتتجه ضد النظام العراقي الفاسد، الذي وضعته الولايات المتحدة الأمريكية. النظام القائم على المحاصصة الطائفية وبالتالي استقطاب العراقيين طائفياً ومذهبياً. كان من المستحيل أن تقوم للعراق قائمة، وكل حزب من هذه الأحزاب الطائفية، وبغية إنجاح مشروعه الخاص والبقاء في السلطة، لديه رغبة في إفشال أي خطوة باتجاه عراق موحد، أو عراق يحاول النهوض بعد الكوارث التي لحقت به سواء قبل الاحتلال الأمريكي أو بعده.

كانوا قد وعدوا العراقيين بالتغيير والديمقراطية، وبوضع اقتصادي أفضل، لكنهم لم يأتوا إلا بما هو أسوأ من نظام صدام نفسه، الذي كنا نمني أنفسنا الخلاص منه، فبتنا نمني أنفسنا الخلاص من عصابة جديدة، انحدرت بالبلد إلى الحضيض، والى حرب أهلية أكلت الأخضر واليابس، فبات البلد في حال أكثر مأساوية مما كان عليه سابقاً.

حين هبّت نسائم الربيع العربي، في العام 2011، حملت معها الحماس والتحدي والأمل، للشباب الذي انهكته سنوات الاقتتال والطائفية وانعدام الأمن. شحن الشباب بآمال جديدة لأجل التغيير، تغيير الأنظمة الدكتاتورية والتطلع لدول تكون أكثر استقراراً وذات تجارب ديموقراطية حقيقية. ولم تكن الرغبة الأساسية لدينا هي تغيير النظام بالكامل، إذ أن النظام السابق كان بالكاد قد سقط منذ أعوام قليلة، فخرجت الجموع برغبة صادقة لأجل إصلاح نظام المحاصصة، وتغيير الوجوه السياسية المتكررة التي تعبنا منها. وبات الفرد العراقي يأمل فقط بالحصول على أبسط حقوقه، كالكهرباء والماء وتبليط الشوارع، والصحة والتعليم، الخ. غير أن الاحتجاجات انتهت بالقمع والمماطلة، ومن ثم تلاشت شيئاً فشيئاً.

بعدها بفترة جاءت موجة احتجاجات 2013، والتي كانت أساساً لأجل نيل حقوق المتقاعدين، ومن ثم مظاهرات 2014، لإلغاء امتيازات النواب. في تموز وآب 2015 بدأت موجة جديدة انضمت اليها قوى التيار الصدري[62]، انتهت باعتصامات في المنطقة الخضراء[63]، ومن بعدها دخول المتظاهرين إلى البرلمان في العام 2016. في العام 2018، كانت مظاهرات البصرة التي طالبت بالماء، فقُمعت بطريقة وحشية، حيث كان المتظاهرون يُمطَرون بالرصاص الحي وقنابل الدخان.

جميع هذه الاحتجاجات انتهت بالقمع الحكومي والمماطلة حتى تنطفئ جذوتها، بعد أن نفقد عدداً من المتظاهرين السلميين، فتهدأ المظاهرات، ثم تخمد، ونعود للانغماس في الحياة اليومية بكل مآسيها. نجلس في المقاهي، وعلى مواقع التواصل، نتشارك الأحلام والحديث والنقاشات، نراقب الكراسي الفارغة لمن غادرونا؛ يتناقص عددهم الواحد تلو الآخر، فلا تملك سوى أن تفكر، بأنك لربما ستكون المُفارق التالي!

كنتُ في المرحلة الجامعية الثانية، حين انخرطتُ في احتجاجات الربيع العربي. وفي تلك الفترة بدأت الحركة المدنية تنتعش وتقوى في العراق، مع الجيل الجديد الذي شب بعيداً عن إرث النظام البعثي. حملات تطوعية، منظمات مجتمع مدني، حملات ضد الزواج المبكر، إغاثة النازحين والمهجرين، الخ. كل ذلك تزامن مع الوقت الذي بدأت فيه مواقع التواصل الاجتماعي بالانتشار والتوهج، ما فعّل لدى الشباب توجهات وأفكار لم يكونوا ليطّلعوا أو يتعرفوا إليها لولا سبل التواصل الحديثة هذه. عدد كبير من الشباب الذي استقطَبته الأحزاب والتيارات الدينية والطائفية مسبقاً، بات يواجه أفكار مغايرة تماماً عن تلك التي غَلّفت عقله، لا سيما في تلك السنوات العجاف.

على مدى عقد من الزمن، أي منذ عام 2011 صعوداً، نشأ جيل جديد، فاعل بقوة ولديه المقدرة على الإنسلاخ من الماضي وكوارثه، والانفصال عن المسميات والقوالب التي كان قد تخندق ضمنها رغماً عنه، ثم لاقى حراكاً ثقافياً لم يعتد عليه الفرد العراقي، اتاحته له مواقع التواصل. شعب لم يعتد بالمرة على التعبير عن رأيه، ناهيك عن التعبير بحرية وانفتاح، بات قادراً على طرح الرأي والنقاش، وأن يكتب توقعاته ورؤاه، بل وان يوجّه الانتقادات والشتائم اللاذعة لذوي السلطة ايضاً!

إلا أن هذا الترف الجدلي الذي لم يكن متاحاً في السابق، على الرغم من أهميته، بيّن أن الفرد العراقي لم يتدرّب كما ينبغي على هذا النوع من الإدلاء، فسادت بالتالي الفوضى، لا سيما في حالات تصادم الآراء والأفكار مع الأجيال التي سبقتنا. لكن على الرغم من كل شيء، عُدَّ هذا الحراك الثقافي سبباً في منح جيلنا صوتاً عالياً، ونبرة مغايرة، وبالأخص ما بين شباب الحراك المدني، وذلك حتى الوصول إلى لحظة **تشرين**[64]**.**

كنا قد التقينا، أنا وهو، في مظاهرات 2015. كان مثيراً للانتباه بين البقية من الشبان، لحماسه المفرط، وحضوره المميز وطريقة إلقائه للقصائد الوطنية. تلازمه تلك النظرة الحالمة والرومانسية المفرطة في حب الوطن، نظرة قلّما بتنا نرصدها حالياً، لأن الناس

لم يعودوا متيّمين، سواء بالأوطان أو بالقضايا عموماً. كان لافتاً للنظر حتماً، بأسلوب تعبيره عن هذا الوله، وطريقة الاحتجاج والتعاطي مع الغضب والثورة. حينها، كان بيننا مجرد السلام والتحية، لأن الوجوه كانت معروفة ما بين شبان المظاهرات الذين تجمعهم المقاهي ذاتها. ثم بدأت علاقتنا فعلياً في العام 2016، عبر الفيس بوك، حينها كتب منتقداً أحد رجال الدين الأقوياء من ذوي النفوذ، واستقبل على إثر ذلك عدداً من التهديدات، فكتبتُ له على الخاص كنوع من الدعم والاطمئنان عن حاله. قويت صداقتنا أكثر، يوماً فآخر، وبات يشاركني الأشعار والقصص القصيرة التي يكتبها؛ كما كنا نتشارك الطموحات والأحلام، وخسارة ذلك كله، مستبدَلاً بالآلام، ومشاعر الخذلان والفقد. في تلك الفترة، عرفتُ أن والدته تعاني من مرض السرطان، وعكف هو على الاعتناء بها، لأنه الأصغر والأقرب لها من بين إخوته. لا بد أنه أحس بحاجة ماسة للدعم النفسي والمعنوي، وهو ما عزز من نوع الصداقة بيننا، بسبب احتياجه الدائم لمثل هذه المساندة، حتى توفيت والدته. وبوفاتها انكسر على نحو رهيب، لم يتعافَ منه أبداً. وعندما خضنا مظاهرات 2018، كان اندفاعه عنيفاً وأكثر قوة وبئساً. كنا نكتب ونوثّق للصحافة وللمنظمات العالمية، وكان مستوى القهر والقتل والاضطهاد يتصاعد على نحو مطرد، فشرعوا بقطع الانترنت، ثم قطع الطرق بين المحافظات، مع اعتقالات لمجرد ابداء الرأي كانت تتم من المنازل. ذلك بالإضافة للتصفيات التي كانت تتم في الشوارع بشكل مباشر وعنيف، بالرصاص الحي وقنابل الدخان.

خرجنا سوياً لمساندة مظاهرات البصرة المطالبة بالماء، في ساحة التحرير. وكان عددنا ليس كبيراً، فتوقعنا هجوماً من نوع ما. يومها دفعني هو على نحو مفاجئ في سيارة أجرة قائلاً بأن الوضع مريبك وخطير وعليّ العودة إلى المنزل فوراً. قبل أن أصل إلى البيت كان الأصدقاء قد أبلغوني بأن الأمن الوطني اعتقله مع بضعة أشخاص آخرين. دخلنا في دوامة من القلق والخوف. لكنهم أطلقوا سراحه بعد ساعات، وبعد الكثير من الضرب والإهانات والتهديد والترهيب، بأن لا يعيد الكرة. كان من الواضح عليه بعد إطلاق سراحه، أنه قد شعر بالانهزام والانكسار، وقد بلغ الأذى النفسي منه مداه. أسلوب التخويف والترهيب هذا تعوده العراقيون فترة النظام السابق، كأسلوب بعثي بحت، ما يعني أن لم يتغير شيء على الإطلاق في كيفية التعاطي مع المعارضة والاختلاف. الشيء الوحيد الذي تغير هو الشكل فقط، الشعار، الزي الموحد، اللون الزيتوني، الأسماء ربما، إلا أن الأسلوب والأداء وأدوات القمع البوليسية هي ذاتها، لم تختلف.

تهدأ المظاهرات، ثم تخمد، نعود للمقاهي والفيس بوك، نتشارك الأحلام والطموحات الضائعة. ثم نمضي.

حتى اندلعت مرحلة تشرين. كان هو قد تحول إلى صحافي جوّال على الدراجة، مغطياً الأحداث والتظاهرات التي بدأت تجتاح المدن العراقية بشكل هادر. ومجدداً، كان معرضاً للاعتقال أو الاختطاف، وتم تهديده وترهيبه بطرق مباشرة وغير مباشرة. كنتُ كلما اتصلتُ به في تلك الأثناء، أجد هاتفه مغلقاً، لأنه اعتاد أن يضعه على وضعية الطيران كي لا تقطع الاتصالات المتكررة للأصدقاء، تصويره وتوثيقه للأحداث التي كان يذكر فيها اسم المنطقة والتأريخ بوضوح، لأجل ألا تتم سرقة المحتوى ونسبه لمكان أو حدث آخرين. ولا أظن بأنه كان قادراً على الاستمرار في الحياة بطريقة طبيعية واعتيادية بعد كل ما شهده من دمار، ودماء، وقتل. كثيراً ما اتصل بي باكياً، بعد أن يستريح من عناء التجوال. كثيراً ما بدا عليه أنه فاقد للأمل بسبب الوضع المأساوي للشباب، أو الحال الفظيع الذي كان يشهده في المستشفيات التي تستقبل جثثهم أو أجسادهم التي أثخنتها الجراح، بفعل قناص يتربص بهم، أو بفعل الطلق الحي والقنابل الدخانية وغيرها.

كان مهدَّماً ومنهاراً نفسياً، بسبب مشاهد العنف والقتل. السفلة الذين كانوا يقتلون الشباب دون ذنب، كانوا قد أبعدوا الشباب بالتخويف وبالقنص الأفقي الذي يستهدف منطقة الصدر والرأس، من ساحة التحرير إلى ساحة الطيران، ثم حتى مستشفى الكندي، ثم لشارع فلسطين وحتى القناة، إلى أن وصلوا بهم إلى مدينة الصدر، وذلك كله بالنيران والطلق.

لما كل هذا؟! لأن شاباً أو مراهقاً لا يملك ثمن التنقل من مكان لآخر، يأتي إلى المظاهرات على ظهر عربة «توك توك» ليطالب بحقه في التعليم، وبالماء والكهرباء، والخدمات الأساسية؟! ألهذا السبب يُقتل بهذه الطرق الهمجية؟! وتُعقد خطط أمنية في الغرف المظلمة للسياسيين السفلة من سقط المتاع، لكي يخططوا لقتل وقمع من؟ لقتل هؤلاء الشبان البسطاء؟!

حتى اليوم، وكلما مررت من ذات الطريق، من ساحة التحرير وحتى شارع فلسطين، أتخيل الأرواح التي أزهقت عبره. الأرواح التي ستلاحق هذا النظام الفاسد حتى هلاكه، فتشرين لحظة صادقة وحقيقة لشعب كان قد أنهك واستنزف تماماً، لكن بقي فيه من الرمق ما يكفي، ليقض مضاجع هؤلاء المجرمين، الذين يرتعبون من مجاميع من الشباب العزّل، من معدومي الدخل والفقراء. متحصنين في منطقتهم الخضراء، تلك المنطقة الموبوءة الملعونة التي قتل على مشارفها الآلاف.

لدي قناعة تامة، أن أي نظام قمعي، مجرم، وباطش، مصيره إلى زوال. بالرضا، بالسلام، أو بالعنف والشدة، سوف يتغير هذا النظام لا محالة! فالحياة لن تسير إلا بهذه الطريقة، ومهما طال الزمان. هذا مبدأ ثابت فيها، وتلك سنّة معتادة وباقية أبد الدهر. هل كنا نتخيل أن مجرماً عتيّاً وباطشاً كصدام حسين سوف يمضي ويتغير نظامه الفاشي؟ لكنه ها هو ذا، قد تغير ومضى، بغض النظر عن الطريقة. فتلك سنة الحياة، ولا مناص!

لم يكن صديقاً عادياً، كان شريك الأحلام، وشريك الصراع وشريك الأمل في عراق جديد. كان ملهماً بحماسه وعراقيته. هذا الفتى الصغير البهي، لن تملك إلا الافتتان بحميته واستبساله. تشرين لم تكن سوى بداية الطريق، نحو عراق مستقل وقوي ومدني، بعيدٍ عن الصراعات الإقليمية، وذو سيادة، تماماً كما كان يصفه هو. لكنه غادر الدنيا قبل أن يرى أياً من أحلامه تتحقق، وبموته أصبح أيقونة إلهام، بل أيقونة التظاهرات التشرينية؛ وصورته تلهب حماس الثوريين في البلاد مع عبارته الشهيرة التي غدت صرخة، «ما حد يحب العراق بقّدي!».

قبل مقتله بيوم واحد، كنا قد التقينا في المظاهرات، جلسنا بعد نهار طويل على الرصيف نأكل الفلافل، ثم تفرقنا دون وداع بعد أن قذفونا بقنابل الدخان، وكنا سنختنق أو نفقد الوعي لو أننا بقينا حيث نحن. اتصلتُ به أسأل ان كان قريباً، قال بأنه في شارع «أبي نؤاس»، يحاول التقاط أنفاسه قبل أن يعود أدراجه إلى جسر الجمهورية، المنطقة الأخطر. في اليوم التالي، تلقيت اتصالات من بعض الأصدقاء، يخبرونني أنه قد أصيب. للوهلة الأولى ظننتُ أنها إصابة طفيفة، ولبثت لدقائق في حالة انكار ما أكدوه، من أن إصابته خطرة جداً. قنبلة غاز في الرأس، كسرت الجمجمة وهشمت الدماغ. لم يلبث في المستشفى سوى ساعات معدودة، حتى

أعلنوا استشهاده نهاية اليوم. هكذا، انتهى الفصل الأخير من حياة شاب عراقي في السادسة والعشرين، كان قد فتح عينيه على بؤس وخراب وفقر، وأقفلهما مطالباً بأبسط الأحلام التي لم ينل منها شيئاً يذكر.

خمدت تشرين تماماً مع وباء كورونا الذي انتشر في العالم أجمع. فرغت الساحات، والخيم، والشوارع، شيئاً فشيئاً رغماً عن الجميع، ومهما حاولوا المقاومة والمواصلة. كان الوباء أشبه بمعجزة إنقاذ بالنسبة للسياسيين من القتلة، وحتى بالنسبة للمتسلقين، والمتطفلين من الحركات التي ادعت مساندة تشرين وكان في نيتها أن تركب الموجة فقط، وتتغذى على دماء الأبرياء، لأجل إعلاء وترسيخ أجنداتها الخاصة. حتى هؤلاء، أعفوا من الادعاء، ونالوا حصصهم من الانتباه والمساومات السياسية وغيرها، فاستحصلوا على المكاسب دون جهد، وتقاسموا فيما بينهم الغنائم. الخاسرون كانوا أولئك اللامنتمين لحزب أو لفئة أو لطائفة، أولئك الذين ان كانوا سيضيفون لسجل خسائرهم الثمينة والعديدة، خسارة أخرى، لن تكون سوى حياتهم. وتلك مقايضة بخسة، إذ كانت التكلفة أعلى بكثير من النتيجة!

لم أشفَ من الألم أبداً. وكنتُ أرتعد من فكرة أن تكون هذه هي النتيجة وحسب. بعد كل ما فعلناه وبعد كل ما خسرناه! هل يعقل ان يذهب دمه ودم ورفاقه هدراً؟! كنتُ أرفض تصديق فكرة أن يغدو صديقي مجرد رقم جديد مضاف إلى عدد الضحايا العراقيين، ضحايا التفجيرات، والإرهاب، والاقتتال الطائفي، والاختطاف والمساومة، واخيراً ضحايا المظاهرات.

غير أن هذه التجارب على صعوبتها وآلامها، خلقت مني امرأة واقعية. فبعد الانكسار الذي شعرتُ به من بعد تشرين، والاحساس بالخواء واللا جدوى، بتُ مدركة تماماً أن تشرين هي لبنة، خطوة تضاف إلى خطوات عدة، في طريق التغيير الطويل. وبت أكثر إيماناً بتكرار الفعل، لأجل إحداث التحول والتغيير. إذ أن هذا البلد لم يتم استلابه فحسب، بل تم ابتلاعه بالكامل من قبل العملاء والفاسدين، لا سيما مع التركة الثقيلة التي خلفها النظام البعثي؛ ولذا لا بد أن نعي بأن خلق أي نوع من أنواع التغيير سيتطلب سنوات وربما أجيال.

* * *

تتمثل المشاعر على نحو جليّ بعد ان تهدأ العاصفة. حين تمر بالطُرقات التي اقتلعها الخراب، وحيداً، وذهنك يذكرك بكل الذي كان وكل ما آلت إليه الأمور. ثم تمضي متسائلاً ان كانت الحياة بالفعل تمنحك فرصة جديدة، أم أنك دون الآخرين، دون الراحلين، لا تتمتع بامتياز مغادرتها أسرع؟!

بعد أن تهدأ العاصفة، عاصفة الخراب التي اقتلعت كل شيء، عاصفة السؤال، والحضور، والشباب، والدخانيات، والهتافات، والدماء المتدفقة في العروق، وتلك السائلة على أسفلت الشوارع المتضعضعة. بعد كل هذا، أتذكر كل الذين كانوا ومن ثم رحلوا، حتى أولئك الذين انصرفوا إلى مشاغلهم اليومية خالي الوفاض. ثم أتذكر أولئك الذين ضلوا طريقهم، ونسوا الأهداف والمبادئ الأساسية التي خرجوا لأجلها، وبدل مطالبهم في الإصلاح صاروا هم جزءاً من الفساد ذاته الذي خرجوا ضده، وداسوا على كل المبادئ التي نادوا بها.

أحياناً أرى بأن الفرد بشكل عام، والعراقي على نحو خاص، متى ما كان لوحده فإنه يكون فاضلاً أو صالحاً؛ لكنه حالما ينخرط مع الجماعة يتوحش، وهنا مكمن التأزم وصعوبة الثبات، وجوهر الامتحان. تُرى ما هو الخطأ في مفاهيم الجماعة وممارساتها؟ إذ أنه الكائن ذاته الذي يبدو فاضلاً وصالحاً مادام خارج المنظومة الحكومية على سبيل المثال، لكنه متى ما عمل فيها، هي ذاتها التي كان ينتقدها، فسوف يتجه للتماهي معها، ويغدو جزءاً من النظام ويمارس نفس الأساليب التي كان ينتقدها من ذي قبل. بل أن حتى القتل والسحل، والبشاعات، كما أغلب الممارسات الوحشية، غالباً ما تتم بطقوس جماعية، شيطانية واندفاعية، ووليدة لحظات مشحونة بالهياج الجمعي. حتى ذلك الأب الذي يرتكب الجريمة المسماة «بجريمة الشرف»، لو كان وحيداً، لربما فكر ألف مرة قبل أن يقدم على ارتكاب فعله، لكن بما أن عشيرته أو جماعته تحرضه وتدعمه، بل وتدفعه دفعاً لقتل طفلته، فإنه يرتكب فعلته دون تفكّر، لأنها مسوغة ومحبوكة، تماماً كما شاءت لها الجماعة أن تكون.

كاذب من يقول ان العراق بلد بلا حرية. وكاذب أيضاً من يقول إنه بلد لا تحكمه الميليشيات الإجرامية والقمعية، فالعراق بلد بلبلة وانفلات، وانعدام التنظيم والقانون؛ وذلك ينطبق على الحريات أيضاً، فنحن لدينا فوضى كبيرة في الحريات، وكثير من العراقيين مفهومهم عن الحرية مرادف للتخريب والفوضى، لأنهم ببساطة لم يهيَّئوا لاستقبال الحرية والتعاطي معها بمسؤولية واحترام. لم يبق شيء لم ينتهكه العراقيون بحجة الحرية التي حُرموا منها سابقاً. كل تناول هو تناول مبالغ فيه لدى العراقي، فهو يمارس طقوسه بجشع، يخرب الممتلكات العامة، يقود سيارته عكس الاتجاه، يشتم هذا وذاك عبر مواقع التواصل، وإذا ما نُهي عن هذه التصرفات فسوف يبين لك بعصبية أن هذه حريته وهو يمارسها بما أنها حق. وإذا ما سألته أن يُعرِّف لك الحرية، ستكتشف أن مفهومه عنها هو أنها مجرد فوضى دون محاسبة. إنها فوضى في تحدي الآخرين، تحت ذريعة الحرية المشوهة، فينتهك هؤلاء كل ما يمر في طريقهم من حرمات وقيم وعادات ومؤسسات ودولة. كل شيء حرفياً بات يتم تسخيفه وانتهاكه وتمزيقه دون حساب أو رقابة، سواء قانونية أو جماعية؛ وأصبح الفرد العراقي، بعد أن اعتاد هذه العشوائية الهائلة، يشعر بالتهديد تجاه أي محاولة لتنظيم شؤونه، ففكرة النظام بحد ذاتها باتت مرادفة لقمعه ومنعه من الحياة، ربما لارتباط النظام طردياً مع هذا المبدأ، فتناول العراقي مفهوم الحرية بهذه الطريقة المحرفة، بهذه الاعتباطية الفجة.

أظن أن جزءاً أساسياً من المعضلة، هي عدم الفهم. نحن لم نفهم أنفسنا وأوضاعنا بشكل جيد، وذلك حتى بالنسبة لهؤلاء الثوريين على سبيل المثال، فالكثير منهم لم يفطن لمعنى الانتفاضة أو الثورة التي يخوضها، وما الذي يقع على عاتقه من مسؤولية بغية التغيير والتصحيح. فما معنى أن يتذمر الناس مثلاً من العراق، دون أن يتساءلوا أو يدركوا ما هو العراق؟ هل هو كائن حي يتغذى ويتمشى ويتكاثر ويتنفس؟! أم أن العراق هو أنتم! هو نحن كعراقيين! فإذا كانت أوضاع البلد متردية فنحن جميعاً سبباً فيها. من عندنا يبدأ التغيير، قبل المطالبة به من قوى خارجية. متى ما تم تثقيف الشعب باتجاه مواطنة مشتركة وحقيقية، بدل الشعور الدائم لدى الفرد العراقي بالتقاطع مع الحكومة مثلاً وما تمثلها من مؤسسات أو حتى شخصيات، وأحياناً طوائف، وبالتالي يُغذى لديه الإحساس بالانفصال عن الأساس الجامع للمواطن العراقي.

ربما لهذا السبب بالذات يشعر العراقي بانعدام الأمان، وانعدام الولاء، لأنه لا يولي ثقته للحكومة أو لأي من مؤسساتها. فالعراق منذ تأسس حديثاً، هو كيانات وجماعات متنافرة ومتناحرة فيما بينها، تجتمع إذا ما امتلكت مصلحة مشتركة، وتتفرق متى ما انعدمت هذه المصلحة. أتمنى حقيقة العيش في بلد ينشأ على أسس وثقافة جمعية حقيقية، ومواطنة فيها احترام الآخر أياً كان، أو كان توجهه وميله. دون تفرقة، ودون شيطنة أيضاً.

* * *

بت شبه متأكدة وأنا أستقبل السنة الثامنة والعشرين لي على سطح هذا الكوكب العجيب، أنني لا أرغبُ بإنجاب الأطفال في بلد يتراقص على كف عفريت. إحساس بالخزي والأنانية يلازمني كلما تذكرتُ بأني لأجل حبي للأطفال، ولمجرد إشباع حاجتي الفطرية والغريزية هذه، سأضيف إلى هذا العالم كائناً معذباً جديداً. في واقع الأمر لم تعد مثل هذه التمنيات أو الأهداف أقصى طموحاتي. ولم أعد أملك الطاقة لأن أعيش القلق ذاته الذي عشته من جديد، مع كائن مسكين دون حول أو قوة، لأضعه في بيئة سقيمة كهذه؛ حيث سيكبر محفوفاً بالمحاذير والخطوط الحمراء، والعقد النفسية المتراكمة من مخلفات الحروب والصراعات التي لازمت هذا المجتمع، منذ الثمانينات وحتى الآن. لا يمكنني أن أنشئ طفلاً لأجعله لقمة سائغة للمتنمرين، وشرطة العيب والحرام التي تنشط في مجتمعاتنا ذات الرقابة المشددة. أو أن أنجب بنتاً مثلاً، فأعيش معها مجدداً كل التابهوات التي حفت بحياتي. سأموت كمداً لو حدث هذا، ووقفتُ دون حول أو قوة، غير قادرة على انتشال طفلٍ أنا وحدي المسؤولة عنه، من براثن هذه العلل الاجتماعية الراسخة عميقاً في المجتمع، تلك التي أفرزتها النزاعات والخلافات الطائفية والقومية والسياسية وغيرها.

أحلم بعلاقة أمومية مع طفل يذهب صباحاً إلى مدرسة، أكون مطمئنة أنه سيحصل فيها على تعليم جيد، لا يرسِّخ الكراهية المبنية على النزعات الشوفينية أو الطائفية التي تربينا عليها مثلاً في مدارس النظام السابق، الذي كان يكره ويشطب على نصف الشعوب والجماعات البشرية، أو حتى المدارس التي اتخذت طابعاً دينياً متطرفاً، وشعبوياً رثاً، في عراق ما بعد 2003. إن الذي يجرؤ على إقحام إنسان آخر في هذه الحياة ليورطه فيها، ينبغي أن يوفر له أبسط السبل الحياتية الحسنة، وهذا أضعف الايمان، لأن الوجود بذاته مأزق كبير. فسرعان ما سيكبر هذا الطفل، ليقابل أزماته الوجودية الحتمية هو الآخر، لكنه على أقل تقدير، سيقابلها مسلّحاً بعلم نافع وعزيمة على المضيّ ثابتة وغير مثبطة. وحتى وان كانت تلك معضلة الإنسان مهما كان أصله وموقعه فوق هذا الكوكب، إلا أن المعضلة الوجودية ذاتها تبدو أقل إيلاماً وشقاء من مكان لآخر.

أغلبنا في هذا الوطن، الذي يُدعى العراق، معقدون ومأزومون، وكلنا بحاجة ماسة لعلاجات نفسية مطولة، أقلها علاج اضطراب ما بعد الصدمة، من واقع كم الصدمات المهولة التي شهدناها. هل يمكن تخيل شعب، قضى خمساً وثلاثين عاماً تحت رحمة دكتاتور ذي نظام وحشي مثل صدام، عاش خلالها ثلاث حروب مدمرة، وحصار اقتصادي طويل ومنهك، ثم استقبل أعواماً طويلة من النزاعات الطائفية والسياسية والفوضى، تخللها انعدام أمني تام ومفخخات تتفجر بذات البساطة التي تنفجر فيها فقاعات الصابون التي يلهو بها الأطفال؟! هل يمكن تخيل المأزق الكبير للأفراد الذين يخوضون غمار الحياة المتعبة أصلاً في بلد كهذا؟! هل يمكن أن أختار شريك حياة غير مأزوم، إذا كنتُ أنا نفسي أخاف من ذاتي المعبئة بالقهر والخوف والأسى؟ وكيف سنربي طفلاً نطلقه إلى هذه الحياة ونحن لم نتطهر بعد من الأحكام الطائفية والعنصرية والكراهية المقززة التي قام ونشأ عليها وطننا؟ كيف سنملي على الطفل قناعات لم تنقّى كما ينبغي؟

بعد كل هذا، هل سأجد في روحي الجَلد والقوة لأشجع طفلي على حب الحياة والموسيقى وتذوق الفنون والآداب؟ كيف أجد الترف الحياتي الذي سيدعونا لإطعام الطيور في الحدائق؟ كيف أعيشُ يوماً بهذا الهدوء وهذه الدعة حقاً، فأوبخ طفلي بلطف، إذا دهس نملة أو قطف زهرة؟ وفق أي منهج سوف أفعل ذلك، مع طفل يرى بنفسه الصراعات القميئة، حيث يُحرق الأخضر واليابس منذ أعوام خلت، وتنتهي حياة الإنسان لمجرد خاطر قد مر في رأسه، أو فكرة تبناها؟

إنه أمر شاق! شاق جداً أن تكون أقصى أمانيك، هي العيش بهدوء وسلام. وأنا لست بقادرة على دفع هذه الأفكار عني، فهي تعذبني مراراً وتكراراً، لأني ببساطة لا أملك القدرة على حلها أو تجاوزها والتعايش مع الواقع الذي يفرضها.

أحياناً أتساءل، لو أنني صرت عجوزاً على فراش الموت، فهل من أمنية سأندم على عدم تحققها؟ ولا أجد في داخلي جواباً غير أمنيتي المثلى في العيش بسلام. سلامٌ خارجي أعيشه في الواقع، وسلام داخلي في التعايش مع ذاتي، دون صراعات، دون حروب، دون انتكاسات كارثية، وأفكار منهكة تستنزف حياتي.

* * *

السردية الثانية عشر

سام حيدو.. المصلّي للعشق، بين كنيسة ومِئذنة

ثمة أنواع من الهتافات كان يلاحقنا بها بعض الصبية، في المدرسة أو في حدود مناطقنا السكنية، تشير إلى ديانتنا المختلفة ببعض الاستهزاء. كنت أسمعها بين الحين والآخر، بنبرة ساخرة مع نظرة ذات مغزى تعقبها ضحكة تهكمية. في أحايين أخرى أسمعها بنبرة انتقاص، فيها مشاعر امتياز وإحساس بالفوقية، غير أنها جميعاً كانت ستفقد معناها مع الوقت، وما أن يصبح الأمر معتاداً. ربما أثر فيَّ عميقاً، في وقت ما من طفولتي، الإشارة إلى اختلافي، ديانتي وعرقي، إلا أن ذلك الأثر لم يكن لمجرد فكرة الانتقاص، بل لأجل ذلك الإحساس الفارق بالاختلاف في بلد ذا غالبية أخرى، وديانات ومذاهب متعددة، وتُترجَم فيه أنت كمسيحي ضمن الإدراك والإطار الذي يوضع لك مسبقاً كأقلية! لكنني كنتُ قد تجاوزت هذه الإشارات والمضايقات ببساطة، متسلحاً بالنضج وبباقي الأصدقاء والمعارف من المسلمين أو غيرهم، الذين كانوا يعاملوننا باحترام ومودة، وهو الوضع الغالب.

ولدتُ ونشأت في منطقة «الأمين الثانية ــ نواب الضباط»، وهي منطقة ذات طابع مختلط. مسيحي كلداني[65]، من أب تعود أصوله لقرية «القوش» شمالي الموصل. لكنها بغداد، العاصمة، والنشأة فيها بعيداً عن مسقط رأس الأجداد لها طبيعة فارقة، ولا سيما في منطقة كمنطقة الأمين حيث ترعرعت. وربما لهذا السبب بات الاختلاف أمراً إعتيادياً، وستتجاوز صدمته بسهولة ما دمت تتحرك بين مجاميع من المختلفين؛ هم ذاتهم قد لا يشبهونك كثيراً لكنهم يشاركونك أمراً هاماً، وهو أنهم متباينون أيضاً فيما بينهم ويتمايزون بخلفياتهم، وطوائفهم ولكناتهم، وأحياناً حتى في أشكالهم. فكانت النشأة في منطقتنا التي تميل إلى طابع شعبي غير متزمت، لربما كانت سبباً في إضفاء التقبل على شخصيتي. فقد لعبنا في طفولتنا مع بعضنا، مسلمين ومسيحيين، عرب وكرد، سنة وشيعة، كمجرد أطفال ليس إلا. كنا متجردين من المسميات والمتعلقات التي ستفرزنا لاحقاً كيما تسهَّل عملية التصنيف، وكيما ترتَّب الأحمال التي ستعلق على أكتافنا فيما بعد. وحتى تلك التلميحات التي كان يُقصد بها التجريح، أو التصرفات التي تصدر من شخص متعصب لربما، مثل ذلك الجار المتبرم دوماً، والذي كان يرفض مد يده لطعام طبخ في بيوتنا نحن المسيحيين، لم تعد تؤلم أو تجرح؛ تلك حدود إدراكه، ومثلها لم يعد يؤذيني، أو يعلِّم على اختلافي البيّن والفارق.

كنا ندخل بيوت بعضنا بعضاً دون استئذان. كانت الأبواب مشرعة، والجيران بكل طوائفهم وخلفياتهم المتعددة قد عُجنوا مع الذكريات الحلوة تلك. حين يطبخ الشيعة الهريسة في شهر محرم[66]، فإن ذلك يعني السماح لنا نحن الصغار بالسهر واللعب حتى الصباح في الشارع، بحجة مساعدة الجيران في صنع الهريسة. فتبقى أنوار الشارع مضاءة، وأبواب البيوت كلها مشرعة، لندخل ونخرج كما نشاء. نأخذ بذلك الذراع الضخم الذي تهرس به الهريسة، ندور به في القدر عدة مرات، ثم ننطلق بعد ذلك إلى الشارع، نلعب الكرة حتى ساعات الفجر الأولى، حينها تكون الهريسة قد نضجت، فيبدأ صانعوها بتوزيعها على أهالي المنطقة. يأخذ كل منا قدره ويقف في انتظار أن تصب له، ثم «يفرقع» الزيت وتُرش بالقرفة والسكر.

ــ «اطلب مرادك!».

هكذا يقولون. وكنا نطلب مرادنا ونطلق أمنياتنا؛ وكانوا يشعلون الشموع للعذراء ويطلبون مرادهم منها. وعلى الرغم من كل الاختلافات الظاهرة كانت المحبة قائمة.

أما قصص الحب البريئة، تلك التي كانت تختبر قلوبنا، وتجس النبض، إن كان به قوة على تحمل العشق الناضج الذي سيأتي في مراحل متقدمة من العمر ويرسل المرء إلى الهلاك، فلم تكن تميِّز المذاهب أو الأديان والطوائف. فعَشِقنا المسلمات ذوات الأرواح التي تبعث على البهجة، ووقعت الفتيات المسلمات والمسيحيات معاً في حب جيرانهن وأقرانهن من المراهقين، دون أن يميزن أن كان هؤلاء الصبية متيسرين لهن دينياً أو طائفياً أو حتى اجتماعياً. لا حاجز بوسعه أن يقف صامداً أمام الأحلام الوردية، ورعشات القلب التي نختبرها لأول مرة، فالحقائق الصادمة والمؤلمة لم تكن قد نبتت في وجداننا بعد.

* * *

منذ مطلع الشباب بدأتُ العمل صبيَّ حلاق. في ظل الأوضاع في ذلك الحين، كان العمل مهماً لأساعد في مصاريف البيت، ولكي يتمكن البقية من إخوتي مواصلة دراستهم. ومع الوقت تميزتُ فيما أفعل، ثم أصبح لدي محلي الخاص، وزبائن يطلبونني بالاسم. بعد سقوط النظام السابق وانتشار المليشيات وعناصر القاعدة وغيرهم من المتطرفين، تعرضتُ للتهديد أكثر من مرة. طالبوني بالتوقف عن فعل «الحرام»، ألا وهو تزيين النساء، والعبث بوجوههن كما كانوا يصفون الأمر. غير أني لم أكن قد حسمتُ قراري كلياً، إذ لم أعرف وجهتي التالية، كما وقد عزّ عليّ المضي هكذا بسهولة، عن سنوات من عمري قضيتها في المهنة، والصالون الذي صنعتُ اسمه بصبر وجهد. كيف أتجاوز كل هذا لأبدأ من جديد؟ وأين؟

في أحد الأيام، مع تفاقم تلك الأحداث، قابلني أحد هؤلاء المتطرفين[67] والذي كان قبل سقوط النظام، مجرد شخص عادي، لبس مسوح التدّين فجأة بعد زواله. بادرني قائلاً:

ــ «مو كافي؟».

ــ «كافي شنو؟».

ــ «كافي تشتغل بالحرام».

ــ «ما عندي شغلة ثانية. يعني شأشتغل مثلاً؟».

سكت قليلاً ثم أردف:

ـ «بعد كم يوم عدنا عرس. راح أجيبلك النسوان. خلي البنات اللي عندك يزوقنهن. وراها ما أريد أشوفك بالمنطقة وصالونك ينسد!».

وبالفعل. جاء ومعه مجموعة من نساء بيته. استقبلته، وقامت الفتيات العاملات عندي بتجهيز «نسائه» لعرسهم المنشود. لم يدفع الأجرة بطبيعة الحال، بل ذكرني بتهديده القائم، دون غمز أو لمز، دون أن يخزّني، كأنه ليس بحاجة لأن يُظهِر عدائية من أي نوع، لأنني سأمتثل بهدوء. لم تكن هذه الحادثة وحدها ما جعلني أغادر، فقد ازداد الوضع سوءاً، وكمسيحي، وصاحب صالون تجميل، كنتُ سأعد لقمة سهلة، ولن يطالب بدمي أحد؛ فكان لا بد من الرحيل. وبين لبنان وسوريا ثم أخيراً الاستقرار في مدينة أربيل، عرفتُ ألا مجال لعودتي للعيش في بغداد ربما أبداً.

* * *

يقولون إن العشق يكون مهلكاً بعد سن الثلاثين!

عشق تودعه كيانك كله، وعمرك كله، وتجاربك الفتية كلها؛ وإن شعرتَ لوهلة بأنك ستفقده لأي سبب، فإن حياتك كلها سوف ترحل عنك! كأنه التشبث الأخير بالشباب الذي صار يتناقص سريعاً، الفورة الأخيرة للشغف بالدنيا التي ستستقبلك كهلاً، بعد سنوات معدودة ستمضي كأنها رفة عين.

كان عشقاً حمل معه لعنة الحب المتخفي، تلك التي تأتي بالعادة مع سني المراهقة، مصحوبة بالقلق والتوجس من اكتشاف علاقة محرمة. الرسائل المتكتمة، واللقاءات السرّية، ورعب أن يُقبَض عليك بالجرم المشهود، فتعود مع هذه التفاصيل مراهقاً رغماً عنك. وحتى مع ارتشاف النظرات واللمسات الأولى، يبدو لك وكأنك قد عدتَ صبياً، مجرداً من التجارب، يستمرئ اللحظات كما لو كان أرضاً بكراً، لم يرعَ فيها حبيب من قبل. وبالرغم من كل التفاصيل الاستثنائية، والأوضاع المقلقة والمستحيلة التي أحاطت بعشق كهذا، إلا أنه الأمر الوحيد الذي شعرتُ معه بأن قد بات لي مقصداً أعيش لأجله أيامي الرتيبة، مهما حققتُ خلالها من أهداف.

لم يكن حظاً عاثراً ذلك الذي أوقعني في عشق فتاة مسلمة. لم أنظر للأمر من هذه الزاوية أبداً! بل كان الحظ كله في صفي، لكوني أخيراً قد وجدتُ فتاة الأحلام، والمرأة التي جعلتني أقرر قلب حياتي رأساً على عقب، لأجل الارتباط بها. ولم أكن يافعاً حين عرفتها ولا قليل تجارب، إذ كنتُ قد تزوجت وانفصلت، ولي طفلة من امرأة على نفس ديانتي.

غير أن هذه العلاقة بالذات، وأنا أقترب من منتصف الثلاثينيات، أودعتها فيض مشاعري وأحاسيسي التي لم أستشعر مثيلاً لها من قبل. رغم أنني منذ البداية عرفتُ بأن الأمر لن يكون سهلاً على الإطلاق، لكنني عزمتُ على تحقيقه مهما كانت النتائج. أما حبيبتي فكان وضعها أشد حساسية وإرباكاً، فهي لا تحب رجلاً من غير دينها فحسب، بل تحب رجلاً مسيحياً، مطلقاً وله طفلة. كيف لفتاة جميلة ومرغوبة ومتعلمة، لم يسبق لها الزواج، أن تُقنع أسرتها بالارتباط بي؟!

في بادئ الأمر نشأت علاقتنا بشكل اعتيادي، كانت إحدى زبوناتي، وكنتُ بسبب طبيعة عملي معتاداً على الفتيات الجميلات، بل محاطاً بهن على الدوام. لكنه الحب اللعين الذي يتملك القلوب، هو ذلك الذي هز كياني، مذ أثمرت نبتته، ومذ انتبهتُ إلى تردد هذه الفتاة الجميلة على المكان بشكل متزايد، حتى وان لم تكن بحاجة إلى أي إجراءات تجميلية.

ولما تقاربنا، والحب في قلبينا، لم نفكر مطلقاً بالفروقات، بالأديان، والمذاهب، والطوائف. لم نفكر سوى بهذا الوله الصافي الذي بات يترعرع شيئاً فشيئاً، ويمتد لكلينا، فأجّلنا كل الخلافات والصراعات لما بعد، واستمرت علاقتنا سرية لبعض الوقت.

كانت خائفة، ترتعد من اكتشاف العلاقة، وكنتُ أخاف عليها من القلق والرهبة في مواجهة أسرتها. ثم لما اعتزمنا أخيراً مواجهة الأمر في العلن، قررت حبيبتي إخبار أمها بكل التفاصيل التي نعرف مسبقاً أنها ستشكل صدمة كبيرة، وستعصف بنا وبعلاقتنا ريح عاتية، لا سبيل لإيقافها، لكن كان لا بد منها!

كنتُ معها على الهاتف أسمع الحوار بينها وبين والدتها، كنوع من المؤازرة والتشجيع. سمعتُ شهقة، ثم وابلاً من التوبيخ لما عرفت بأني مطلق وأب، أعقبتها صرخة اندهاش، بعد أن عرفت بأني مسيحي، فهتفت بهلع:

ـ «مسيحي! عوذة، عوذة، عوذة..».

ثم انقطع الخط فجأة!

ما زلت أذكر كيف أنها استمرت في تكرار الكلمة ست مرات، «عوذة.. عوذة..الخ». كأنها تطرد شيطاناً أو عفريتاً، وتستعيذ باللّه من وجوده. وبعد أن ألقت حبيبتي أحمالها عنها، بذكر الحقيقة كاملة لوالدتها، اتصلت بي لتقول معتذرة:

ـ «بس لا زعلت من ماما؟».

ـ «لا واللّه ما زعلت. هذا الطبيعي».

رفضت أمها العلاقة كلياً. رفضاً قاطعاً ليس فيه جدال. وعاقبت ابنتها تارة بالحبس في المنزل، أو أخذ هاتفها، وتارة أخرى بالعناد والترهيب. كانت تهددها بأنها سوف تخبر أباها وأخاها الأكبر. ولمّا لم تجد منها أي بوادر للاستسلام، قررت بالفعل إشراك الأب والأخ. وبعد سجالات عدة وانقطاع يعود بنا إلى عصر ما قبل الهاتف، عبر إرسال رسائل شفوية تكون أختها الصغرى هي الوسيط فيها، بما أن هاتف الحبيبة يكون قد صودِر من الأم، قرر والدها وأخوها الأكبر الذي قدم من دبي حيث يقيم، أن يلتقيا بي ليحلّا الموضوع نهائياً.

طَلب مني أن أقابلهم في بيتهم، حيث استقبلني الأب ببشاشة ولطف، وكذلك باقي أفراد الأسرة الذين لم يبدُ عليهم أي عدوانية أو حتى تجهم، إلا الأم، التي ظهرت بوجه عابس، وبسلوك يوضّح بأنها غير مستعدة للتفاوض قط.

حين فتح الموضوع، أخبرتهم أني مستعد لكل ما يريدون، لكني أسألهم النقاش أولاً. فقالت الأم بحسم:

ــ «ماكو شي نتناقش بيه، هذا الزواج حرام أصلاً».

حافظتُ على هدوئي، وأنا أخبرها بأني مستعد لتغيير ديني، ثم أردفتُ بحذر موضحاً:

ــ «بس هو الدين شنو؟ ورقة؟ ورقة تثبت آني مسيحي لو مسلم؟ يعني ما ممكن أصير مسلم على الورق، وآني بداخلي ما مقتنع وبعدني مسيحي مثلاً؟ بس إذا هذا الشي هو اللي يرضيكم، فآني مستعد له، وما عندي كل مانع!»

نظرت الأم إلى زوجها وابنها نظرة ذات مغزى، كأنها تقول: «أتريان، كم هو وقح!».

لم يبدُ على الرجلين الاستياء، لبثا صامتين بملامح حيادية يتأملان الحوار. ثم قطع الأب صمته ليتحدث بواقعية، أشار إلى كل العقبات الدينية والاجتماعية التي ستواجه علاقة كهذه، ثم لمّح لكونه غير معترض على المبدأ من الأساس، لكن من حقه أن يقلق ويخاف على مصير ابنته. لعله استشعر صدق مشاعري، وحرصي على حبيبتي وعدم رغبتي بالعيش في كذبة، رغم ما أبديتُه من استعداد لها. أخبرتهم أنني كنتُ أقضي ساعات طوال على مواقع الإنترنت، أبحث في مسألة زواج المسيحي من مسلمة، أخبرته أن ثمة مشايخ يبيحون هذا الزواج، وبوسعي أن أريهم الدلائل؛ وهو الكلام الذي قاطَلته الأم باستهزاء وسخرية. أما الأخ فلم يكن معترضاً على كلامي بل أمَّن عليه ووافق. بعد نقاشات مطولة، وبعد أن شعرت الأم بالتهديد من كونها لم تفلح باستمالة غالبية الحاضرين إلى صفها، غادرتُ منزلهم دون التوصل لاتفاق حاسم. لكن والد الحبيبة، احتضنني عند الباب مودعاً وهو يقول:

ــ «كان عندي ثنين ولد، واليوم أحسهم صاروا ثلاثة».

رغم ذلك، لم تسر الأمور بهذه السلاسة. أعوام سوف تمضي ما بين مشاكل وصراعات ونقاشات لا تهدأ. فترات انقطاع، استسلام، فصدود يعقبه هجر، فإقبال، ثم رغبة فإدبار، حتى باتت الأوضاع لا تطاق! وحلقة من مشاكل بلا نهاية، بين الأم والحبيبة، ما جعل الأخيرة تترك منزل أسرتها لتنتقل عند أقارب لهم، تجنباً لمزيد من الصراعات. ثم فجأة حدث ما بدا كأنه حلم. اتصل بي الأب دون سابق إنذار، ليقول:

ــ «إذا بعدك تريدها، فتعال اخذها! مالك علاقة بأحد. آني موافق».

* * *

كانت الشمس تقترب من المغيب قبالة سواحل جزيرة قبرص. بدت وكأنها على وشك أن تتدحرج لتسقط خلف الأمواج البعيدة، بينما وقفتُ على شرفة أراقب المنظر بهدوء. كل شيء في هذا المكان يبعث على الإحساس بالسلام، كل شيء يبدو خفيفاً وعفوياً وينساب بروية. وأنا الذي انهكته العواصف والمشاكل والاشتباكات، بحاجة ماسة لتصريف ذلك كله، واستقبال بعض السكينة.

وقفتُ أستشعر ذلك الثقل الكبير، ثقل سنوات من الصراع، والتحدي، والانتظار، ينزاح عن كتفي شيئاً فشيئاً. ولم أكن بعد قادراً على تصديق أنها أخيراً قد أصبحت ملكي. المرأة التي أمست كل أفكاري، وكل أنفاسي، هناك في الداخل، تدندن بأغنية عراقية قديمة، لم تغنها منذ سنوات ربما، ولا أعلم كيف طرت على بالها في تلك اللحظة:

«حاسبينك، مثل رمش عيونا بعشرتك لينا..

حاسبينك، انت كل العمر، وايامه وسنينه..

وداعتك، ذاك انت غالي، حبّيب وسلوة حچينا..

حاسبينك.. حاسبينك..»

كان صوتها الغني والمطمئن يشق طريقه عبر الهواء، مذكراً بالحياة التي تركَتها وراءها لتكون معي.

تذكرتُ اليوم الذي اتصل فيه والدها. لم أصدق أذني حينها. لم أكن قادراً على أخذ أنفاسي عندما نطق كلماته التي لم أتخيل أبداً أنني سأسمعها بهذه البساطة. «تعال. هي لك!»

كان صوته، الخشن والمكسور، ثقيلاً بالاستسلام. كان متعباً، منهكاً من الحرب التي خاضتها ابنته ضد أمها؛ غير أنه أخيراً وبعد صراع طويل، قرر أن يؤمّن ابنته عندي، مستسلماً لحب هدم جدراناً لم نكن نعتقد أنها ستنهار بهذه السهولة.

أما والدتها فكانت غاضبة. أكثر من غاضبة ربما. توسلت حبيبتي لها لكي تفهم، لكنها رفضت الخضوع للأمر الواقع، وقررت معاقبة ابنتها بالإقصاء، وبالإبعاد الذي أعقب كل محاولات التقرب والتودد إليها لنيل الرضا والقبول.

ثم تبع ذلك البعد صمت رهيب، بدا أكثر إيلاماً من أقسى العبارات وأحدّها وقعاً على الروح. اختفت الأم التي كانت ذات يوم أقرب الناس إليها، وحل محلها فراغ مهول، استقر بينهما مثل هوّة يستحيل عبورها.

تزوجنا في قبرص. كان الحفل صغيرًا جداً، أنا وهي، والبحر شاهداً علينا. أتذكر كيف نظرت إليّ وعيناها مليئة بالعزم على الاستمرار. لم يعد ثمة حجاب ولا تقاليد بيننا الآن، فقط حقيقة ما قاتلنا من أجله، وحقيقة ما أصبحنا عليه.

أنا وهي، وحيدين، بمواجهة الدنيا. كنتُ أشعر بثقل يدها الدافئة في يدي، والهواء بيننا مشبع بعاطفتنا التي تأججت قوية مع حبنا الخام. تلك لحظة لن أنسها ما حييت، جعلتني أرتجف قليلاً! ليس خوفاً، ولكن لأني شعرت بأن كل ما حاربنا لأجله يستحق هذه اللحظة بالذات. وأن هول ما فعلناه، وما تركناه وراءنا، هو ما يجعلني أرتجف كلما استرجعتُ ذكريات الأيام العجاف. لم يكن ثمة ندم في قلبي سوى على أيام ثمينة، ضاعت من عمرنا ونحن تحت رحمة قرار، سوف يتخذه عنّا شخص آخر.

عندما عدنا إلى أربيل، استقبلت أسرتي المكونة من والدي ووالدتي وبنتين وأخ أصغر، زوجتي بحفاوة بالغة. أشعروها باهتمامهم وتقبلهم وجودها بينهم، ولم يلقوا بالاً لما بدأنا نسمعه من همهمات وانتقادات صارت تسري بين بعض الأقارب والأصدقاء، عن الفتاة المسلمة التي دخلت بيت أسرة مسيحية من القوش. أخبرتُ أهلي جميعاً وبطريقة حاسمة، أنني لن أتقبل أي اعتراض من أي نوع، وأن مَن سينتقد زواجي هذا أياً كان، سوف يخسرني إلى الأبد، لأني سأحذفه من حياتي دون إعادة تفكير. تردد الكثير من الكلام الممزوج بالامتعاض، وصلني بعضه، فنفذت وعدي، وقطعت كل من سولت له نفسه التدخل في حياتي أو حتى إبداء الرأي فيها.

بينما استمرت القطيعة لفترة من الزمن بين زوجتي وأمها، بقيت علاقتها بوالدها وإخوتها الذين كانوا يطمئنّون عليها عبر الهاتف. بعد فترة، ذهبت زوجتي للقاء أمها التي انهارت حال رؤيتها بالبكاء. كانت دموعها متشابكة بمشاعر الخوف والغضب والشوق، مشاعر معقدة تمازجت في تلك اللحظة الصعبة. وكان من الواضح أن الفراق بينهما لم يكن سهلاً على أي منهما، رغم القسوة والرفض. لكن تلك الدموع لم تكن سوى بداية لانهيار جدار هائل تراكم بينهما.

بعد هذا اللقاء، بدأت الأمور تتحسن ببطء. لم يكن التصالح سهلاً، ولم تمحُ تلك اللحظة كل الجروح العميقة التي تركتها سنوات الصراع، لكنها فتحت نافذة صغيرة للأمل. كأن تلك الدموع كانت وسيلة لكسر الصمت الطويل بينهما، وجعلت الأم تدرك أن ابنتها قد نفذت قرارها، وأن عليها تقبله، أو على الأقل التعايش معه. تلك خطوة أولى صعبة جداً نحو استعادة العلاقة، وإن كانت تحتاج إلى الكثير من الوقت والجهد فيما بعد. أما أنا، ففي أعماق نفسي، كنتُ أعلم أن هذا هو الطريق الطبيعي. القطيعة بين الأهل بسبب الزواج المختلط لا تكون سهلة على الإطلاق، لا سيما في مجتمعات كمجتمعاتنا، غير أن الحب الذي يسكن روحينا كان أقوى من كل ذلك. وبرغم كل ما مررنا به، كنت على يقين أن زوجتي ستتمكن في النهاية من إعادة بناء جسور المودّة مع والدتها، وإن كان ذلك ببطء وبصعوبة بالغة.

* * *

كمسيحي شرقي، يبدو لي أنني أعيش على الدوام في مفترق طرق؛ بين هويتي الدينية العميقة وجذورها التاريخية، وبين محاولتي للاندماج في مجتمعات متعددة الأديان والطوائف. في كل خطوة من حياتي، كنتُ أجد نفسي في حالة من التأرجح المستمر بين الانتماء والاختلاف، وبين المحافظة على التراث والتكيُّف مع الواقع الجديد. وبين الخوف على نفسي من المتطرف القادم من خارج الجماعة، الذي قد يؤذيني بتطرفه حد التخلص مني؛ ومن خوفي من المتطرف الذي من داخل الجماعة الذي قد يزعجه فقر انتمائي، ورغبتي بالتسامح الذي قد يعتبره مفرطاً.

وهكذا فإنني تعودتُ العيش في بيئة قد لا تشبهني تماماً، لكنني بالرغم من ذلك، أعدُّ جزءاً أصيلاً منها. وكفرد من أقلية إثنية دينية، أجد نفسي أتحرك في المجتمع بوعي نشط على الدوام؛ وعي باختلافي العرقي، والديني، عن الآخر، ووعي باختلافي عن مكوني ذاته لكوني متميزاً عنه بفوارق قد لا تُغتفر، كأن أكون متزوجاً من امرأة مسلمة. فالزواج من مسلمة في هذه المجتمعات، مثلما عشته أنا، يمثل خطوة أبعد من مجرد قرار شخصي؛ إنه تحدٍّ للحدود الاجتماعية والثقافية والدينية التي وُضعت على مدى قرون، إذ لا ينحصر الأمر هنا بمجرد تفصيلة أن تتجاوز اختلافاً دينياً، لأنك ستواجِه مقاومة مجتمعية شديدة أحياناً، قد تأتي من العائلة أو المحيط، حيث تتصارع الهوية مع الحب، والتقاليد مع الرغبة في العيش بحرية.

وفي تجربة كهذه، فإن المسيحي الشرقي لا يعيش صراعه مع الخارج فقط، بل مع نفسه أيضاً. فهو متمسك بعقيدته، وبجذوره التي تشكل جزءاً أساسياً من هويته، لكنه في الوقت ذاته يدرك أن القيم الإنسانية المشتركة، مثل الحب والاحترام والتفاهم، هي التي يجب أن تكون في المقام الأول. وهذه التجربة بإمكانها أن تفتح له أبواب التأمل فيما هو أبعد من الدين، لتقوده إلى حقيقة أن الإنسان في الواقع، لا يُعرف فقط بدينه أو طائفته، بل بأفعاله، بقلبه، وبما في وسعه أن يعطيه للآخرين.

عندما ننظر إلى واقعنا كمسيحيين شرقيين، فان الحالة التي نعيشها من تأرجح مستمر، هي في الحقيقة ما يمنحنا عمقاً مميزاً، وبُعداً إنسانياً فريداً، وفهماً أعمق للتعايش والاختلاف. نحن أبناء تاريخ طويل من التعايش مع الآخرين، تعلمنا فيه أن نرى ما هو أبعد من الفروقات الدينية، وأن نقدّر قيمة الإنسان بذاته. وفي النهاية، سواء كنا مسيحيين أو مسلمين أو غير ذلك، ما يجمعنا هو الإنسانية، وما يبقى لنا هو الحب.

* * *

الاستدلالات..

تأخذ كتابة الكتب حيزاً من حياتنا. وقتاً طويلاً، وأحياناً عدداً من السنوات نكون خلالها قد تغيرنا، وربما تطورنا ونضجنا.

أما في أحيان أخرى، فمن الوارد أن نكون قد انتكسنا، وساءت أحوالنا بسبب ظروف ما، أو حتى بسبب تحقيقاتنا أثناء العمل على المنتج الذي بين أيدينا؛ ومع اكتشاف أن الإبحار في العالم بهذه الأدوات الخفيفة، مثل الأوراق والأقلام، قد يصعّب من مهمة النجاة بدلاً من تسهيلها، كما كنا قد ظننا واهمين. غير أن ذلك كله ينعكس في النهاية على الكتاب أو المنتج الأدبي، مخلوقنا الصغير الذي

يكبر شيئاً فشيئاً، ونصنعه بصبر الجدّات الحكيمات اللواتي تنحدر سلالتنا من أرحامهن العتيقة، تلك التي أنجبت أجيالاً وأجيالاً من الحَمولين على فنونهم وآدابهم.

قبل أن أنتهي من هذا الكتاب ببضعة شهور فقط، تموت جدتي، فتتغير خططي وأقرر أن أبدأ فصلي الأخير بها.

جدتي الكردية الفَيليّة، كانت امرأة مدوّرة بوجه ناصع البياض، وأنف مدبب الطرف. شفتان رقيقتان، وعينان لونهما عسليّ، ثاقبتان، نظرتهما تصرع من توجَّه إليه إذا حدّقت متوعِّدة. لكنها في أواخر أيامها فقدت البصر في إحداهما، ونال منها المرض الذي يبدو أنه كان بداية لمرض الزهايمر. لم أتأكد أبداً! لأنها قبل وفاتها بشهور، اعتادت أن تنظر لي نظرة متفحصة مشفقة، ثم تسألني بالكردية:

ــ «قلتِ إنك ابنة من؟»

ــ «نانه، أنا حوراء، ابنة حمامة. أخبرتك بذلك منذ دقيقتين».

فتنظر في حجرها معتذرة وهي تقول بنبرة من يدرك الأشياء أخيراً:

ــ «آه نعم، ابنة العربي».

ــ «نعم!».

تنتقل إلى اللغة العربية كنوع من الاحتفاء، لتسأل:

ــ «أبوج خوش ولد؟».

ــ «بعد انت بكيفچ، نانه».

تستطرد بعربيتها ذات اللكنة الأعجمية الثقيلة، وهي تضحك بفرح طفولي غريب:

ــ «إجى يريد مني مَرَة. قلتله انت صغير. عمره 20 سنة، بعده طالب كلية وعُربي، ويريد مني مرة. قلتله إحنا ما ننطي عرب. وحمامة العائلة كلها يريدها، ما قبلنا بيهم. أجي آني أنطيها إلك؟!».

تواصِل سرد القصة التي سمعتُها منها عشرات المرات، مستذكرة الماضي بتفاصيله الدقيقة، رغم أنها كانت قد نسيت اسمي ومن أكون منذ لحظات فقط. ودائماً ما كانت تؤكد أنهم كانوا يرفضون تزويج أبنائهم للعرب، ورغم ذلك، زوجت اثنتين من بناتها لهم، كما أن أولادها الذكور تزوجوا جميعاً من نساءً عربيات، واختلطت جيناتها بجينات القوم في نهاية المطاف. اختلط شقارها وبياضها الناصع بسمارهم، وأنتجت أحفاداً مهجنين، شكلاً وثقافة ووجداناً.

كانت جدتي قد تنازلت عن تفضيلاتها العنصرية في زواج الأبناء، بحكم ظروف الثمانينات العصيبة. بما أنهم كانوا مهددين بالتسفير، ومع وجود عدد من البنات، بدا أن من الأسلم لها التخفّف من هذا الحمل الثقيل بتزويجهن، حتى وإن كان ذلك لطالبي القُرب من العرب.

بموت جدتي، تندثر لغة. لغة كاملة، بكل تفاصيلها ومحفِّزاتها الثقافية والاجتماعية، في طريقها إلى الزوال من بغداد. فجدتي، أو كما نطلق عليها نحن بالكردية (نانه)، كانت من أواخر من تبقى من الجيل الذي حمل لغة بغدادية أصيلة، كانت تسري في أزقة بغداد العتيقة وتمارس نشاطها اللسانيّ بين العامة، حتى بدأت تتناقص شيئاً فشيئاً، بسبب الملاحقات والضغوطات على الناطقين بها. ثم بسبب التهجير، وأخيراً بسبب الخجل من الاعتراف بالأصول، لعنصرية المجتمع المتنامية ونظرته العدائية المنتقصة من كل ما هو أعجمي وغريب.

كانت بغداد في الماضي مدينة كوزموبوليتانية، تختلط فيها أعراق الناس، وتختلط بذلك ألسنتهم وخلفياتهم، فكان من الطبيعي أن تسمع في متاهات الأزقة والشوارع البغدادية العتيقة، بالإضافة إلى اللغة العربية، لغات أخرى مثل الكردية، والسريانية، والآشورية، والتركمانية، والفارسية، وغيرها.

تفتح وعي جدتي في فترة الخمسينيات حيث بغداد ذات التنوع الثقافي والحضاري النابض بالحياة والتباين. المَركز الذي مزج بين التقاليد التراثية الشرقية، والتأثيرات الحداثية التي كانت تهبّ رياحها من الغرب، لتمسح بآثارها الجلية على المدينة العتيقة. تطوّر حضري سريع ونماء فكري وثقافي، ضم مشاهد فنية مزدهرة، مقاهي حديثة، مسارح وسينمات، ومزيجاً من مجتمعات مختلفة، من عرب وكرد ويهود وأرمن وآشوريين وغيرهم؛ مما ساهم في ثراء ثقافي جليّ، حتى ألقت التغييرات السياسية ظلالها الثقيلة على بغداد، وغيّرتها ديموغرافياً وثقافياً.

شهدت جدتي خلال عمرها الطويل، كل التحولات والتغيرات السياسية التي جعلت من طائفتها الصغيرة المحبوبة، طائفةً مغضوباً عليها. فتغيرت أسماء الصغار، وبدلاً من الأسماء الكردية، باتوا يسمون أبناءهم بأسماء عربية، أو أسماء مزدوجة الثقافة، لكيلا يلفتوا الأنظار. اسم عربي في الهوية، واسم كردي ينادون به في البيت. بعد التهجير في مطلع الثمانينات، الذي طال الكرد الفيلية بحجة أنهم من التبعية الإيرانية، حيث صودرت أموالهم ثم ألقوا على الحدود العراقية ــ الإيرانية في العراء، تغيرت ذات الأسماء العربية إلى أسماء كردية أو فارسية، بغية الاندماج في المجتمع الإيراني الذي لم يكن هو الآخر ليعترف بأسمائهم الدخيلة، لا سيما إذا لم تكن تحمل إشارات دينية.

هكذا، نشأ جيل كامل من أقارب لي ذوو أسماء مزدوجة، تماماً كما هي خلفياتهم المزدوجة ثقافياً، ما بين العربية والكردية، ثم غيرها من الثقافات التي تناولتهم بعد التهجير والترحُّل بعيداً عن العراق. إلا أن أمي حملت اسمين عربيين بالمصادفة؛ فهي حمامة

في البيت، وفائزة على الورق. حدث ذلك بسبب جيرانهم المسيحيين الذين أعجبوا بها كثيراً وهي طفلة، حيث اعتادت جدتي أن تُلبسها رداءً أبيض، بدت فيه، وهي شديدة الشقار ذات اللون الحليبي، مثل حمامة تطير على الأرض. «هذه الطفلة كالحمامة»، هكذا لقبها الجيران، وبقي الاسم ملاصقاً لها حتى اللحظة.

يتحدث أخوالي الكبار بالإضافة إلى أمي، لكنة كردية ثقيلة وأصيلة، بالرغم من ولادتهم ونشأتهم البغدادية، بينما يخِف ثقل هذه اللكنة مع أخوالي الأصغر سناً، فتجدهم يتكلمون لهجة كردية معرّبة وهجينة، التقطوها من المناطق البغدادية القديمة حيث يتكاثر الكرد الفيليون، ما بين شارع الكفاح، وعقد الأكراد، والصدرية وشارع الرشيد.

عدد من الأحفاد يتحدث الكردية أيضاً، لكن عدداً آخر منهم يفهمها فقط. ومع الوقت تحوَّل الأحفاد، وكأنما بقرار جماعي، إلى نكران اللغة، تخوفاً ربما، كي يجنّبوا أنفسهم المواقف العنصرية أو الطائفية. فهذه اللغة بالذات كانت قد وصِمَت في فترة النظام السابق، وارتبطت بكونها لغة الأعاجم، وتشبه كثيراً لغة الأعداء الذين حاربهم النظام لثماني سنوات عجاف. مع الوقت، تحوّلت اللغات الأخرى في بغداد إلى عارٍ يحمله الناس، فتربى البغداديون ذوي اللسان المزدوج، على الخجل من لغاتهم الجانبية، وبذلك تناقص عدد الناطقين بغير العربية بشكلٍ ملحوظ. تغييرات ديموغرافية مفروضة، هجرات وحروب، وضع أمني متوتر، واحتقان طائفي، أسباب مؤكدة لنقصان أعدادهم وانحسار لغاتهم، فتخفّى بعضهم تحرّجاً، بينما اختار بعضهم الآخر أن يعيش إنكاراً تاماً للأصول.

تموت جدتي، لكن لا تموت دون ترك أثر عميق. بموت جدتي تتجه لغة وثقافة نحو الاندثار من بقعة محددة في هذا العالم الفسيح. لغة عامرة، ربت أجيالاً وانطبعت في المكان، وكانت الصوت الأول الذي يسقط في الذاكرة وفي الوجدان، لأطفال بالكاد خطوا خطواتهم الأولى. بموتِ جدتي تتغير الدنيا. تتآكل التقاليد التي استمرت بصرامة لعقود؛ تتغير المسارات السابقة بفعل الزمن والتحولات الاجتماعية والسياسية، فيشكل موتها أسىً وحزناً عميقاً، لا عليها هي فقط، بل على فقدان الماضي، واللغة، والثقافة المتجذرتين، اللتين باتتا تتلاشيان في الهواء كأنهما لم تكونا.

* * *

لطالما توهمتُ أنني حالة لغوية خاصة، وظننتُ دوماً أني لا أمتلك ما يطلق عليه الناس (اللغة الأم)، إذ إن مفهوم اللغة كان مسألة معقدة للغاية بالنسبة لي. فقد نشأتُ متعددة اللغات، وملامسة لعدد من الثقافات منذ نعومة أظفاري، ولم يكن باستطاعتي المناورة بينها لأعرفَ أيها هي اللغة الأولى؟ أيها تعدُّ اللغة الأم؟ وهل هذه اللغة هي الوحيدة التي تعد اللغة الأصيلة؟ ماذا عن اللغات واللهجات الأخرى التي تبنتني لغوياً وأنا بعد طفلة؟ كيف لي تصنيفها؟ حتى اكتشفتُ وقع الأصوات المرتبطة بطفولتي عليّ، ثم عرفتُ أن اللغة المرتبطة بالكيان وبالوجدان، هي ذلك التكوّن الصوتي الأول الذي يسقط في صدري، وأشعر به يدغدغ روحي، لأنه يذكرني بي حتى قبل أن أتكون، ويُعرّفني بذاتي التي كانت في طريقها نحو التشكّل.

كنتُ كلما سُئلتُ عن اللغة التي أفكر بها، أتلعثم وأخجل، فقد ظننتُ أنه يُفترض بي أن أردَّ مشيرة إلى لغة واحدة فقط، هي في الغالب تلك التي ينطق بها لسان أمك، لأنها الصوت الأول الذي تسمعه وانت ما زلتَ جنيناً في رحمها. حتى عرفتُ أن ليس من العيب مزج العربية بالدنماركية، والكردية بالإنكليزية، وأن أكوّن هجيناً لغوياً خاصاً بي، هو لغتي الخاصة جداً، اللغة التي أخاطب بها نفسي، ويفرزها عقلي، بناءً على تعدّد الهوية اللغوية لديّ.

أما اليوم، فبتُّ أعرف أن اللغات التي تخصني، لغاتي الأم، أو اللغات التي تبنتني، تلك التي تقع في الصدر متى ما سمعتُ أحداً يتحدث بها، هي: العربية باللهجة العراقية والبغدادية حصراً. الكردية الفيلية، بلكنة أمي الممزوجة ما بين اللكنة الجبلية والكردية البغدادية القادمة من أزقة بغداد القديمة؛ الدنماركية بلكنة كوبنهاغن، وتحديداً من المنطقة الغربية، ذات الرنين العنيف شيئاً ما؛ وأخيراً العربية الفصحى، بصوت المدبلجين الفلسطينيين والأردنيين على نحو خاص، لأنهم أول من سمعتُه يلفظها بهذا الوقع الأثير في النفس في طفولتي، فكانوا أحد الأسباب الهامة لوقوعي في أسرها وحبها. هذه اللغات، برنين أجراسها المميز، هي التي تخصني، وأظن بأنها شكّلتني وكان لها بالغ الأثر على حياتي فيما بعد. فالأصوات المرتبطة بها هي الوقعُ الأول للتاريخ الذاتي الذي يذكرني بكيفية نشأتي الأولى، وتكوّني اللغويّ وبالتالي الشخصيّ، اللذين لم ينفصلا عن بعضهما قط.

ومع تفرّع طريق الحياة، وبحكم الدراسة والظروف أحياناً، التقيتُ لغاتٍ أخرى توغلت عميقاً في حياتي، لكنها لم تحظَ أبداً بنفس المكانة والخصوصية التي حظيت بها اللغات واللهجات التي شكلت روحي ووجداني. الإنكليزية، الفارسية، الألمانية، التركية، وعدد آخر من لغات مررتُ بها مرور الكرام، لكنني تعرفتُ إلى مبادئها وأسسها، كلها حملت وقعاً وأثراً معرفياً وثقافياً بنسب متفاوتة نوعاً ما، لكنها غير مقترنة بتكويني، ولا تحمل الخصائص الأمومية للغات الأخرى التي كبرتُ متعلّقة بأصواتها، وبالتالي فهي غير مرتبطة على نحو مباشر بكياني الشخصي، بغض النظر عن مدى تأثري بها فيما بعد.

ومهما كان تعدد اللغات مسألة فارقة في حياة الفرد، وقد تؤدي إلى الإرباك أحياناً، إلا أنه لا بد من الإشارة ضمن هذا السياق، إلى أن امتلاكه لهذه الخاصية منذ الطفولة، يؤدي إلى نشوء هوية لغوية متعددة بشكل طبيعي، مما يحوّل اللغة من مجرد أداة للتواصل إلى وسيلة حاملة لثقافات متنوعة. ومع كل لغة جديدة يكتسبها الفرد، تَحضُر تجربة خاصة ومشاعر فريدة، مما يجعلها غنية بالخبرات الشخصية، وعلى هذا النحو، تصبح اللغة ليست فقط وسيلة للتعبير، بل أيضاً مستودعاً للذاكرة المشتركة والتجارب الفردية. نتيجة لذلك، ينتقل مفهوم تعدد اللغات والثقافات من كونه عبئاً مشتّتاً للذات، إلى مصدرٍ للثراء الشخصي، حيث يعزز من القدرة على فهم واستيعاب التنوع الثقافي وتجارب الحياة بشكل أعمق وأكثر شمولاً وتقبُّلاً.

تقول أمي إنني نطقت أولى كلماتي باللغة الكردية، وهو أمر اعتيادي بما أنني فتحت عيني وأنا في حضنها، في سجن من سجون نظام حزب البعث، حيث كنا أنا وهي معاً، وعددٍ كبيرٍ من نساء عراقيات من كل الخلفيات، من ذوات الأحكام الخاصة، أي السياسية. دخلتُ السجن وأنا رضيعة بعمر أربعة أشهر، لأكبُرَ هناك. تقول أمي إنها كانت تخاف عليّ من أرضية السجن القذرة، التي خطوتُ فوقها أولى الخطوات، ولذلك فقد كانت تحملني في حضنها معظم الوقت.

ولا بد أنني كنتُ أسمع صوتها، ولهجتها الكردية المركّزة، ثم عربيتها ذات اللكنة الأعجمية الخفيفة، بعيدة الصدى، والتي لا يمكن أن يلتقطها إلا محبّك ولمّاح.

وإنه لأمر استثنائي ربما أن تفتح عينيك في هذا العالم الرحب لتجد نفسك سجيناً ومحروماً. لا تمتلك في هذه الحالة شيئاً، سوى «الصوت». الصوت وحده دليلك إلى الحرية. دليلك إلى ما وراء قضبان السجن، لأن بمقدوره أن يعلمك كل ما لم تره أو تدركه كرضيعٍ كَبُر سجيناً، ولا يعرف عن الحياة أياً من أدواتها إلا بالشرح والتلقين.

يبدأ الصوت معك من فكرة الإصغاء أولاً. تصغي للصوت بتركيز، فيسقط في وجدانك، وينبض في صدرك.

يبدأ الفهم من النظام السمعي، الذي يلتقط الموجات الصوتية، ثم يحولها إلى الدماغ الذي يأخذ بالتعرف إلى الكلمات من خلال مطابقة تسلسل الأصوات والرموز، وبإعمال معالجة فونولوجية للتعرف على هذه الأصوات ومن ثم تَسَلسُها بغية تشكيل الكلمات. وهكذا، تدرك الملامح الأولى للأشياء التي تراها، وتبدأ بتعلم أسمائها.

كانت أمي هي من علمني الأسماء كلها. تقف في فناء السجن ليلاً وأنا في حضنها لتشير إلى القمر قائلة: «مانگ».

فأفهم! أفهم أن ذلك الساطع المدوَّر البعيد هو ما تقصده بمنطوقها، وربما حاولتُ ترديد الاسم وراءها لكن الأصوات كانت لا تزال متداخلة، تتلعثم في فمي. فتتحول أمي بعد ذلك إلى تعريف الأفعال والمشاعر وربط الأسماء بالحروف، بخلق قصة صغيرة جداً:

ــ «تعال يا قمر، شارك حوراء الصغيرة التي تجلس في حضن أمها الرضاعة، لأنها تحبك، وستسمح لك بذلك!».

تقولها بالكردية أيضاً، ثم تترجمها إلى العربية. ولربما في تلك اللحظة رفعتُ رأسي الصغير لأتفرس في ملامحها ملياً، وأنا أسمع وأرى فمها يصدر أصواتاً ساميّة لم أعتدها منها. حاء، وعين، وثاء... إلخ.

ربما تبادَر إلى رأسي، أن هذه الأصوات دخيلة على أمي. إذن، فهذه لغة أخرى تصدر من مصدري اللغوي المفضّل والأكثر وثوقاً، الأم!

كان بالإمكان أن تتحول لغتي إلى سجن هي الأخرى. فالأحاديّة اللغوية حاجز كبير أمام التنقل بين الثقافات والتلقي. لكنني من السجن الفعليّ، فتحت عيني على تعددية الألسن، حيث السجينات العربيات بلهجاتهن المختلفة، بالإضافة إلى السجينات من غير العرب بلغاتهن المتنوعة. وحين خرجتُ من السجن، وأنا أقترب من عامي الثاني في هذه الدنيا، بعد عفو عام أُصدر بحق «ذوي الأحكام الخاصة»، كنتُ قد تشبَّعتُ بكل تلك الأصوات، حتى وإن لم أتعلم كيفية نطقِها.

* * *

تُشبهني قصة السجن الآن إلى سرديات هذا الكتاب وتقاطعها العجيب مع حكايتي. قصة علاء وسجن أبويه، وهو معهما طفلاً. القصة، بعيداً عن تفاصيلها، شبيهة جداً بقصتي. بداية حياته تشبه بداية حياتي. طفلان عراقيان لأبوين تمردا عمداً، أو حتى صدفة، يُلقيان في غياهب السجون لمجرد كونهما قد وُلِدا في أسر ستتحول إلى مادة لإنزال عقاب ناجم عن نوبة غضب شديد، يرافقه سعي جاد للانتقام، حتى وإن كان ذلك من هؤلاء الصغار.

أتذكر أن سرديات الكتاب جميعها تتقاطع مع بعضها بعضاً، ومعي أنا كناقلة لهذه السرديات؛ فالوجوه التي في الكتاب، هي وجوه أخرى لم تكن لي. قصصهم بمجملها بإمكانها أن تسرد قصتي بتفاصيل وملامح مقتطفة من بعضها بعضاً، وبتسلسل زماني ومكاني مقارب أحياناً. تبدأ قصتي مثلاً، من طفولة علاء المبكرة في السجن، ثم طفولة أحمد الخائفة، التي صادرتها حروب الدكتاتور. ثم رحلة سرور المتصلة لشهور طويلة في طريق الهجرة المخيف، حتى الوصول إلى الدنمارك صغيرة مثل مصطفى وسارة. النشأة الدنماركية التائهة بين القيم الإسكندنافية وتلك العراقية، مثل عائشة زينب؛ والتمرد عليها والخوف منها مثل جميع الشخصيات ذات الخلفية المختلطة بين الشرق والغرب. التمسك بالقيم الاسكندنافية التي نشأتُ عليها إلى حدٍّ كبير مثل سورن، ممتزجة بتخبط هوياتي وقيمي بين كل ما هو شرقيٌ يسحبني إلى الأصول، وكل ما هو غربي يدعوني إلى نبذ الماضي ومخلفاته، واستقبال حاضري وعيش اللحظة والآن!

من بعد ذلك كله، تأتي سردية «الماذا لو». ماذا لو أنني لم أغادر العراق، وعشتُ طفولة مختنقة بالحصار المروّع مثل نور؟ ماذا لو درست في الجامعة، متفادية عشرات المفخخات كل يوم مثل أسامة؟ ماذا لو شهدتُ حروباً وقصفاً، وسقوط مدنٍ، وأوضاع أمنيّة هائجة ووحشية، مثل كل الشخصيات العراقية؟ ماذا لو أنني لم أنتقل وأسافر وأختلط بالثقافات الأخرى؟ تُرى من أكون؟ وكيف كانت ستكون شخصيتي، وسرديتي الجديدة؟

كل شيء في هذه الحياة يدعو للتأمل. لا شيء يحدث دون أسباب، ولا قصة تتجلى من دون عبرة. ولا شخص يمضي في هذه الدنيا دون أن يكون ملهماً لغيره، مهما بدا نسيج حياته بسيطاً، فكلنا ككائنات بشرية تنعكس فينا صور الآخرين.

نحن متشابهون! متشابهون على نحو غير متوقع أو معرّف. وسردياتنا، مهما تنوعت واختلفت، يعاد انتاجها على الدوام، في أعيننا نحن وفي أعين الآخرين، ولا سيما أولئك المعنيين، ممن ينشغلون بتتبع هذا التطور الطبيعي والحتمي.

ثمة روابط عديدة تصلنا ببعضنا، في جزء ربما من القصة، في شخص مشابه مر في حياتنا، بل وحتى في ذكريات لم ندرك وجودها إلا عندما نطق بها آخرون، فعرفنا أنها تخصنا نحن أيضاً. تلك الروابط التي تتشابك دون أن ندري، تُعيد تشكيل قصصنا بطرق خفية، تربطنا بآخرين لم نلتقهم يوماً، وربما لن نلتقيهم أبداً. هذا التشابه ليس سوى خيط خفي ينسج بيننا وبين غيرنا خريطة لا مرئية من الحكايات. تلك الخريطة هي ما يجعل كل سردية، مهما اختلفت، تعود لتتصل بسردية أخرى، في مكان ما، وزمان ما. نحن متشابكون كخيوط نُسجت بعضها ببعض، لكل خيط لونه وملمسه، ولكن لا نسيج بلا كل الخيوط مجتمعة.

وحتى في اختلافاتنا التي قد تبدو جذرية، تظهر قواسم مشتركة إذا ما أمعنّا النظر. قد تكون في الحلم الذي طاردناه يوماً ما، أو في خيبة أمل واجهتنا، أو حتى في أمل لم نفصح عنه إلا لأنفسنا، خوفاً من افتضاح الأمنيات. نحن متشابهون في التجربة الإنسانية ذاتها، الفرح العابر، الألم المستمر، البحث عن المعنى، والرغبة في أن يُروى ما عشناه، أملاً في الاستمرار والبقاء. سرد قصصنا وتوثيقها يثبِّت من وجودنا الضبابي الذي يمر خاطفاً في هذا العالم. وحدها الرواية تؤكد بأننا يوماً ما، قد مررنا من هنا.

* * *

فلننتهِ من البدايات التي لم تُحكَ، فنحن حتى وإن أغلقنا الكتب، لن نغلق أبواب القصص.

هل ذكرتُ أنني في أثناء طريق الهجرة عشتُ لأكثر من ستة أشهر في مدينة موسكو، كان أغلبها في صقيع الشتاء الروسي المهاب؟ ذلك النوع من الشتاء الذي تتجمد له الأرواح قبل الأعضاء. لكنني اخترتُ ألا أروي القصة، وذلك لأني ببساطة أغفلُ أو أضيء تفاصيل القصص بالطريقة التي تروقني، فسردي انتقائيٌ وهو أمر ليس فيه إجحاف، ويعتبر معقولاً للغاية بما أني المخرج الفعليّ لهذا العمل والمتحكّم به. إنه انتخاب طبيعي للقصص التي نرغب في قصّها، نفعّله في أثناء سردنا لحكاية. وكنتُ قد آثرتُ أن أهمل بعض التفاصيل لعدم رغبتي بسردها في تلك اللحظة بالذات، فبعضها مؤلم لا أشعر بميل استرجاعه وتأمله، وبعضها الآخر أتناساه لأنه لا يصلح للسرد فأتعمد التخلي عنه. لهذه الأسباب بالذات، أجد أنني لطالما لم أصدق تماماً حكاية يقال بأنها واقعية. ما من واقع حقيقي يُنقَل تماماً كما هو، ما دامت التفاصيل انتقائية، تُهمل أو يركز عليها، على النحو الذي بإمكانه أن يصنع مصيراً، أو أن يغير انطباعاً أو حتى أن يقلب استجابة المتلقي رأساً على عقب. لعل الحكايات ستكون أكثر صدقاً، إذا ما اعترفنا بكونها ناقصة، وأن الحقيقة التي ندعي أننا نرويها ما هي إلا ظل لما حدث بالفعل، أو ربما مجرد انعكاس لما رغبنا بأن يحدث.

عشتُ في موسكو في شقة صغيرة لعدد من الشهور، منها أكثر من ثلاثة أشهر مستمرة، عشتها محبوسة، دون أن تطأ قدماي الشارع. كانت الشقة عبارة عن صالة نوم صغيرة، ومطبخ وحمام فقط. في ذلك الوقت أكونُ قد غادرت العراق لمدة تجاوزت العام، قضيته متنقلة مع أهلي، بين الأردن، وسوريا، ولبنان، وإيران، وأخيراً روسيا، وذلك يعني أنني قد تجاوزتُ السابعة بقليل. شعري تخلّى عن لونه الباهت وأصبح شديد السواد وكثيفاً، لكنهم اختاروا أن يقصوه لي قَصّة ولادية قصيرة، وذلك بسبب محاولة سابقة فاشلة للعبور إلى أوربا بجوازات مزيفة، حيث كنتُ سأعبر بجواز لصبي صغير.

هل كانت ملامحي حينها ببراءتها الدقيقة ستفضح أنني طفلة ذات سبع سنوات؟ ربما لم يكن ضابط الجوازات ليدقق في ذلك كثيراً، وكان إهماله التحديق في وجهي سيوفر عليّ شهوراً طويلةً سوف أقضيها في روسيا، أو الاتحاد السوفيتي سابقاً، والذي كان قد سقط قبلها بأشهر قليلة، مخلفاً البلاد في حال من الفوضى، والبؤس، والفقر. في ذلك المناخ البارد والقاسي، كنا نحن الأجانب ذوي السحنات الغريبة نشعر بالرعب. نحن العابرون بين الحدود، القاطعون للطرق، المستطرقون، والمتطفلون على أراضي الآخرين. نحن المهاجرين الذين جئنا أخيراً لنقف على كومة ثلج!

في تلك الشقة الصغيرة، كنا ننتظر بفارغ الصبر لحظة لمّ شملنا مع والدي، الذي كان قد وصل أخيرًا إلى الدنمارك.

كنا ثلاثتنا: أمي، أختي، وأنا، نحتمي بجدران المكان، نخشى المجهول الذي ينتظرنا خارجها. سكن معنا رجل عراقي وزوجته، كانا بحاجة لسكن رخيص ورفقة، أما نحن فكنا بحاجة إلى الشعور بأننا لسنا وحيدات. وفي الليل، كانت أمي تفصل الغرفة بستارة، تقسم الفضاء الصغير إلى عالمين: عالمنا نحن الطفلتين والأم، وعالم الزوجين اللطيفين الهادئين.

كان الرجل هو الكائن الوحيد الذي يغادر الشقة في النهار، ليتسكع في شوارع موسكو، يلتقي غيره من العراقيين، ويتفقّد أحوال الهجرة ويشتري متطلباتنا لأننا كنا نخاف من مغادرة الشقة، بعد أن سمعنا حكايات عديدة عن التنكيل بالمهاجرين بغية سرقتهم، ما وصل إلى حد الاختطاف والقتل. أما المرأة، فأذكر وجهها جيداً حتى اللحظة، رغم أني أحاول جاهدةً الآن تذكر اسمها. كانت عراقية جميلة، ممتلئة قليلاً، بيضاء البشرة، لها عينان واسعتان، لونهما أخضر داكن، مثل زيتونتين كبيرتين تتوسطان صحناً أبيض. أقدّر الآن بأنها لربما كانت شابة في منتصف العشرينيات، تتميز بلطافتها وبحزن عميق في عينيها، وبلغتها الإنكليزية السليمة. في ذلك الحين حيث لم تكن اللغات الأجنبية شائعة، كانت هي تقرأ بالإنكليزية وتجد متعة في التواصل بها، حتى أنها كانت تقضي وقتاً في تعليمي الحروف وبعض الكلمات، لأكتبها ثم أرددها. كنتُ أقول لها أنني سألتحق بأبي في الدنمارك ولن أحتاج إلى تعلم الإنكليزية، بل الدنماركية. فكانت ترد على كلامي بنظرة لائمة، وهي تقول:

ــ «حتى في الدنمارك سيعلمونك إياها. العالم كله بحاجة لتعلم الإنكليزية!».

المرأة الروسية مالكة الشقة، كدّست بعض الكتب في خزانة صغيرة، كنتُ أحياناً أزجي بعض الوقت بتقليب الكتب وأنا ممددة على الأرض، أتأمل بعض الصور التي تزينها، وأطالع الصفحات المكتوبة بعينين فضوليتين، تتمنيان أن تعرفا ما تخفيه هذه السطور المكتوبة، بهذه اللغة الغريبة. كم تمنيتُ حينها لو أنني أقرأ الروسية! كنتُ قرأتُ الكتب كلّها، حتى وإن كانت للكبار، ولما مر الوقت مملاً، بطيئاً، خانقاً، في ذلك السجن الصغير. إذ كان شغفي بالقراءة قد بدأ منذ فترة. حين مررنا بسوريا ولبنان، سمحت أمي لي بشراء كتيبات للأطفال، وبعض القصص. حاولتُ أن أبقيها جميعاً معي لأعيد قراءتها فيما بعد، لكنها تخلصت من معظمها بسبب الطريق وكثرة التنقل. وحين مررنا بإيران، أغرتني كثيراً كتب الأطفال الملونة، لكنني لم أكن بعد قد تعلمتُ القراءة بالفارسية، ولم أحبَّ غير اللغة العربية التي كانت تسحرني.

بعد شهور طويلة، مملة وقاسية، تمكن والدي من إكمال الإجراءات لجمع شملنا. وقدم بنفسه من كوبنهاغن لإكمال ما تبقى منها في روسيا لأجل السفر معاً. أذكر المرأة الجميلة وزوجها وهما يغادران الشقة الصغيرة. كان وداعاً نديّاً بللته دموعنا ونحن نحتضنها للمرة الأخيرة. أغلقنا الباب ثم ركضنا إلى الشباك أنا وأختي، من بعدنا أمي. أذكر المشهد واضحاً، حيث وقفَت تحت الشباك، بمعطفها الأخضر الداكن، وحجابها الأسود الذي لفّت فوقه لفافاً صوفياً، فبدت بالفعل مثل الروسيات اللواتي يتقين الشتاء بالاحتجاب، على الرغم من انحساره كلياً وقتها. رفعت رأسها إلينا وألقت نظرة أخيرة. عيناها الحزينتان الجميلتان تذرفان دموعاً

صامتة. كانت تعلم بأنها لن ترانا ولن تسمع منا خبراً بعد الآن، فالمهاجرون لا يحبذون الإبقاء على شواهد طريق الهجرة أياً كانت، فينسونها تماماً، كأنها حياة سابقة لا تعنيهم في شيء.

وبعد شهور طويلة، سمعنا أنهما وصلا إلى مسعاهما في هولندا. ربما ولد لهما أطفال، أو ربما بقيا وحيدين، أو لعلهما لم يكملا حياتهما معاً من الأساس. لم نكن لنعرف باقي القصة، لأنها انتهت هناك في روسيا! انتهت بما نعرفه نحن عنهما، حيث لم نعرف أي تفاصيل أخرى عن حياتهما فيما بعد.

نحن أيضاً كنا نستعد للسفر نحو حياة جديدة، مختلفة تماماً عن تلك التي عشناها في قلق وأزمات منذ الصغر. غادرنا موسكو، بعد شهور من مقاساة الانتظار والوحدة والحبس. لا علم لنا بما سيأتي بعد الانتهاء أخيراً من المعاناة. هل ستكون حياة سعيدة؟ هل الوصول إلى هدف الاستقرار في بلد آمن، يُعد غاية النعيم ومنتهى الآمال؟ لم نكن لنعرف.

تفاصيل تلك الرحلة القصيرة بين موسكو وكوبنهاغن تلاشت من ذاكرتي إلى حدٍّ كبير. لا أذكر الطائرة التي أقلتنا، ولا الساعات التي قضيتها على متنها، ولا حتى الوجبة التي تناولتها أو النظرات التي ألقيتها من نافذتها الصغيرة بينما كنا نحلق عالياً. لكن، وعلى الرغم من ذلك، ما زال محفوراً في ذاكرتي بوضوح شديد، مشهد اقتراب الطائرة من الأرض، وقد ملأني شعور غامر، بأنني على استعداد كامل لما سوف يأتي بعد هذه اللحظة.

ملتُ برأسي على الشباك وأطلقت نظرة متأملة لثوانٍ ثم قلتُ:

ــ أمي، انظري. ها نحن نهبط!

حوراء النداوي

دبي/2024

هوامش

(1) هانس كريستيان أندرسن (1805 ــ 1875)، كاتب وشاعر وروائي دنماركي، هو الأشهر حول العالم. عُرف بحكاياته الخرافية، وغزارة نتاجه الأدبي. ترجمت أعماله إلى أكثر من 180 لغة. يوم ميلاده، الثاني من إبريل، هو احتفال باليوم العالمي لأدب الطفل.

(2) أستريد لندغرين (1907 ــ 2002)، كاتبة سويدية، اشتهرت بكتابة الروايات والقصص للأطفال والناشئة. تُعتبر من أهم وأشهر كتاب السويد، وقد باعت رواياتها أكثر من 145 مليون نسخة حول العالم.

(3) يوتلاند، شبه جزيرة تقع في بحر الشمال وتربط الجزء القاري من الدنمارك بشمال ألمانيا.

(4) عقيدة مسيحية منشقة عن المذهب البروتستانتي. أسسها جوزيف سميث الإبن سنة 1820 في مدينة نيور يورك.

(5) نيكولاي فريدريك سفرين غروندفيغ (1783 ــ 1872)، قس وفيلسوف، ومعلم، وشاعر، وسياسي، ومؤرخ دنماركي. يعد أحد أهم الشخصيات التي أثّرت في تأريخ الدنمارك على الاطلاق، وهو واحدٌ من آباء العصر الذهبي الدنماركي الذي يعد عصراً مكثفاً من الإبداع الفني والأدبي، حفزته الرومانسية كمذهب اجتاح أوربا في تلك الفترة. أفرز العصر الذهبي أسماء مهمة، مثل سورن كيركغور، آدم اوهلنشليغر، وطبعاً، هانس كريستيان أندرسن. يُعتبر غروندفيغ عرّاب فكرة «المدارس الشعبية»، التي ترتكز على نوع من التدريس يكون تفاعلياً في المجتمع والحياة عموماً، وذلك بتبني منهج تعليم سردي ليبرالي، يُعنى أولاً باستغلال الإمكانات الفطرية للتنمية، الكامنة في عقل الطفل. نفذ أفكار غروندفيغ الخاصة بالتعليم على أرض الواقع، «كريستن ميكلسن كولد»، لينشئ أول مدرسة شعبية، في «رويسلينغه» سنة 1851، في جزيرة «فين». تدرج شكل المدرسة الشعبية حتى وصلت إلى الشكل الذي أصبحت عليه اليوم، وعادة ما يصنف نظام التعليم في الدنمارك، بين أفضل الأنظمة التعليمية في العالم.

(6) سورن أوبي كيركغور (1813 ــ 1855)، هو فيلسوف ولاهوتي دنماركي، يعد أحد أعظم المفكرين والفلاسفة الدنماركيين في الفترة «الرومانسية». قدم إسهامات هامة في مجالات اللاهوت والفلسفة الحياتية؛ يعتبر كيركيغور واحداً من الفلاسفة الأكثر تأثيراً في التفكير اللاهوتي المسيحي، وهو مؤسس اللاهوت الوجودي وأحد المؤثرين في علوم اللاهوت والروحانية انطلاقاً من العقيدة المسيحية. كتب كيركغور في الفلسفة، وعلم النفس، والميتافيزيقيا، كما اهتم بالكتابة عن الأخلاق وعلوم التربية والاجتماع. وتركز فلسفته على علاقة الفرد بالإله استناداً

لحقيقة ذاتية. شن كيركغور هجوماً على المسيحية ككيان سياسي واجتماعي، واستهدف بشكل مباشر الكنيسة الدنماركية. وقد تميزت أفكاره بالتركيز على مفهوم الإيمان والوجود الفردي، فأسس للعديد من المفاهيم الفلسفية مثل «الانتقاد الديني» و«الوجودية»، حيث ركز على أهمية الخوف والرعب الديني، والعلاقة الفردية مع اللّه. اعتبر أحد أوجه الانتقاد اللاذعة للكنيسة والتقاليد الدينية في فترته، وركز على خطورة التجربة الشخصية، والاختيار الفردي، في الوصول إلى الإيمان الحقيقي.

(7) تُعرف محلياً باسم «كنيسة الشعب»، وتعد الكنيسة الرسمية للمملكة بموجب الدستور. من خصائصها أنها تتبع الطائفة اللوثرية البروتستانتية التي تشكّل الغالبية العظمى من سكان البلاد. ما يقارب ال 70 % من سكان الدنمارك يتبعون الكنيسة وذلك على الرغم من أن الممارسين الفعليين للطقوس الدينية أقل من ذلك بكثير. يعتبر الملك رئيساً فخرياً للكنيسة، لكنها تدار فعلياً من هيئات كنسية مستقلة. وعلى الرغم من أن الدنمارك تُعدّ واحدة من أكثر الدول علمانية في العالم، إلا أن الكنيسة لا تزال تلعب دوراً تقليدياً ورمزياً في المجتمع الدنماركي.

(8) كيم لارسن، (1954 ــ 2018)، مغن وموسيقي وممثل وكاتب دنماركي. يعد واحداً من أشهر الفنانين الدنماركيين في القرن العشرين وأكثرهم انتشاراً، وأغلب أغانيه مرتبطة بالوجدان الشعبي الدنماركي، فتعزف بشكل دائم في الأفراح والأتراح على حد سواء. عُرف لارسن بمعارضته الدائمة للأعراف السائدة، والفرضيات الاجتماعية التي كانت قائمة منتصف القرن العشرين في المجتمع الاسكندنافي، فكان متمرداً عليها، سواء بموسيقاه أو حتى بآرائه اللاذعة التي عبر عنها بلا تردد أو وجل.

(9) أكسل ساندموسه (1899 ــ 1965) كاتب دنماركي ــ نرويجي، تضمنت أعماله في الغالب ثيمات اجتماعية، مثل حرية الفرد، والبحث عن الهوية والمكانة الاجتماعية. بالإضافة لصراع الفرد مع المجتمع، وصراعه الدائم بين الخير والشر. كما انتقد ساندموسه المعايير والقيم الثقافية الدنماركية بشدة، وتلاعب في أغلب أعماله بفكرة المجتمع المقموع الذي يغدو عنيفاً كردة فعل على الكبت والإخضاع.

(10) منظمة سياسية دولية إسلامية، سنية المذهب، ذات ميول أصولية. تأسست في العام 1953 في مدينة القدس على يد الفقيه الشيخ تقي الدين النبهاني. تستقر القيادة العليا للحزب حالياً في الأردن. يعمل حزب التحرير على توحيد جميع المسلمين تحت حكم إسلامي يدعونه بحكم «الخلافة»، كما يسعون لإزالة النفوذ الغربي في العالم الإسلامي، والتعزيز من طريقة حياة إسلامية صحيحة ووفق الشريعة الإسلامية، كما يهدفون

للتبشير بالإسلام في بقية العالم. وقد مُنع نشاط الحزب في عدد من الدول العربية والإسلامية وحتى الأوربية من ضمنها مصر واليمن وتركيا وباكستان والمانيا. لكن على الرغم من ذلك ينتشر الحزب بشكل واضح في أوربا ويقدر أعضاؤه ما بين عشرات الآلاف إلى مليون.

(11) أمين معلوف، كاتب لبناني ــ فرنسي ولد عام 1949، يشتهر بأعماله التي تمزج بين التاريخ والخيال، مع التركيز على تفاعل الحضارات وصراعاتها. من أبرز أعماله «سمرقند»، «ليون الأفريقي»، وكتاب «الهويات القاتلة» الذي يستكشف فيه قضايا الهوية والانتماء وتأثيرها على الأفراد والمجتمعات.

(12) الهوسة هي نوع من الأهازيج الشعبية المتأصلة في الفولكلور العراقي. حيث يقوم شخص يدعى «المهوال» بإلقاء أبيات حماسية، يختتمها بترديد بعض الكلمات التي يهزج بها الجَمع وهم يضربون الأرض بأقدامهم، بينما يلتفون بحركة دائرية. تقام الهوسات العراقية في الأفراح والأحزان، على حد سواء.

(13) أحمد عيسى المعصراوي (1953)، شيخ عموم المقارئ المصرية السابق.

(14) پير پوغهولم أولسن (1964)، ضابط دنماركي في سلاح الجو برتبة فريق ركن، ومدير إدارة المجموعة في وزارة الدفاع. شغل سابقاً منصب الممثل العسكري للدنمارك في الناتو.

(15) (سورة ق، الآية 22) قرآن كريم

(16) إسبيرغ، مدينة مينائية تقع جنوب غرب جزيرة «يوتلاند». بينما تقع العاصمة كوبنهاغن في شرق جزيرة «زيلاند».

(17) هانس شيرفيغ (1905 ــ 1979)، روائي ورسام دنماركي من أشهر أعماله، «الربيع المنسي»، التي صور فيها ما عُرف «بالمدرسة السوداء» مطلع القرن العشرين. والمدرسة السوداء، هو مصطلح شائع يعود لفترة العصور الوسطى، أُطلِق على شكل من أشكال التعليم، حيث يتمتع المدرِّس بسلطة مطلَقة باعثة للتخويف والرعب، بينما يتحول الطالب لتابع خاضع، ومرتعب.

(18) سوزان هينتون (1948 ــ)، كاتبة أمريكية اشتهرت بأدب الشباب. كتبت روايتها الأولى «اللا منتمون» وهي في السابعة عشرة من عمرها فقط، وحققت في حينها نجاحاً واسعاً. تحولت الرواية إلى فلم سنة 1983، من بطولة توم كروز وإخراج فرانسيس فورد كوبولا.

(19) أليس والكر (1944)، روائية وشاعرة وناشطة أمريكية. من أشهر رواياتها «اللون الأرجواني».

(20) ريتشارد رايت (1908 ــ 1960)، روائي وكاتب وشاعر أمريكي، اشتهر برواياته وكتاباته التي تتناول حياة السود في أمريكا، وثيمة أعماله الأساسية هي العنصرية والتمييز.

(21) سورن هيذگورد (1955)، فنان مكياج شهير وممثل دنماركي.

(22) الأميرة فكتوريا إنغريد أليس ديزيريه (1977)، الابنة البكر لملك السويد كارل السادس عشر، وهي الأولى لتولي العرش بعد والدها. كان شقيقها الذي يصغرها بعامين، الأمير كارل فيليب، (1979)، قد عيّن ولياً للعهد بدلاً عنها بعد ولادته مباشرة، بحكم القانون التقليدي المتبع بتولي الذكور للعرش بدلاً من الاناث. غير أن الأميرة عادت إلى المركز الأول بعد شهور قليلة، وفقاً لتعديل قانون اعتلاء العرش السويدي، لكي يتوافق مع مبدأ المساواة بين الجنسين.

(23) سبايس غيرلز، أو فتيات التوابل، فرقة بوب بريطانية شهيرة، ذاع صيتها منتصف التسعينيات من القرن العشرين. أعضاءها هن أيما بونتون، فيكتوريا بيكهام، جيري هالويل، ميلاني براون، وميلاني شيزولم. تعتبر الفرقة النسائية الأكثر نجاحاً على الإطلاق من حيث بيع الأسطوانات، وقد تفرقت في العام 2001.

(24) حزب البعث العربي الاشتراكي، حزب قومي عربي تأسس في سوريا على يد ميشيل عفلق في العام 1947. قام حزب البعث تنظيم العراق، بانقلاب ضد الرئيس العراقي آنذاك عبد الكريم قاسم، وذلك في الثامن من شباط من العام 1963، استلم على إثرها السلطة في البلاد. استمر حكم حزب البعث العربي الاشتراكي حتى أطيح بآخر الرؤساء البعثيين صدام حسين في العام 2003، إبان الغزو الأميركي على العراق.

(25) في نظر كيركغور، يُعبر «الفلستي» عن الإنسان التقليدي ضيق الأفق. يعتبر كيركغور «الفلستي» النموذج الأكثر شيوعاً بين الناس، فهو المواطن العادي الذي يعيش حياته دون أن يتساءل عما إذا كان بالإمكان العيش بطريقة مختلفة عن السائد. هذا الشخص لا يفكر انطلاقاً من ذاته، ولا يتخذ قراراته بنفسه، بل يترك الأعراف والقيم الاجتماعية لتتخذها نيابةً عنه، فتحدد له نمط حياته وتفاصيلها. الفلستي يسير مع التيار، مخلص تماماً للبيئة المحيطة به، ويفعل ما يفعله الآخرون عادةً، لكنه يعتقد خطأً أنه اتخذ قراراته بشكل مستقل. لكنه في الحقيقة، مجرد نتاج حتمي للمجتمع الذي نشأ فيه. قد لا يدرك أصلاً أنه يمتلك خيارًا في الحياة، بل يستسلم للظروف والمحيط. وفي منظور كيركغور، الفلستي غير مهتم بفهم ذاته، ويعيش حياته بلا شغف أو التزام، فلا يبرز أو يتميز بين الناس. ينصب اهتمامه الأساسي على الراحة المادية والمكانة الاجتماعية وإرضاء

الآخرين، ويعيش ضمن حدود المعايير المجتمعية دون أن يشكك في المعاني الأعمق للوجود أو الانخراط في التأمل الذاتي. إنه يعيش حياة رضا سطحي وامتثال طيّع، خالية من أي عمق وجودي أو روحي. بالنسبة لكيركغور، فان الفلستي يمضي حياته في حالة من «التفاهة الروحية»، غير مبالٍ بالقضايا العميقة للحياة، مثل الحرية، والاختيار، أو السعي وراء الحقيقة. تتناقض هذه العقلية مع الفرد الأصيل، الذي يتبنى عدم اليقين الوجودي ويسعى لتحقيق اتصال أعمق مع ذاته ومع الإله.

(26) مصطفى عناية اللّه جمال الدين (1926 ــ 1996). فقيه شيعي، وشاعر وأديب عراقي معروف، توفي في دمشق.

(27) مجموعة اجتماعية أو طائفة دينية، ذات معتقدات وممارسات غير اعتيادية، غالباً ما تستمد أفكارها من معتقدات دينية أو روحية وفلسفية. وأحياناً تجتمع حول شخصية معينة ــ دينية مثلاً ــ أو حول هدف معين أو أيديولوجيا كاريزمية. لدى مثل هذه المجموعات التزاماً مشتركاً تجاه قيمة أو شخصية دينية محددة. وهي غالباً ما تفرض نظاماً صارماً له أجوبة على جميع الأسئلة في الحياة، والحلول التي تقترحها لا يمكن اكتسابها الا من خلال اتباع النظام المتعارف عليه داخل المجموعة.

(28) تدّعي بعض مصادر الشيعة، أن الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب اقتحم دار الإمام علي ابن أبي طالب، واعتدى على زوجته فاطمة الزهراء ابنة النبي محمد في دارها، ما أدى لكسر ضلعها. وقد شكك في هذه الحادثة عدد من مراجع وعلماء الشيعة مثل المرجع محمد حسين فضل اللّه، والسيد كمال الحيدري، وغيرهما. إلا أن بعض الشيعة الأصوليين يرفضون هذا التشكيك، ويصرون على تأكيد الحادثة.

(29) (تنظيم الدولة الإسلامية) داعش، هو تنظيم إرهابي متطرف ظهر في العراق وسوريا في 2014، واشتهر بأعمال العنف والإرهاب البشعة، بما في ذلك الهجمات ضد المدنيين. من بين جرائمهم البشعة، قاموا بأسر آلاف النساء والفتيات الإيزيديات في العراق، حيث تعرضن للعبودية الجنسية والتعذيب والانتهاكات الجسيمة.

(30) إنغار ستويبيرغ، من مواليد 1973. سياسية دنماركية عن الحزب الليبرالي الدنماركي، شغلت منصب وزيرة في كل من وزارة الهجرة والاندماج، ووزارة العمل. في اثناء فترة استيزارها فصلت أزواجاً من المهاجرين معظمهم من السوريين، بحجة أن أحد الزوجين أو كلاهما قاصراً. غير أن المرسوم لم يكن قانونياً وينتهك حقوق الطفل، والاتفاقية الأوربية لحقوق الإنسان اللتان تخضع لهما الدنمارك. أنهت «ستويبيرغ» خدمتها بفضيحة مدوية في الالتفاف على القانون بغية تمرير قرارات

شخصية لأجل تعسير قضايا اللجوء. خاضت حرباً شرسة لإثبات براءتها بادعاء أنها اتخذت تلك القرارات لصالح الفتيات لكونها ضد زواج القاصرات. حكم عليها القضاء الدنماركي بالسجن لمدة ستين يوماً، وذلك في الحادي والعشرين من ديسمبر 2021، مسدلاً الستار على قضية شغلت الرأي العام الدنماركي لفترة من الزمن.

(31) السياسة الرمزية هي سياسة مبنية على مجموعة من الإيماءات، ولا تغير بشكل مباشر في الأوضاع أو المشاكل المعرَّفة. مصطلح السياسة الرمزية منتشر جداً في دول الشمال الأوربي وألمانيا تحديداً، بسبب تفاقم استغلال هذا النوع من السياسات التعبوية غير المجدية من قبل السياسيين. أحد أكثر أشكال السياسات الرمزية انتشاراً، هو تعامل اليمين المتطرف مع قضايا اللجوء والاندماج، بمهاجمة اللاجئين وشيطنتهم لكسب أصوات مؤيدة، دون وضع خطط وطرق حقيقية لدمجهم وتقبلهم في المجتمع، على سبيل المثال.

(32) حنا آرندت (1906 ــ 1975)، فيلسوفة ومنظرة سياسية، وناجية من الهولوكوست. ولدت لأسرة يهودية في ألمانيا، قبل أن تغادرها مع صعود أدولف هتلر للسلطة، حيث تم القبض عليها وسجنها لفترة وجيزة. تعد آرندت أحد أكثر الفلاسفة والمنظرين السياسيين تأثيراً في القرن العشرين.

(33) يهوديات الحريديم، هن نساء من مجتمع يهودي محافظ جداً، يلتزمن بالتقاليد الدينية الصارمة ويتميزن باللباس المحتشم الذي يقترب في شكله من النقاب الإسلامي. تعيش نساء الحريديم في مجتمعات منغلقة تقليدية، كما ويفرض عليهن دور أساسي في تربية الأطفال وحفظ القيم الأسرية.

(34) لويز فريفرت، راقصة شرقية دنماركية وممثلة إباحية، أصبحت سياسية وعضوة في البرلمان عن «حزب الشعب الدنماركي»، اليميني المعادي للمهاجرين والمسلمين.

(35) اللغتان الدنماركية والفنلندية مختلفتان جذرياً. فالأولى من عائلة اللغات الجرمانية وتتقاسم هذه الخاصية مع عدد من اللغات واللهجات في شمال أوربا، بينما تعد الفنلندية من عائلة اللغات الأورالية.

(36) حرب الاستمرار، نشبت بين فنلندا والاتحاد السوفيتي خلال الحرب العالمية الثانية، واستمرت من1941 وحتى 1944.

(37) مجمع أبو النور، هو مسجد ومركز دعوي ومعهد تعليمي يضم كليات ومعاهد شرعية ومؤسسات خيرية. يقع في العاصمة السورية دمشق، على سفح جبل قاسيون. أسسه الشيخ أحمد كفتارو في العام 1971.

(38) تُعرف في الدول العربية «بأزمة الرسوم المسيئة للنبي محمد».

نُشرت رسوم في صحيفة «يولاندس بوستن» في سبتمبر من العام 2005، تُظهر النبي محمد بأوضاع مسيئة ومهينة. تبع نشر الرسوم احتجاجات عارمة في دول إسلامية عدة تنوعت ما بين مقاطعة المنتجات الدنماركية والشجب والتظاهر، ووصلت للعنف الشديد، حيث تم حرق أكثر من سفارة وقنصلية تابعة لمملكة الدنمارك، في أكثر من عاصمة عربية ومسلمة من بينها دمشق وبيروت. كما طالب المحتجون الصحيفة الدنماركية بالاعتذار، الذي رفضته يولاندس بوستن في البداية، بحجة التمسك بقيم حرية التعبير، لكنها عادت وقدمت اعتذاراً لم يكن كافياً بعد تفاقم الأزمة. ردود الفعل الرسمية كانت شديدة أيضاً، حيث طالب وزراء خارجية سبعة عشر دولة عربية وإسلامية بمعاقبة كاتب المقال. بينما طالبت دول أخرى باعتذار مباشر من رئيس الوزراء الدنماركي ومن الملكة «مارغريتا الثانية». وصف رئيس الوزراء الأسبق «أندرس فوغ راسموسن»، الأزمة بأنها أسوأ ما شهدته العلاقات الدنماركية الدولية منذ الحرب العالمية الثانية، حيث أغلقت دول عدة سفاراتها في الدنمارك، بينما اكتفت أخرى بسحب سفرائها.

(39) «النَّبيَّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم لَمَّا أرادَ أن يَخرُجَ إلى بدرٍ جاءَتْه أمُّ ورَقةَ بنتُ عبدِ اللهِ بنِ الحارثِ فاستَأذنَتْه في الغزوِ معَه لتُمرِّضَ المَرْضى؛ لعلَّ اللهَ يَرزُقَها الشَّهادةَ، فأخبَرها النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أن تَجلِسَ في بيتِها وستُرزَقُ الشَّهادةَ، فكانَت تُسمَّى الشَّهيدةَ، وكان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ علَيْه وسلَّم يُكرِمُها ويَزورُها في بيتِها، بل جعَل لها مُؤذِّنًا يؤذِّنُ لها، وكان شيخًا كبيرًا، ثمَّ أمَرَها أن تَأُمَّ أهلَ دارِها، أي: تُصلِّيَ بهم؛ لأنَّها كانَت قد قرَأتِ القُرآنَ الكريمَ، واختُلِفَ في المقصودِ بأهلِ دارها، والأقربُ أنَّ المرادَ أهلُ دارها مِن النِّساءِ والإماءِ، ودلَّ هذا الحديث على أنَّ إمامةَ النِّساءِ وجماعتَهنَّ صَحيحةٌ».(الألباني، صحيح ابن داوود).

(40) منظمة غير حكومية أنشأتها وترأسها شيرين خانكان في عام 2014، «Exitcirklen»

(41) قرآن كريم، سورة الأعراف، آية 82

(42) قحطان صغير نافل (1959)، ممثل وكاتب عراقي. كتب ومثل وشارك في العديد من الأعمال العراقية، سواء على مستوى الدراما أو المسرح.

(43) الشعبة الخامسة هي مديرية الاستخبارات العسكرية في زمن النظام البعثي، والتي كان يرأسها رأس النظام آنذاك صدام حسين. كان اسمها في الثمانينيات مثار رعب وخوف للعراقيين، حيث أشيع أن من يدخلها يستحيل أن يخرج منها سالماً، فهي مركز الاعتقال والتعذيب سيء الصيت، لكل من يثيرون مجرد الشك في كونهم معارضين للنظام. أشيعت آنذاك

العديد من الأساطير الحضرية بخصوص الشعبة الخامسة، حول وجود آلات تعذيب مستوردة أو مصنوعة خصيصاً لإلحاق أشد أنواع التعذيب بالخصوم، بالإضافة لوجود«ثرّامة» للحوم البشرية. بعد سقوط النظام تم إعدام الرئيس العراقي الأسبق صدام حسين، وعدداً من قادته في نفس المبنى، الذي كان سابقاً مديرية الاستخبارات في عهده، أو ما عُرف بالشعبة الخامسة.

(44) يوسف نعوم الصائغ (1933 ــ 2005)، شاعر وكاتب وروائي ومسرحي عراقي ولد في مدينة الموصل لأسرة مسيحية. سجنه البعثيون بسبب نشاطه السياسي لعدة سنوات، تعرض للتعذيب والتهديد مراراً، حتى آثر تجنب مواجهة البعث خوفاً على سلامته. عمل بعد خروجه من السجن في الصحافة.

(45) عبد الخالق المختار (1960 ــ 2009)، ممثل ومخرج عراقي قدير، له أعمال عديدة في المسرح والتلفزيون.

(46) حقي الشبلي (1913 ــ 1985)، ممثل ومخرج ورائد الحركة المسرحية في العراق، درس المسرح في باريس، وقام بتأسيس أول فرقة مسرحية في العراق في العام 1927، ثم بعدها بسنوات قليلة أسس فرقة تحمل اسمه. من أهم انجازاته تأسيس قسم المسرح في معهد الفنون الجميلة. والذي درَّس فيه لسنوات، من بعدها أصبح عميداً لمعهد الفنون الجميلة.

(47) العلّاس، مصطلح شعبي بالعامية العراقية، ظهر بعد 2003، ويعني مرشد القتلة. وغالباً ما ينال مكاسب من نوع ما، من هذه الوشاية.

(48) زقورة الناصرية، والمعروفة بزقورة أور، تُعد من أبرز المعالم الأثرية في العراق. تقع في مدينة أور القديمة، التي كانت العاصمة للسومريين في جنوب بلاد ما بين النهرين. شُيدت الزقورة في عهد الملك أور ــ نمو حوالي 2100 قبل الميلاد، وكانت مكرسة لعبادة الإلهة «نانا»، إلهة القمر في الديانة السومرية.

(49) القيثارة السومرية، أقدم أداة وترية في العالم

(50) البعثية إشارة إلى أعضاء حزب البعث العربي الإشتراكي الذي حكم العراق منذ عام 1968 وحتى سقوط رأس النظام في 2003.

(51) يشير أحمد هنا إلى رواية «العمى»، للكاتب البرتغالي خوسيه ساراماغو. وتروي قصة مدينة يُصاب سكانها فجأة بعمى أبيض غامض، مما يؤدي إلى انهيار النظام الاجتماعي وانتشار الفوضى. تستكشف الرواية غريزة البقاء وتبرز أخلاقيات البشر في مواجهة الأزمات، كاشفةً هشاشة البنى الاجتماعية عند التعرض للكوارث. بأسلوب رمزي وعميق، يعالج

ساراماغو طبيعة الإنسان حين يُجرد من جميع مظاهر الحضارة.

(52) حزب الدعوة الإسلامية، هو حزب سياسي إسلامي شيعي تأسس في العراق عام 1957. يهدف إلى إقامة دولة إسلامية في العراق بناءً على المبادئ الإسلامية. لعب دوراً بارزاً في المعارضة ضد نظام صدام حسين وأصبح أحد الأحزاب الرئيسية في العراق بعد عام 2003.

(53) اندلعت في المحافظات العراقية من 1 مارس إلى 5 أبريل سنة 1991، عقب حرب الخليج الثانية، انتفاضة شعبية ضد النظام العراقي السابق، سقطت على إثرها 14 محافظة في أيدي الثوار، حيث ثار الشعب في جنوب العراق وشماله ضد نظام صدام حسين. شملت الانتفاضة احتجاجات مسلحة طالبت بتغيير النظام، لكنها قُمعت بوحشية من قبل القوات الحكومية، مما أدى إلى سقوط آلاف الضحايا ونزوح كبير للمدنيين.

(54) علي حسن المجيد، (1944 ــ 2010)، علي حسن المجيد، المعروف بلقب «عليّ الكيماوي»، كان سياسياً وعسكرياً عراقياً وشخصية بارزة في النظام البعثي، إذ كان ابن عم صدام حسين. اشتهر بدوره في قمع الانتفاضات والمعارضات، خاصة في حملات الأنفال ضد الأكراد في أواخر الثمانينيات، حيث استخدمت القوات العراقية الأسلحة الكيميائية. أُدين بارتكاب جرائم ضد الإنسانية وتم إعدامه في عام 2010.

(55) الديانة الصابئية، المعروفة أيضاً بالمندائية، هي من أقدم الديانات التوحيدية التي نشأت في منطقة بلاد ما بين النهرين، العراق حالياً. يؤمن أتباع هذه الديانة بإله واحد يُسمى «الحي العظيم»، ويعتقدون بوجود عالم روحي أعلى من العالم المادي. نبيهم الأساسي هو النبي يحيى (يوحنا المعمدان)، وله مكانة كبيرة في تعاليمهم. تُعتبر الطهارة الجسدية والروحية من المبادئ الأساسية لهذه الديانة، لذا يقدسون الماء ويعتمدون على طقوس التعميد والاغتسال في مياه جارية كجزء من ممارساتهم الدينية. الكتاب المقدس للصابئة المندائيين هو «كنزا ربا»، ويحتوي على نصوصهم الروحية وتعاليمهم. كما يمارسون طقوساً متعلقة بالمراحل المهمة في الحياة مثل الزواج والموت، حيث تتداخل هذه الطقوس مع مفهوم النقاء والارتباط المباشر بالماء.

(56) ريم، اسم مستعار حفاظاً على خصوصية الضحية المذكورة

(57) نيكولاي تشاوتشيسكو (1918 ــ 1989)، سياسي روماني شيوعي، حكم رومانيا من العام 1967 حتى سقوطه بثورة قادها الشعب ضد حكمه الفاشي الذي اشتهر بالوحشية والقمعية. أعدم بمحاكمة شكلية رمياً بالرصاص، برفقة زوجته إلينا تشاوتشيسكو في الخامس والعشرين من ديسمبر سنة 1989.

(58) نشأت أكرم عبد علي آل عيسى، لاعب كرة قدم عراقي معتزل، اشتهر بمهاراته كلاعب خط وسط. وُلد في 12 سبتمبر 1984. كان أحد اللاعبين الأساسيين في المنتخب العراقي، وساهم بشكل كبير في فوز العراق بكأس آسيا عام 2007. يُعرف نشأت بقدراته التكتيكية ورؤيته المتميزة في الملعب، ويُعتبر واحداً من أفضل لاعبي كرة القدم في تاريخ العراق.

(59) مارك توين هو الاسم الأدبي للكاتب الأمريكي صمويل لانغهورن كليمنس (1835 ــ 1910).

(60) صامويل تايلور كولريدج (1772 ــ 1834)، شاعر وناقد وأدبي وفيلسوف إنجليزي، وأحد أهم الشخصيات الأدبية في الحركة الرومانسية في إنجلترا

(61) موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب، الملقب بالكاظم. سابع أئمة الشيعة الاثنا عشرية. سجنه الخليفة هارون الرشيد لأجل ألا يزاحمه على الحكم، الذي يعتقد الشيعة أن الأئمة الاثنا عشر هم الأحق به. كما ويعتقد الشيعة، أن الرشيد قد أوعز لدس السم له في طعامه فكان سبباً في مقتله. دُفن في بغداد في منطقة الكاظمية التي سميت باسمه.

(62) تيار ديني سياسي شعبوي، يرأسه حالياً رجل الدين مقتدى الصدر، ابن الزعيم المؤسس للتيار محمد محمد صادق الصدر. غالبية أتباع التيار، هم من شيعة المناطق الفقيرة وعددهم يقدر بالملايين. بدأت المراحل الأولى لتشكل التيار حين تصدى آية اللّه العظمى محمد محمد صادق الصدر لمهاجمة صدام حسين علناً إبان حكمه، ما يرجح أن النظام البعثي قام بالإيعاز لعملية اغتياله ونجليه (مصطفى ومؤمل الصدر) في العام 1999.

(63) منطقة تمتد مساحتها على نحو عشرة كيلومترات مربعة في وسط مدينة بغداد. كانت مقراً لحكم قوات التحالف بعد احتلال العراق سنة 2003، إذ تعتبر محصنة ولا تطالها بالعادة العبوات والانفجارات، كما باقي مناطق بغداد، ولذا تعد مقراً مقر رئيسياً للحكومة العراقية. قبل سقوط النظام البعثي كانت المنطقة الخضراء تضم عدداً كبيراً من قصور صدام حسين وحاشيته.

(64) موجة من الاحتجاجات اندلعت في الأول من شهر تشرين الثاني سنة 2019، في بغداد ومحافظات الوسط والجنوب. مطالبات المحتجين كان ضمن أولوياتها إلغاء نظام المحاصصة والتدخل الإيراني، كما عبرت الاحتجاجات عن رغبة الشباب بتغيير الأوضاع المتردية في البلاد، كالوضع الاقتصادي، والفساد المالي والإداري وتردي البنى التحتية، بالإضافة لسيادة

الدولة، كلها كانت ضمن عدة أسباب أخرى حركت المتظاهرين. قوبلت الاحتجاجات بالعنف الشديد، حيث سقط أكثر من 700 شهيد أثناء المظاهرات، بالإضافة لآلاف من الجرحى.

(65) الكلدان، مجموعة دينية عرقية تنتمي لبلاد ما بين النهرين، ويعود تاريخهم إلى الحضارة الكلدانية التي ازدهرت جنوب العراق خلال القرنين السادس والسابع قبل الميلاد. الكلدان من أتباع الكنيسة الكلدانية الكاثوليكية؛ وهي من الكنائس الشرقية التي تحتفظ بشعائرها وتقاليدها الخاصة، لكنها تحت مظلة البابا في روما. يتحدث الكلدان في العراق باللغة السريانية التي تُعد شكلاً حديثًا من اللغة الآرامية القديمة، وهي اللغة الطقسية للكنيسة الكلدانية الكاثوليكية، ويستخدمها الكلدان في الصلوات والطقوس الدينية. بالإضافة إلى ذلك، يتحدث بعض الكلدان اللهجة السريانية في حياتهم اليومية. غالبية الكلدان من المناطق الشمالية للعراق، وقد انتشروا مع الوقت في باقي المدن العراقية، ولا سيما العاصمة بغداد. هاجر معظم الكلدان والآشوريين (المسيحيين العراقيين) خارج العراق، وكانت وجهتهم بالأخص الولايات المتحدة الأمريكية.

(66) يطبخ الشيعة عادة في العاشر من شهر محرم، إما مرق القيمة النجفية، أو الهريسة، وأحياناً غيرها من الأكلات أيضاً، حيث يُطبخ الطعام في قدور عملاقة خارج المنازل، في الأحواش، أو في الشارع، ليتشارك الأهالي كلهم المساعدة في عملية الطبخ. ثم يوزع الطعام صباحاً على أهالي المنطقة والمناطق المجاورة، ثواباً على روح الحسين بن علي، وأصحابه الذين قتلوا في معركة الطف في كربلاء، يوم العاشر من محرم سنة 61 هجرية. (680م).

(67) فضّل سام عدم ذكر الجهة المتطرفة التي ينتمي إليها ذلك الشخص.